٣٥ درس

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة التوبة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة التوبة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر - سورة التوبة - المجلد السادس/ مؤسسة الدرر السنية -
القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٨هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة التوبة - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٩٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٩٦٥

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريدإلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة التوبة)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثامن

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ التوبة







سورةُ التَّوبةِ

أسماءُ السُّورةِ:

مِن أسماءِ هذه السُّورةِ[١]: التَّوبةُ[٢]، وبراءةُ[٣]، والفاضِحةُ[٤].

فعن سعيد بنِ جُبَير، قال: (قُلتُ لابنِ عبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما: سورةُ التَّوبةِ؟ قال: التَّوبةُ: الفاضِحةُ)[٥].

وعن البَراءِ رَضِيَ الله عنه، قال: (آخِرُ سُورةٍ نَزَلت سورةُ بَراءة)[٦].

وعن زيد بنِ ثابت رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (فتتَبَّعْتُ القُرآنَ حتى وجَدْتُ آخِرَ سُورةِ التَّوبةِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتِمةِ سُورةِ البراءةِ)[٧].

(١) وذُكر للسُّورةِ أسماء أُخرَى، يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٢).

(٢) وَجهُ تَسمِيَتِها بالتَّوبة: ذِكرُ لَفظِ التَّوبةِ فيها أكثَرَ مِن مَرَّةٍ، ولأنَّها ذَكَرَت توبةَ اللهِ تعالى على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا عن غَزوةِ تَبوك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٣) وَجهُ تَسمِيَتِها ببراءة: ذِكرُ لَفظِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ في أوَّلِها، ولأنَّها ذَكَرَت البراءةَ مِن المُشرِكينَ وعُهودِهم. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٤) ووجهُ تسميتِها بالفاضحةِ أنَّها فضَحت المنافقين، وأنبأَتْ بما في قلوبِهم مِن الكفرِ وسوءِ النِّيَّاتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (٤٣٦٤).

(٧) أخرجه البخاري (٧٤٢٥).

فَضلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- حَثُّ الصَّحابةِ على تعَلُّمِها:

كتب عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: (تعلَّمُوا سورةَ براءة، وعَلِّمُوا نساءَكم سُورةَ النُّور)[١].

٢- أنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ من القرآنِ:

عن البَراء بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (آخِرُ سُورةٍ أُنزِلَت: براءة)[٢].

٣- لا يُبدأُ فيها بـ(بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ) نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التَّوبةِ مَدَنيَّةٌ، ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك[٤].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (١٠٠٣).
وثَّق رجالَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (٨/ ٣٣٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه.

(٣) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: مكِّي، وأبو طاهرٍ المقرئُ، وابن الباذِش، وابنُ الجزري، والشِّربيني. يُنظر: ((التبصرة)) لمكي (ص ٢٤٨)، ((العنوان في القراءات السبع)) للمقرئ (ص: ٦٥)، ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن الباذش (ص: ٥٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥).
ونقَل ابنُ الباذشِ أنَّه رُوي عن أبي بكرٍ عن عاصمٍ أنَّه كان يكتبُ بينَ الأنفالِ والتوبةِ التَّسميةَ، وأنَّه يُروى ذلك عن زرٍّ عن ابنِ مسعودٍ، وأنَّه أثْبَته في مصحفِه، ثم قال: (ولا يُؤخَذُ بهذا).
فائدة:
قال ابنُ كثيرٍ: (وإنَّما لا يُبسمَلُ في أوَّلِها؛ لأنَّ الصَّحابةَ لم يكتُبوا البَسملةَ في أوَّلِها في المُصحَفِ الإمامِ، والاقتداءُ في ذلك بأميرِ المُؤمِنينَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠١). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣١٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٧٧).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك القرطبيُّ، والفيروزآبادي، والبِقاعي، والقاسميُّ، ومحمد رشيد

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ التَّوبةِ:

١- رسمُ المنهاجِ الذي يجبُ أن يسلكَه المؤمنون في علاقاتِهم مع المشركينَ، ومعَ أهلِ الكتابِ، ومعَ المنافقينَ(١).

٢- كشفُ الغطاءِ عن المنافقينَ وأصنافِهم وأوصافِهم، وفضحُ أفاعيلِهم في المجتمعِ المسلمِ(٢).

٣- بيانُ كثيرٍ مِن الأحكامِ والإرشاداتِ التي تحتاجُ إليها الدولةُ الناشئةُ(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولتْها سُورةُ التَّوبةِ:

١- البَراءةُ مِن المُشرِكينَ، والأمرُ بقِتالِهم، ونبذُ عُهودِهم، ومَنعُهم من دخولِ المَسجِدِ الحرامِ، والنَّهيُ عن مُوالاتِهم، ولو كانوا ذَوي قُربى.

رضا. يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

لكن قال ابنُ الجوزي؛ قال: (هي مدنيَّةٌ بإجماعِهم، سوى الآيتينِ اللَّتينِ في آخِرِها ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فإنَّها نزَلَت بمكَّةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠).

وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ إلَّا قَولَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ...﴾. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢١)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٦٦) (٢٨/ ٤٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩٣).

٢- الإشارةُ إلى وَقعةِ حَربِ حُنَينٍ، وتربيةُ نُفوسِ المؤمنينَ بِصِدقِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى.

٣- إعلانُ الحَربِ على أهلِ الكِتابِ مِن العَرَبِ؛ حتى يُعطُوا الجِزيةَ، وأنَّهم ليسُوا بَعيدًا مِن أهلِ الشِّركِ، وأنَّ الجَميعَ لا تنفَعُهم قُوَّتُهم ولا أموالُهم، وتقبيحُ قَولِ اليَهودِ والنَّصارى في حَقِّ عُزَيرٍ وعِيسى عليهما السَّلامُ، وتأكيدُ رِسالةِ الرَّسولِ الصَّادِقِ المُحِقِّ، وعيبُ أحبارِ اليَهودِ في أكْلِهم الأموالَ بالباطِلِ.

٤- حُرمةُ الأشهُرِ الحُرُمِ، وضَبطُ السَّنَةِ الشَّرعيَّةِ، وإبطالُ النَّسيءِ الذي كان عند الجاهليَّةِ.

٥- الحَثُّ على الجِهادِ والنَّفيرِ العامِّ في سبيلِ اللهِ بالأموالِ والأنفُسِ، وعَدَمُ الرُّكونِ إلى الدُّنيا وزِينَتِها.

٦- نُصرةُ الله سبحانه وتعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصاحِبِه الصِّدِّيقِ، وحِفظُه لهما مِن أعيُنِ الكُفَّارِ.

٧- ذِكرُ أوصافِ المُنافِقينَ، ودسائسِهم الماكِرةِ، وذِكرُ أذاهُم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ والفِعلِ، وأيمانِهم الكاذِبةِ، وأمرِهم بالمُنكَرِ ونَهيِهم عن المَعروفِ، وكَذِبِهم في عُهودِهم وسُخرَيتِهم بضُعَفاءِ المُؤمِنينَ، والأمر بجِهادِهم، والنَّهي عن الاستعانةِ بهم، ونَهْي النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الاستغفارِ لأحيائِهم، وعن الصَّلاةِ على أمواتِهم، وعَيب المُقَصِّرينَ على اعتذارِهم بالأعذارِ الباطلةِ.

٨- ذَمُّ الأعرابِ في صلابَتِهم، وتمسُّكِهم بالدِّينِ الباطِلِ، ومَدحُ بَعضِهم بصَلابَتِهم في دِينِ الحَقِّ.

٩- ذِكرُ السَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، وفَضلِهم، وذِكرُ المُعترِفينَ

بِتَقصيرِهم، وقَبولِ الصَّدَقاتِ مِن الفُقَراءِ، وقَبول تَوبةِ التَّائبينَ.

١٠- ذِكرُ بِناءِ مَسجِدِ الضِّرارِ للغَرَضِ الفاسِدِ، ومَكرِ المُنافِقينَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه.

١١- ذِكرُ بناءِ مَسجِدِ قُباءٍ على الطَّاعةِ والتَّقوى، وأنَّه أولى أن يقومَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٢- مُبايعةُ الحَقِّ تعالى عَبيدَه باشتِراءِ أنفُسِهم وأموالِهم، ومُعاوَضتهم عن ذلك بالجنَّةِ.

١٣- النَّهيُ عن الاستغفارِ للمُشرِكينَ.

١٤- قَبولُ تَوبةِ المُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوك.

١٥- النَّفيرُ لِطَلَبِ العِلمِ والتَّفقُّهِ في دينِ الله تعالى، وتَبليغِ الدِّينِ.

١٦- الامتنانُ على المسلمينَ بأن أرسَلَ فيهم رسولًا منهم، جَبَلَه على صِفاتٍ فيها كلُّ خَيرٍ لهم، وأمْرُ اللهِ نَبِيَّه بالتوكُّلِ عليه في جَميعِ أحوالِه.



الآيتان (١ - ٢)

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرَآءَةٌ﴾: أي: تَبَرُّؤٌ وقَطعٌ للمُوالاةِ والعِصمةِ والأمانِ، وأصلُ (برء): يدلُّ على التباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه[(١)].

﴿فَسِيحُوا۟﴾: أي: فَسِيروا واذهَبُوا، وأصلُ (سيح): يدلُّ على استمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ فنقضوا عهدهم، فَسِيرُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في الأرضِ أربعةَ أشهُرٍ- هي مدةُ الإمهالِ- أينَما شِئتُم آمِنينَ، لا يَنالُكم مِن المُسلِمينَ سُوءٌ، واعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عِقابِه إن أرادَه بكم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ.

تَفسيرُ الآيَتينِ:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٣).

أي: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ[١].

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

أي: فَسِيرُوا واذهَبُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في أرضِ اللهِ أينَما شِئتُم، آمِنينَ مُدَّةَ أربعةِ أشهُرٍ، لا يَنالُكم فيها مِن المُسلِمينَ سُوءٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٤٥).
قال ابنُ جريرٍ: (العهودُ بين المُسلِمينَ والمُشركينَ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُن يتولَّى عَقدَها إلَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو من يَعقِدُها بأمرِه، ولكنَّه خاطَبَ المؤمنينَ بذلك لِعلمِهم بمعناه، وأنَّ عُقودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه كانت عُقودَهم؛ لأنَّهم كانوا لكُلِّ أفعالِه فيهم راضينَ، ولعقوده عليهم مُسَلِّمين، فصار عَقْدُه عليهم كعُقودِهم على أنفُسِهم؛ فلذلك قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لِمَا كان مِن عَقدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعَهدِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤، ٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٠).
قال ابنُ عطية: (وأوَّلُ هذا الأجَلِ: يومُ النَّحرِ، وآخِرُه: يومُ العاشِرِ مِن ربيع الآخر). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤-٥)، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨١-٨٨٢).
وقال الشنقيطي: (محلُّ ذلك إنَّما هو في أصحابِ العُهودِ المُطلَقةِ غيرِ المُوَقَّتةِ بوقتٍ مُعَيَّنٍ، أو من كانت مُدَّةُ عَهدِه المُوَقَّتِ أقلَّ مِن أربعة أشهُرٍ، فتكمُلُ له أربعةُ أشهرٍ، أمَّا أصحابُ العُهودِ المُوَقَّتةِ الباقي مِن مُدَّتِها أكثَرُ مِن أربعةِ أشهُرٍ، فإنَّه يجِبُ لهم إتمامُ مُدَّتِهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم إن اختَرْتُم الاستمرارَ على الكُفرِ في مُدَّةِ عَهْدِكم- وأنتم آمِنونَ فيها مِن المُسلِمينَ- غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ إن أرادَه بكم؛ فأنتُم على أرضِه وفي سُلطانِه، وتَحتَ قُدرَتِه، فبادِرُوا بالتَّوبةِ(١).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

الفوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ فيه ضَمانٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ بِنَصرِه المُؤمِنينَ على الكافِرينَ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ افتُتِحَت السُّورةُ- كما تُفتَتَحُ العُهودُ وصُكوكُ العُقودِ- بأدَلِّ كَلِمةٍ على الغَرَض الذي يُرادُ منها، كما في قَولِهم: هذا ما عَهِدَ به فلانٌ، وهذا ما اصطَلَحَ عليه فُلانٌ وفُلانٌ، وقَولِ المُوَثِّقينَ: باع أو وكَّل أو تزوَّجَ، وذلك هو مقتضى الحالِ في إنشاءِ الرَّسائِلِ والمواثيقِ ونَحوِها(٤).

٢- قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٢).

أعلَنَ اللهُ لِهَؤلاء هذه البَراءةَ؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، وفي ذلك تضييقٌ عليهم إن داموا على الشِّركِ؛ لأنَّ الأرضَ صارَت لأهلِ الإسلام، كما دلَّ عليه قولُه تعالى بَعدُ: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾[1] [التوبة: ٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بهذا السَّيرِ مُفرَّعًا على البراءةِ مِن العَهدِ، ومُقرِّرًا لِحُرمةِ الأشهُرِ الحُرُم؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ السَّيرُ بأمنٍ دُونَ خَوفٍ في أيِّ مكانٍ مِن الأرضِ، وليس هو سَيرَهم في أرضِ قَومِهم؛ دلَّ على ذلك إطلاقُ السِّياحةِ وإطلاقُ الأرضِ، فكان المعنى: فَسِيحُوا آمِنينَ حيثُما شِئتُم من الأرضِ[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أنذَرَ المُعاهَدينَ في مُدَّةِ عَهدِهم، أنَّهم وإن كانوا آمِنينَ، فإنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ ولن يَفُوتُوه، وأنَّه مَن استمَرَّ منهم على شِركِه فإنَّه لا بُدَّ أن يُخزِيَه، فكان هذا ممَّا يَجلِبُهم إلى الدُّخولِ في الإسلامِ، إلَّا مَن عاند وأصَرَّ، ولم يُبالِ بِوَعيدِ اللهِ له[3].

٥- المقصودُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أمورٌ: الأولُ: أن يتفكَّروا لأنفُسِهم ويَحتاطوا في هذا الأمرِ. والثاني: لئلَّا يُنسَبَ المُسلِمونَ إلى نكثِ العَهدِ. والثالث: أراد اللهُ أن يعُمَّ جميعَ المُشركينَ بالجهادِ، فعَمَّ الكُلَّ بالبراءةِ، وأجَّلَهم أربعةَ أشهُرٍ؛ وذلك لقُوَّةِ الإسلامِ، وتخويفِ الكُفَّارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

ولا يصِحُّ ذلك إلَّا بنَقْضِ العُهودِ. والرابع: أراد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحُجَّ في السَّنةِ الآتيةِ، فأمَرَ بإظهارِ هذه البَراءةِ؛ لئلَّا يُشاهِدَ العُراةَ(١).

٦- في قَول اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ لَمَّا كانت السِّياحةُ تُطلَقُ على غيرِ السَّيرِ، حقَّقَ المعنى بِقَولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا كان الإسلامُ قد ظهَرَ بعد أن كان خَفِيًّا، وقَوِيَ بعد أن كان ضعيفًا، افتتَحَ تعالى وَعْظَهم بالكلمةِ التي تُقالُ أوَّلًا لِمَن يُرادُ تَقريعُ سَمْعِه وإيقاظُ قَلْبه، وتَنبيهُه على أنَّ ما بَعدَها أمرٌ مُهِمٌّ، ينبغي مَزيدُ الاعتناءِ به، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ﴾(٣).

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه إيثارُ الجُملةِ الاسميَّة على الفِعليَّة- فلم يُعبَّر بالجُملةِ الفِعليَّة، كأنْ يُقال: (قد بَرِئَ اللهُ ورسولُه من الذين .. أو نحوُ ذلك)-؛ للدَّلالةِ على دَوامِ هذه البَراءةِ واستمرارِها، وللتَّوسُّل إلى تَهويلِها بالتنوينِ التَّفخيميِّ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه تلوينُ الخِطابِ بصَرْفه عن المُسلِمينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).

وتَوجيهِه إلى المُشرِكينَ مع حُصولِ المقصودِ بصِيغةِ أَمْرِ الغائبِ (فَلْيَسيحوا) أيضًا؛ للمُبالغةِ في الإعلامِ بالإمهالِ حسْمًا لمادةِ تَعلُّلِهم بالغفلةِ، وقطعًا لشأفةِ اعْتِذارهم بعدمِ الاستعدادِ(١)، وهو التفاتٌ من غَيْبةٍ إلى خطابٍ، وفي ضِمنِه تهديدٌ(٢).

- وإيثارُ صيغةِ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع تَسنِّي إفادةِ ذلك المعنى بطريقِ الإخبارِ أيضًا- كأن يُقال مثلًا: فلكم أنْ تَسيحوا، أو نحو ذلك-؛ لإظهارِ كَمالِ القُوَّةِ والغَلَبةِ، وعَدمِ الاكْتِراثِ لهم ولاستعدادِهم، فكأنَّ ذلك أمْرٌ مَطلوبٌ منهم(٣).

- وذُكِر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّعميمِ لأقطارِ الأرضِ من دارِ الإسلامِ وغيرِها(٤).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه وضْعُ الاسمِ الجَليلِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُل: (وأنَّه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَهويلِ أمْرِ الإخزاءِ، وهو الإذلالُ بما فيه فضيحةٌ وعارٌ، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ أيضًا في قولِه: ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾- حيثُ لم يَقُلْ: (وأنَّ اللهَ مُخْزيكم)-؛ لذمِّهم بالكفرِ بعدَ وصْفِهم بالإشراكِ، والإشعارِ بأنَّ عِلَّةَ الإخزاءِ هي كُفرُهم(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤١).

الآيتان (٢ - ٤)

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأَذَٰنٌ ﴾: أي: إعلامٌ، وأصلُ (أذن): يدلُّ على العِلمِ والإعلامِ[1].

﴿يُظَٰهِرُواْ ﴾: أي: يُعاوِنوا ويُعِينوا، والظَّهيرُ: العَوْنُ، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾

﴿وَرَسُولُهُۥ ﴾: مرفوعٌ على أنَّه مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿بَرِيٓءٌ ﴾ وجاز ذلك العَطفُ للفَصلِ بـ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾؛ فهو مسوِّغٌ للعَطفِ؛ لِأنه يقومُ مقامَ التَّوكيدِ، أو مَرفوعٌ على أنه مُبتَدأٌ، والخَبَرُ مَحذوفٌ، أي: ورَسولُه بَريءٌ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

حُذِفَ للدَّلالةِ عليه. وقيل غيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وهذا إعلامٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ النَّحرِ بأنَّ اللهَ بَريءٌ مِن عُهودِ المُشرِكينَ، ورسولُه كذلك بريءٌ منها، فإن تُبتُم- أيُّها المُشرِكونَ- فهو خيرٌ لكم، وإن أعرَضْتُم فاعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عقابِه، وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- الكافرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ.

ثمَّ استثنى اللهُ ممَّا بَرِئَ منه هو ورَسولُه مِن عُهودِ الكُفَّارِ بعضَ المُعاهَدينَ الذين عاهَدَهم المُؤمِنونَ، ثمَّ وَفَوْا بعُهودِهم مع المُؤمِنينَ، ولم ينقُصوهم شيئًا من ذلك، وأمَرَ المؤمنينَ أن يُؤَدُّوا إليهم عَهدَهم إلى أنْ تَنتهِيَ المُدَّةُ التي اتَّفَقوا عليها؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقينَ الذين يَفُونَ بِعُهودِهم ولا يَنقُضونَها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ ﴾.

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: وهذا إعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٧).

النَّحرِ[١] بأنَّ اللهَ بريءٌ من عهودِ المُشركين، ورسولُه بريءٌ منها كذلك[٢].

عن حُميد بنِ عبد الرَّحمن بن عَوف، أنَّ أبا هريرةَ رَضيَ اللهُ عنه قال: ((بعثَني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مؤذِّنينَ بَعَثَهم يومَ النَّحرِ يُؤَذِّنونَ بمِنًى: ألَّا يُحَجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ، قال حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ: ثمَّ أردَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وأمَرَه أن يُؤَذِّنَ ببَراءةَ، قال أبو هريرةَ: فأذَّنَ معنا عليٌّ يومَ النَّحرِ في أهلِ مِنًى ببَراءةَ، وألَّا يحُجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ))[٣].

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحةِ عندنا: قولُ من قال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ يومُ النَّحرِ؛ لتَظاهرِ الأخبارِ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ عَلِيًّا نادَى بما أرسَلَه بِه رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الرِّسالَةِ إلى المشرِكينَ، وتَلا عليهم براءَةَ يومَ النَّحْرِ. هذا معَ الأخبارِ الَّتي ذكَرْناها عن رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال يومَ النَّحْرِ: أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ. وبعدُ: فإنَّ اليومَ إنَّما يضافُ إلى معنَى الَّذي يكونُ فيه، و... يومُ الحجِّ، يومٌ يحجُّونَ فيه. وإنَّما يَحُجُّ النَّاسُ ويَقْضونَ مَناسكَهم يومَ النَّحرِ؛ لأنَّ في ليلةِ نهارِ يومِ النَّحرِ الوقوفَ بعرفةَ كان إلى طلوعِ الفجرِ، وفي صَبيحتِها يُعْمَلُ أعمالُ الحجِّ، ... والحجُّ كُلُّه يومَ النَّحرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جرير أيضًا: (الحجُّ الأكبَرُ: الحَجُّ؛ لأنَّه أكبَرُ من العمرة؛ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِها... وأمَّا الأصغَرُ فالعُمرةُ؛ لأنَّ عَمَلَها أقلُّ مِن عَمَلِ الحَجِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٩).

وقيل في معنَى الحجِّ الأكبرِ، وسببِ تسميتِه غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٦، ٣٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣).

قال السعدي: (أمَرَ النَّبيُّ مُؤَذِّنَه أن يُؤذِّنَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ النَّحرِ، وقتَ اجتماعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، من جميعِ جزيرةِ العَرَبِ، أن يُؤذِّنَ بأنَّ اللهَ بريءٌ ورسولُه مِن المشركينَ، فليس لهم عنده عهدٌ وميثاقٌ، فأينما وُجِدوا قُتِلوا، وقيل لهم: لا تَقرَبوا المسجِدَ الحَرامَ بعد عامِكم هذا، وكان ذلك سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ، وحجَّ بالنَّاسِ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه، وأذَّنَ ببَراءةَ- يومَ النَّحرِ- ابنُ عَمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٣٤٧).

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

أي: فإن تُبتُم مِن كُفرِكم - أيُّها المُشرِكونَ - فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ(١).

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾.

أي: وإن أعرَضْتُم - أيُّها المُشرِكونَ - عن الإيمانِ وطاعةِ اللهِ ورَسولِه، وثبَتُّم على كُفرِكم؛ فأيقِنُوا أنَّكم غيرُ فائتِينَ مِن عِقابِ اللهِ؛ فأنتم تحتَ قَهرِه وقُدرَتِه(٢).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وبَشِّرْ - يا مُحمَّدُ - الكافِرينَ بعذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ، يُصيبُهم في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أعلَمَهم اللهُ تعالى بالبَراءةِ، وبالوَقتِ الذي يؤَذَّنُ بها فيه، وكان معنى البَراءةِ منهم أنَّه لا عَهدَ لهم؛ استثنى بعضَ المُعاهَدينَ(٤)، فقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٩).

أي: هذه البراءةُ التَّامَّةُ المُطلَقةُ مِن جَميعِ المُشرِكينَ إلَّا مَن عاهَدْتُموهم[١]- أيُّها المُؤمِنونَ- ثمَّ لم يَنقُصوكم شيئًا ممَّا عاهَدْتُموهم عليه، ولم يُعِينوا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم[٢].

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾.

أي: فأَوفُوا- أيُّها المؤمنونَ- إلى هؤلاء المُشرِكينَ، العَهدَ الذي بينكم وبَينَهم ولا تَنقُضُوه، إلى انتهاءِ المُدَّةِ التي اتَّفَقتُم عليها[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه ويجتَنِبونَ مَعاصِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بِعُهودِهم ولا يَنقُضونَها[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ التَّرغيبُ في التَّوبةِ، والإقلاعِ

---

(١) قال ابنُ كثير: (هذا استثناءٌ مِن ضَربِ مُدَّةِ التَّأجيلِ بأربعةِ أشهُرٍ، لِمَن له عهدٌ مُطلَقٌ ليس بمؤقَّتٍ، فأجَلُه أربعةُ أشهُرٍ، يسيحُ في الأرضِ، يذهَبُ فيها لينجوَ بِنَفسِه حيث شاء، إلَّا مَن له عهدٌ مُؤَقَّتٌ، فأجَلُه إلى مُدَّتِه المضروبةِ التي عُوهِدَ عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى وَصَفَهم بأمرَينِ: أحدُهما: قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ والثاني: قولُه: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ والأقربُ أن يكونَ المرادُ مِن الأوَّلِ أن يُقْدِموا على المُحارَبةِ بأنفُسِهم، ومن الثَّاني: أن يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ ويَنصُروهم ويُرَغِّبوهم في الحَربِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

عن الشِّركِ الموجِبِ لِكَونِ اللهِ ورَسولِه مَوصُوفَينِ بالبراءةِ منه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ليس تكرارًا لِقَولِه السَّابق: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المَقصودَ مِن الكَلامِ الأوَّلِ الإخبارُ بِثُبوتِ البَراءةِ. والمقصودَ مِن هذا الكَلامِ إعلامُ جَميعِ النَّاسِ بما حصَلَ وثَبَت.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ مِن الكلامِ الأوَّلِ البَراءةُ مِن العَهدِ. ومِن الكلامِ الثَّاني البراءةُ التي هي نقيضُ المُوالاةِ الجاريةِ مَجرى الزَّجرِ والوَعيدِ، والذي يدلُّ على حصولِ هذا الفَرقِ أنَّ في البراءةِ الأولى: بَريءٌ إليهم، وفي الثَّانية: بَريءٌ منهم.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّه تعالى في الكَلامِ الأوَّلِ أظهَرَ البراءةَ مِن المشركينَ الذين عاهَدُوا ونَقَضوا العَهدَ، وفي هذه الآيةِ أظهَرَ البراءةَ من المُشركينَ مِن غيرِ أنْ يصِفَهم بوصفٍ مُعَيَّنٍ؛ تنبيهًا على أنَّ المُوجِبَ لهذه البراءةِ كُفرُهم وشِركُهم[٢].

٢- إضافةُ الأذانِ إلى اللهِ ورَسولِه دون المُسلِمينَ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأنَّه تَشريعٌ وحُكمٌ في مَصالحِ الأمَّةِ، فلا يكونُ إلَّا مِن اللهِ على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الإبلاغَ الذي هو وظيفةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٨).

الرَّسولِ، عدَّاه بحرفِ الانتهاءِ فقال: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: كُلِّهم[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ جاء بَعدَه قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليسَ بتَكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ للمَكانِ، والثَّاني للزَّمانِ، وَقد تقدَّم ذِكرُهما في قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّ العَهدَ المؤقَّتَ لا يجوزُ نَقضُه إلَّا بانتهاءِ وَقتِه، وأنَّ شَرْطَ وُجوبِ الوَفاءِ به علينا، مُحافظةُ العَدُوِّ المُعاهِدِ لنا عليه بحذافيرِه؛ مِن نَصِّ القَولِ وفَحواه ولَحْنِه، فإنْ نقضَ شيئًا ما مِن شُروطِ العَهدِ، وأخَلَّ بغَرَضٍ ما من أغراضِه، عُدَّ ناقِضًا له؛ إذ قال: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ ولفظُ شَيءٍ أعَمُّ الألفاظِ، وهو نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فيَصدُقُ بأدنى إخلالٍ بالعَهدِ[٣].

٦- مِن شُروطِ العَهدِ التي ينتقِضُ بالإخلالِ بها، عَدَمُ مُظاهرةِ أحدٍ مِن أعدائِنا وخُصومِنا علينا، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾، وقد صرَّحَ بهذا للاهتمامِ به، فهو يدخُلُ في عُمومِ ما قَبلَه[٤].

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).

بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عُلِّقتِ البراءةُ بالذين عُوهِدوا من المشركينَ، وعُلِّق الأذانُ بالنَّاسِ؛ لأنَّ البَراءةَ مُختصَّةٌ بالمعاهَدين والناكِثين منهم، وأمَّا الأذانُ فعامٌّ لجميعِ النَّاسِ؛ مَن عاهَد ومَن لم يُعاهِدْ، ومَن نَكَث من المعاهَدين ومَن لم يَنكُثْ[(١)].

- وجاء التَّصريحُ بفعلِ البراءةِ مَرَّةً ثانيةً دونَ إضمارٍ ولا اختصارٍ - بأن يُقال: (وأذانٌ إلى النَّاس بذلك، أو بها، أو بالبراءة)- لأنَّ المقامَ مَقامُ بيانٍ وإطنابٍ؛ لأجلِ اختلافِ أفهامِ السَّامعين فيما يَسمَعونَه؛ ففيهم الذَّكيُّ والغبيُّ، ففي الإطنابِ والإيضاحِ قَطعٌ لمعاذيرِهم، واستِقصاءٌ في الإبلاغِ لهم[(٢)].

- قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ فيه التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لِزيادةِ التَّهديدِ والتَّشديدِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جُعِل الإنذارُ بِشارةً على سَبيلِ الاسْتِهزاء بهم، وفي هذا وعيدٌ عظيمٌ بما يَحِلُّ بهم[(٤)].

- وقولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أيضًا فيه تَلوينٌ للخطابِ، وصَرْفٌ له عنهم إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ البِشارةَ بعذابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٠).

أليمٍ، وإنْ كانتْ بطريقِ التهكُّمِ، إنَّما تليقُ بمَن يقِفُ على الأَسرارِ الإلهيَّةِ(١).

٢- **قولُه تعالى:** ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ فيه ذِكْرُ كَلِمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ للمُبالغةِ في نفْيِ الانْتِقاصِ؛ لأنَّ كلمة (شَيء) نَكِرةٌ عامَّةٌ، فإذا وقعتْ في سِياقِ النَّفيِ أفادتِ انتفاءَ كلِّ ما يَصدُقُ عليه أنَّه موجودٌ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ في معنى التَّعليلِ للأمرِ بإتمامِ العَهدِ إلى الأجَلِ بأنَّ ذلك من التَّقوى، أي: مِن امْتِثالِ الشَّرعِ الذي أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ الإخبارَ بمحبَّةِ اللهِ المتقين عقِبَ الأمرِ كنايةٌ عن كونِ المأمورِ به من التَّقوى(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٥ - ٦)

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿ٱنسَلَخَ﴾: أي: انقضَى ومَضَى وخرَج، وأصلُ (سلخ): يدلُّ على إخراجِ الشَّيءِ عَن جِلدِه؛ مِن: سَلَخْتُ جِلدَ الشَّاةِ سَلخًا[(١)].

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾: أي: احبِسُوهم، وامنَعوهم، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حبسٍ ومَنعٍ[(٢)].

﴿مَرْصَدٍ﴾: أي: طَريقٍ ومَرقَبٍ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤِ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[(٣)].

﴿فَخَلُّوا۟﴾: أي: اتركُوهم، ولا تتعَرَّضوا لَهُم، وأصلُ (خلو): يدلُّ على تعَرِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢، ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥).

الشَّيءِ من الشَّيءِ[١].

﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾: أي: استأمَنَك، وسأل جِوارَك، أي: أمانَك وذِمامَك [٢].

﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾: أي: دارَ قَومِه، والموضِعَ الذي يأمَنُ فيه، وأصلُ الأمنِ: يدلُّ على طُمأنينةِ النَّفسِ، وزوالِ الخَوفِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه أن يَقتُلوا المُشرِكينَ في أيِّ مَكانٍ وَجَدوهم، بعد أن تَنقَضيَ الأشهُرُ الحُرُمُ، وأن يأخُذُوهم أسرَى، ويُضَيِّقُوا عليهم، ويمنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليهم، ويُحاصِرُوهم، ويَقعُدوا لِقَتلِهم وأسْرِهم بكلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ به، فإن تابُوا وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وَجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ لِمُستحِقِّيها، فأمَرَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ أن يترُكوهم، ولا يتعَرَّضوا لهم؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثم أمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعطِيَ الأمانَ كُلَّ مَن استأمَنَه مِن المُشرِكينَ الذين أُمِرَ بقتالِهم، حتى يسمَعَ القُرآنَ، ثمَّ إنْ لم يُسلِمْ فَلْيترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها؛ ذلك بأنَّهم قَومٌ لا يَعلمونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أمْرَ البراءةِ مِن المُشركينَ إثباتًا ونفيًا؛ أمَرَ بما يُصنَعُ بعد ما ضَرَبَه لهم مِن الأجَلِ (١)، فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، وقيل: هي محكمةٌ (٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٠).

(٢) قال النحَّاس: (للعُلَماءِ في هذه الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ فمنهم من قال: هي منسوخةٌ، وقال: لا يحِلُّ قَتلُ أسيرٍ صَبرًا، وإنَّما يُمَنُّ عليه أو يُفادى، وقالوا: الناسِخُ لها قَولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] فمِمَّن قال هذا: الحسَنُ... وهذا قولُ الضحَّاك، والسُّدِّي... وهو قولُ عطاء... ومِن العلماءِ من قال: لا يجوز في الأُسارى من المشركين إلَّا القتلُ، ولا يجوز أن يؤخَذَ منهم فِداءٌ، ولا يُمَنُّ عليهم، وجعَلوا قولَه تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] ناسخًا لقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] وهذا قولُ قتادة ومرويٌّ عن مجاهد... والقول الثالث: أنَّ الآيتين جميعًا مُحكَمتانِ، وهو قولُ ابنِ زيد، وهو قول صحيحٌ بيِّنٌ؛ لأنَّ إحداهما لا تنفي الأُخرَى، قال جلَّ وعز: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] أي: وخُذوهم أَسرى للقتلِ أو الْمَنِّ أو الفِداء، فيكونُ الإمامُ ينظرُ في أمورِ الأُسارى على ما فيه الصَّلاحُ؛ مِن القتل أو المَنِّ أو الفِداء، وقد فعل هذا كلَّه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حروبِه). ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٤٩٣-٤٩٤)، ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي(٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهذه الآيةُ هي آيةُ السَّيفِ، فمن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّها ناسخةٌ لجميع الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ من المشركين، ومنهم من ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلفُ، فإذا قوِيَ المسلمون وصارت لهم السُّلطة والقُوَّة والهيبة استعمَلوا آيةَ السيف وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمون ولم يقوَوا على قتالِ الجميعِ،

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾.

أي: فإذا انقضَتِ الأشهُرُ الحُرُمُ[١]، فاقتُلوا المُشرِكينَ[٢] أينَما لَقِيتُموهم من الأرضِ[٣].

فلا بأسَ أن يقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمرُ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسب القوَّة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ ينظُرُ للمسلمين وينظرُ لحالهم وقوَّتِهم.

قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) قيل: المُرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: الأشهُرُ التي جعَلَها اللهُ لِلمُشركينَ يَسيحونَ في الأرضِ آمنينَ، لا يُقاتِلُهم المُسلِمونَ فيها، وأوَّلُها: يومُ إعلامِهم بالبَراءةِ؛ يوم النَّحرِ: العاشِر مِن ذي الحِجَّةِ مِن السَّنةِ التَّاسعةِ، وآخِرُها: العاشِرُ مِن ربيعِ الآخر من السَّنة العاشرةِ للهجرةِ.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ والشنقيطيُّ. ونسبه ابنُ تيميَّة إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((الصفدية)) (٢/ ٣٢٠)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٧٥)، ((زاد المعاد)) (٣/ ١٤٤، ١٤٥)، ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال الشنقيطي: (وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ العوفِيِّ عنه وبه قال مجاهدٌ وعمرُو بنُ شعيبٍ ومحمدُ بنُ إسحاقَ وقتادةُ وَالسُّدِّيُّ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ هذه الأشهُرَ هي التي أُبيحَ للنَّاكثينَ أن يَسيحوا فيها، ووُصِفَت بالحُرُمِ؛ لأنَّها مُحرَّمٌ فيها القِتالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧١).

وقيل: المرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: ذو القَعدةِ وذو الحِجَّة ومُحَرَّم، والمعنى: فإذا انقضى شَهرُ مُحَرَّم فاقتلوا المُشركينَ حيث لَقِيتُموهم، وهذا اختيارُ ابن جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ مُشرِكٍ، لكنَّ السُّنَّةَ خَصَّت منه المرأةَ والراهبَ والصبيَّ وغيرَهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١).

﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

أي: وخُذوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ أسرَى، وضيِّقوا عليهم، وامنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليكم، وحاصِروهم إن تحَصَّنوا، واقعُدوا لِقَتلِهم أو أسْرِهم على كلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ منه(١).

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم من الصَّلَواتِ؛ بالإتيانِ بها على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ مُستحقِّيها؛ فاترُكوا- أيُّها المُسلِمونَ- طَريقَهم، لا تقعُدُوا عليها، ودَعُوهم يذهبونَ حيثما يَشاؤونَ، دون أن تتعَرَّضوا لهم(٢).

عن ابنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيموا

قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ هي آيةُ السَّيفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٢).

وقد اختلف العلماءُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هل هي ناسخةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١] على قولين:

فذهب الجمهورُ، ومنهم ابنُ جريرٍ، إلى أنَّ آيةَ السيفِ ناسخةٌ لآيةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).

وقيل: الآيةُ محكمةٌ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ الجوزي- ونسَبه إلى مجاهدٍ والمحققين- والقرطبيُّ، ونسَبه لطاوس وأبي حنيفةَ وأصحابِه. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) (١/ ٢٥١- ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٦).

الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غَفورٌ لِمَن تاب مِن عِبادِه، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أنْ وفَّقَهم للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ولا يُعاقِبُهم بعدها[٢].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنِ استأمَنَك- يا محمَّدُ- أحدٌ مِن المُشرِكينَ الذين أمرتُك بقِتالِهم، فأمِّنْه حتى[٣] تتلوَ عليه القرآنَ، ويسمعَه، ويفهمَ ما أُنزِل عليك؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِن أمرِه، وتقومَ عليه حُجَّةُ اللَّهِ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٣١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٨).

(٣) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنَى (إلى)، أي: إلى أن يَسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

وبعضُهم جعَلَها للتَّعليلِ. أي: لكي يسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال الرازي: (ليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ مِقدارَ هذه المُهلةِ كم يكونُ، ولعَلَّه لا يُعرَفُ مِقدارُه إلَّا بالعُرفِ، فمتى ظهَرَ على المُشرِك علاماتُ كَونِه طالِبًا للحَقِّ، باحثًا عن وجهِ الاستدلالِ، أُمهِلَ وتُرِكَ، ومتى ظهَرَ عليه كونُه مُعرِضًا عن الحَقِّ، دافعًا للزَّمانِ بالأكاذيبِ، لم يُلتَفَتْ إليه. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣١)، ((تفسير

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

أي: ثم إنْ لم يُسلِمْ، فاترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها[1].

القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال ابن عاشور: (لم يُبيِّنْ سببَ الاستجارةِ؛ لأنَّ ذلك مُختلِفُ الغَرَضِ، وهو موكولٌ إلى مقاصِدِ العُقَلاءِ؛ فإنَّه لا يستجيرُ أحَدٌ إلَّا لغَرَضٍ صحيحٍ. ولمَّا كانت إقامةُ المُشرِك المستجيرِ عند النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ لا تخلو من عَرْضِ الإسلامِ عليه، وإسماعِه القُرآنَ- سواءٌ كانت استجارتُه لذلك أم لِغَرَضٍ آخرَ؛ لِما هو معروفٌ من شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الحِرصِ على هُدَى النَّاسِ- جُعل سَماعُ هذا المُستجيرِ القُرآنَ غايةً لإقامَتِه الوقتيَّةِ عند الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدلَّت هذه الغايةُ على كلامٍ محذوفٍ إيجازًا، وهو ما تشتَمِلُ عليه إقامةُ المستجيرِ مِن تفاوُضٍ في مُهِمٍّ، أو طلَبِ الدُّخولِ في الإسلامِ، أو عَرْضِ الإسلام عليه، فإذا سَمِعَ كَلامَ الله فقد تمَّت أغراضُ إقامَتِه؛ لأنَّ بَعضَها من مَقصِدِ المُستجيرِ وهو حَريصٌ على أن يبدأَ بها، وبعضَها مِن مَقصِدِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو لا يترُكُه يعودُ حتى يعيدَ إرشادَه، ويكونَ آخِرَ ما يدورُ معه في آخِرِ أزمانِ إقامَتِه إسماعُه كلامَ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٨، ١١٩).

وقال ابن كثير: (ومِن هذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الأمانَ لِمَن جاءَه مُسترشِدًا أو في رسالةٍ، كما جاءَه يومَ الحُدَيبيَةِ جماعةٌ مِن الرُّسُلِ مِن قُرَيشٍ؛ منهم: عُروةُ بن مسعودٍ، ومِكْرَزُ بنُ حَفصٍ، وسُهيلُ بنُ عَمرٍو، وغيرُهم واحدًا بعد واحدٍ، يتردَّدونَ في القضيَّةِ بينه وبين المشركين، فرَأَوْا من إعظامِ المُسلِمينَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما بَهَرَهم، وما لم يُشاهِدوه عند ملِكٍ ولا قَيصرٍ، فرَجَعوا إلى قَومِهم فأخبَرُوهم بذلك، وكان ذلك وأمثالُه من أكبَرِ أسبابِ هِدايةِ أكثَرِهم... والغرَضُ أنَّ مَن قَدِمَ من دار الحَربِ إلى دار الإسلامِ في أداءِ رِسالةٍ أو تجارةٍ، أو طلَبِ صُلحٍ أو مُهادنةٍ، أو حمْلِ جزيةٍ، أو نحوِ ذلك من الأسبابِ، فطلَبَ مِن الإمامِ أو نائِبِه أمانًا؛ أُعطِيَ أمانًا ما دام متردِّدًا في دار الإسلامِ، وحتى يرجِعَ إلى مأمَنِه ووطَنِه. لكِن قال العلماءُ: لا يجوزُ أن يُمكَّنَ مِن الإقامةِ في دارِ الإسلامِ سَنةً، ويجوزُ أن يُمكَّنَ من إقامةِ أربعةِ أشهُرٍ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعةِ أشهُرٍ ونقَصَ عن سنةٍ قَولانِ، عن الإمامِ الشافعيِّ وغيرِه من العُلَماءِ- رَحِمَهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣- ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أمْهِلْه ولا تُهيِّجْه، حتى يبلُغَ مأمَنَه، فلمَّا كان تأمينُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه سببًا في بلوغِه مأمَنَه، جعَلَ التأمينَ إبلاغًا، فأمر به النبيَّ عليه الصَّلاةُ

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: أعطِ- يا مُحَمَّدُ- المُشركينَ الأمانَ، حتى يسمَعُوا القرآنَ؛ مِن أجلِ أنَّهم قومٌ جَهَلَةٌ لا يَعلمونَ دِينَ اللهِ وثَوابَه وعِقابَه، فيحصُلَ لهم العِلمُ بِسَماعِه، وتقومَ عليهم حُجَّةُ الله على عبادِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ عمَّ جميعَ المُشرِكينَ، وعمَّ البِقاعَ والأماكِنَ مِن حِلٍّ وحَرَمٍ إلَّا ما خصَّصَتْه الأدلَّةُ مِن الكِتابِ والسُّنَّة[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ فيه أنَّه يجوزُ الأسْرُ بَدَلَ القَتلِ، والتَّخييرُ بينهما[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ فيه جوازُ حِصارِهم والإغارةِ عليهم وبيَاتِهم[4].

٤- كلمةُ (كُلَّ) في قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ مُستعملةٌ في تعميمِ المراصِدِ المظنونِ مُرورُهم بها؛ تحذيرًا للمُسلِمينَ مِن إضاعَتِهم الحراسةَ في المراصِدِ، فيأتيَهم العدُوُّ منها، أو مِن التَّفريطِ في بعضِ

والسَّلامُ، وهذا يتضمَّنُ أمرَ المُسلِمينَ بألَّا يتعرَّضوا له بسوءٍ حتى يبلُغَ بلادَه التي يأمَنُ فيها، وليس المرادُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتكلَّفُ تَرحيلَه، ويبعَثُ مَن يُبلِّغُه، فالمعنى: اترُكْه يبلغْ مَأمَنَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَمارِّ العَدُوِّ، فينطلِقَ الأعداءُ آمنين فيَستخِفُّوا بالمُسلمينَ، ويتَسامَعَ جماعاتُ المُشرِكينَ أنَّ المُسلِمينَ ليسُوا بِذَوي بأسٍ ولا يَقَظةٍ، فيؤُولُ معنى (كُلَّ) هنا إلى معنى الكَثرةِ؛ للتَّنبيهِ على الاجتهادِ في استقصاءِ المراصِدِ(١).

٥- التعبيرُ بالقُعودِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ للإرشادِ إلى التأنِّي(٢).

٦- في الترصُّدِ والاستقرارِ والتمَكُّنِ وإيصالِ الفِعلِ إلى الظَّرفِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾؛ إشارةٌ إلى أن يشغَلوا في الترصُّدِ كُلَّ جُزءٍ مِن أجزاءِ كُلِّ مَرصدٍ، إن قَدَروا على ذلك، بخلافِ ما لو عبَّرَ بـ (في كُلِّ مَرصدٍ) فإنَّه إنما يدلُّ على شغلِ كُلِّ مَرصدٍ الصَّادِقُ بالكَونِ في موضعٍ واحدٍ منه، أيُّ موضعٍ كان(٣).

٧- الأمرُ في قولِه: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ للإذنِ والإباحة باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المأموراتِ على حِدَةٍ، أي: فقد أُذِن لكلٍّ في قتْلِهم وفي أَخْذِهم، وفي حِصارِهم، وفي مَنْعِهم مِنَ المرورِ بالأرضِ الَّتي تحتَ حكمِ الإسلامِ، وقدْ يَعْرِضُ الوجوبُ إذا ظَهَرتْ مصلحَةٌ عَظيمَةٌ(٤).

٨- قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ مَن قال: قد تُبتُ، أنَّه لا يُجتزَأُ بقَولِه حتى ينضافَ إلى ذلك أفعالُه المُحقِّقةُ للتَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ شَرَطَ هنا مع التَّوبةِ إقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ ليُحَقِّقَ بهما التَّوبة. وقال في آيةِ الرِّبا: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

﴿[البقرة: ٢٧٩]. وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾[1] [البقرة: ١٦٠].

٩- في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ دلالةٌ على أنَّ التوبةَ مِن الشركِ تُسمَّى توبةً، كما تُسمَّى مِن الذنبِ؛ لأنَّ معناها الرجوعُ عما كان عليه[2].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ لم يُكتفَ في تخليةِ السَّبيلِ بالتَّوبةِ مِن الشِّركِ، حتى يُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فاستدَلَّ به من قال بقَتلِ تاركِ الصَّلاةِ، وقتالِ مانعِ الزَّكاةِ، واستدَلَّ به من قال بتكفيرِهما[3].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ الآيةُ تُفيدُ دَلالةَ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على الإسلامِ، وتوجِبُ لِمَن يُؤدِّيهما حُقوقَ المُسلمينَ؛ مِن حِفظِ دَمِه ومالِه، إلَّا بما يُوجِبُه عليه شَرعُه من جنايةٍ تقتضي حدًّا مَعلومًا، أو جريمةً تُوجِبُ تَعزيرًا أو تغريمًا[4].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه لطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى ضيَّقَ عليهم جميعَ الخَيراتِ، وألقاهم في جميعِ الآفاتِ، ثم بيَّنَ أنَّهم لو تابوا عن الكُفرِ، وأقاموا الصَّلاةَ، وآتَوُا الزَّكاةَ، فقد تخلَّصوا عن كلِّ تلك الآفاتِ في الدُّنيا، فنرجو مِن فَضلِ اللهِ أن يكونَ الأمرُ كذلك يومَ القيامةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ القتلِ قَبولُ الدِّينِ، والإقرارُ بالتَّوحيدِ(١).

١٤- الخطابُ بِقَولِه: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ﴾ يدلُّ على أنَّ أمانَ السُّلطانِ جائزٌ(٢).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى وجوبِ الدَّعوةِ قبل القِتالِ(٣).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فيه حُجَّةٌ صَريحةٌ لِمَذهَبِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ، القائلينَ بأنَّ (القُرآنَ كَلامُ اللهِ غيرُ مَخلوقٍ)؛ لأنَّه تعالى هو المتكَلِّمُ به، وأضافه إلى نفسِه إضافةَ الصِّفةِ إلى موصوفِها، وبُطلانُ مذهَبِ المُعتَزلةِ ومَن أخذَ بِقَولِهم: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ(٤).

١٧- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ صريحٌ في أنَّ هذا الذي نَقرؤُه ونَتلُوه، هو بِعَينِه كلامُ الله، فالصَّوتُ صَوتُ القارِئِ، والكلامُ كَلامُ البارِئِ؛ لأنَّ اللهَ صرَّح بأنَّ هذا المُشرِكَ المُستجيرَ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ، يتلوه عليه نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذا المحفوظُ في الصُّدورِ، المقروءُ في الألسِنةِ، المكتوبُ في المصاحِفِ؛ هو كلامُ اللهِ جَلَّ وعلا، بمعانيه وألفاظِه(٥).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٠).

كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ في الكلامِ تَنويهٌ بمعالي أخلاقِ المُسلِمينَ، وغَضٌّ من أخلاقِ أهلِ الشِّركِ، وأنَّ سببَ ذلك الغَضِّ الإشراكُ الذي يُفسِدُ الأخلاقَ؛ ولذلك جُعِلوا (قومًا لا يَعلمونَ) دونَ أن يُقالَ (بأنَّهم لا يَعلمونَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفيَ العِلمِ مُطَّرِدٌ فيهم، فيشيرُ إلى أنَّ سببَ اطِّرادِه فيهم هو نَشأتُه عن الفِكرةِ الجامعةِ لأشتاتِهم، وهي عقيدةُ الإشراكِ[(١)].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ فيه وضعُ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُل: (فإذا انسلخْت فاقْتُلوا...)-؛ ليكون ذريعةً إلى وَصْفِها بالحُرمةِ؛ تأكيدًا لِمَا يُنبِئ عنه إباحةُ السِّياحةِ من حُرْمةِ التعرُّضِ لهم، مع ما فيهِ من مَزيدِ الاعتناءِ بشأنِها[(٢)].

- قولُه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ هذا المُركَّبُ مُستعمَلٌ هنا تَمثيلًا في عدمِ الإضرارِ بهم ومُتاركتِهم[(٣)]، وهو كِنايةٌ عن الكفِّ عنهم، وإجرائِهم مجرَى المسلمين في تصرُّفاتهم حيثُما شاؤوا[(٤)].

- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٣).

﴿ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التوبةِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، وقال بَعدَه في التَّوبةِ أيضًا: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ فالشَّرطُ فيهما واحدٌ، لكنِ اختَلَف الجوابُ؛ ووجهُ هذه المُناسَبةِ أنَّ قولَه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ ورَدَ بعدَ الأمْرِ بقَتلِ المشركين؛ فناسَبَ أن يكونَ جوابُ الشرطِ فيها الأمرَ بتَرْكِه، وهو قوله تعالى: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، أمَّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، فورَدَ بعدَ إثباتِ رُسوخِ المشركين في كُفرِهم وضَلالِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وكونِه هو الباعثَ لهم على قِتالِ المؤمنِينَ ابتداءً، ثم على نَقْضِ عُهودِهم؛ فناسَبَ أنْ يُذكَرَ في جوابِ شَرطِها ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّ هذِه أجلبُ لقُلوبِهم، وأشدُّ استمالةً لهم إلى الإسلامِ[1].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذييلٌ أُريدَ به حثُّ المسلِمينَ على عَدمِ التعرُّضِ بالسُّوءِ للذين يُسْلِمونَ من المُشركينَ، وعدَمِ مُؤاخذتِهم لِمَا فَرَط منهم؛ فالمعنى: اغْفِروا لهم؛ لأنَّ الله غَفَر لهم، وهو غَفورٌ رحيمٌ[2].

٢- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جملةِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾؛ لتَفصيلِ مَفهومِ الشَّرْطِ، أو عطْفٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).

جُملة ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لتَخصيصِ عُمومِه، أي: إلَّا مُشرِكًا استجارَك لمصلحةٍ؛ للسِّفارةِ عن قَومِه، أو لمعرفةِ شرائعِ الإسلامِ، وصِيغَ الكلامُ بطَريقةِ الشَّرْطِ؛ لتأكيدِ حُكْمِ الجوابِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الشأنَ أنْ تقعَ الرَّغبةُ في الجِوارِ مِن جانبِ المشركين[١].

- وجِيءَ بحرْفِ (إن) التي شأنُها أنْ يكونَ شَرْطُها نادرَ الوقوعِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذا شَرْطٌ فَرْضيٌّ؛ لكيلَا يَزعمَ المشرِكون أنَّهم لم يَتمكَّنوا من لِقاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتَّخِذوه عُذْرًا للاستمرارِ على الشِّركِ إذا غَزاهُم المسلِمون[٢].

- وجِيءَ بلَفْظِ ﴿أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دونَ لِفْظِ (مُشْرِكٍ)؛ للتَّنصيصِ على عُمومِ الجِنْس[٣].

- وتَقديمُ ﴿أَحَدٞ﴾ على ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بالمُسنَدِ إليه؛ ليكونَ أوَّلَ ما يَقْرعُ السَّمعَ، فيَقع المُسنَدُ بعدَ ذلك من نَفْسِ السَّامعِ مَوقِعَ التمكُّن[٤].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ؛ لتأكيدِ الأَمْرِ بالوَفاءِ لهم بالإجارةِ إلى أن يَصِلوا دِيارَهم؛ فلذلك فُصِلتْ عن الجُملةِ التي قَبْلَها، ولم تُعطَف عليها[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٠).

الآيتان (٧ - ٨)

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرْقُبُوا﴾: أي: يَحفَظُوا ويُراعُوا، وأصلُ (رقب): يدلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[1].

﴿إِلًّا﴾: الإلُّ: الحِلْفُ والقَرابةُ والعهد والعقد، ويأتي أيضًا بمعنى الله، وأصلُ (ألل) هنا يدلُّ على السَّبَبِ يُحافَظُ عليه[2].

﴿ذِمَّةً﴾: الذِّمَّةُ: العَهدُ والمِيثاقُ، وما يجِبُ أن يُحفَظَ ويُحمى، وأصلُ (ذمم): خلافُ الحَمدِ، وسُمِّي العَهْدُ ذِمامًا؛ لأنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على إضاعتِه منه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: كيف يكونُ للمُشرِكينَ عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

صلَّى الله عليه وسلَّم؟ هذا أمرٌ مُستبعَدٌ، إلَّا الذينَ عاهَدْتُم- أيُّها المُؤمِنونَ- عند المسجِدِ الحرامِ يومَ الحُدَيبيَة، فما داموا مُستقيمينَ لكم على ما تعاهَدْتُم عليه، فاستَقِيموا لهم كذلك، إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقينَ.

كيف يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، وهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا؟ يقولونَ لكم بألسِنَتِهم كلامًا طيِّبًا يُرضِيكم، ولكِنَّ قُلوبَهم تَمتنِعُ أن تُوافِقَ ما يتكَلَّمونَ به، وأكثَرُهم فاسِقونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فلعلَّ بعضَ قبائِلِ العَرَبِ مِنَ المشركينَ يتعجَّبُ مِن هذه البراءةِ، ويسألُ عن سَبَبِها، وكيف أُنهِيَت العُهودُ، وأُعلِنَتِ الحَربُ؟! فكان المقامُ مقامَ بيانِ سَبَبِ ذلك، والحِكمةِ المُوجِبةِ لِأن يتبَرَّأَ اللهُ ورَسولُه مِن المُشرِكينَ، وأنَّه حُكمٌ واقِعٌ في مَحلِّه، وأنَّ نَبْذَ العُهودِ إلى المُشرِكينَ أمرٌ في غايةِ الإحكامِ والصَّوابِ(١).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾.

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

أي: كيف يكونُ للمُشرِكينَ بِرَبِّهم عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! هذا أمرٌ مُستبعَدٌ؛ فهؤلاءِ قَومٌ يُضمِرونَ الغَدرَ، والواجِبُ على المؤمِنينَ قَتلُهم أينَما وَجَدُوهم؛ لِكُفرِهم باللهِ ورسولِه، ومُحارَبتِهم أولياءَه[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾.

أي: لا ينبغي أن يكونَ للمُشركينَ عَهدٌ يأمَنونَ به عَدا الذينَ عاهَدْتُموهم[2]- أيُّها المُؤمِنونَ- يومَ الحُدَيبيَةِ عند المسجِدِ الحرامِ، وهم مُوفُونَ بعَهدِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥).
وقال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ نَبذَ عُهودِهم إليهم حُكمٌ في غايةِ الصَّوابِ، واقِعٌ في موقِعِه، موضوعٌ في موضِعِه؛ لأنَّهم أهلُ خُبث، وأهلُ عَداوةٍ ومكْرٍ للإسلامِ، يستحِقُّونَ نَبذَ عُهودِهم إليهم، وأن يكونوا حَربًا، إلَّا الطَّائفةَ الذين ثَبَتوا. وهذا معنى قَولِه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ يأمنونَ به على أنفُسِهم وأموالِهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يأمُرُ نَبيَّه بالوفاء به ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعمَلُ لهم بمُقتضاه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٥).
(٢) قال ابنُ إسحاق: (هي قبائِلُ بني بكرٍ، الذين كانوا دخَلُوا في عقدِ قُريشٍ وعَهدِهم يومَ الحُدَيبيَة إلى المدَّةِ التي كانت بين رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبين قُريش، فلم يكن نَقَضَها إلا هذا الحيُّ من قريشٍ وبنو الديل من بكر، فأُمِرَ بإتمامِ العهد لِمَن لم يكن نقَضَ عَهْدَه من بني بكرٍ إلى مُدَّتِه). رواه ابن جرير (١١/ ٣٥١). يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠١ - ٣٠٣).
وقال الشنقيطي: (أربعُ قبائِلَ مِن كِنانةَ بنِ مُدرِكةَ كانوا أهلَ عَهدٍ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قريشٍ، ثم نقض العهدَ منهم بنو الدِّيلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَناةَ بن كِنانةَ، بأن عَدَوْا على خُزاعةَ، ونَقَضَ معهم قريشٌ؛ حيث أعانوهم على الخُزاعيِّينَ، وبَقِيَ بنو ضَمْرةَ، وبنو جُذَيمةَ بنِ عامرٍ، وبنو مُدلجٍ على عهدِهم، لم ينقُضوا، وهم الذين استَثْناهم اللهُ، وهذه المُعاهدةُ وقع عهدُها في الحُدَيبيَةِ كما عليه جَميعُ المؤرِّخينَ. والله جلَّ وعلا ذكَرَ أنَّها في المسجِدِ الحرام، والتَّحقيقُ أنَّ الحُدَيبيَةَ بعضُها في الحِلِّ وبعضُها في الحرمِ. وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعاهَدةَ الحُدَيبيَةِ وقعت في الطَّرَف منها الذي هو مِن الحَرَمِ؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّ الله ربما أطلق المسجِدَ الحَرامَ وأراد به جميعَ الحَرَمِ، فالمرادُ به هنا: إلَّا الذين عاهَدْتم في حَرَمِ اللهِ عند الحُدَيبِيَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٦).

مُستقيمونَ عليه[١].

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾.

أي: فما دامَ المُشرِكونَ مُستَقيمينَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- على ما تعاهَدْتُم عليه، متمسِّكينَ بما عاقَدْتُموهم عليه، فاستَقِيموا لهم كذلك إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، وأوْفُوا لهم بعهدِهم، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابنُ القيم: (هؤلاءِ- والله أعلم- هم المُستَثنَونَ في تلك الآية، وهم الذين لهم عَهدٌ إلى مُدَّةٍ؛ فإنَّ هؤلاء لو كان عَهدُهم مُطلقًا لَنُبِذَ إليهم، كما نُبِذَ إلى غيرهم، وإن كانوا مُستقيمين كافِّينَ عن قتاله، فإنَّه نُبِذَ إلى جميعِ المشركين؛ لأنه لم يكن لهم عَهدٌ مُؤجَّلٌ يستحِقُّونَ به الوفاءَ، وإنَّما كانت عهودُهم مُطلقةً غيرَ لازمةٍ، كالمُشاركة، والوَكالة، وكان عهدُهم لأجل المصلحة، فلمَّا فَتَحَ اللهُ مكَّةَ، وأعزَّ الإسلامَ، وأذلَّ أهلَ الكُفرِ، لم يبقَ في الإمساكِ عن جِهادِهم مصلحةٌ، فأمَرَ اللهُ به، ولم يأمُرْ به حتى نَبَذَ إليهم على سواءٍ؛ لِئَلَّا يكون قتالُهم قبل إعلامِهم غَدرًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٤).

وقال أيضًا: (النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسل أبا بكرٍ، وأردَفَه بعليٍّ رَضِيَ الله عنهما يؤذِّنُ بسورةِ «براءة»، فنبذ العهودَ إلى جميعِ المُشرِكينَ مُطلقًا، لم ينبِذْها إلى مَن نقَضَ دونَ مَن لم ينقُضْ. وأيضًا فالقرآنُ نبَذَها إلى المشركين، وإنَّما استثنى مَن كان له مُدَّةٌ ووفاءٌ، فمن كان فيه هذانِ الشَّرطانِ لم يُنبَذْ إليه. وأيضًا فإنَّه سُبحانه قال: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧] فجعل نَفسَ الشِّركِ مانعًا مِن العَهدِ إلَّا الذين لهم عَهدٌ مُؤقَّتٌ، وهم به مُوفونَ). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ كُلَّ مَن عاهد عند المَسجِدِ الحرامِ كما قد يتوهَّمُه المتوَهِّمُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ مأذونًا بأنْ يُعاهِدَ فريقًا آخَرَ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويجتَنِبونَ نَواهِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بالعُهودِ، ولا يَغدِرونَ[1].

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنكَرَ سُبحانَه أن يكونَ للمُشرِكينَ غَيرِ المُستَثنَينَ عَهدٌ؛ بيَّن السَّبَبَ المُوجِبَ للإنكارِ[2]، فقال تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

أي: كيفَ يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، والحالُ أنَّهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ، ولا قَرابةً، ولا عَهدًا[3]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤، ٣٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإلَّ هنا بمعنى القَرابةِ، والذِّمَّةَ بمعنى العَهدِ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الإلَّ هي القرابةُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الذِّمَّةَ هي العَهدُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك في أحدِ قَولَيه، وسعيدُ بن

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَهم مع المُؤمِنينَ إن ظَهَروا عليهم، ذَكَرَ حالَهم معهم إذا كانوا غيرَ ظاهِرينَ، فقال تعالى[(١)]:

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: يَقولُ لكم المُشرِكونَ بألسِنَتِهم كلامًا طَيِّبًا يُرضيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لكِنَّ قُلوبَهم تمتَنِعُ أن تُوافِقَ ما يَنطِقونَ به؛ فهي مُنطَوِيةٌ على بُغضِكم وعَداوَتِكم، والامتناعِ عَن محبَّتِكم، والدُّخولِ في دِينِكم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ

جُبير، وقتادة، ومجاهدٌ في إحدى الرِّوايات عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (والإلُّ: اسمٌ يشتَمِلُ على معانٍ ثلاثةٍ: وهي العَهدُ والعَقدُ، والحِلْفُ، والقَرابةُ، وهو أيضًا بمعنى (الله). فإذ كانت الكَلِمةُ تَشمَلُ هذه المعانيَ الثَّلاثةَ، ولم يكُنِ اللهُ خَصَّ من ذلك معنًى دونَ معنًى، فالصَّوابُ أن يَعُمَّ ذلك، كما عَمَّ بها جَلَّ ثَناؤُه معانيَها الثَّلاثةَ، فيُقال: لا يَرقُبونَ في مؤمِنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا ولا ميثاقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٨).

وقال الشِّنقيطي عن اختيارِ ابنِ جَريرٍ: (وهذا الذي ذهَبَ إليه هو مِن حَملِ المُشتَرَكِ على مَعانيه، وحَملُ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو مَعانيه، ممَّا اختلفَ فيه علماءُ الأصولِ، والذي حرَّرَه المُحَقِّقونَ مِن أصوليِّي أصحابِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو معانيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٤).

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وأكثَرُ أولئك القَومِ خارِجونَ عَن طاعةِ اللهِ، ناقِضونَ للعُهودِ، لا ديانةَ لهم، ولا مُروءةَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الوفاءُ بالعَهدِ مِن أخلاقِ المُتَّقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾. في وَصفِهم بالمُشرِكينَ إيماءٌ إلى عِلَّةِ الإنكارِ على دوامِ العَهدِ مَعَهم(٣).

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ على أنَّ مَن كانت حالُه أنَّه إذا ظهَرَ لم يَرقُبْ ما بيننا وبينه مِن العَهدِ- لم يكُنْ له عَهدٌ؛ لأنَّ مَن جاهَرَنا بالطَّعنِ في ديننا، كان ذلك دليلًا على أنَّه لو ظهر لم يَرقُبِ العَهدَ الذي بيننا وبينه؛ فإنَّه إذا كان مع وُجودِ العَهدِ والذِّلَّةِ يفعلُ هذا، فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).

يكونُ مع العِزَّةِ والقُدرةِ؟! خلافًا لِمَن لم يُظهِر لنا مثلَ هذا الكَلامِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يَفيَ لنا بالعَهدِ لو ظَهَرَ(١).

٣- قال تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

إن قيلَ: إنَّ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ كُفَّارٌ، والكُفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِن الفِسقِ، فكيف يَحسُنُ وَصفُهم بالفِسقِ في مَعرِضِ المبالغةِ في الذَّمِّ، وأيضًا الكُفَّارُ كلُّهم فاسِقونَ، فلا يبقى لِقَولِه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ فائدةٌ؟ فالجَوابُ: أنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دِينِه، له حفظٌ لمراعاةِ الحالِ الحسنةِ مِن التعفُّفِ عمَّا يثلمُ العِرضَ، فلا ينقُضُ العَهدَ، وقد يكونُ فاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِه، لا مروءةَ تردعُه، ولا طباعَ مرضيةٌ تزَعُه، فينقُضُه، فالمرادُ بالفِسقِ هنا نَقضُ العَهدِ، وكان في المُشرِكينَ مَن وَفَى بِعَهدِه؛ فلهذا قال: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾، أي: إنَّ هَؤلاءِ الكُفَّارَ- الذين مِن عادَتِهم نَقضُ العَهدِ- أكثَرُهم فاسِقونَ في دِينِهم وعند أقوامِهم، وذلك يُوجِبُ المُبالغةَ في الذَّمِّ(٢)، وقيل: التعبيرُ بقولِه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ لأنَّ منهم مَن قضَى الله له بالإيمانِ(٣)، وقيل: المرادُ بالأكثريةِ: الكلُّ، فمعنَى ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾: وكلُّهم فاسقونَ(٤).

بلاغَةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

- قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، نَشأ عن قولِه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ثُمَّ عن قُولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعن قولِه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، التي كانتْ تَدرُّجًا في إبطالِ ما بينهم وبين المسلمينَ من عُهودٍ سابقةٍ؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سؤالًا في نُفوسِ السَّامعينَ من المسلِمينَ الذين لم يَطَّلِعوا على دَخيلةِ الأَمْرِ؛ فلعلَّ بعضَ قَبائلِ العربِ من المشركين يَتعجَّب من هذه البَراءةِ، ويسألُ عن سببِها؛ فكان المقامُ مَقامَ بيانِ سَببِ ذلك، وأنَّه أمران: بُعدُ ما بين العقائدِ، وسَبْقُ الغَدْرِ(١).

- قولُهُ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ اسْتِفهامٌ بمَعْنى الإنكارِ، والاسْتِبعادِ لِأنْ يكونَ لهم عَهْدٌ ولا يَنْكُثوه مع ضِغنِ صُدورِهم وعَداوتِها، وتوقُّدِها من الغيظِ، أو لأنْ يَفيَ اللهُ تعالى ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَهْدِ، وهم نَكَثوه(٢).

- وفي قولِهِ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ تَوجيهُ الإنكارِ إلى كيفيَّةِ ثُبوتِ العَهْدِ، وفيه من المُبالَغةِ ما ليس في تَوجيهِهِ إلى ثُبوتِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يَجِبُ أنْ يكونَ وجودُهُ على حالٍ من الأحوالِ قَطْعًا(٣).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ المقصودُ مِن تَخصيصِهم بالذِّكرِ؛ التَّنويهُ بخَصلةِ وَفائِهم بما عاهَدُوا عليه(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠-١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).

- قولُه: ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ ... ﴾ ﴿ كَيۡفَ ﴾ هذه مُؤكِّدةٌ لـ ﴿ كَيۡفَ ﴾ التي في الآيةِ قَبْلها، وفي إعادةِ الاسْتِفهامِ إشعارٌ بأنَّ جُملةَ الحالِ لها مزيدُ تَعلُّقٍ بتوجُّه الإنكارِ على دَوامِ العهدِ للمُشركينَ، حتَّى كأنَّها مُستَقِلَّةٌ بالإنكارِ، لا مجرَّدُ قيدٍ للأَمْرِ الذي تَوجَّه إليه الإنكارُ ابتداءً؛ فهي تَكرارٌ لاسْتِبعادِ ثَباتِهم على العَهْدِ، أو بقاءِ حُكْمه، مع التَّنبيهِ على العِلَّةِ[(١)].

- وفي قوله: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ ﴾ أيضًا استأنَفَ هذا الكلامَ، أي: حالُهم في الظَّاهرِ يُخالِفُ باطِنَهم، وهذا كلُّه تَقريرٌ واسْتِبعادٌ لثَباتِ قلوبِهم على العَهْد[(٢)].

- ونِسبةُ الإرضاءِ إلى الأفواهِ في قولِهِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلامَهم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهون بها، مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهم[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

الآيات (٩ - ١٢)

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ نَّكَثُوا ﴾: أي: نَقَضوا، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ استبدَلوا بآياتِ اللهِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، فصَدُّوا أنفسهم عن قبولِ الحقِّ واتباعِه، وصدُّوا غيرَهم من النَّاسِ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاولوا ردَّ مَن أسلَمَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، إنَّهم ساء ما كانوا يعملونَ؛ لا يُراعُونَ في مؤمِنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا، وأولئك هم المُعتَدونَ.

ثم يُخاطِبُ المؤمنينَ قائِلًا لهم: فإنْ تاب المُشرِكونَ، وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجِبةَ لِمُستحِقِّيها، فهم إخوانُكم في الإسلامِ، ونُبيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلمونَ، وإنْ نَقَضوا عُهودَهم من بعدِ ما عاهَدُوكم، وقَدَحوا في دينِكم وانتَقَصوه، فقاتِلُوا رُؤَساءَ الكُفرِ؛ إنَّهم لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفونَ بها؛ لعلَّهم يَنتَهونَ عَن الكُفرِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كشَفَ تعالى سرائِرَهم؛ شرعَ سبحانه يُقيمُ لهم الدَّليلَ على فِسقِهم وخِيانَتِهم، بتَذكيرِهم ما بدا مِن بَعضِهم مِن النَّقضِ، بعد أن أثبَتَ فيما مضى أنَّهم شَرعٌ واحِدٌ[1]، بعضُهم أولياءُ بَعضٍ[2].

وأيضا فهذا بيانٌ مُستأنَفٌ لِمَن عساه يستغرِبُ غَلَبَةَ الفِسقِ، والخُروجَ مِن دائرةِ الفَضائِلِ الفِطريَّةِ والتقليديَّةِ على أكثَرِهم، حتى مُراعاة اللهِ والقرابةِ والوفاءِ بالعَهدِ الممدوحَينِ عِندَهم، ويسألُ عن سبَبِه، وجَوابُه[3]:

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾.

أي: استبدَلَ أولئك المُشرِكونَ، بآياتِ القُرآنِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، ومَتاعِها الفاني، فتَرَكوا اتِّباعَها لذلك، واتَّبَعوا أهواءَهم[4].

---

(١) أي: سواء، لا يفوقُ بعضُهم بعضًا. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (هؤلاءِ الذين بَقُوا على الشِّركِ مِن العَرَبِ بعد فتحِ مكَّةَ وظهورِ الإسلامِ على مُعظَم بلادِ العَرَبِ، ليس لهم امتراءٌ في صِحَّةِ الإسلامِ ونُهوضِ حُجَّتِه، ولكنَّهم بَقُوا على الشِّركِ لِمَنافِعَ يَجتنُونَها من عوائِدِ قَومِهم؛ مِن غاراتٍ يَشُنُّها بعضُهم على بعضٍ، ومحبَّة الأحوالِ الجاهليَّة مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزِنًا، وغير ذلك من المذمَّات واللذَّات الفائتة، وذلك شيءٌ قليلٌ، آثَرُوه على الهدى والنَّجاة في الآخرة، فلِكَونِ آياتِ صِدقِ القُرآنِ أصبحت ثابتةً عندهم جُعِلت مثلَ مالٍ بأيديهم، بذَلُوه وفرَّطوا فيه لأجلِ اقتناءِ منافِعَ قليلةٍ؛ فلذلك مثَّل حالَهم بحالِ

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾.

أي: فتسبَّبَ عن ضَلالِهم قيامُهم بإضلالِ غَيرِهم، فمَنَعوا أنفسهم من قبولِ الحقِّ واتِّباعِه، ومنعوا غيرَهم مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاوَلُوا رَدَّ المُسلِمينَ عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يعمَلُه أولئك المُشرِكونَ؛ مِن استبدالِهم الكُفرَ بالإيمانِ، وصَدِّهم النَّاسَ عن سبيلِ الرَّحمنِ(٢).

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعَراقَتِهم في الفِسقِ، دلَّ عليه بأنَّ خِيانَتَهم ليست خاصَّةً

مَنِ اشترى شيئًا بِشَيءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٥).

واستبعَدَ الشنقيطيُّ جِدًّا ما قاله جماعةٌ مِن العُلَماءِ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَت في قومٍ مِن الأعرابِ كانوا عاهَدُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاهم أبو سفيانَ بنُ حَربٍ، وأطعَمَهم أكلةً، ونقَضُوا العهودُ بسبَبِ ذلك. قال: (لأنَّ هذه الآيةَ مِن براءةَ نزَلَت بعد إسلامِ أبي سفيانَ؛ لأنَّ أبا سفيانَ أسلَمَ عامَ الفَتحِ عامَ ثَمانٍ، وهذه نزلَتْ عامَ تِسعٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (واختلَفَ العلماءُ بالمراد بهذا الثَّمَنِ القَلِيل ... والتَّحقيقُ- إن شاء اللهُ تعالى- أنَّ المعنى: أنَّ الكُفَّار تبَدَّلوا من آياتِ اللهِ والعمَلِ بما جاء عن اللهِ ثَمنًا قَليلًا مِن مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا، وهو-مَثلًا- عدَمُ التقيُّد بالشَّرعِ، وبقاؤُهم على ما كانوا عليه، واتِّباعُهم أهواءَهم، كما قال جلَّ وعلا: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٩٠] فتعَوَّضوا من هذا اتِّباعَهم هواهم، وبقاءَهم على ما كانوا عليه؛ لأنَّه أحَبُّ إليهم. وهذا شيءٌ تافِهٌ تَعوَّضوا منه سَعادةَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٠).

بالمُخاطَبينَ، بل عامَّةٌ لكُلِّ مَن اتَّصَف بصِفةِ الإيمانِ[1]، فقال تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

أي: لا يُراعي أولئك المُشرِكونَ في أيِّ مُؤمنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا[2].

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ هم المُجاوِزونَ حُدودَ اللهِ، الظَّالِمونَ لِعبادِ اللَّهِ[3].

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن لا يَرقُبُ في اللهِ إلًّا ولا ذِمَّةً، وينقُضُ العَهدَ، وينطوي على النِّفاقِ، ويتعَدَّى ما حُدَّ له؛ بيَّنَ مِن بعدُ أنَّهم إن أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ كيف حُكمُهم[4]، فقال تعالى:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن كُفرِهم إلى الإيمانِ باللهِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ المفروضةَ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجبةَ مُستحِقِّيها؛ فهُم إخوانُكم- أيُّها المُسلِمونَ-

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٦، ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠، ٣١١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣).

في الإسلامِ[١].

﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ونُبَيِّنُ آياتِ القُرآنِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ بَيانَه وآياتِه، فيَفهمُونَها، ويتفَكَّرونَ فيها، وينتَفِعونَ بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استوفى اللهُ تعالى بيانَ أصنافِ المُشرِكينَ، الذين أمَرَ اللهُ بالبراءةِ مِن عَهدِهم، والذينَ أمَرَ بإتمامِ عَهدِهم إلى مُدَّتِهم ما استقاموا على العَهدِ، والذين يَستجيبونَ- عطَفَ على أولئك بيانَ الذين يُعلِنونَ بِنَكْثِ العَهدِ، ويُعلِنونَ بما يُسخِطُ المُسلِمينَ[٣]، فقال تعالى:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾.

أي: وإن نقَضَ أولئك المُشرِكونَ عُهودَهم مِن بعدِ ما عاهَدُوكم على ألَّا يُقاتِلوكم، ولا يُظاهِروا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٢).

﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

أي: وقدحوا في دينِكم الإسلامِ، وعابُوه وانتقَصُوه(١).

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- رؤساءَ الكُفرِ(٢) الذين نقَضُوا العُهودَ، وطَعَنوا في الإسلامِ(٣).

قال الشنقيطي: (﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ الأيمانُ: جمعُ يمينٍ. قال بعضُ العلماءِ: هي العهودُ. وقال بعض العلماء: هي الأيمانُ التي تؤكَّدُ بها العهودُ؛ لأنَّهم إذا أُخِذَت عليهم العُهودُ، أكَّدُوها بالأيمانِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٢).

ولكِن ردَّ ابنُ تيميَّةَ هذا القولَ، فقال: (واليَمينُ هنا المرادُ بها العُهودُ لا القَسَمُ باللهِ- فيما ذَكَره المفَسِّرونَ- وهو كذلك؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يقاسِمْهم باللهِ عامَ الحُدَيبيَةِ، وإنما عاقَدَهم عقدًا، ونسخةُ الكِتابِ معروفةٌ ليس فيها قسَمٌ؛ وهذا لأنَّ اليمينَ يقال: إنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المُعاهِدَينِ يمُدُّ كُلٌّ منهما يمينَه إلى الآخَرِ، ثم غُلِّبَت حتى صار مجرَّدُ الكلامِ بالعَهدِ يُسمَّى يمينًا، ويقال: سُمِّيت يمينًا؛ لأنَّ اليمينَ هي القوَّةُ والشِّدَّةُ... فلما كان الحِلْفُ معقودًا مشَدَّدًا سُمِّيَ يمينًا، فاسمُ اليمينِ جامِعٌ للعَقدِ الذي بين العَبدِ وبين ربِّه، وإن كان نَذْرًا... وللعَهدِ الذي بين المخلوقينَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ والنَّهيُ عن نقضِ العُهودِ وإن لم يكُن فيها قَسَمٌ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ وإنما لفظُ العهدِ: «بايعناك على ألَّا نَفِرَّ» ليس فيه قَسَمٌ، وقد سمَّاهم مُعاهِدينَ لله). ((الصارم المسلول)) (ص: ١٧- ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

قال السعدي: (ويدخُلُ في هذا جميعُ أنواعِ الطَّعنِ المُوجَّهةِ إلى الدِّينِ، أو إلى القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

(٢) قال الشنقيطي: (ما جرى على ألسِنةِ كثيرٍ مِن العُلَماءِ هنا أنَّهم: أبو جهلٍ وأميَّةُ بنُ خَلفٍ وسُهَيلُ بن عمرٍو، إلى أشرافِ المذكورينَ في غزوةِ بَدرٍ، فهو خلافُ الظَّاهِرِ؛ للإجماعِ على تأخُّرِ هذه الآياتِ كثيرًا إلى عامِ تِسعٍ، أو إلى أنَّها نزلت قبل الفَتحِ عامَ ثَمانٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَا إِيْمَانَ﴾ قيل: على معنى أنَّهم لا إسلامَ لهم ولا دينَ، فهم كفَّارٌ. وقيل: المرادُ معنى الأمنِ، أي: لا أمانَ لهم، فقد بطَلَ الأمانُ الذي أعطَيتُموهم؛ لأنَّهم قد نقَضُوا عَهْدَهم[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿لَآ أَيْمَٰنَ﴾ على معنى أنَّه لا عَهْدَ لهم، أي: هم لا يُوفُونَ بِعُهودِهم ومَواثيقِهم[(٢)].

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ رُؤَساءَ الكُفرِ لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفُونَ بها[(٣)].

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

أي: قاتِلُوهم؛ كي ينتَهُوا عن الكُفرِ والضَّلالِ[(٤)].

---

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).
وممَّن فسَّر قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ بأنَّ معناه انتهاؤُهم عن الكُفر: الواحديُّ، وابنُ

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ على ذمِّ قطيعةِ الرَّحِمِ، ونَقْضِ الذِّمَّة[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ هذه الأُخوَّةُ أوَّلُ مَزيَّةٍ دُنيويَّةٍ للإسلامِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا مَحرومينَ مِن هذه الأُخوَّةِ العظيمةِ، بعضُهم حَربٌ لِبَعضٍ في كلِّ وَقتٍ، إلَّا ما يكونُ مِن عَهدٍ أو جِوارٍ، قلَّما يفي به القَويُّ للضَّعيفِ دائمًا[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي:

كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

وممن فسَّره بأنه: الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّين، والمظاهرةِ على المسلمين: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣).

وممَّن فسَّره بأنَّه: انتهاؤُهم عن الكُفرِ وعن الطَّعنِ في الإسلامِ، فجمَع بينَ المعنيينِ: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وذهب ابن تيميَّةَ إلى أنَّ المُرادَ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، والطَّعنِ في الدِّينِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٩٢).

وردَّ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ المرادُ بالانتهاءِ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، أو الطَّعنِ في الدِّينِ. فقال: (لم يُذكَر مُتعَلِّق فعل ﴿يَنْتَهُونَ﴾ ولا يُحتمَلُ أن يكونَ الانتهاءُ عن نكْثِ العَهدِ؛ لأنَّ عَهدَهم لا يُقبَلُ بعد أن نكثوا؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، ولا أن يكونَ الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّينِ؛ لأنَّه إن كان طعنُهم في دينِنا حاصلًا في مدَّةِ قِتالِهم، فلا جَدْوى لِرَجاءِ انتِهائِهم عنه، وإن كان بعد أن تضعَ الحَربُ أوزارَها، فإنَّه لا يستقيمُ؛ إذ لا غايةَ لِتَنهيةِ القَتلِ بين المُسلِمينَ وبينهم، فتعيَّنَ أنَّ المُرادَ: لعلَّهم ينتهونَ عن الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٩).

لِيكُنْ غَرَضُكم في مُقاتَلتِهم- بعد ما وُجِدَ منهم من العظائِم ما وُجِد- انتهاءَهم عمَّا هم فيه، وهذا مِن كَرَمِه سبحانَه وفَضلِه، وعَوْدِه على المُسيءِ بالرَّحمةِ(١).

٤- ممَّا امتاز به الإسلامُ على جميعِ شَرائعِ الأُمَمِ وقَوانينِها: جَعلُ الحَربِ ضَرورةً مُقَيَّدةً بإرادةِ مَنعِ الباطِلِ، وتقريرِ الحَقِّ والفضائِلِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي: قاتِلوهم راجينَ بِقِتالِكم إيَّاهم أن يَنتَهوا عن كُفرِهم وشِرْكِهم، وما يحمِلُهم عليه مِن نَكْثِ أيمانِهم، ونَقضِ عُهودِهم، والضَّراوةِ بِقتالِكم كلَّما قَدَرُوا عليه، وهو يتضَمَّنُ النَّهيَ عن القتالِ اتِّباعًا لِهَوى النَّفسِ أو إرادةِ منافِعِ الدُّنيا؛ مِن سَلبٍ وكَسْبٍ، وانتقامٍ مَحضٍ بالأَوْلى(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بيَّنَ عَراقتَهم في القبائِحِ وأنَّها في جِبلَّتِهم، بذِكرِ الكَونِ، فقال: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، أي: يُجَدِّدونَ عَمَلَه في كلِّ وَقتٍ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾ إعلامٌ بأنَّ عَداوتَهم إنَّما هي بحسَبِ الإيمانِ فقط، وقَولُه أوَّلًا: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ﴾ [التوبة: ٨] كان يحتمِلُ أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك للإحَنِ التي وقعَت، فزال هذا الاحتمالُ بِقَولِه: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾(٤).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مَقرونتانِ بالشَّهادةِ، في كَفِّ السَّيفِ وحَقنِ الدَّمِ، ودليلٌ على أنَّ المُؤاخاةَ بالإسلامِ بين المُسلِمينَ مَوقوفةٌ على فِعلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ جَميعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَطَهما في إثباتِ المُؤاخاةِ، ومَن لم يكُنْ مِن أهلِ وُجوبِ الزَّكاةِ وجَبَ عليه أن يُقِرَّ بِحُكمِها، فإذا أقَرَّ بحُكمِها دخل في الصِّفةِ التي تجِبُ بها الأُخُوَّةُ[1].

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ علَّقَ الأُخُوَّةَ في الدِّينِ على التَّوبةِ مِن الشِّركِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ والمُعَلَّقُ بالشَّرطِ ينعَدِمُ عند عَدَمِه، فمَن لم يفعلْ ذلك فليس بأخٍ في الدِّينِ، ومَن ليس بأخٍ في الدِّينِ فهو كافِرٌ؛ لأنَّ المؤمنينَ إخوةٌ- رغم قيامِ الكبائِرِ بهم- بدليلِ قَولِه تعالى في آيةِ المُقتَتِلين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا مع أنَّه قد سمَّى قتالَ المؤمِنِ كُفرًا[2].

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ على أنَّ عَهدَ المُشرِكِ ينتقِضُ بذلك؛ فإنَّه حتى لو كان مُستقيمًا فيه بدونِ نَكْثٍ؛ فإنَّ مُجاهَرتَنا بالشَّتيمةِ، والوقيعةِ في رَبِّنا ونَبِيِّنا وكتابِنا ودِينِنا، يقدحُ في الاستقامةِ، كما تقدَحُ مُجاهَرتُنا بالمحاربةِ، في العَهدِ، بل ذلك أشَدُّ علينا إنْ كنَّا مُؤمِنينَ[3].

٦- دَعوةُ الذِّميِّ أو المُعاهَدِ إلى دينِه، وترغيبُه المسلمينَ إليه، مِن أَوْلى الأشياءِ أن ينتقِضَ العهدُ بها؛ فإنَّه حِرابُ الله ورسولِه باللِّسانِ، وقد يكون أعظَمَ مِن الحِرابِ باليَدِ، كما أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ ورَسولِه جِهادٌ بالقَلبِ وباللِّسانِ، وقد يكون أفضَلَ من الجهادِ باليَدِ. ولَمَّا كانت الدَّعوةُ إلى الباطِلِ مُستلزِمةً- ولا بُدَّ-

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

للطَّعنِ في الحَقِّ، كان دعاؤُهم إلى دينِهم، وتَرغيبُهم فيه طعنًا في دينِ الإسلامِ، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولا ريب أنَّ الطَّعنَ في الدِّينِ أعظَمُ مِن الطَّعنِ بالرُّمحِ والسَّيفِ، فأَوْلى ما انتقَضَ به العَهدُ الطَّعنُ في الدينِ، ولو لم يكُن مَشروطًا عليهم؛ فالشَّرطُ ما زادَه إلَّا تأكيدًا وقُوَّةً[(١)].

٧- مَن كان مِن المؤمنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ؛ فليعمَلْ بآياتِ الصَّبرِ والصَّفحِ، وأمّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعملونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ الذين يطعَنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الذينَ أوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرونَ[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ الذِّميَّ يُقتَلُ إذا طعنَ في الإسلام، سواءٌ شَرَطَ انتقاضَ العَهدِ به أم لا. واستدَلَّ من قال بقَبولِ تَوبَتِه بِقَولِه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[(٣)].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مِن هاهنا أُخِذَ قَتلُ مَن سَبَّ الرَّسولَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، أو مَن طعَنَ في دينِ الإسلامِ، أو ذَكَرَه بتنَقُّصٍ[(٤)].

١٠- قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ فسَمَّاهم أئمَّةَ الكُفرِ لِطعنِهم في الدِّينِ؛

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، وينظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦).

فكُلُّ طاعِنٍ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ؛ وذلك لأنَّه علَّلَ ذلك بأنَّهم لا أيمانَ لهم، وذلك يشمَلُ جَميعَ النَّاكِثينَ الطَّاعِنينَ، ولأنَّ النَّكثَ والطَّعنَ وصفٌ مُشتَقٌّ مُناسِبٌ لِوجوبِ القِتالِ، وقد رُتِّبَ عليه بحرفِ الفاءِ تَرتيبَ الجَزاءِ على شرطِه، فإذا طعَنَ الذِّمِّيُّ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ، فيجِبُ قَتْلُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولا يمينَ له؛ لأنَّه عاهَدَنا على ألَّا يُظهِرَ عَيبَ الدِّينِ، وخالَفَ[1].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ الإضافةُ في ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ للتَّشريفِ[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ مَفعولُ ﴿فَصَدُّواْ﴾ مَحذوفٌ لِقَصدِ العُمومِ، أي: صَدُّوا كلَّ قاصدٍ[3].

- قولُهُ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيه الافتتاحُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهْتِمامِ بهذا الذَّمِّ لهم، وعبَّر عن عَمَلِهم بـ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه دَأَبٌ لهم، ومُتكرِّرٌ منهم[4].

٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾

- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ تَكرارٌ لِمَعْنى

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٧-١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولِه: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾؛ حيث ذُكِرَ الأوَّلُ وجُعِلَ جَزاءً للشَّرْطِ﴿وَإِن يَظْهَرُوا ﴾، ثمَّ أُعيدَ ذَلِك تَقبيحًا لهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[١]. وفي تَكرارِ ذلِك بإبدالِ الضَّميرِ في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾ بقولِه: ﴿ فِي مُؤْمِنٍ ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ إذ الأوَّلُ وقَعَ جوابًا لِقَولِه: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا ﴾، والثاني وقَعَ إخبارًا عن تَقبيحِ حالِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ فيه قَصْرٌ؛ وهو إمَّا أنْ يكونَ للمُبالغةِ في اعتدائِهم؛ لأنَّه اعتداءٌ عَظيمٌ باطِنيٌّ على قومٍ حالَفوهم وعاهَدوهم، ولم يُلْحِقوا بهم ضُرًّا مع تَمكُّنهم منه، وإمَّا أن يَكونَ قَصْرَ قَلْبٍ، أي: هم المعتَدُونَ لا أنتُم؛ لأنَّهم بَدؤُوكم بنَقضِ العَهْدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ لِمُناسبةِ أنَّ إثباتَ الاعتداءِ العَظيمِ لهم، نَشَأ عن الحِقدِ- الشَّيءِ الذي أضمَرُوه للمُؤمِنينَ- لا لِشَيءٍ إلَّا لأنَّهم مُؤمِنونَ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

- فيه تكرارُ قولِه: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ لاختلافِ جزاءِ الشَّرطِ؛ إذْ جزاءُ الشَّرطِ في الأوَّلِ تَخليةُ سبيلِهم في الدُّنيا،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٦-٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهو قَولُه تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وفي الثَّاني إثباتُ أُخُوَّتِهم لنا في الدِّينِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، وهي ليستْ عينَ تَخليَتِهم، بل سَبَبُها[١].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

- قَولُه: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ خبرٌ لِمَحذوفٍ، أي: فَهُم إخوانُكم. وصِيغَ هذا الخبرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم يقتَضي ثباتَ الأُخُوَّةِ ودوامَها، تنبيهًا على أنَّهم يَعودون كالمُؤمِنينَ السَّابقينَ مِن قَبلُ، في أصلِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ[٢].

- قولُهُ: ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ؛ للحَثِّ على التَّأمُّلِ في الأحكامِ المُندرِجةِ في تَضاعيفِها، والمحافظةِ عليها[٣]؛ فهو اعتراضٌ وتذييلٌ أيضًا، وعُطِفَ هذا التَّذييلُ على جُملةِ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ لأنَّه به أَعْلَقُ؛ لأنَّهم إنْ تابوا فقد صاروا إخوانًا للمُسْلمين، فصاروا مِن قَومٍ يَعْلمونَ؛ إذ ساووا المُسلِمينَ في الاهتداءِ بالآياتِ المُفصَّلةِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن نَقْضِ العَهْدِ

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٨).

بنكْثِ الأيمانِ؛ تَشنيعًا للنَّكْثِ(١).

- وزِيدَ قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ زِيادةً في تَسجيلِ شناعةِ نكْثِهم، بتذكيرِ أنَّه غَدْرٌ لعَهْدٍ(٢).

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالطَّعنُ في الإسلامِ ضَربٌ مِن ضُروبِ نَكْثِ الأيمانِ، ونَقضِ السَّلْمِ والوَلاءِ، كالقِتالِ ومُظاهَرةِ الأعداءِ(٣).

- قولُهُ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ فيه وَضْعُ المُظْهَرِ ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ -حيثُ لَم يَقُلْ: (فقاتِلوهم)-؛ لزيادةِ التَّشنيعِ عليهم ببُلوغِهم هذه المنزلةَ من الكُفْرِ، وللدَّلالةِ على أنَّهم صاروا بذلك ذَوي الرِّئاسةِ والتَّقدُّمِ في الكُفْرِ، أحقَّاءَ بالقَتْلِ. وعلى أنَّ المرادَ بالأئمَّةِ رؤساءُ المشركينَ؛ فالتَّخصيصُ إمَّا لأنَّ قَتْلَهم أهمُّ، وهُمْ به أحقُّ، أو للمَنْعِ من مُراقبتِهم(٤)، أو خَصَّ الأئمَّةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم الذين يُحرِّضونَ الأتباعَ على البقاءِ على الكُفْرِ(٥).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ تَعليلٌ لقِتالِهم بأنَّهم اسْتَحقُّوه لأجْلِ اسْتِخفافِهم بالأَيْمانِ التي حَلَفوها على السَّلْمِ، فغَدَروا(٦).

- ونَفْيُ الأَيْمانِ لهم: نفيٌ للماهيةِ الحقِّ لليَمينِ، وهي قَصْدُ تعظيمِه والوفاءِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).

به، فلمَّا لم يُوفُوا بأيمانِهم، نُزِّلتْ أيمانُهم مَنْزلةَ العَدَمِ؛ لفُقْدانِ أَخَصِّ خواصِّها، وهو العملُ بما اقْتَضتْه[1].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٦)

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ
وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ
وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ
وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أي: يُذِلَّهم، والخِزْيُ: الهوانُ، وأصلُه: يدلُّ على الإبعادِ[1].

﴿وَلِيجَةٗ﴾: أي: بِطَانةً، دُخلاءَ مِن المُشرِكينَ يُخالِطونَهم ويودُّونَهم. وكلُّ شَيءٍ أدخَلْتَه في شَيءٍ وليسَ منه، يُقالُ له: (وَليجةٌ)، وأصلُ (ولج): يدلُّ على دخولِ شَيءٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: اسم الجلالةِ مُبتدأٌ، وفي الخَبرِ وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه ﴿أَحَقُّ﴾ وعلى هذا فَقَولُه: ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن اسم الجلالةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

والمفضَّلُ عليه محذوفٌ، أي: فخَشيةُ اللهِ أحقُّ مِن خَشيتِهم. أو ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ في محلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على نزْعِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: أحقُّ بأن تَخْشَوه. الثاني: أنَّ الخبَرَ جُملةٌ ﴿أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ فـ ﴿أَحَقُّ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ. و﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ مبتدأٌ ثانٍ مُؤخَّرٌ، والجُملة خبَرُ اسمِ الجلالةِ، أي: فاللهُ خَشْيتُه أحقُّ[1].

وجُملةُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، وجوابُ ﴿إِن﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قَبلَه، أي: إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ فاخْشَوُا اللهَ. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ عِبادَه المُؤمنينَ قائلًا لهم: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشركينَ الذين نقَضُوا العَهدَ الذي بينكم وبيَنَهم، وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مكَّة، وهم بدَؤُوكم بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ، أتخافونَهم؟! فاللهُ أحَقُّ أن تخافُوا منه إنْ كُنتم مُؤمِنينَ.

قاتِلُوهم- أيُّها المُؤمِنونَ- يُعَذِّبْهم اللهُ بأيديكم، ويُهِنْهم، ويَنصُرْكم عليهم، ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، مما فيها من الألَمِ، ويُزِلِ الغَيظَ مِن قُلوبِهم، ويتوبُ سبحانه على مَن يَشاءُ مِن أولئك المُشرِكينَ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

أظَنَنتُم- أيُّها المُسلمونَ- أن يترُكَكم اللهُ دونَ أن يختبِرَكم بالجهادِ، فيعلَمَ الذين صَدَقوا في جهادِهم في سبيلِه، ولم يتَّخِذوا من دونِ اللهِ ولا رسولِه ولا المؤمنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمِنينَ، واللهُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٢٩٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٨٧).

خَبيرٌ بما تَعملونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، أتبَعَه بذِكرِ السَّبَبِ الذي يبعَثُهم على مُقاتَلَتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾.

أي: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشرِكينَ الذين نقَضُوا العهدَ الذي بينَكم وبينهم[2]؟!

﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨).

قال الرازي: (نَكْثُهم العَهدَ: كُلُّ المُفَسِّرينَ حَمَلَه على نَقْضِ العَهدِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).

وممَّن اختار أنَّهم همُّوا بإخراجِه مِن مكَّةَ قبل الهجرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾.

أي: وهَؤلاءِ المُشرِكونَ بَدَؤُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم، بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ[1].

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

أي: أتَخافُونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- على أنفُسِكم مِن هؤلاءِ المُشرِكينَ، فتَترُكوا قتالَهم؛ لِئلَّا ينالَكم منهم مَكروهٌ؟ فاللهُ أَولى أن تخافُوا مِن عُقوبَتِه بتَركِكم جهادَ أولئكَ المُشرِكين، إن كُنتُم مُؤمِنينَ حقًّا[2].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٠، ٣١١).
وممَّن اختار أنَّ المَقصودَ بذلك نقضُ المُشرِكينَ للعَهدِ بقتالِ خُزاعةَ حُلفاءِ المُسلمين: الواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ، وعكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٨).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المراد: بدؤوكم بالقتالِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّتَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ في التَّواني عن قتالِ المُشرِكين، وأقام الحُجَجَ البَيِّنةَ على وُجوبِ قِتالِهم، ودَحْضِ شُبهةِ المانِعِ منه- صَرَّحَ بالأمرِ القَطعيِّ به، مع الوعد بإظهارِ المُؤمِنينَ عليهم أكمَلَ الظُّهورِ وأتَمَّه، بما يُزيلُ خَشْيَتَهم منهم، بل يُوجِبُ إقدامَهم عليهم، ورغبَتَهم فيهم[1]، فقال تعالى:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

أي: قاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- هؤلاءِ المُشرِكينَ الذين نقَضُوا عهودَهم؛ فإنَّكم

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تقولُ: افعَلْ كذا إن كنتَ رجلًا، أي: رجُلًا كاملًا، فهذا معناه: إن كنتُم مُؤمِنينَ كامِلِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانَهم قد كان استقَرَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣).

وقال الشنقيطي: (﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (إنْ) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تُشكِلُ دائمًا على المتعلِّمينَ، وبعضِ العُلَماءِ، و (إنْ) هذه هي التي اختلَفَ فيها البصريُّونَ والكوفيُّونَ، وهي كثيرةٌ في القرآن، فالبصريونَ يقولون: إنَّ (إنْ) هذه صيغةُ شَرطٍ جِيءَ بها مُرادًا بها التَّهييجُ، وقُوَّةُ الحَملِ على الامتثالِ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعروفٌ؛ أنَّ العَرَبَ تنطِقُ بأداة الشَّرطِ، ولا تُريدُ به حقيقةَ تَعليقِ جزاءٍ على شرطٍ، وإنَّما تريدُ به التَّهييجَ والدَّعوةَ الصَّارمةَ إلى الامتثالِ... أمَّا الكوفيونَ فإنَّهم يقولون: إنَّ (إنْ) هذه بمعنى (إذْ) وأنَّها تعليليَّةٌ، ويقولون: «فَاللهُ أحَقُّ أن تخشَوْه إذْ كُنتُم مُؤمِنينَ» أي: لأجلِ كَونِكم كنتم مُؤمِنينَ؛ فذلك يستوجِبُ منكم الخَشيةَ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢-٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

إن تُقاتِلوهم يَقتُلْهم اللهُ بأيديكم[1].

﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ويُذِلَّهم اللهُ ويُهِنْهُم بالأسرِ، ويَمنَحْكم النَّصرَ عليهم[2].

﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، ظَلَمَهم المُشرِكون وقَهَروهم، فتنشَرِحْ صُدورُهم بالانتصارِ عليهم وقَتْلِهم، وأَسْرِهم، ويَزُلْ ما حصَلَ في قُلوبِهم من الألَمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

قال الشنقيطي: (﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ هذا التَّعذيبُ الذي يُعَذِّبُهم اللهُ بأيديهم: هو القَتلُ بالضَّربِ الوَجيعِ، الذي يصِلُ به صاحِبُه إلى النَّارِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤، ٣١٥).

قال أبو حيان: (جاء التَّركيبُ ﴿صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ لِيَشمَلَ المُخاطَبينَ وكُلَّ مُؤمنٍ؛ لأنَّ ما يُصيبُ أهلَ الكُفرِ مِن العَذابِ والخِزي هو شِفاءٌ لِصَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ. وقيل: المرادُ قَومٌ مُعَيَّنونَ... قال مجاهِدٌ والسُّدِّي: هم خُزاعةُ. ووجهُ تَخصيصِهم أنَّهم هم الذين نُقِضَ فيهم العَهدُ ونالَتْهم الحَربُ، وكان يومَئذٍ في خُزاعةَ مؤمنونَ كَثيرٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢، ٣٨٣).

وقال الشنقيطي: (قال جماهيرُ مِن أهلِ التَّفسير: إنَّ المُرادَ بالقَومِ المؤمنينَ أنَّهم خُزاعةُ؛ حيث تمالأَ عليهم البَكْريُّونَ وقُرَيشٌ، وقَتَلوهم في الحَرَمِ، واستنجَدُوا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨).

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الشِّفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ قد لا يُرادُ به الكَمالُ؛ أتبَعَه تحقيقًا لِكَمالِه بقَولِه[1]:

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: ويُزِلِ اللهُ الغَيظَ الكامِنَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ بِسبَبِ ظُلمِ الكُفَّارِ وقَهْرِهم لهم[2].

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ويتوبُ اللهُ على مَن يَشاءُ أن يتوبَ عليهم من أولئك المُشرِكينَ، بأن يُوفِّقَهم للدُّخولِ في الإسلامِ، ويَقبَلَ منهم التَّوبةَ مِن الكُفرِ والآثامِ[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصلِحُ عِبادَه، وعِلمُه بمن يستحِقُّ منهم التَّوفيقَ للتَّوبةِ، ومَن يستحِقُّ منهم الخِذلانَ عنها، حكيمٌ في أفعالِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ القراءةُ بالرَّفعِ على الاستئنافِ؛ لأنَّه ليس من جنسِ الأوَّلِ؛ ولهذا لم يقُلْ (وَيَتُبْ) بالجَزمِ؛ لأنَّ القِتالَ غَيرُ موجِبٍ لهم التَّوبةَ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهو مُوجِبٌ لهم العَذابَ والخِزيَ، وشِفاءَ صُدورِ المؤمنينَ، وذَهابَ غَيظِ قُلوبِهم. ونظيرُه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] تَمَّ الكَلامُ. ثمَّ قال: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧).

وأقوالِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، ومن ذلك حِكمَتُه في تَصريفِ عِبادِه مِن حالٍ إلى حالٍ[١].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الآياتِ المُتقَدِّمةَ كانت مُرغِّبةً في الجهادِ، والمقصودُ مِن هذه الآيةِ مَزيدُ بَيانٍ في التَّرغيبِ[٢].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾.

أي: أظَنَنْتُم- أيُّها المُسلِمونَ[٣]- أن يترُكَكم اللهُ دون أن يَختَبِرَكم بالجِهادِ، فيعلَمَ الصَّادِقينَ منكم الذين يُجاهِدونَ في سبيلِه، مِن الكاذِبينَ المُضَيِّعينَ ما أمَرَ به من جهادِ الكافرينَ؛ عِلمًا ظاهِرًا مَشهودًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧).

(٣) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُسلِمينَ، على تفاوُتِ مَراتِبِهم في مُدَّةِ إسلامِهم، فشَمِلَ المُنافِقينَ؛ لأنَّهم أظهَروا الإسلامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزجَّاج: (اللهُ جَلَّ وعَزَّ قد عَلِمَ قبلَ أمْرِهم بالقِتالِ مَن يُقاتِلُ ممَّن لا يُقاتِلُ، ولكِنَّه كان يعلَمُ ذلك غيبًا، فأراد العِلمَ الذي يُجازِي عليه؛ لأنَّه جَلَّ وعَزَّ إنَّما يُجازي على ما عَمِلوا). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (قال البغوي رحمه الله في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أحَسِبْتُم أن يترُكَكم اللهُ ولم يَرَ اللهُ عَمَلَكم حتى يتبيَّنَ للنَّاسِ المُخلِصَ مِن غيرِه. وعلى هذا

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

أي: ولـمَّا يَعْلمِ الله الَّذين جاهدُوا مِنكم، والَّذين لم يتَّخِذوا مِن دُونِ اللهِ ولا رَسولِه ولا المُؤمِنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمنينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ

التَّفسيرِ الذي فَسَّرَها به، فالمعنى يُشبِهُ قَولَه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ١٠٥]. ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بِجَميعِ أعمالِكم الخَفِيَّةِ- أيُّها المُسلِمونَ- فيُجازيكم عليها؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ومن ذلك اتِّخاذُ بِطانةٍ مِن الكافِرينَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المُؤمِنَ ينبغي أن يَخشى ربَّه، وألَّا يَخشَى أحدًا سِواه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ دليلٌ على أنَّ المُؤمِنَ حقَّ الإيمانِ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يخشى إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ المُجاهِدُ قد يُجاهِدُ، ولا يكونُ مُخلِصًا، بل يكونُ مُنافقًا، باطِنُه خلافُ ظاهِرِه، وهو الذي يتَّخِذُ الوليجةَ مِن دونِ الله ورسولِه والمُؤمنينِ، فبيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا يترُكُهم إلَّا إذا أتَوْا بالجهادِ مع الإخلاصِ؛ خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ، والتودُّدِ إلى الكُفَّارِ، وإبطالِ ما يُخالِفُ طريقةَ الدِّينِ، والمقصودُ بيانُ أنَّه ليس الغَرضُ مِن إيجابِ القتالِ نَفسَ القِتالِ فقط، بل الغَرَضُ أن يُؤتَى به انقيادًا لأمرِ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

وجَلَّ، ولِحُكمِه وتكليفِه؛ لِيَظهَرَ به بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلَبِ رِضوانِ الله تعالى، فحينئذٍ يحصُلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لِسائرِ الأغراضِ، فذاك ممَّا لا يُفيدُ أصلًا[١].

٤- شَرَع اللهُ الجِهادَ؛ لِيَحصُلَ به مقصودٌ أعظَمُ، وهو أن يتميَّزَ الصَّادِقونَ، الذين لا يتحَيَّزونَ إلَّا لِدينِ الله، من الكاذبينَ الذين يزعُمونَ الإيمانَ، وهم يتَّخِذونَ الولائجَ والأولياءَ مِن دونِ الله ورَسولِه والمُؤمِنينَ؛ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾، ولا وَليجةَ أعظَمُ ممَّن جعَلَ رَجُلًا بِعَينِه مُختارًا على كلامِ اللهِ، وكَلامِ رَسولِه، وكلامِ سائرِ الأمَّةِ، يُقَدِّمُه على ذلك كُلِّه، ويَعْرِضُ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسولِه وإجماعَ الأمَّةِ على قَولِه، فما وافَقَه منها قَبِلَه؛ لِمُوافَقتِه لِقَولِه، وما خالَفَه منها تلطَّفَ في ردِّه، وتَطَلَّبَ له وُجوهَ الحِيَلِ، فإن لم تكُنْ هذه وليجةً، فلا نَدري ما الوليجةُ[٣]؟!

٦- يجِبُ على الإنسانِ أن يُبالِغَ في أمرِ النيَّةِ ورعايةِ القَلبِ؛ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: عالِمٌ بنيَّاتِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

وأغراضِهم، مُطَّلِعٌ عليها لا يخفى عليه منها شيءٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ يدُلُّ على أنَّ قِتالَ النَّاكثينَ أَوْلى مِن قِتالِ غَيرِهم من الكُفَّارِ؛ لِيكونَ ذلك زَجرًا لِغَيرِهم[٢].

٢- مُؤاخَذتُهم على مُجَرَّدِ الهَمِّ بإخراجِ الرَّسولِ في قَولِ الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجوه، وإلَّا لكان الأجدَرُ أن يَنعَى عليهم الإخراجَ لا الهَمَّ به[٣]، وهذا على أحدِ أوجهِ التفسيرِ للآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إنَّما قال: ﴿بَدَءُوكُمۡ ﴾ تنبيهًا على أنَّ البادِئَ أظلَمُ[٤].

٤- إن قيل: أليسَ قال اللهُ تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف قال تعالى هنا: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ فالجوابُ: أنَّ المُرادَ مِن قَولِه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ عذابُ الاستئصالِ، والمرادُ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ عذابُ القَتلِ والحَربِ. والفَرقُ بين البابَينِ أنَّ عَذابَ الاستئصالِ قد يتعَدَّى إلى غيرِ المُذنِبِ، وإن كان في حَقِّه سببًا لِمَزيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

الثَّوابِ، أمَّا عذابُ القَتلِ فالظَّاهِرُ أنَّه يَبقَى مقصورًا على المُذنِبِ(١).

٥- في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المُعَذِّبُ؛ وأنَّ أيدِيَنا أسبابٌ وآلاتٌ وأوساطٌ وأدواتٌ في وصولِ العَذابِ إلى المُشرِكينَ هؤلاء(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ شِفاءَ الصُّدورِ مِن ألَمِ النَّكثِ والطَّعنِ، وذَهابَ الغَيظِ الحاصِلِ في صدورِ المُؤمِنينَ مِن ذلك؛ أمرٌ مَقصودٌ للشَّارِعِ، مطلوبُ الحُصولِ، وأنَّ ذلك يحصُلُ إذا جاهَدُوا(٣)، فدلَّ على مَحبَّةِ اللهِ لعبادِه المُؤمِنينَ، واعتنائِه بأحوالِهم، حتى إنَّه جعَلَ مِن جُملةِ المقاصِدِ الشَّرعيَّةِ شِفاءَ ما في صُدورِهم، وذَهابَ غَيظِهم(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ دالٌّ على المُعجِزة؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقَعَت مُوافِقةً لهذه الأخبارِ، فيكونُ ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، والإخبارُ عن الغَيبِ مُعجِزٌ(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩، ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦).

وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يدلُّ على كَونِ الصَّحابةِ مُؤمِنينَ في عِلمِ الله تعالى إيمانًا حَقيقيًّا؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ قُلوبَهم كانت مملوءةً من الغَضَبِ ومن الحمِيَّةِ؛ لأجلِ الدِّينِ، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في عُلُوِّ دِينِ الإسلامِ، وهذه الأحوالُ لا تحصُلُ إلَّا في قلوبِ المُؤمِنينَ[١].

٩- ذكَرَ الله تعالى ما تسبَّبَ عن النَّصرِ مِن شفاءِ صُدورِ المُؤمِنينَ، وإذهابِ غَيظِهم في قَولِه: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ * وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ ﴾؛ تتميمًا للنِّعَم، فذكَرَ ما تسبَّبَ عن النَّصرِ بالنِّسبةِ للكُفَّارِ، وذكَرَ ما تسبَّبَ للمُسلمينَ مِن الفَرَحِ والسُّرورِ بإدراكِ الثَّأرِ، ولم يذكُرْ ما نالوه من المغانِمِ والمطاعِمِ؛ إذ العَرَبُ قَومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفةِ، فرَغْبَتُهم في إدراكِ الثَّأرِ وقَتلِ الأعداءِ هي اللَّائقةُ بِطِباعِهم[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ دخَلتِ الهَمزةُ على (لا تُقاتِلُونَ) تَقريرًا بانْتِفاءِ المُقاتَلةِ، ومعناه: الحَضُّ عليها على سَبيلِ المُبالَغةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).

وقال ابنُ عاشور: (ولفظُ (ألَا) يَحتمِل أنْ يكون مجموعَ حَرْفَينِ؛ هما: همزة الاستفهام، و(لا) النافية، ويَحتمِل أن يكون حرفًا واحدًا للتحضيضِ؛ فعلى الاحتمالِ الأوَّلِ يجوزُ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، على انتفاءِ مُقاتلة المشركين في المستقبل... فيكون دفعًا لأنْ يَتوهَّمَ

- قولُهُ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ اسْتِفهامٌ على مَعْنى التَّقريرِ والتَّوبيخِ؛ فهو تَقريرٌ للخَشيةِ منهم، وتَوبيخٌ عليها[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ تجريدٌ للأمرِ بالقِتالِ بعدَ التَّوبيخِ على ترْكِهِ، ووَعْدٌ بنَصْرِهم، وبتَعذيبِ أعدائِهم وإخزائهم، وتَشجيعٌ لهم[(٢)].

٣- **قولُه تعالى:** ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ يُنبِئُ عمَّا سيكونُ من بعضِ أَهْلِ مَكَّةَ، من التَّوبةِ المقبولةِ بحسَبِ مَشيئتِه تعالى المَبنيَّةِ على الحِكَمِ البالِغةِ[(٣)].

- قال تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقال فيما بعد: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧] فاستَوَتِ الآيتانِ في إعلامِه تعالى نبيَّه والمُؤمنينَ أنَّه يتوبُ

المسلِمون حُرمةً لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا...؛ تقريرًا على النَّفي تنزيلًا لهم منزلةَ من ترَك القتال؛ فاستوجب طلبَ إقرارِه بتَرْكِه... وعلى الاحتمالِ الثاني أنْ يكون (ألَا) حرفًا واحدًا للتحضيض، فهو تحضيضٌ على القتال، وجَعَل في «المغني» هذه الآية مثالًا لهذا الاستعمالِ على طريقة المبالغةِ في التحذير). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٢) باختصار.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على من يشاءُ، وفى خَتْمِ الآيتينِ بِصِفَتينِ مِن صِفاتِه سُبحانه، ثم اختلفَتِ الصِّفَتانِ، فقيل في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفى الثَّانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الآيةَ الأُولى أُعقِبَ بها ما تقَدَّمَها مُتَّصِلًا بها مِن الآيِ في كُفَّارِ مَكَّةَ، وفِعْلِهم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه؛ مِن التَّضييقِ والإخراجِ، وبَدْئِهم بالقتالِ يومَ بَدرٍ، ونَقضِهم العهدَ في قصَّةِ خُزاعةَ في صُلحِ الحُديبيَةِ، فأمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِهم وخِزْيِهم، والنَّصرِ عليهم، وشفاءِ صُدورِ مَن آمنَ مِن خُزاعةَ وغَيرِهم ممَّن آذَوْه، فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ثمَّ قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ثم قال ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: بما في القِتالِ، وفي طَيِّ ما جرى من ذلك كلِّه بتَقديرِه السَّابِقِ أوَّلًا؛ إذ لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه وتقَدُّمِ عِلْمِه أوَّلًا، وما في ذلك من الحكمةِ، وخَتَم أفعالَهم السيِّئةَ بالأوبةِ والرُّجوعِ إليه سبحانَه بِسابِقِ سَعادةٍ لِمَن شاهَدَها له منهم؛ فهذا وَجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضِحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسَبَبُها- والله أعلَمُ- ما جرى يومَ حُنَينٍ مِن تولِّي النَّاسِ مُدبِرينَ، حين ابتُلُوا بإعجابِهم بكَثرتِهم، فلم تُغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبُتْ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك اليومِ أحَدٌ؛ إذ لم يَبرَحْ عليه السَّلامُ مِن مكانِه، فلم يثبُتْ معه إلَّا القَليلُ مِن العَدَدِ القليلِ، فنادى العباسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصارِ فاستجابَ ناسٌ، وأنزَلَ اللهُ سَكينتَه على رسولِه وعلى المُؤمنينَ، ومكَّنَ نبيَّه والمُسلمينَ من أعدائِهم، فخُتِمَت هذه الآيُ بِقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ تأنيسًا لِمَن فَرَّ مِن المسلمينَ في ذلك اليومِ، وبِشارةً لهم بتوبةِ اللهِ عليهم، وأنَّ ما وقع منهم من الفِرارِ مَغفورٌ لهم؛ رحمةً مِن اللهِ سبحانه،

فجاء كلُّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يُلائِمُ خِلافُه[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ الله يُعامِلُ النَّاسَ بما يَعْلَمُ مِن نيَّاتِهم، وأنَّه حَكيمٌ لا يأمُرُ إلَّا بما فيه تَحقيقُ الحِكْمةِ؛ فوَجَبَ على النَّاسِ امْتِثالُ أوامِرِه، وأنَّه يَقْبلُ تَوبةَ مَن تاب إليه؛ تَكثيرًا للصَّلاحِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ ﴾ (أَمْ) مُنْقَطِعةٌ؛ لإفادةِ الإضرابِ عن غَرضٍ من الكلامِ للانْتِقال إلى غَرَضٍ آخَرَ، والكلامُ بَعْدَ (أَمْ) المُنْقَطِعةِ له حُكْمُ الاسْتِفهامِ دائمًا؛ فقولُه: ﴿حَسِبْتُمْ ﴾ في قوَّةِ (أَحَسِبْتُمْ)، والاسْتِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿وَلِيجَةً ﴾ في سِياقِ النَّفْيِ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ يَعُمُّ سائرَ أفرادِها[٤].

- وجملةُ: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تَذييلٌ؛ لإنكارِ ذلك الحُسبانِ، أي: لا تَحسبوا ذلك مع عِلمِكم بأنَّ اللهَ خَبيرٌ بكلِّ ما تَعملونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-١٩)

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ
أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ
يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ
سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾: أي: سَقْيَ الحَجيجِ، و(سقاية) مصدرٌ مِن (سقى)، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشيءِ الماءَ، وما أشبهَه[1].

﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾: أي: القِيامَ بِمَصالِحِه ومُعاهَدتَه. والعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، و(عمارة) مصدرُ (عمَر)، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي للمُشرِكينَ أن يَعمُرُوا مساجِدَ الله ببنائِها أو التعبُّدِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ، أولئك بطَلَت أعمالُهم، وهم في نارِ جهنَّمَ، ماكثونَ فيها على الدَّوام.

وأخبَرَ تعالى أنَّ مساجِدَ اللهِ يعمُرُها مَن آمَنَ باللهِ وبالبَعثِ والقيامةِ، وأقام الصَّلاةَ المكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ المَفروضةَ إلى مُستحِقِّيها، ولم يخَفْ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١).

إلَّا اللهَ تعالى، فعسَى أولئك أن يكونُوا من المُهتَدينَ.

ثم يقولُ تعالى: أجعَلْتُم- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ سِقايةِ الحجيجِ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، كمَن آمَنَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ، وجاهَدَ في سبيلِ الله، بل لا يَستوونَ عندَ اللهِ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى بدأ السُّورةَ بذِكرِ البراءةِ من الكُفَّارِ، وبالَغَ في إيجابِ ذلك، وذكَرَ مِن أنواعِ فضائِحِهم وقبائِحِهم ما يُوجِبُ تلك البراءةَ، ثمَّ إنَّه تعالى حكى عنهم شُبَهًا احتجُّوا بها في أنَّ هذه البراءةَ غيرُ جائزةٍ، وأنَّه يجبُ أن تكونَ المُخالَطةُ والمُناصَرةُ حاصلةً؛ فأوَّلُها ما ذكَرَه في هذه الآيةِ، وذلك أنَّهم موصوفونَ بصِفاتٍ حَميدةٍ وخِصالٍ مَرضِيَّةٍ، وهي تُوجِبُ مُخالَطتَهم ومُعاوَنتَهم ومُناصَرتَهم، ومن جملةِ تلك الصِّفاتِ كَونُهم عامرينَ للمَسجِدِ الحَرامِ[١].

وأيضًا لَمَّا حَذَّرَهم اللهُ تعالى مِن اتِّخاذِ وليجةٍ مِن دُونِه، شرَعَ يُبَيِّنُ أنَّ الوليجةَ التي يتَّخِذُها بعضُهم لا تصلُحُ للعاطفةِ بما اتَّصَفَت به من محاسِنِ الأعمالِ، ما لم تُوضَعْ تلك المحاسِنُ على الأساسِ الذي هو الإيمانُ الـمُبَيَّنُ بدَلائِلِه، فقال سائقًا له مَساقَ جَوابِ قائلٍ قال: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخَيرِ ما يدعو إلى الكَفِّ عنهم؛ من عِمارةِ المسجِدِ الحرامِ وخِدمَتِه وتَعظيمِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠٠).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

أي: ما ينبغي للمُشركينَ أن يَعمُروا مساجِدَ اللهِ ببنائِها وتزيينِها، والعبادةِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ[1]؛ بما يأتُونَه من أقوالٍ وأفعالٍ كُفريَّةٍ، يُقِرُّونَ بها، ولا يُمكِنُهم إنكارُها[2].

(١) قال الرازي: (أقرُّوا على أنفُسِهم بعبادةِ الأوثانِ وتكذيبِ القُرآنِ، وإنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكلُّ ذلك كُفرٌ، فمَن يَشهَدْ على نَفسِه بكُلِّ هذه الأشياءِ، فقد شَهِدَ على نَفسِه بما هو كُفرٌ في نفسِ الأمرِ، وليس المرادُ أنَّهم شَهِدُوا على أنفُسِهم بأنَّهم كافِرونَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وقال ابنُ كثير: (وهم شاهدونَ على أنفسِهم بالكفرِ، أي: بحالِهم وقالِهم، كما قال السُّديُّ: لو سألتَ النصرانيَّ: ما دينُك؟ لقال: نصرانيٌّ، واليهوديَّ: ما دينُك؟ لقال: يهوديٌّ، والصابئَ، لقال: صابئيٌّ، والمشركَ، لقال: مشركٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (وشَهادَتُهم على أنفُسِهم بالكُفرِ حاصِلةٌ في كثيرٍ مِن أقوالِهم وأعمالِهم؛ بحيث لا يستطيعونَ إنكارَ ذلك، مثل قَولِهم في التَّلبيةِ: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك، تَملِكُه وما مَلَك»، ومثل سُجودِهم للأصنامِ، وطوافِهم بها، ووضْعِهم إيَّاها في جَوفِ الكَعبةِ وحَولَها وعلى سَطْحِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بِعِمارةِ المساجِدِ هنا: العبادةُ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، والسعدي، وابنُ عاشورٍ. إلَّا أنَّ ابنَ عاشورٍ يرى أنَّ المرادَ بـ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: مواضِعُ عبادتِه، والمعنيُّ بذلك: المسجِدُ الحرامُ وما يَتْبَعُه من المَسعَى وعَرَفَةَ، والمشعَرِ الحرامِ والجَمَرات، والمَنْحَرِ من مِنًى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٩-١٤٠).

قال ابنُ رجبٍ: (عِمارةُ المساجِدِ تكونُ بِمَعنيينِ:

أحدُهما: عِمارَتُها الحسيَّةُ؛ ببنائِها وإصلاحِها وترميمِها، وما أشبَهَ ذلك.

والثاني: عِمارتُها المعنويَّةُ؛ بالصَّلاةِ فيها، وذِكرِ اللهِ وتلاوةِ كِتابِه، ونَشْرِ العِلمِ الذي أنزَلَه على رسولِه، ونحوِ ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: أولئك المُشرِكونَ قد بَطَلَت أعمالُهم- ومنها عِمارةُ البَيتِ الحَرامِ- فلا يُؤجَرونَ عليها في الآخرةِ؛ بِسَبَبِ شِرْكِهم(١).

كما قال سُبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ في نارِ جهنَّمَ، ماكِثونَ فيها على الدَّوامِ(٢).

وقد فُسِّرَت الآيةُ بكُلٍّ واحدٍ مِن المعنيَينِ، وفُسِّرت بهما جميعًا، والمعنى الثَّاني أخصُّ بها... واتَّفقوا على مَنْعِ الكُفَّارِ مِن إظهارِ دِينِهم في مساجِدِ المسلمينَ، لا نعلَمُ في ذلك خِلافًا. وهذا ممَّا يدُلُّ على اتِّفاقِ النَّاسِ على أنَّ العِمارةَ المَعنويَّةَ مُرادةٌ مِن الآيةِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٨١-٤٨٣).

وقال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين حملوا العمارةَ ههنا على دخولِ المسجدِ الحرامِ والقعودِ فيه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٢٨).

وقال الرازي: (عمارةُ المساجِدِ قسمان: إمَّا بلزومِها، وكثرةِ إتيانِها يُقال: فلانٌ يعمرُ مجلسَ فلانٍ، إذا كثُر غشيانُه إيَّاه، وإمَّا بالعمارةِ المعروفةِ في البناءِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وممن رجَّح أنَّ المرادَ بها: بناءُ المساجِدِ وترميمُها وتزيينُها: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٧-٣٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٩).

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عدَمَ استحقاقِ المُشرِكينَ لِعمارةِ مَساجِدِ اللهِ، أثبَتَها للمُسلِمينَ الكامِلينَ، وجَعَلَها مقصورةً عليهم بالفِعلِ لا بمجَرَّدِ الشَّأنِ والاستحقاقِ(١)، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: ما يَعمُرُ مَساجِدَ اللهِ حقًّا- بقَصْدِها وعبادةِ اللهِ تعالى وذِكْرِه فيها، وببنائِها وتَرميمِها والعنايةِ بها(٢)- إلَّا المُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وبالبَعْثِ والقيامةِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (ليس المرادُ مِن عِمارَتِها زَخْرَفتَها وإقامةَ صُورَتِها فقط، إنَّما عِمارَتُها بذِكرِ اللهِ فيها، وإقامةِ شَرْعِه فيها، ورَفْعِها عن الدَّنَسِ والشِّركِ). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن بنى مَسجِدًا يبتغي به وَجهَ اللهِ، بنى اللهُ له مِثلَه في الجنَّةِ))[1].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يَومَ القيامةِ في ظِلِّه، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه)) وذَكَرَ منهم: ((ورجُلٌ قَلبُه مُعَلَّقٌ في المسجِدِ))[2].

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وأقام الصَّلاةَ المَكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مُستحِقِّيها، ولم يَخَفْ إلَّا اللهَ تعالى وَحْدَه، فلم يترُكْ أمرَ اللهِ ونَهْيَه؛ لِخَشيةِ غَيرِه[3].

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢١).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الزجَّاجُ: تأويلُه: لم يَخَفْ في بابِ الدِّينِ إلَّا اللهَ جَلَّ وعزَّ، وقال أهل المعاني: يعني: لا يترُكُ هذه العباداتِ لِخَشيةِ أحدٍ، ولكنْ يخشى اللهَ فيُقيمُ ذلك، والخَشيةُ مِن غَيرِ اللهِ المنهيُّ عنها: أن يترُكَ أمْرَ اللهِ لِخَشيةِ غَيرِه، فأمَّا أن يخشى النَّاسَ خَشيةً لا تؤدِّيه إلى تَرْكِ أمرِ اللهِ، فليس بمنهيٍّ عنه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).

وقال أبو حيان: (﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عطيةَ: يُريدُ خشيةَ التَّعظيمِ والعبادةِ والطَّاعةِ، ولا محالةَ أنَّ الإنسانَ يخشى غَيرَه، ويخشى المحاذيرَ الدُّنيويَّةَ، وينبغي أن يَخشَى في ذلك كلِّه قَضاءَ اللهِ وتَصريفَه. وقال الزَّمخشري: هي الخشيةُ والتقوى في أبوابِ الدِّينِ، وألَّا يختارَ على رِضا اللهِ رِضا غيرِه، وإذا اعترَضه أمرانِ أحدُهما حَقُّ الله تعالى، والآخَرُ حَقُّ نَفسِه؛ خاف اللهَ، وآثَرَ حَقَّ اللهِ على حقِّ نَفسِه. وقيل: كانوا يَخشَونَ الأصنامَ ويَرجُونَها، فأُريدَ نفيُ تلك الخشيةِ عنهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦).

أي: فعُمَّارُ المَساجِدِ المُؤمِنونَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ، المقيمونَ الصَّلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ، الذين يَخشَونَ اللهَ تعالى وَحدَه، هم مِن الذينَ هداهم اللهُ للتمَسُّك بالحَقِّ الـمُوصِلِ إلى الجنَّةِ(١).

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وقَعَ الكلامُ على أنَّ المُؤمِنينَ هم الأحِقَّاءُ بِعمارةِ المَسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ؛ دلَّ ذلك الكلامُ على أنَّ المَسجِدَ الحَرامَ لا يحِقُّ لِغَيرِ المُسلِمِ أن يُباشِرَ فيه عملًا مِن الأعمالِ الخاصَّةِ به، فكان ذلك مَثارَ ظَنٍّ بأنَّ القِيامَ بِشَعائرِ المسجِدِ الحرامِ مُساوٍ للقيامِ بأفضَلِ أعمالِ الإسلامِ(٢).

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

جماهيرُ العُلَماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجِبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لِشِدَّةِ كَرَمِه- جَلَّ وعلا- وفَضْلِه. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

قال الواحدي: (وعسى مِن اللهِ واجبةٌ، ولكِنْ ذُكِرَ بِلَفظِ ﴿عسى﴾؛ ليكونُوا على رجاءٍ وطَمَعٍ وحَذَرٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٥).

وقيل: هي بمعنى خَليقٌ، أي: فخليقٌ أن يكونُوا من المُهتَدينَ، وقيل: إنَّ الرَّجاءَ راجِعٌ إلى العِبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

أي: أجَعَلْتُم[١]- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ[٢] سَقْيِ الحَجيجِ وعمارةِ المَسجِدِ الحرامِ[٣] المُشركينَ، كالمؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ[٤]؟!

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رجلٌ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أنْ أسقِيَ الحاجَّ، وقال آخَرُ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أن أعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وقال آخَرُ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ أفضَلُ ممَّا قُلتُم، فزَجَرَهم عُمَرُ، وقال: لا تَرفَعوا أصواتَكم عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو

---

(١) قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ (جَعَلَ) هنا هي التي بمعنى (اعتَقَدَ)، وأنَّه أنكَرَ عليهم اعتِقادَهم تساوِيَ هذَينِ الأمرينِ، وهما بعيدٌ مِن المُساواة، بينهما بَونٌ عَظيمٌ، وبَونٌ شاسِعٌ. وكان بعضُهم يقولُ: لا يبعُدُ أن تكونَ هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيَّرتُم هذا كهذا، وادَّعَيتُم أنَّه مِثلُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ لا بُدَّ أن يُقدَّرَ مُضافٌ في أحدِ الأمرينِ.
قال بَعضُ العُلماءِ: يُقدَّرُ في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أصحابَ سِقايةِ الحاجِّ، أو أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ كمَن آمَنَ، أي: كالذينَ آمنوا بالله؟
وقال بعضُ العُلَماءِ: يُقدَّرُ المضافُ في الثَّاني: أي: أجعلْتُم سقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجِدِ كعَمَلِ مَن آمَنَ باللهِ. والأمرانِ جائزانِ، وأظهَرُهما: تقديرُه في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وأصحابَ عِمارةِ المسجِدِ كالذين آمَنوا بالله، لا يَكونونَ مِثلَهم أبدًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٤١).

(٣) قال ابنُ عاشور: (السِّقايةُ: صِيغةٌ للصِّناعة، أي: صناعة السَّقيِ، وهي السَّقيُ مِن ماءِ زَمزم، ولذلك أُضيفَت السِّقايةُ إلى الحاجِّ. وكذلك العمارةُ صِناعةُ التَّعميرِ، أي: القيام على تعميرِ شَيءٍ بالإصلاحِ والحراسةِ ونحو ذلك... وأضيفَتْ إلى المسجِدِ الحرامِ؛ لأنَّها عمَلٌ في ذاتِ المَسجِدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٧، ٣٤١).
قال ابن جرير: (هذا توبيخٌ مِن اللهِ تعالى ذِكْرُه لِقَومٍ افتخَروا بالسِّقايةِ وسِدانةِ البَيتِ، فأعلَمَهم جلَّ ثَناؤُه أنَّ الفَخرَ في الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِه، لا في الذي افتَخَروا به من السِّدانةِ والسِّقايةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧).

يَومُ الجُمُعةِ، ولكِنْ إذا صَلَّيْتُ الجُمُعةَ دخَلْتُ فاستفتَيْتُه فيما اختلَفْتُم فيه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية إلى آخِرِها))[١].

﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا يجعَلُ اللهُ سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّارَ المسجِدِ الحرامِ مِن الكُفَّارِ، في منزلةِ المُؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمُجاهِدينَ في سبيلِ الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

(١) رواه مسلم (١٨٧٩).
قال القرطبي: (هذا المَساقُ يقتضي أنَّها إنَّما نزَلَت عند اختلافِ المُسلِمينَ في الأفضَلِ مِن هذه الأعمالِ. وحينئذٍ لا يَليقُ أن يُقالَ لهم في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتعيَّنَ الإشكالُ. وإزالَتُه بأن يُقالَ: إنَّ بعضَ الرُّواةِ تَسامَحَ في قَولِه: (فأنزَلَ اللهُ الآيَةَ). وإنَّما قرأ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآيَةَ على عُمَرَ حينَ سألَه، فظَنَّ الرَّاوي أنَّها نزَلَت حينئذٍ. واستدَلَّ بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أنَّ الجِهادَ أفضَلُ ممَّا قال أولئك الذين سَمِعَهم عُمرُ، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أُنزِلَ عليه، لا أنَّها نزَلَت في هؤلاءِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).
وقال الشنقيطي عن كلامِ القرطبيِّ: (وكلامُه فيه أجوَدُ ما وقفْتُ عليه في إزالةِ إشكالِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٦-٣٣٧).
وقال القاسمي: (قولُ النعمانِ (فأنزل الله) بمعنى أنَّ مثلَ هذا التحاورِ نزَل فيه فيصلٌ متقدِّمٌ، وهو هذه الآيةُ، لا بمعنى أنَّه كان سببًا لنزولِها... وهذا الاستعمالُ شائعٌ بينَ السلفِ، ومن لم يتفطَّنْ له تتناقض عندَه الرواياتُ، ويحار في المخرجِ، فافهمْ ذلك وتفطَّنْ له) ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى اللهُ عزَّ وجلَّ المُساواةَ بين الفَريقينِ، أوضَحَ مَن الراجِحُ مِنهما، ولَمَّا أثبَتَ الهِدايةَ للمُؤمِنينَ بِقَولِه: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، نفاها عن المُشرِكينَ فقال[1]:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للتَّوبةِ، ولِفِعلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، الكُفَّارَ والمُشرِكينَ، ومنهم أهلُ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، مِن المُشرِكينَ الذين ظَلَموا بمُساواةِ أعمالِهم هذه بالإيمانِ باللهِ وباليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، فوَضَعوا الأشياءَ في غيرِ مواضِعِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في ضِمنِ هذا الخبَرِ أمرُ المؤمنينَ بعِمارةِ المَساجِدِ، ويتناوَلُ عِمارَتُها رَمَّ ما تهدَّمَ منها، وتنظيفَها، وتنويرَها، وتعظيمَها، واعتيادَها للعِبادةِ والذِّكرِ- ومِن الذِّكرِ دَرسُ العِلمِ، بل هو أجَلُّه-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٢).

وصَونَها عمَّا لم تُبْنَ له[١].

٢- عُمَّارُ المَساجِدِ على الحقيقةِ، وأهلُها الذينَ هم أهلُها؛ موصوفونَ بالإيمانِ النَّافِعِ، وبالقيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ التي أمُّها الصَّلاةُ والزَّكاةُ، وبخشيةِ اللهِ التي هي أصلُ كُلِّ خيرٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيه أنَّ أولئك الجامعينَ لهذه الخَمسِ مِن أركانِ الإيمانِ والإسلامِ- التي يلزَمُها سائِرُ أركانِها- هم الذين يرجُونَ بحَقٍّ، أو يُرجَى لهم بحسَبِ سُنَنِ اللهِ في أعمالِ البشَرِ، وتأثيرِها في إصلاحِهم؛ أن يكونوا من جماعةِ المُهتَدينَ إلى ما يُحِبُّ اللهُ ويرضى مِن عمارةِ مَساجِدِه حِسًّا ومعنًى، واستحقاقِ الجَزاءِ عليها بالجنَّةِ خالدين فيها، دونَ غيرِهم من المُشرِكينَ الجامِعينَ لأضدادِها[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (عسى) مِن اللهِ تعالى: واجِبةٌ حيثما وقعَتْ في القُرآنِ، وفي ذلك قَطعُ أطماعِ المُشرِكينَ أن يكونوا مُهتَدينَ؛ إذ مَن جمَعَ هذه الخِصالَ جُعِلَ حالُه حالَ مَن تُرجَى له الهدايةُ، فكيف بمن هو عارٍ منها، وفي ذلك ترجيحُ الخَشيةِ على الرَّجاءِ، ورَفْضُ الاغترارِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فربَّما دخَلَها بعضُ المُفسِداتِ وصاحِبُها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٠).

لا يشعُرُ بها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الكافِرَ ممنوعٌ مِن عمارةِ مَسجِدٍ مِن مساجِدِ المُسلمينَ، ولو أوصى بها لم تُقبَلْ وصيَّتُه، ويُمنَعُ عن دخولِ المَساجِدِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ عَمَلَ الكافِرِ مُحبَطٌ لا ثوابَ فيه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ احتُجَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ مِن وَجهَينِ: أنَّ قَولَه: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، أي: هم فيها خالِدونَ لا غيرُهم، ولَمَّا كان هذا الكلامُ وارِدًا في حَقِّ الكُفَّارِ، ثبت أنَّ الخُلودَ لا يحصُلُ إلَّا للكافِرِ. والثاني: أنَّه تعالى جعَلَ الخُلودَ في النَّارِ جَزاءً للكُفَّارِ على كُفرِهم، فلو كان هذا الحُكمُ جزاءً لِغَيرِ الكافِرِ، لَمَا صَحَّ تهديدُ الكافِرِ به[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّهادةَ لعُمَّارِ المساجِدِ بالإيمانِ صحيحةٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه ربَطَه بها، وأخبَرَ عنه بمُلازَمتِها. وقد قال بعضُ السَّلَفِ: (إذا رأيتم الرَّجُلَ يعمُرُ المَسجِدَ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩٥).

فحَسِّنُوا به الظَّنَّ)[١].

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ جرتِ العادةُ أنَّ اللَّهَ يذكرُ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ مع الإيمانِ به؛ لأَنَّ الكُفرَ باليومِ الآخِرِ سببٌ لكلِّ البَلايا، وأنواعِ الكُفرِ والجحودِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقلاءِ محصورةٌ في أمرينِ؛ هما: جلبُ النَّفعِ، ودفعُ الضرِّ، والذي لا يُصدِّقُ بيومِ القيامةِ لا يرغَبُ في خيرٍ في ذلك اليَومِ، ولا يخافُ من شَرٍّ في ذلك اليومِ، فلا يَنزَجِرُ عن شيءٍ، ولا يَرعَوي عن شيءٍ؛ ولذا كان التَّكذيبُ بالبعثِ من أشنعِ أنواعِ الكُفرِ باللهِ جلَّ وعلا[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ اعتبارُ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ في عِمارةِ المسجِدِ، كأنَّه يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِن عِمارة المسجِدِ الحضورُ فيه؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا كان مُقيمًا للصَّلاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به، وإذا كان مُؤتيًا للزَّكاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ طوائفُ الفُقَراءِ والمساكينِ لِطَلَبِ أخْذِ الزَّكاةِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به. وإذا حَمَلْنا العِمارةَ على مصالحِ البِناءِ: فإيتاءُ الزَّكاةِ مُعتبَرٌ في هذا البابِ أيضًا؛ لأنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ واجِبٌ، وبناءَ المسجِدِ نافلةٌ، والإنسانُ ما لم يَفرُغْ عن الواجِبِ لا يَشتغِلِ بالنَّافلةِ، والظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ ما لم يكُن مؤدِّيًا للزَّكاةِ لم يشتغِلْ ببناءِ المَساجدِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ناسب ذِكرُ إيتاءِ الزَّكاةِ مع عمارةِ المَساجِدِ؛ لأنَّها لَمَّا كانت مَجمَعًا للنَّاسِ بانَ فيها أمْرُ الغَنيِّ والفقيرِ، وعُرِفَت أحوالُ مَن يؤدِّي الزَّكاةِ، ومَن يستحِقُّها[1].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ فيه أنَّ الجهادَ والإيمانَ باللهِ أفضَلُ مِن سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرامِ بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الإيمانَ أصلُ الدِّينِ، وبه تُقبَلُ الأعمالُ، وتزكو الخِصالُ، وأمَّا الجِهادُ في سبيلِ اللهِ فهو ذِروةُ سَنامِ الدِّينِ، الذي به يُحفَظُ الدِّينُ الإسلاميُّ ويتَّسِعُ، ويُنصَرُ الحقُّ، ويُخذَلُ الباطِلُ، وأمَّا عِمارةُ المسجِدِ الحرامِ وسِقايةُ الحاجِّ، فهي وإنْ كانت أعمالًا صالحةً، فهي مُتوقِّفةٌ على الإيمانِ، وليس فيها مِن المصالِحِ ما في الإيمانِ والجهادِ؛ فلذلك قال: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ ابتداءُ ذمٍّ لهم، وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذي فيه معنى البُعدِ؛ لأنَّهم قد تميَّزوا بوَصْفِ الشَّهادةِ على أنْفُسِهم بالكُفْرِ[3].

- قولُهُ: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ فيه إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).

للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على الخُلودِ، والظَّرفُ ﴿وَفِى ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقٌ بالخَبَرِ ﴿خَٰلِدُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ للاهْتِمام به، ولمُراعاةِ الفاصِلَةِ[(١)]، وليحصُل منه تعجيلُ المَساءةِ للكُفَّارِ إذا سَمِعوه[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جُملةَ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لَمَّا اقْتَضتْ إقْصاءَ المشركينَ عن العبادةِ في المساجِدِ، كانتْ بحيثُ تُثيرُ سؤالًا في نُفوسِ السَّامعينَ أن يَتطلَّبوا مَن هم الأحقَّاءُ بأنْ يَعْمُروا المساجدَ، فكانتْ هذه الجُمْلةُ مُفيدةً في جوابِ هذا السَّائلِ[(٣)].

- ومجيءُ صيغةِ القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ فيها مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ إقصاءُ فِرَقٍ أُخْرى عن أنْ يَعْمُروا مَساجدَ اللهِ غيرِ المشركينَ الذين كان إقصاؤُهم بالصَّريحِ؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ المرادُ من الموصولِ وصِلتِه خُصوصَ المُسلمينَ؛ لأنَّ مجموعَ الصِّفاتِ المذكورةِ في الصِّلةِ لا يَثْبُتُ لغيرِهم[(٤)].

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيه قَصْرٌ إضَافِيٌّ، وذلك باعتبارِ تعارُضِ خَشْيَتين، فإذا تَرَدَّدَ الحالُ بينَ خشْيَتِهم اللَّه وخشْيَتِهم غيرَه قَدَّموا خشيةَ اللَّه على خشيةِ غيرِه، كقولِه آنِفًا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التَّوْبة: ١٣] وليس المرادُ مِن القصرِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ اللَّه، فإنَّهم قد يَخافونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأسدَ، ويخافونَ العدُوَّ[١].

- قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيه تَبْعيدٌ للمُشركينَ عن مواقفِ الاهتداءِ، وحَسْمٌ لأطماعِهم من الانْتِفاعِ بأعمالِهم التي اسْتَعظموها، وافْتَخروا بها، وأمَّلوا عاقِبَتَها، بأنَّ الذين آمنوا وضَمُّوا إلى إيمانِهم العملَ بالشَّرائعِ مع اسْتِشعارِ الخشيةِ والتَّقوى؛ اهتداؤُهم دائرٌ بين (عسى) و(لعلَّ)؛ فما بالُ المشركينَ يَقْطَعون أنَّهم مُهتدونَ، ونائلونَ عند اللهِ الحُسْنى[٢]؟!

- والتعبيرُ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا هذا الأملَ فيهم بسَببِ تلك الأعمالِ التي عُدَّتْ لهم[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- الاسْتِفهامُ في ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ للإنكارِ؛ وهو إنكارُ أن يُشبَّه المشرِكونَ، وأعمالُهم المُحبَطةُ، بالمؤمنِينَ، وأعمالِهم المُثْبَتةِ، وجَعَلَ تَسويتَهم ظُلمًا، بعدَ ظُلْمِهم بالكُفْرِ[٤].

- والخِطابُ في هذه الآيةِ إمَّا للمُشركينَ على طريقةِ الالتِفاتِ، وهو المتبادِرُ من تخصيصِ ذكرِ الإيمانِ بجانبِ المشبَّهِ به، وإمَّا لبعض المؤمنِينَ المؤْثِرين للسِّقاية والعِمارةِ ونحوِهما على الهِجرَةِ والجِهادِ ونظائرِهما، وهو المناسِبُ للاكتفاءِ في الردِّ عليهم ببيانِ عَدمِ مساواتِهم عند اللهِ للفريق

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

الثاني، وبيانِ أعظميةِ درجتِهم عند الله تعالى على وجه يُشعر بعدم حِرمانِ الأَوَّلين بالكُليَّةِ. أمَّا على الأوَّلِ فهو توبيخٌ للمشركين، ومدارُه على إنكار تشبيهِ أنفسِهم- مِن حيثُ اتصافُهم بوصفَيْهم المذكورينِ، مع قطعِ النظرِ عمَّا هُم عليهِ من الشركِ- بالمؤمنين، مِن حيث اتصافُهم بالإيمان والجهاد، أو على إنكارِ تشبيهِ وصفيهم المذكورين في حدِّ ذاتِهما، مع الإغماضِ عن مقارنتِهما للشِّرك بالإيمانِ والجهادِ، وأمَّا اعتبارُ مقارنتِهما له، كما قيل، فيأباه المقامُ، كيف لا وقد بيِّن آنفًا حبوطُ أعمالِهم بذلك الاعتبارِ بالمرة، وكونُها بمنزلة العدم، فتوبيخُهم بعد ذلك على تشبيهِهما بالإيمانِ والجهادِ، ثم رَدُّ ذلك بما يُشعر بعدم حِرمانِهم عن أصل الفضيلة بالكلية، كما أشير إليه، ممَّا لا يساعدُهُ النظمُ التنزيليُّ، ولو اعتُبر ذلك لما احتيج إلى تقريرِ إنكارِ التشبيهِ وتأكيدِه بشيء آخرَ؛ إذ لا شيءَ أظهرُ بطلانًا مِن تشبيهِ المعدومِ بالموجودِ[1].

- قولُه: ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لم يُذْكَرِ الإيمانُ بالرِّسولِ؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ إنَّما هو مُتلقَّفٌ مِن أخبارِ الرَّسولِ، فيَتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ، أو لم يُذْكَرْ؛ لِمَا عُلِمَ وشُهِرَ مِن أنَّ الإيمانَ بالله تعالى قَرينتُه الإيمانُ بالرِّسولِ؛ لاشْتِمالِ كلمةِ الشَّهادةِ والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما، مُقترَنَيْنِ مُزْدوجَيْنِ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ، لا يَنْفَكُّ أَحدُهما عن صاحبِهِ؛ فانْطوى تحت ذِكْرِ الإيمانِ باللهِ تعالى الإيمانُ بالرِّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: دلَّ عليه بذِكْرِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ إذ لا يُتلقَّى ذلك إلَّا مِنه[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التَّوبة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

ﵟٱلظَّٰلِمِينَﵞ، بعد قوله: ﵟأَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِﵞ، وورَد بعدَ هذا بآياتٍ: ﵟوَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَﵞ بعدَ قولِه: ﵟقُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ ...ﵞ الآيَةَ [التوبة: ٢٤]، وقال بعد ذلك في هذِه السُّورةِ أيضًا: ﵟوَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ بعد قوله: ﵟإِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ ...ﵞ الآيةَ [التوبة: ٣٧]، وفي ذِكْرِ المنافِقينَ مِن هذِه السُّورةِ قال: ﵟوَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَﵞ [التوبة: ٨٠]، فخُصِّصتْ بعضُ هذه الآياتِ بـ(الظَّالمين) وبعضُها بـ(الفاسقين) وبعضُها بـ(الكافرين)؛ ووجْهُ هذِه المُناسَبةِ؛ أنَّ المراد بـ(الظَّالمين) في الآيةِ الأُولى مُشركو العربِ، الذين قاموا بسِقايةِ الحاجِّ، وأنفقوا على المسجد الحرامِ؛ فهُم لأنفُسِهم بالكُفرِ ظالِمون، وبعَمَلِهم- الذي يُؤمِّلون الانتفاعَ به مع مُضامَّةِ الكُفرِ- واضِعونَ الشَّيءَ في غيرِ موضعِه، فلمَّا فَعَل هؤلاءِ المشرِكون ذلك، وكان كلُّ مُشركٍ ظالِمًا، وكلُّ مَن وضَع شيئًا في غيرِ مَوضعِه يكونُ ظالِمًا؛ عبَّر عنهم بـ(الظَّالمين)؛ لانطِواءِ هذه الصِّفةِ على الكُفرِ، وعلى المعنَى الزَّائدِ بتَضييعِ المالِ في حالِ الشِّركِ.

وأمَّا الموضِع الثاني، وهو قولُه: ﵟوَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَﵞ؛ فإنَّه تحذيرٌ لِمَن قال فيهم مِن المُسلِمين: ﵟقُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦﵞ [التوبة: ٢٤]؛ فعَرَّفهم أنَّ مَن آثَرَ مُراعاةَ هذِه الأبوابِ التي عَدَّها على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه بفِعلِه ذلك مِن جُملةِ الفاسِقين، وأنَّ حُكمَه حُكمُهم؛ فكان ذِكرُ (الفاسقين) أليقَ بهذا المَكانِ.

وأمَّا الموضِعُ الثَّالِث، وهو قولُه تعالى: ﵟوَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ فإنَّه

بعدَ قولِه تعالى في وصْفِ الكُفَّار: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٧]، فأخْبَر الله تعالى أنَّ ذلك زيادةٌ في كُفرِهم، ثم عَقَّبَه بوصْفِهم بأنَّه لا يَهدِيهم، فكان أحقُّ الأوصافِ في هذا المكانِ لَفْظَةَ (الكافرين) التي اقتَضاهَا هذا المعنى والذِّكرُ المتقدِّمُ في مَكانَينِ من الآيةِ.

أمَّا الموضِعُ الرابع، وهو قولُ الله تعالى في ذِكرِ المنافِقينَ مِن هذِه السُّورةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، فقدْ قال تعالى قَبْلَه: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآياتِ [التوبة: ٧٥]، فوُصِفوا بالتَّظاهُرِ بالإسلامِ، ثم خَرَجوا عنه بشَنيعِ كُفرِهم، وقَبيحِ مُرتَكَباتِهم، ووصَفَهم تعالى بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ فلخُروجِهم ومُفارقتِهم ما قدْ كانوا تَظاهَروا به مِن الإسلامِ، وُصِفوا بالفِسقِ الذي هو الخُروجُ والمفارقةُ، كما يُقالُ: فَسَقتِ الرُّطبةُ، إذا خرَجتْ مِن قِشرِها[1].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٠-٧٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّقِيمٌ﴾: أي: دائِمٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، ويُعبَّر بالإقامةِ عن الدوامِ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتصابٍ أو عَزمٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين آمَنُوا وترَكُوا ديارَ الكُفرِ إلى ديارِ الإيمانِ بِهجرَتِهم إلى المدينةِ، وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لِتكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العليا؛ هم أرفَعُ درجةً مِن سُقاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ، وأولئك هم الفائِزونَ، يُبشِّرُهم ربُّهم جلَّ وعلا برحمةٍ عظيمةٍ، ورضًا منه، وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يزولُ، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، إنَّ اللهَ عنده أجرٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما حكَم الله تعالى بأنَّ الصنفينِ لا يستوون بقولِه: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ بيَّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

ذلك وأوضَحه، فعدَّد الإيمانَ والهجرةَ والجهادَ، وحكَم أنَّ أهلَ هذه الخصالِ أعْظَمُ دَرَجَةً عندَ اللَّهِ مِن جميعِ الخلق، ثم حكَم لهم بالفوزِ برحمتِه ورضوانِه، مع تفصيلٍ للجهادِ المذكورِ في قولِه: ﴿وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنَّه الجِهادُ بالأموالِ والأنفُسِ[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: أصحابُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الذين آمَنوا باللهِ تعالى، وبكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وهاجَرُوا مِن أوطانِهم ودِيارِهم إلى مَدينةِ رَسولِ اللهِ، وجاهَدوا لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفُسِهم، أولئك أرفَعُ مَنزلةً، وأعلى مكانةً عِندَ اللهِ مِن سُقاةِ الحاجِّ، وعُمَّارِ المَسجِدِ الحَرامِ مِن المُشركينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا * دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

((لا تسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه[١]))[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

أي: وأولئك- الذين آمَنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ اللهِ- هم الذينَ يَظفَرونَ بِمَطلوبِهم بدُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال الله تعالى: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ أتبَعه ببيانِ هذه الدَّرَجةِ العَظيمةِ، وهذا الفَوزِ المُجمَلِ[٤]، فقال:

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾.

أي: يُعْلِمُ اللهُ الذين آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ، بأنَّ لهم رحمةً عظيمةً مِن ربِّهم، يزولُ بها عنهم الشرورُ، ويصلُ إليهم بها كلُّ خيرٍ، وأنَّه رَضِيَ

(١) النَّصيفُ: أي: نِصفُ الْمُدِّ. والمعنى: لا ينالُ أحَدُكم بإنفاقِ مِثلِ أُحُدٍ ذَهبًا مِن الأجرِ والفَضلِ، ما ينالُ أحدُهم بإنفاقِ مُدِّ طَعامٍ أو نِصفٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٨٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

عنهم رضًا كامِلًا، فلا يسخطُ عليهم أبدًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ. فيقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيك، والخيرُ في يديكَ. فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أُعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعدَه أبدًا))[(٢)].

﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: ويُبَشِّرُهم اللهُ أيضًا بجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يَزولُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت: ٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ درجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجَنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ بلا نهايةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧- ١٠٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عنده جزاءٌ وثوابٌ كَبيرٌ على الأعمالِ الصَّالحةِ، يمنَحُه للمُؤمِنينَ في الآخرةِ[٣].

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال سُبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال في وَصفِهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ مع أنَّه ليس للكُفَّارِ دَرَجةٌ؛ لِوجوهٍ:

الأول: أنَّ هذا ورَدَ على حسَبِ ما كانوا يُقَدِّرون لأنفُسِهم مِن الدَّرَجةِ والفَضيلةِ عند اللهِ.

الثاني: أن يكونَ المُرادُ أنَّ أولئك أعظَمُ دَرَجةً مِن كلِّ مَن لم يكُنْ مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ؛ تنبيهًا على أنَّهم لَمَّا كانوا أفضَلَ مِن المؤمنينَ الذين ما كانوا مَوصوفِينَ بهذه الصِّفاتِ، فبِألَّا يُقاسُوا إلى الكُفَّارِ أَوْلى.

الثالثُ: أن يكونَ المُرادُ أنَّ المُؤمِنَ المُجاهِدَ المُهاجِرَ أفضَلُ ممَّن على السِّقايةِ والعِمارةِ، والمُرادُ منه ترجيحُ تلك الأعمالِ على هذه الأعمالِ، ولا شَكَّ أنَّ السِّقايةَ والعِمارةَ مِن أعمالِ الخَيرِ، وإنَّما بطَلَ إيجابُهما للثَّوابِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لأنَّ قِيامَ الكُفرِ - الذي هو أعظَمُ الجِناياتِ- يمنَعُ ظُهورَ ذلك الأثَرِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤).

٢- في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ فيما يزعمون أنَّ المرءَ بكلمةِ الإخلاصِ وحدَها مستكملٌ الإيمانَ؛ ومَن كان مستكملَ الإيمان فهو في الجنةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يشهدْ بالفوزِ بالجنةِ والرحمةِ والرضوانِ في هذه الآيةِ إلَّا بالهجرةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ لَمَّا كانت الأوصافُ التي تحَلَّوا بها، وصارَوا بها عَبيدَه حقيقةً، هي ثلاثةً: الإيمانُ، والهِجرةُ، والجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ- قُوبِلوا في التَّبشيرِ بثَلاثةٍ: الرَّحمةِ، والرِّضوانِ، والجنَّاتِ. فبدَأَ بالرَّحمةِ؛ لأنَّها الوَصفُ الأعَمُّ النَّاشِئُ عنها تيسيرُ الإيمانِ لهم، وثنَّى بالرِّضوانِ؛ لأنَّه الغايةُ مِن إحسانِ الرَّبِّ لِعَبدِه، وهو مُقابِلُ الجهادِ؛ إذ هو بَذْلُ النَّفسِ والمالِ، وقُدِّمَ على الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضا اللهِ عن العَبدِ أفضَلُ مِن إسكانِهم الجنَّةَ، وأتى ثالثًا بِقَولِه: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: دائِمٌ لا ينقطِعُ. وهذا مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ لأنَّهم تركُوا أوطانَهم التي نَشَؤوا فيها، وكانوا فيها مُنعَّمِينَ، فآثَرُوا الهِجرةَ على دارِ الكُفرِ إلى مُستَقَرِّ الإيمانِ والرِّسالةِ، فقُوبِلوا على ذلك بالجَنَّاتِ ذواتِ النَّعيمِ الدَّائِمِ، فجاء التَّرتيبُ في أوصافِهم على حسَبِ الواقِعِ: الإيمانُ، ثمَّ الهِجرةُ، ثمَّ الجِهادُ. وجاء التَّرتيبُ في المُقابِلِ على حسَبِ الأعَمِّ، ثمَّ الأشْرَفِ، ثمَّ التَّكميلِ[٢].

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قولُه: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: نَوعٍ مِن الرِّضَا التَّامِّ الكامِلِ، الذي لا يَشُوبُه ولا يَعقُبُه سَخَطٌ؛ يدُلُّ على هذا المعنى زيادةُ لَفظِ (رِضوانٍ) في المبنى على لَفظِ (رِضا) مع تنكيرِه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ المفضَّل عليه محذوفٌ؛ لظهورِه: أي أعظمُ درجةً عندَ الله مِن أصحابِ السِّقاية والعمارةِ الذين آمنوا ولم يُهاجروا، ولم يُجاهدوا الجهادَ الكثيرَ الذي جاهده المسلمونَ أيامَ بقاءِ أولئك في الكفرِ[2]. وقيل: لم يُعيِّنْ ذِكرَهم، فلم يقُلْ: (أعظَمُ درجةً مِن المشتَغِلينَ بالسِّقايةِ والعِمارةِ)؛ لأنَّه لو عيَّنَ ذِكرَهم لأوهَمَ أنَّ فَضيلَتَهم إنَّما حصَلَت بالنِّسبةِ إليهم، ولَمَّا ترَكَ ذِكرَ المَرجوحِ، دلَّ ذلك على أنَّهم أفضَلُ مِن كلِّ مَن سِواهم على الإطلاقِ؛ لأنَّه لا يُعقَلُ حُصولُ سَعادةٍ وفَضيلةٍ للإنسانِ أعلى وأكمَلَ مِن هذه الصِّفاتِ[3].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جملةٌ مَعطوفةٌ على ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، أي: أَعْظمُ، وهم أصحابُ الفَوزِ، وتَعريفُ ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ باللَّامِ مُفيدٌ للقَصْرِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمُبالَغةِ في عِظَمِ فوزِهم، حتى إنَّ فوزَ غيرِهم بالنِّسبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣-١٤).

إلى فوزِهم يُعَدُّ كالمعدومِ(١).

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ (أُولئِكَ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا الفوزَ لأجْلِ تِلك الأوصافِ التي مَيَّزَتْهم، وهي: الإيمانُ، والهِجْرةُ، والجِهادُ بالأموالِ والأنْفُسِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّة؛ تأكيدًا للمُبشَّرِ به، وتَربيةً له(٣)؛ فأُسْنِدَ التَّبشيرُ إلى ﴿رَبُّهُم﴾؛ لِمَا في ذلك من الإحسانِ إليهم بأنَّ مالِكَ أَمْرِهم، والنَّاظِرَ في مصالِحهم هو الذي يُبشِّرُهم(٤).

- وإسنادُ التَّبشيرِ إلى اسمِ الجَلالةِ بِصيغةِ المُضارِعِ- المُفيدِ للتَّجدُّدِ- مُؤذِنٌ بتَعاقُبِ الخَيراتِ عليهم، وتَجدُّدِ إدخالِ السُّرورِ بذلك لهم؛ لأنَّ تجدُّدَ التَّبشيرِ يُؤذِنُ بأنَّ المُبَشَّرَ به شَيءٌ لم يكُن معلومًا للمبشَّرِ، وإلَّا لكان الإخبارُ به تحصيلًا للحاصِلِ(٥).

- قولُه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ فيه تَنكيرُ الرَّحمةِ والرِّضوانِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ(٦).

٣- قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).

- قولُه: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أكَّدَ الخُلُودَ بالتَّأبيدِ؛ لأنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ للمُكْثِ الطَّويلِ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ استئنافٌ وَقَعَ تعليلًا لِمَا سَبَق[2]، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).

الآيتان (٢٣-٢٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾: العَشِيرَةُ: أهلُ الرَّجل الذين يتكثَّر بهم، أو الجماعةُ التي ترجِعُ إلى عَقدٍ واحدٍ كعَقدِ العشرةِ فما زادَ، ومنه المعاشرَةُ، وهي الاجتماعُ على الشَّيءِ، وَأصلُ (عشر): يدلُّ على مداخلةٍ ومخالطةٍ[1].

﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: أي: اكتَسَبتُموها وحصَّلْتُموها، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (الاقترافِ): اقتطاعُ الشيءِ مِن مكانِه إلى غيرِه، وأصلُ (قرف): يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه[2].

﴿كَسَادَهَا﴾: أي: فَوَاتَ وَقتِ رواجِها، والكَسادُ: خِلافُ النَّفاقِ ونقِيضُه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤).

وأصلُ (كسد): يدلُّ على الشَّيءِ الدُّونِ لا يُرغَبُ فيه[١].

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي: انتَظِرُوا وتمهَّلُوا، والتَّربُّصُ: الانتِظارُ بالشَّيءِ، وأصلُ (ربص): يدلُّ على الانتظارِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المُؤمِنينَ عن مُوالاةِ آبائِهم وإخوانِهم في النَّسَبِ إن اختارُوا الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ، وأخبَرَ أنَّه مَن يتوَلَّهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

وأمَرَ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كان آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم وأزواجُهم وعمومُ أقاربِهم، وأموالٌ اكتَسَبُوها، وتَعِبُوا في تحصيلِها، وتجارةٌ يَخافونَ إن هاجَرُوا أن تكسُدَ، وبيوتٌ يُحِبُّونَها، ولا يُريدونَ مُفارَقتَها؛ أحَبَّ إليهم مِن اللهِ ورَسولِه وجهادٍ لإعلاءِ كلمَتِه- فَلْيَنتَظِروا حتى يأتيَهم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تتَّخِذوا آباءَكم وإخوانَكم في النَّسَبِ بِطانةً وأصدقاءَ، تُناصِرونَهم، وتُفشُونَ إليهم أسرارَ المُسلِمينَ، وتُؤثِرونَ المُكْثَ بينهم

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٨).

على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، إن اختارُوا- على وجهِ الرِّضا والمحبَّةِ- الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ به سبُحانه[1].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذْ منكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أقارِبَه الكُفَّارَ بطانةً، يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، ويُؤثِرُ المُقامَ بينهم على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، فأولئك هم الذينَ عَصَوُا اللهَ، وخالَفُوا أمرَه، فوَضَعوا الوَلايةَ في غَيرِ مَوضِعِها، واتَّخذوا من يَضُرُّهم أولياءَ، وتَرَكوا ما ينفَعُهم مِن الهجرةِ والجِهادِ في سَبيلِ الله تعالى[2].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الأنفُسُ مُختلِفةَ الهِمَمِ، مُتبايِنةَ السَّجايا والشِّيَمِ، كان هذا غيرَ كافٍ في التَّهديدِ لِكُلِّها، فأتبَعَه تَهديدًا أشَدَّ منه بالنِّسبةِ إلى تلك النُّفوسِ، فقال مُنتَقِلًا من أسلوبِ الإقبالِ إلى مقامِ الإعراضِ المُؤذِنِ بزَواجِرِ الغَضَبِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).
قال ابنُ عطية: (ظاهرُ هذه المُخاطَبةِ أنَّها لِجَميعِ المُؤمِنينَ كافَّةً، وهي باقيةُ الحُكمِ إلى يومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢١).

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- للمُتخلِّفينَ عن الهِجرةِ إلى دارِ الإسلام: إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم، وإخوانُكم في النَّسَبِ وزوجاتُكم، وعمومُ أقارِبكم[(١)].

﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾.

أي: وأموالٌ اكتسَبْتُموها، وتَعِبتُم في تَحصيلِها، وتجارةٌ تَخافونَ- إن هاجَرْتُم- عدَمَ بَيعِها ورواجِها، أو رُخْصَ سِعرِها ونَقصَ أرباحِها، وبيوتٌ تُحِبُّونَ سُكْناها، فلا تُريدونَ تَرْكَها[(٢)].

﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إن كانت تلك الأشياءُ أحبَّ إليكم مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ لإعلاءِ كَلِمتِه تعالى[(٣)].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

وعنه أيضًا، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم، حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[١].

وعن عبد الله بنِ هشام رَضيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لأنت أحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نفسي، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا والذي نفسي بِيَدِه، حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللهِ لأنتَ أحَبُّ إليَّ مِن نَفسي. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الآنَ يا عُمَرُ))[٢].

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾.

أي: فانتَظِروا- أيُّها المُتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ والجِهادِ- حتى يأتيَكم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ[٣].

عن أبي أُمامةَ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((مَن لم يَغْزُ أو يُجهِّزْ غازِيًا، أو يَخْلُفْ غازيًا في أهلِه بخَيرٍ؛ أصابَه اللهُ سُبحانه بقارِعةٍ قبلَ يَومِ القيامةِ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

وقيل: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: فتح مكةَ. ونسَبه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٨٧).

قال الشوكانيُّ: (وفيه بعدٌ؛ فقد رُوي أنَّ هذه السورةَ نزلتْ بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ويُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجة (٢٧٦٢) واللفظ له، والدارمي (٢٤٦٢)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (٩٩).

صحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وحسن الحديث الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٣).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن مات ولم يَغزُ، ولم يحدِّث به نفسَه، مات علَى شُعبةٍ من نِفاقٍ))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا تبايَعتُم بالعينة[٢]، وأخَذْتُم أذنابَ البَقرِ[٣]، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَركْتم الجِهادَ؛ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا يَنزِعُه، حتى تَرجِعُوا إلى دينِكم))[٤].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للخَيرِ الخارِجينَ عن طاعَتِه إلى مَعصِيَتِه، المُؤْثِرينَ على محبَّةِ الله تعالى شيئًا مِن تلك المذكوراتِ[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠).

(٢) العِينَة: هي أن يبيعَ مِن الرَّجُل سلعةً بثَمَنٍ معلومٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى، ثمَّ يَشترَيها منه نقدًا بأقَلَّ مِن الثَّمَنِ الذي باعها به. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (١/ ٦١٦).

(٣) أخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ: كنايةٌ عن الاشتغالِ بالحَرْثِ. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).

قال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريق صحيح، وصحح إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجال إسناده رجال الصحيح ، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/ ٣١٨): له طرق يشد بعضها بعضا، وصححه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموع طرقه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

قال الشنقيطي: (مِثلُ هذه الآياتِ فيه سُؤالٌ مَعروفٌ للعُلَماء، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاللهُ جلَّ وعلا نفى هدايتَه للفاسِقينَ، ونفى هدايتَه للظَّالِمينَ، مع أنَّا نُشاهِدُ بعضَ الفاسقينَ الظَّالِمينَ يهديه اللهُ، وكم من كافرٍ شَديدٍ في الكُفرِ، ظالمٍ فاسقٍ يهديه اللهُ! هذا وجهُ الإشكالِ.

وأجاب العُلَماءُ عن هذا بجَوابَينِ:

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الحَذرُ مِن مُوالاةِ مَن استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ، في ظاهِرِ أمْرِهم أو باطِنِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه إذا وقعَ التَّعارُضُ بين مصلحةٍ واحدةٍ مِن مصالحِ الدِّينِ وبين جميعِ مُهِمَّاتِ الدُّنيا؛ وجب على المُسلِمِ ترجيحُ الدِّينِ على الدُّنيا[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ أعظمُ دليلٍ

أحدُهما: أنَّ قولَه: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ من العامِّ المخصوصِ، وأنَّ المُرادَ بها الذين سبَقَ في علمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتدونَ مِن الفَسَقةِ والظَّلَمةِ، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال بعضُ العُلَماءِ: لا يهديهم ما زالوا مُتَّصِفينَ بالظُّلمِ والفِسقِ، فإذا نَزَعوا عن ذلك برحمةِ اللهِ وهدايتِه، زال عنهم اسمُ الفِسقِ والظُّلمِ، فلا مانع إذَن مِن هُداهم. هكذا قالَه بعضُ العُلَماءِ. واللهُ تعالى أعلَمُ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧).

على وُجوبِ محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وعلى تقديمِها على محبَّةِ كُلِّ شَيءٍ، وعلى الوعيدِ الشَّديدِ والمَقْتِ الأكيدِ، على من كان شَيءٌ مِن هذه المذكوراتِ أحَبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ في سبيلِه، وعلامةُ ذلك أنَّه إذا عُرِضَ عليه أمرانِ؛ أحدُهما يُحبُّه اللهُ ورَسولُه، وليس لِنَفسِه فيه هوًى، والآخَرُ تُحبُّه نَفسُه وتَشتَهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورَسولِه، أو يَنقُصُه؛ فإنَّه إن قدَّمَ ما تهواه نفسُه على ما يُحبُّه الله، دلَّ ذلك على أنَّه ظالِمٌ، تارِكٌ لِما يجِبُ عليه(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ هذه آيةٌ شَديدةٌ لا ترى أشَدَّ منها، كأنَّها تنعى على النَّاسِ ما هم عليه مِن رَخاوةِ عَقدِ الدِّينِ، واضطرابِ حَبلِ اليَقينِ، فلْيُنصِفْ أورَعُ النَّاسِ وأتقاهم مِن نَفسِه؛ هل يجدُ عنده من التصَلُّبِ في ذاتِ اللهِ، والثَّباتِ على دينِ الله ما يَستحِبُّ له دينُه، على الآباءِ والأبناءِ والإخوانِ والعشائرِ والمالِ والمَساكِنِ وجميعِ حُظوظِ الدُّنيا، ويتجَرَّدُ منها لأجلِه، أم يَزوي اللهُ عنه أحقَرَ شَيءٍ منها لِمَصلحتِه، فلا يدري أيُّ طَرَفيه أطولُ؟ ويُغْويه الشَّيطانُ عن أجَلِّ حَظٍّ مِن حظوظِ الدِّينِ، فلا يُبالي، كأنَّما وقَعَ على أنفِه ذُبابٌ فطَيَّرَه(٢)!

٥- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾. فكلُّ من قدَّمَ طاعةَ أحدٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٧).

هؤلاءِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، أو قَولَ أحدٍ منهم على قَولِ اللهِ ورَسولِه، أو مرضاةَ أحدٍ منهم على مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه، أو خَوفَ أحدٍ منهم ورجاءَه والتوكُّلَ عليه، على خَوفِ اللهِ ورَجائِه والتوكُّلِ عليه، أو مُعاملةَ أحَدِهم على مُعامَلةِ الله- فهو ممَّن ليس اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وإن قالَه بلِسانِه فهو كَذِبٌ منه، وإخبارٌ بخِلافِ ما هو عليه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ افتتَحَ الخِطابَ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارًا بأنَّ ما سيُلقى إليهم مِن الوَصايا هو مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ وشِعارِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ ذَكَرَ الآباءَ والإخوانَ؛ لأنَّهم أهلُ الرَّأيِ والمَشورةِ، ولم يذكُرِ الأبناءَ؛ لأنَّهم في الغالِبِ تبَعٌ لآبائِهم(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لَمَّا كان الوالِدونَ هم الذينَ يُقاتِلونَ، ويَحتاجُونَ إلى المُوالاةِ والمُناصَرةِ، دونَ الوالِداتِ، اقتصَرَ على ذِكرِهم(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٤).

ﵟٱلظَّٰلِمُونَﵞ جَعَلَ التَّحذيرَ مِن أولئكَ بخصوصِ كَونِهم آباءً وإخوانًا؛ تنبيهًا على أقصى الجَدارةِ بالوَلايةِ، لِيُعلَمَ بفحوى الخِطابِ أنَّ مَن دونَهم أَوْلى بحُكمِ النَّهيِ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ نبَّه بصيغةِ الاستفعالِ على أنَّ الإيمانَ لِكَثرةِ مَحاسِنِه، وظُهورِ دَلائِلِه، مَعشوقٌ بالطَّبعِ، فلا يتركُه أحَدٌ إلَّا بنوعِ مُعالجةٍ ومُكابرةٍ لِعَقلِه ومُجاهَدةٍ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ ذكَرَ تعالى الأمورَ الدَّاعيةَ إلى مُخالطةِ الكُفَّارِ، وهي أمورٌ أربعةٌ؛ أوَّلها: مُخالطةُ الأقارِبِ، وذكر منهم أربعةَ أصنافٍ على التَّفصيلِ، وهم: الآباءُ والأبناءُ والإخوانُ والأزواجُ، ثمَّ ذكَرَ البقيَّةَ بلفظٍ واحدٍ يتناوَلُ الكُلَّ، وهي لفظُ العَشيرةِ. وثانيها: المَيلُ إلى إمساكِ الأموالِ المُكتَسَبةِ. وثالثها: الرَّغبةُ في تحصيلِ الأموالِ بالتِّجارةِ. ورابعها: الرَّغبةُ في المساكِنِ. ولا شَكَّ أنَّ هذا التَّرتيبَ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ فإنَّ أعظَمَ الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى المُخالطةِ القَرابةُ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بتلك المُخالَطةِ إلى إبقاءِ الأموالِ الحاصِلةِ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بالمُخالطةِ إلى اكتسابِ الأموالِ التي هي غيرُ حاصلةٍ، وفي آخِرِ المراتِبِ الرَّغبةُ في البناءِ في الأوطانِ، والدُّورِ التي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٠).

بُنِيَت لأجلِ السُّكنى، فذكَرَ تعالى هذه الأشياءَ على هذا التَّرتيبِ الواجبِ[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ذكَرَ الأبناءَ هنا؛ لأنَّه ذكَرَ المحبَّةَ، وهم أعلَقُ بالنَّفسِ، بخلافِ الآيةِ قَبلَها فلم يُذكَروا؛ لأنَّ المَقصودَ منها الرَّأيُ والمَشورةُ[٢].

٨- وجهُ الاقترانِ بين محبَّةِ اللهِ ومَحبَّةِ رَسولِه، في قَولِه تعالى: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أنَّه لا تتِمُّ محبَّةُ اللهِ إلَّا بمحَبَّةِ ما يُحِبُّه، وكراهةِ ما يكرَهُه، ولا طريقَ إلى مَعرفةِ ما يُحبُّه وما يَكرَهُه- تعالى- إلَّا مِن جهةِ نبيِّه المُبَلِّغِ عنه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما يُحبُّه وما يَكرَهُه، فصارت مَحبَّةُ اللهِ مُستلزِمةً لِمَحبَّةِ رَسولِه وتَصديقِه ومُتابَعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أخَّرَ هنا حبَّ الزوجيَّةِ عن حُبِّ البَنينَ؛ لأنَّ الكَلامَ في الحُبِّ المُعارِضِ لحُبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه، وما يُخشَى مِن حَملِه على مُوالاةِ أهلِ الكُفرِ في الحَربِ على المُؤمنينَ، وقلَّما تكونُ زَوجُ الرَّجُلِ مُعارِضةً له في دينِه، وولايةِ مَن يَدينُ للهِ بوَلايتِه، كما يُعارِضُه أبوه وابنُه وأخوه مِن أهلِ الحَربِ دونَ امرأتِه. وقدَّمَه على حُبِّ البَنينَ في قَولِه تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٦١).

﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ لأنَّ الكلامَ في الآيةِ على حُبِّ الشَّهَواتِ، وهو أقوى الشَّهواتِ البَشَريَّةِ على الإطلاقِ[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ خَصَّ الأموالَ المُقتَرَفةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أرغَبُ عند أهلِها، وصاحِبُها أشَدُّ حِرصًا عليها ممَّن تأتيه الأموالُ مِن غَيرِ تَعَبٍ ولا كَدٍّ؛ فحُبُّ الأموالِ المُقتَرَفةِ- أي: المُكتَسَبةِ- أقوى في النَّفسِ مِن حُبِّ الأموالِ المَورُوثةِ؛ لأنَّ عَناءَ الإنسانِ في اقترافِها يجعَلُ لها في قَلبِه مِن القيمةِ والمَنزِلةِ ما ليس لِمَا جاءَه عَفوًا، كما هو مشهورٌ بين النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ خَصَّ الجِهادَ بالذِّكرِ مِن عُمومِ ما يُحِبُّه اللهُ منهم؛ تَنويهًا بشأنِه، ولأنَّ ما فيه من الخَطَرِ على النُّفوسِ، ومِن إنفاقِ الأموالِ، ومُفارَقةِ الإلْفِ، جعَلَه أقوى مَظِنَّةً للتقاعُسِ عنه[٣].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ على أنَّ مَحبَّةَ اللهِ تعالى فَرْضٌ على العِبادِ؛ لأنَّه سُبحانه توعَّدَ مَن قدَّمَ محبَّةَ غيرِه على مَحبَّتِه ومَحبَّةِ رَسولِه، والوعيدُ لا يقَعُ إلَّا على فَرْضٍ لازمٍ، وحَتمٍ واجِبٍ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٧).

بلاغةُ الآيَتينِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ... ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لافْتِتاحِ غَرَضٍ آخَرَ، وهو تَقْريعُ المنافقينَ ومَنْ يُواليهم(١).

- وصِيغةُ الحَصْرِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ للمُبالَغةِ، أي: إنَّ ظُلْمَ غيرِهم كَلَا ظُلمٍ بالنِّسبةِ لعظَمةِ ظُلْمِهم(٢).

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لزِيادةِ تمييزِ هؤلاءِ أو هؤلاءِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ جَدارتَهم بالحُكمِ المذكورِ بَعْدَ الإشارةِ كانتْ لأجْلِ تِلك الصِّفاتِ، أي: اسْتِحبابِ الكُفْرِ على الإيمانِ(٣).

٢- **قولُه تعالى:** ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

- فيه تلوينٌ للخِطابِ، وأَمْرٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُثبِّتَ المؤمنينَ، ويُقوِّيَ عَزائمَهم على الانْتِهاءِ عما نُهوا عَنْه من موالاةِ الآباءِ والإخوانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٢).

ويُزهِّدَهم فيهم، وفيمَنْ يَجْري مَجْراهم من الأبناءِ والأزواجِ، ويَقْطَعَ علائِقَهم عن زخارفِ الدُّنيا وزينتِها، على وَجْهِ التَّوبيخِ والتَّرهيبِ(١).

- وفيه تَرتيبٌ حَسَنٌ، حَيثُ قدَّم الآباءَ؛ لأنَّهم الذين يَجِبُ برُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثنَّى بالأبناء؛ لكونِهم أَعْلَقَ بالقُلوبِ، ولَمَّا ذَكَرَ الأصلَ والفَرْعَ ذَكَر الحاشيةَ وهي الإخوانُ، ثُمَّ ذَكَرَ الأزواجَ، وهنَّ في المحبَّةِ والإيثارِ كالأبناءِ، ثُمَّ ذَكَر الأَبعدَ بَعدَ الأقربِ في القرابةِ، فقال: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾(٢).

- وعطَفَ على حُبِّ اللهِ تعالى ورَسولِه الجهادَ في سبيلِه مُنكَّرًا، في قَولِه تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ لأنَّه أظهَرُ آياتِهما، ونُكتةُ تَنكيرِه وإبهامِه إفادةُ أنَّ كُلَّ نَوعٍ من أنواعِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ- قلَّ أو كَثُرَ- فإنَّ تارِكَه لأجلِ حُبِّ شَيءٍ مِن تلك الأصنافِ الثَّمانيةِ، وتَفضيلِها عليه؛ يستحِقُّ الوعيدَ الذي في الآيةِ(٣).

- وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أَمْرٌ مُتضمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ(٤) الشَّديدِ، ويؤكِّدُه إبهامُ الأمرِ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ لتذهَبَ أنفُسُهم كلَّ مَذهَبٍ، وتتردَّدَ بين أنواعِ العُقوباتِ(٥).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تذييلٌ، والواو اعتراضيَّةٌ، وهذا تهديدٌ بأنَّهم فَضَّلوا قَرابتَهم وأموالَهم على مَحبَّةِ اللهِ ورسولِه وعلى الجِهادِ؛ فقد تَحقَّقَ أنَّهم فاسِقون، واللهُ لا يَهْدي القومَ الفاسقينَ؛ فحَصَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦).

بمَوقِعِ التَّذييلِ تَعريضٌ بهم[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ رَحُبَتْ ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدل على سَعَةٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: لقد نَصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ، أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كَثيرةٍ، ونَصَرَكم أيضًا يوم حُنَينٍ حين أعجَبَتْكم كَثرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيئًا، وضاقت عليكم الأرضُ على سَعَتِها؛ لِشدَّةِ ما أصابَكم، ثم فرَرْتُم من الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ.

ثمَّ أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رَسولِه وعلى المُؤمِنينَ، وأنزَلَ جُنودًا مِنَ الملائكةِ لم تَرَوْها، وعذَّبَ اللهُ يومَ حُنَينٍ الذين كَفَروا، بأيدي المُؤمِنينَ، وذلك جزاءُ الكافِرينَ.

ثم يتوبُ اللهُ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنَ الكُفَّارِ، فيَهدِيه إلى الإسلامِ، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦، ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ قَولُه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] واستطرَدَ بعد ذلك بما استطرَدَ؛ ذَكَّرَهم تعالى نَصْرَه إيَّاهم في مَواطِنَ كَثيرةٍ(١).

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ الحَثَّ على قِتالِ المُشرِكينَ ابتداءً مِن قَولِه تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكان التَّمهيدُ للإقدامِ على ذلك مُدَرَّجًا؛ بإبطالِ حُرمةِ عَهدِهم لِشِرْكِهم، وبإظهارِ أنَّهم مُضمِرونَ العَزمَ على الابتداءِ بِنَقضِ العُهودِ التي بينهم وبين المُسلِمينَ، لو قُدِّرَ لهم النَّصرُ على المسلمين، وهَمِّهم بإخراجِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إذا انتهى ذلك التَّمهيدُ المُدَرَّجُ إلى الحَثِّ على قتالِهم، وضَمانِ نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ عليهم، وما اتَّصَل بذلك ممَّا يُثيرُ حماسةَ المُسلِمينَ- جاء في هذه الآيةِ بِشَواهِدِ ما سبق مِن نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ في مواطِنَ كَثيرةٍ، وتذكيرٍ بِمُقارنةِ التَّأييدِ الإلهيِّ لِحالةِ الامتثالِ لأوامِرِه، وأنَّ في غَزوةِ حُنَينٍ شَواهِدَ تَشهدُ للحالَينِ(٢).

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

أي: لقد نصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كثيرةٍ[(١)].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

أي: ونَصَرَكم اللهُ أيضًا في غَزوةِ حُنَينٍ، حين أعجَبَتْكم كَثْرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيْئًا[(٢)].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

أي: وضاقَت عليكم الأرضُ مع سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).
قال القاسمي: (﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مَواقِفِ حروبٍ كَثيرةٍ، ووَقَعاتٍ شَهيرةٍ؛ كغزوةِ بدرٍ وقُريظةَ، والنَّضيرِ والحُدَيبيَةِ، وخَيبر وفَتحِ مكَّة. وكانت غَزَواتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم- على ما ذُكِرَ في الصَّحيحينِ من حديثِ زيدِ بنِ أرقَمَ- تِسعَ عَشرةَ غَزوةً. زاد بُريدةُ في حديثٍ: قاتَلَ في ثمانٍ منهُنَّ، ويقال: إنَّ جَميعَ غَزَواتِه وسَراياه وبُعوثِه سبعونَ، وقيل: ثَمانونَ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٤/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).
قال ابنُ جرير: (حُنينٌ: وادٍ بين مكَّةَ والطَّائِفِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦).
وقال ابن كثير: (كانت وقعةُ حُنينٍ بعدَ فَتحِ مكَّةَ في شوَّال سنة ثمانٍ مِن الهجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٨٩).
قال الواحدي: (ومعنى الآية: إنَّكم لشِدَّةِ ما لَحِقَكم من الخَوفِ، ضاقَت عليكم الأرضُ، فلم تَجِدوا فيها موضِعًا يصلُحُ لكم لِفِرارِكم عن عَدُوِّكم). ((البسيط)) (١٠/ ٣٤٧).
وقال السعدي: (﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابَكم مِنَ الهَمِّ والغَمِّ حين انهَزَمْتم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

أي: ثمَّ فَرَرتُم مِن الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ[(١)].

عن أنس بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ حُنَينٍ أقبَلَت هوازِنُ وغَطَفانُ وغَيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم عَشرةُ آلافٍ، ومِنَ الطُّلَقاءِ، فأدبَرُوا عنه حتى بَقِيَ وَحدَه، فنادى يومَئذٍ نِداءَينِ، لم يَخلِطْ بينهما؛ التفَتَ عن يمينِه فقال: يا معشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحن معَك، ثمَّ التفَتَ عن يَسارِه فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحنُ معك، وهو على بَغلةٍ بَيضاءَ، فنزَلَ فقال: أنا عَبدُ اللهِ ورَسولُه، فانهزَمَ المُشرِكونَ))[(٢)].

وعن العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَهِدْتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، فلَزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم نُفارِقْه، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فَروةُ ابنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلمَّا التقى المُسلِمونَ والكُفَّارُ ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ، فطَفِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُركِضُ بَغلَتَه قِبَلَ الكُفَّارِ، قال عبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بلِجامِ بَغلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكُفُّها؛ إرادةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبو سُفيانَ آخِذٌ برِكابِ رَسولِ

وقال الشنقيطي: (والخائفُ يضيقُ عليه فضاءُ الأرضِ الواسعُ؛ لأن مَنِ اشتدَّ خوفُه ضَاقَتِ الأرضُ في عينِه، وإن كانت طويلةً عريضةً واسعةً). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٨٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٥٠٠٣).

قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي: انهزَمْتُم حالَ كَونِكم مُدبِرينَ، أي: مُوَلِّينَ أدبارَكم، جاعلينَ لها إلى جِهةِ عَدُوِّكم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ. فقال عبَّاس- وكان رَجُلًا صَيِّتًا-: فقُلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرةِ؟ قال: فواللهِ، لكأنَّ عَطفَتَهم- حين سَمِعوا صوتي- عَطفةُ البَقَرِ على أولادِها، فقالوا: يا لبَّيكَ، يا لبَّيكَ، قال: فاقتَتَلوا والكُفَّارَ، والدُّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا مَعشرَ الأنصارِ، يا مَعشرَ الأنصارِ. قال: ثمَّ قَصُرَت الدَّعوةُ على بني الحارِثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بَني الحارِثِ بنِ الخَزرج، يا بني الحارِثِ ابنِ الخزرج، فنظَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على بَغلَتِه كالمُتطاوِلِ عليها إلى قِتالِهم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا حينَ حِمِيَ الوَطيسُ. ثم أخذَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَصَياتٍ فرمى بهِنَّ وُجوهَ الكُفَّارِ، ثم قال: انهَزَموا وربِّ مُحمَّدٍ.قال: فذهَبْتُ أنظُرُ، فإذا القِتالُ على هَيئَتِه فيما أرى، قال: فواللهِ، ما هو إلَّا أن رماهم بحَصَياتِه، فما زِلْتُ أرى حَدَّهم كَليلًا، وأمْرَهم مُدبِرًا))[1].

وعن أنس بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((افتَتَحْنا مكَّةَ، ثم إنَّا غَزَوْنا حُنَينًا، فجاء المُشركون بأحسَنِ صُفوفٍ رأيتُ، فصُفَّتِ الخَيلُ، ثم صُفَّتِ المُقاتِلة، ثم صُفَّتِ النِّساءُ مِن وراء ذلك، ثمَّ صُفَّتِ الغَنَمُ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ، ونحن بَشَرٌ كثيرٌ، وعلى مُجَنِّبةِ خَيلِنا خالدُ بنُ الوليد، فجَعَلَتْ خيلُنا تلوي خَلْفَ ظُهورِنا، فلم نلبَثْ أن انكشَفَت خَيلُنا، وفرَّتِ الأعرابُ ومَن نعلَمُ مِن النَّاسِ، فنادى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا لَلمُهاجِرينَ، يا لَلمُهاجِرينَ. ثم قال: يا لَلأنصارِ، يا لَلأنصارِ. قُلنا: لبَّيك يا رسولَ الله، قال: فتقَدَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَايْمُ اللهِ، ما أتَيناهم حتَّى هَزَمَهم اللهُ، فقَبَضْنا ذلك المالَ، ثم انطَلَقْنا إلى الطَّائِفِ فحاصَرْناهم أربعينَ ليلةً، ثم رَجَعْنا إلى مكَّةَ، فنَزَلْنا، فجعل رسولُ اللهِ

(١) رواه مسلم (١٧٧٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الرَّجُلَ المِئةَ مِن الإبِلِ))[١].

وعن أبي إسحاقَ، قال: ((قال رجلٌ للبَراءِ: يا أبا عُمارةَ، أفرَرْتم يومَ حُنَينٍ؟! قال: لا واللهِ، ما ولَّى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه خرَجَ شُبَّانُ أصحابِه وأخِفَّاؤُهم حُسَّرًا، ليس عليهم سِلاحٌ أو كثيرُ سِلاحٍ، فلَقُوا قومًا رُماةً، لا يكادُ يَسقُطُ لهم سَهمٌ؛ جمْعَ هوازِنَ وبني نَصرٍ، فرَشَقوهم رشْقًا ما يكادُون يُخطِئونَ، فأقبَلُوا هناك إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بَغلَتِه البَيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ يقودُ به، فنزل فاستنصَرَ، وقال: أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ))[٢].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ثمَّ بعد أن ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ يومَ حُنَينٍ، أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، فأذهَبَ خوفَهم[٣].

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٩٠).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: المُرادُ بالمُؤمِنينَ الذينَ أنزَلَ اللهُ سَكينتَه عليهم: مَن ثَبَتوا معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال بعضُ العُلَماءِ: يدخُلُ فيهم الذينَ رَجَعوا بعد الفِرارِ والهَزيمةِ، وقاتلوا معه عَدُوَّه. والتَّحقيقُ: أنَّ اللهَ أنزَلَ سكينتَه على الجَميعِ: الذين بَقُوا معه ولم يَفِرُّوا، والذين رَجَعوا إليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٠).

أي: وأنزَلَ اللهُ يومَ حُنَينٍ جُنودًا مِن الملائِكةِ، لم تَرَوْها- أيُّها المُسلِمونَ- أنزَلَها اللهُ تعالى لِتَجْبينِ الكُفَّارِ، وتَقويةِ قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَثبيتِهم، وتَبشيرِهم بالنَّصرِ[(١)].

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: وعذَّب اللهُ يومَ حُنَينٍ الكافرينَ، بأيدي المُؤمِنينَ؛ بقَتلِهم وأسْرِهم، وأخْذِ أمْوالِهم، وسَبْيِ أهالِيهم وذَرارِيِّهم[(٢)].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وذلك التَّعذيبُ الذي أصابَهم، هو جَزاءُ أهلِ الكُفرِ في الدُّنيا؛ بسبَبِ كُفرِهم[(٣)].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ المُرادَ إنزالُ المَلائكةِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠).

وقال القرطبي: (﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكةُ؛ يُقَوُّونَ المُؤمِنينَ بما يُلقونَ في قُلوبِهم مِن الخواطِرِ والتَّثبيتِ، ويُضْعِفونَ الكافِرينَ بالتَّجبينِ لهم من حيثُ لا يَرَونَهم، ومن غيرِ قِتالٍ؛ لأنَّ الملائكةَ لم تُقاتِلْ إلَّا يومَ بَدرٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١).

وقال الشنقيطي: (قد قَدَّمْنَا في سورةِ الأنفالِ أنَّ أَظْهَرَ الأقوالِ أنَّ الملائكةَ قَاتَلَت يومَ بدرٍ، وأنَّها لم تُقَاتِلْ في غيرِها، بل تأتي لِتَجبينِ الكُفَّارِ، وتقويةِ قلوبِ المؤمنينَ وَنُصرتِهم، هذا هو الظَّاهِرُ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

أي: ثمَّ يُوفِّقُ اللهُ للتَّوبةِ- مِن بعدِ تَعذيبِ الكافِرينَ في الدُّنيا- مَن يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنهم، فيَهديه إلى الإسلامِ(١).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لِذُنوبِ التَّائبينَ إليه، فيستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم فيُوفِّقُهم- سُبحانَه- للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، ولا يُعَذِّبُهم بَعدَها(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ يَذكُرُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨، ١٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠١).

وقال ابنُ عاشور: (هذا إشارةٌ إلى إسلامِ هَوازِنَ بعد تلك الهزيمةِ؛ فإنَّهم جاؤوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسلمينَ تائبينَ، وسألُوه أن يرُدَّ إليهم سَبْيَهم وغنائِمَهم، فذلك أكبَرُ مِنَّةٍ في نَصرِ المُسلِمينَ؛ إذ أصبحَ الجُندُ العَدُوُّ لهم مُسلِمينَ معهم، لا يَخافونَهم بعد ذلك اليَومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨-١٥٩).

قال ابنُ كثير: (قد تاب اللهُ على بقيَّةِ هوازِنَ، وأسلموا وقَدِموا عليه مُسلِمينَ، ولَحِقوه وقد قاربَ مكَّةَ عند الجِعْرَانةِ، وذلك بعد الوَقعةِ بقَريبٍ مِن عشرينَ يَومًا، فعند ذلك خَيَّرَهم بين سَبْيِهم وبين أموالِهم، فاختاروا سَبْيَهم، وكانوا ستَّةَ آلافِ أسيرٍ ما بين صبيٍّ وامرأةٍ، فردَّه عليهم، وقسَمَ أموالَهم بين الغانِمينَ، ونفَّلَ أناسًا مِن الطُّلَقاءِ؛ لِيَتألَّفَ قُلوبَهم على الإسلامِ، فأعطاهم مئةً مئةً مِن الإبِلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٠).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدخُلُ فيه المُنهَزِمونَ الذين انهَزَموا عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مَن رجَعَ منهم وكَرَّ، ومَن لم يرجِعْ. قالوا: ويدخُلُ فيه الكافِرونَ الذين قال الله [فيهم]: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ كَثيرًا منهم تابوا فتابَ الله عليهم... ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه، وهذه يُفهَمُ منها أنَّه تعالى تاب على الذينَ انَهزَموا وإن لم يُصَرِّحْ بها). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٤، ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

للمُؤمِنينَ فَضلَه عليهم، وإحسانَه لَدَيهم في نَصرِه إيَّاهم في مواطِنَ كَثيرةٍ مِن غَزَواتِهم مع رَسولِه، وأنَّ ذلك مِن عِندِه تعالى، وبتَأييدِه وتَقديرِه، لا بعَدَدِهم ولا بعُدَدِهم، ونبَّهَهم على أنَّ النَّصرَ مِن عِندِه، سواءٌ قَلَّ الجَمعُ أو كَثُر(١).

٢- الإعجابُ سُمٌّ قاتِلٌ للأسبابِ، أدَّبَنا اللهُ سبحانه بذِكرِ سُوءِ أثَرِه؛ لِنَحذَرَه، فقال: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾(٢).

٣- إنَّ اللهَ إذا امتحَنَ عِبادَه بالغَلَبةِ والكَسرةِ والهَزيمةِ، ذَلُّوا وانكَسَروا وخَضَعوا، فاستوجَبُوا منه العِزَّ والنَّصرَ؛ فإنَّ خِلْعةَ النَّصرِ إنَّما تكونُ مع وِلايةِ الذُّلِّ والانكسارِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ فهو سُبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عَبدَه ويَجبُرَه وينصُرَه، كَسَرَه أوَّلًا، ويكونُ جَبرُه له ونَصْرُه، على مقدارِ ذُلِّه وانكسارِه(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ دَلالةٌ على وقوعِ العُقوبةِ على الإعجابِ بالكَثرةِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ تَخصيصُ يومِ حُنَينٍ بالذِّكرِ مِن بينِ أيَّامِ الحُروبِ؛ لأنَّ المُسلِمينَ انهَزموا في أثناءِ النَّصرِ، ثمَّ عاد إليهم النَّصرُ؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ؛ لِما فيه مِن العِبرةِ بحُصولِ النَّصرِ عند امتثالِ أمرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٩٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ١٧٩).

والسَّلامُ، وحُصولِ الهَزيمةِ عند إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ على الامتثالِ[(١)].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآياتُ تذكيرٌ للمُؤمنينَ بأنَّ عِنايةَ اللهِ تعالى وتأييدَه لِرَسولِه وللمُؤمنينَ بالقُوى المعنويَّةِ؛ أعظَمُ شأنًا، وأدنى إلى النَّصرِ مِنَ القُوَّةِ الماديَّةِ، كالكثرةِ العَدَديَّةِ وما يتعلَّقُ بها، وجُعِلَ هذا التَّذكيرُ تاليًا للنَّهيِ عن وَلايةِ آبائِهم وإخوانِهم مِنَ الكُفَّارِ، وللوعيدِ على إيثارِ حُبِّ القَرابةِ والزوجيَّةِ والعشيرةِ- ولو كانوا مُؤمِنينَ- والمالِ والسَّكَنِ، على حبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه؛ تفنيدًا لوَسوسةِ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ- مِنَ المنافِقينَ ومَرْضى القُلوبِ- لهم، وإغرائِهم باستنكارِ عَوْدِ حالةِ الحَربِ مع المُشركين، وتنفيرِهم مِن قِتالِهم لِكَثرتِهم، ولقرابةِ بَعضِهم، ولِكَسادِ التِّجارةِ التي تكونُ معهم، وذلك بعدَ إقامةِ الدَّلائِلِ على كَونِ ذلك مِنَ الحَقِّ والعَدلِ، والمَصلحةِ العامَّةِ في الدِّينِ والدُّنيا[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أسنَدَ سُبحانه الفِعلَ للجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لعُلُوِّ مَقامِهم ينبغِي ألَّا يكونَ منهم مَن يقولُ مثلَ ذلك[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فيه تنبيهٌ على خَطئِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).

في الأدبِ مع اللهِ، المناسِبِ لمَقامِهم، أي: ما كان يَنبغي لكم أن تَعْتمِدوا على كَثرتِكم(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿لَقَدْ﴾؛ لتَحقيقِ هذا النَّصرِ؛ لأنَّ القومَ كأنَّهم نَسُوه أو شَكُّوا فيه، فنُزِّلوا مَنْزلةَ مَنْ يَحتاجُ إلى تأكيدِ الخبَرِ(٢).

- وأُسْنِدَ النَّصرُ إلى اللهِ تعالى بالصَّراحةِ في قولِه: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لإظهارِ أنَّ إيثارَ مَحبَّةِ اللهِ، وإنْ كان يُفوِّتُ بعضَ حُظوظِ الدُّنيا، ففيه حَظُّ الآخِرةِ، وفيه حُظوظٌ أُخرى من الدُّنيا، وهي حُظوظُ النَّصْرِ بما فيه مِن تأييدِ الجامعةِ، ومن المغانِمِ، وحِمايةِ الأُمَّةِ مِن اعْتِداءِ أعدائها، وذلك مِن فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٢- **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في تَعليقِ السَّكينةِ بإنزالِ اللهِ تعالى وإضافتِها إلى ضميرِه: تَنويهٌ بشأنِها وبَرَكتِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥-١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإشارةٌ إلى أنَّها سَكينةٌ خارقةٌ للعادةِ، ليستْ لها أسبابٌ ومُقدِّماتٌ ظاهرةٌ، وإنَّما حَصَلتْ بمَحْضِ تَقديرِ اللهِ وتكوينِه أُنُفًا؛ كَرامةً لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإجابةً لِندائهِ النَّاسَ؛ ولذلك قَدَّم ذِكرَ الرَّسولِ قَبْلَ ذِكْرِ المؤمنين[١].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ (على) بعدَ حَرْفِ العَطْفِ؛ للتَّنبيهِ على تَجديدِ تعليقِ الفِعْلِ بالمجرورِ الثَّاني؛ للإيماءِ إلى التَّفاوتِ بين السَّكِينتينِ؛ فسكينةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سَكينةُ اطمئنانٍ على المسلمينَ الذين معَه، وثِقةٍ بالنَّصرِ، وسكينةُ المؤمنين سَكينةُ ثباتٍ وشجاعةٍ بَعْدَ الجَزَعِ والخوفِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتُوبُ﴾ دونَ الفِعْلِ الماضي؛ للإشارةِ إلى إفادةِ تَجدُّدِ التَّوبةِ على كُلِّ مَن تابَ إلى اللهِ تعالى[٣].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَذييلٌ للكلامِ؛ لإفادةِ أنَّ المَغْفرةَ مِن شأنِهِ تعالى، وأنَّه رَحيمٌ بعبادِهِ إنْ أنابوا إليه، وتَركوا الإشراكَ به[٤].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ
ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن
يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَيۡلَةٗ﴾: أي: فَقرًا وفاقةً؛ من: عال يَعيلُ عَيلةً: إذا احتاجَ[١].

﴿يَدِينُونَ﴾: أي: يُسلِمُونَ، ويُطيعونَ؛ يقالُ: دان له يَدِينُ دِينًا: إذا انقادَ وطاعَ، وأصلُ (دين): يدلُّ على جنسٍ مِن الانقيادِ[٢].

﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾: أي: الخراجَ المجعولَ على رأسِ الذِّميِّ، وتسميتُها بذلك للاجتزاءِ بها عن حَقْنِ دَمِهم، وأصلُ (جزي): يدلُّ على قيامِ الشَّيءِ مَقامَ غيرِه ومُكافأتِه إيَّاه[٣].

﴿صَٰغِرُونَ﴾: أي: أذِلَّاءُ مَقهورونَ، وأصلُ (صغر): يدلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((غريب

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها المُؤمنونَ، إنَّما المُشرِكونَ بَواطِنُهم نَجِسةٌ وخَبيثةٌ، فلا تُمَكِّنوهم مِن دُخولِ الحَرَمِ بعد هذا العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم، وإن خِفتُم فَقرًا بسببِ مَنْعِكم المشركينَ من دُخولِه، فسوفَ يُغنيكم اللهُ من فَضلِه إنْ شاءَ؛ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ.

قاتِلوا الذين لا يُؤمِنون باللهِ، ولا باليومِ الآخرِ، ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَه اللهُ ورسولُه، ولا يَدِينونَ بالإسلامِ، مِن اليَهودِ والنَّصارى، حتى يدفَعُوا الجزيةَ بأَيْدِيهم وهم أذِلَّةٌ مَقهورونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها رُجوعٌ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشرِكينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، المُفادِ بقَولِه: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ جيءَ به لتأكيدِ الأمرِ بإبعادِهم عن المسجِدِ الحَرامِ مع تَعليلِه بِعِلَّةٍ أخرى تقتضي إبعادَهم عنه: وهي أنَّهم نَجَسٌ، فقد علَّلَ فيما مضى بأنَّهم شاهِدونَ على أنفسِهم بالكُفرِ، فلَيسُوا أهلًا لِتَعميرِ المسجدِ المبنيِّ للتَّوحيدِ، وعلَّلَ هنا بأنَّهم نَجَسٌ، فلا يَعْمُروا المسجدَ لِطَهارَتِه[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾.

القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، المُطَهَّرةُ بواطِنُهم بالإيمانِ، ما المُشرِكونَ بِجَميعِ مِلَلِهم وأديانِهم[(١)] إلَّا نَجِسةٌ وخَبيثةٌ بواطِنُهم؛ بالشِّركِ والكُفرِ بالرَّحمنِ[(٢)].

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾.

أي: لِأنَّ المُشرِكينَ نَجَسٌ، فلا تُمَكِّنُوهم مِن دُخولِ جميعِ الحَرَمِ، بعد هذا

---

(١) قال ابنُ القَيِّم: (للنَّاسِ قولانِ في دخولِ أهلِ الكتابِ في لفظ المُشرِكين: فابنُ عمر وغيرُه كانوا يقولون: هم من المُشركين. قال عبد الله بنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: لا أعلَمُ شِركًا أعظَمَ مِن أن يقولَ: المسيحُ ابنُ اللهِ، وعُزَيرٌ ابنُ اللهِ. وقد قال تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخُلونَ في لَفظِ «المُشركينَ»؛ لأنَّ الله سبحانَه جعَلَهم غيرَهم في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧].

قال شَيخُنا: والتَّحقيقُ: أنَّ أصلَ دِينِهم دينُ التَّوحيدِ، فَلَيسُوا مِن المُشرِكينَ في الأصلِ، والشِّركُ طارِئٌ عليهم؛ فهم منهم باعتبارِ ما عَرَضَ لهم، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ، فلو قُدِّرَ أنَّهم لم يدخُلوا في لفظِ الآيةِ دَخَلوا في عُمُومِها المعنويِّ؛ وهو كَونُهم نَجَسًا، والحُكمُ يَعُمُّ بِعُمومِ عِلَّتِه). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (استَدَلَّ بالآيةِ من قال: بأنَّ المُشرِكَ نَجِسُ الذَّاتِ، كما ذهب إليه بعضُ الظَّاهريَّة والزيدية. ورُوِيَ عن الحسن البصري، وهو محكيٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وذهب الجُمهورُ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ- ومنهم أهلُ المذاهِبِ الأربعةِ- إلى أنَّ الكافِرَ ليس بنَجِسِ الذَّاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه أحلَّ طَعامَهم، وثبت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك مِن فِعْلِه وقَوْلِه ما يُفيدُ عَدمَ نَجاسةِ ذَواتِهم؛ فأكَلَ في آنِيَتِهم، وشَرِبَ منها، وتوضَّأَ فيها، وأنزَلَهم في مَسجِدِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ويُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٠٦).

وقال محمد رشيد رضا: (وقيل: المرادُ بنَجاسَتِهم تلبُّسُهم بها دائمًا؛ لِعَدَمِ تعبُّدِهم بالطَّهارةِ كالمُسلمين، وقولُ الجُمهورِ بأنَّ المرادَ النَّجاسةُ المَعنويَّةُ، أظهَرُ، والجَمعُ بين القولينِ أَوْلى؛ لأنَّه أعَمُّ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣١).

العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم[١].

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثَني أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبل حَجَّةِ الوَداعِ، في رَهطٍ يُؤَذِّنونَ في النَّاسِ يومَ النَّحرِ: لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبَيتِ عُرْيانٌ))[٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾.

أي: وإنْ خِفْتُم- أيُّها المُؤمِنونَ- فَقرًا بسبَبِ مَنْعِكم المُشرِكينَ مِن دُخولِ الحَرَمِ، وانقطاعِ التِّجارةِ التي بينكم وبينهم؛ فسوف يُغنِيكم اللهُ مِن رِزقِه[٣] إن شاءَ[٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تُخفيه صُدورُكم مِن خَوفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥- ٤١٣).

قال الشِّنقيطي: (وعلى كُلِّ حالٍ، فالمشركونَ، كعَبَدةِ الأوثانِ؛ أَجْمَعَ جميعُ العلماءِ على مَنْعِهم مِن دُخولِ المسجدِ، واختلفوا في الكتابيِّ وفي غيرِ المسجدِ من سائرِ الحَرَمِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ الصَّوابَ- إن شاء الله- مَنْعُهم مِن ذلك كُلِّه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) واللفظ له.

(٣) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: أَغْناهم مِن فَضلِه بما فتَحَ من بابِ الجِزْيةِ. قالوا: والدَّليلُ عليه أنَّ الآيةَ التي بعدَها آيةُ الجِزيةِ، فأخَذَ المُسلمونَ الجزيةَ من الكفَّارِ، واستغنَى بها المسلمونَ. وقال بعضُ العلماءِ: أغْناهم بإنزالِ المطَرِ، وأخصَبَتِ الأرضُ، فأخصَبَتْ بلادُ اليَمَنِ، وأخصبَتَ تَبَالةُ وجُرَشُ، وجَلَبوا لهم مِن الطَّعامِ والوَدَكِ، وأسلَمَ قبائِلُ العَرَبِ في اليَمَنِ، وفي نجدٍ وفي غيره، فكانوا يحجُّونَ كُلَّ سَنةٍ ويأتونَهم بمثْلِ ما كانوا يأتونَهم به من الطَّعامِ والأموالِ، فأغناهم اللهُ بذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤١٥-٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

العَيْلةِ، وعليمٌ بما يَصلُحُ لِعبادِه، فيَعلَمُ مَن يليقُ به الغِنى، ومَن لا يَليقُ به، حكيمٌ في شَرْعِه وفي تَدبيرِ شُؤونِ خَلْقِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(١).

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ المُشرِكينَ في إظهارِ البَراءةِ عن عَهدِهم، وفي إظهارِ البَراءةِ عنهم في أنفُسِهم، وفي وُجوبِ مُقاتَلَتِهم، وفي تَبعيدِهم عن المسجِدِ الحرامِ، وأورَدَ الإشكالاتِ التي ذكَرُوها، وأجاب عنها بالجَواباتِ الصَّحيحةِ- ذكَرَ بعده حُكمَ أهلِ الكِتابِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ مَوضِعَ تَعَجُّبٍ، يكونُ سببًا لِأنْ يُقالَ: من أين يكونُ ذلك الغِنى؟ أجابَ بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾؛ ففي ذلك غِنًى لا يُشبِهُ ما كُنتُم فيه مِن قِتالِ بَعضِكم لِبَعضٍ؛ لِتَغنَمَ ما في يَدِه مِن ذلك المالِ الحَقيرِ، ولا ما كُنتُم تَعِدُّونَه غِنًى مِن المتاجِرِ التي لا يبلُغُ أكبَرُها وأصغَرُها ما أرشدناكم إليه، مع ما في ذلك مِنَ العِزِّ المُمَكِّنِ مِن الإصلاحِ والطَّاعةِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٤-٤٣٥).

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾.

أي: قاتِلُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله إيمانًا صحيحًا، ولا يُؤمِنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، والجَنَّةِ والنَّارِ[(١)].

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ، وما حرَّم رسولُه، فلا يتَّبِعونَ شَريعَتَه[(٢)].

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾.

أي: والكُفَّارُ الذين أمَرْناكم بقِتالِهم- أيُّها المُؤمِنونَ- مِن اليَهودِ والنَّصارى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلَت أوَّلَ الأمرِ بقتالِ أهلِ الكِتابِ، بعد ما تمهَّدَتْ أمورُ المُشرِكين، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، فلما استقامَت جزيرةُ العَرَبِ، أمر الله رسولَه بقتالِ أهلِ الكِتابَينِ: اليَهودِ والنصارى، وكان ذلك في سنةِ تِسعٍ؛ ولهذا تجهَّزَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقتالِ الرُّومِ، ودعا النَّاسَ إلى ذلك، وأظهَرَه لهم، وبعَثَ إلى أحياءِ العَرَبِ حولَ المدينةِ فنَدَبَهم، فأوعَبُوا معه، واجتمَعَ من المُقاتِلةِ نحوٌ مِن ثلاثينَ ألفًا، وتخلَّف بعضُ النَّاسِ مِن أهل المدينة ومَن حَولَها مِن المُنافِقينَ، وغَيرِهم، وكان ذلك في عام جَدْبٍ، ووقْتِ قَيظٍ وحَرٍّ، وخرج عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريدُ الشَّامَ لِقتالِ الرُّومِ، فبلَغَ تَبوكَ، فنزَلَ بها، وأقام على مائِها قريبًا مِن عِشرينَ يومًا، ثم استخار اللهَ في الرُّجوعِ، فرجَعَ عامَه ذلك؛ لِضِيقِ الحالِ، وضَعْفِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).

قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وفيه وجهان؛ الأول: أنَّهم لا يُحَرِّمونَ ما حُرِّمَ في القرآنِ وسُنَّةِ الرَّسولِ. والثاني: قال أبو روق: لا يعملونَ بما في التَّوراة والإنجيل، بل حَرَّفوهما، وأتَوْا بأحكامٍ كثيرةٍ مِن قِبَلِ أنفُسِهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥).

وقال أبو السعود: (وقيل: المرادُ برسولِه: الرَّسولُ الذي يزعُمونَ اتِّباعَه، أي: يُخالِفونَ أصْلَ دِينِهم المنسوخِ اعتقادًا وعملًا). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨).

الذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يدينونَ بالإسلامِ(١).

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

أي: قاتِلوهم إلى أن يَقْبَلوا دفْعَ أموالِ الجِزْيةِ- التي تُؤخَذُ جزاءَ تركِ المسلمينَ قتالَهم، وإقامتِهم آمنينَ بينَ أظهرِ المسلمينَ، وذلك في حالِ كونِهم لم يُسلِموا- فيَبْذُلوها لكم بأيديهم، وهُم أذلَّاءُ مَقهورونَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).

قال ابن تيمية: (دخَلَ في ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ جميعُ أهلِ الكِتابِ الذين بلَغَتْهم دعوتُه، ولم يُؤمِنوا به). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٦٤).

قال الشنقيطي: (وفي قولِه: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وجهانِ من التفسيرِ:

أحدُهما: أن (الحقَّ) هو ضِدُّ الباطلِ، وأنَّ دينَ الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه. أي: الدينُ الذي هو الحقُّ الذي هو دينُ الإسلام. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

الوجهُ الثاني: أن الحقَّ هو اللَّهُ، فالحقُّ من أسماءِ اللَّهِ. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شَرَعَهُ على لسانِ نَبيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢٠).

وقال ابنُ جريرٍ: (ولا يُطيعون الله طاعةَ الحقِّ. يعني أنَّهم لا يُطيعون طاعةَ أهلِ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ هو أن يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالُها: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦-٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

وممن اختار أنَّ المعنى: عن قهرٍ لهم وغلبةٍ: ابنُ كثيرٍ، والسمينُ الحلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧).

وممن اختار أنَّ المعنى: عن قدرةٍ وسعةٍ، فلا يُظلمون ويرهقون: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٥٥).

وقال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآيةِ الكريمة: ﴿عَن يَدٍ﴾ فيه أوجهٌ مِن التفسيرِ معروفةٌ عند

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الرِّزقُ ليس مقصورًا على بابٍ واحدٍ، ومحلٍّ واحدٍ، بل لا ينغلِقُ بابٌ إلَّا فُتِحَ غَيره أبوابٌ كثيرةٌ؛ فإنَّ فَضلَ اللهِ واسِعٌ، وَجُوده عَظيمٌ، خصوصًا لِمَن ترك شيئًا لِوَجهِ الكريم، فإنَّ اللهَ أكرمُ الأكرَمينَ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا

العُلماءِ لا يكذبُ بعضُها بعضًا؛ قال بعضُ العلماء: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾: أي: عن قهرٍ وتحت ذُلٍّ، وكلُّ ما أعطاه الإنسانُ مقهورًا ذليلًا تقول العربُ: أعطاه عن يدٍ. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يدٍ، معناه: يسلِّمُه بيدِه ولا يرسِلُ به غيرَه، فالدافعُ واقِفٌ والآخِذُ جالِسٌ. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: نقدًا مُتسَلَّمًا باليدِ لا نسيئةً. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: عن اعترافِهم بنعمةِ المُسلمين عليهم؛ حيث قَبِلوا منهم العِوَضَ ولم يقتُلوهم) ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣).

وقد اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ الجزيةَ تُقبلُ مِن أهلِ الكتابِ والمجوسِ، واختلفوا في المشركينَ وعبدةِ الأوثانِ، كما اختلفوا في أوصافِ أهلِ الكتابِ والمجوسِ الذين تُقبل منهم الجزيةُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٦)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٥/ ١٦٦).

وقال ابن القيم: (الجزيةُ تؤخَذُ من كلِّ كافرٍ... ولا يُقالُ: إنَّ القُرآنَ يدُلُّ على اختصاصِها بأهلِ الكِتابِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه أمَرَ بقِتالِ أهلِ الكتابِ، حتى يُعطُوا الجِزيةَ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ بقِتالِ المُشرِكينَ حتى يعطُوا الجزيةَ، فيُؤخَذُ مِن أهلِ الكِتابِ بالقُرآنِ، ومِن عُموم الكُفَّارِ بالسُّنَّةِ، وقد أخَذَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المجوسِ، وهم عُبَّادُ النَّارِ، لا فَرْقَ بينهم وبين عَبَدةِ الأوثانِ، ولا يَصِحُّ أنَّهم من أهلِ الكِتابِ، ولا كان لهم كِتابٌ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٨٩).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فلا يجوز الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغرينَ حالَ إعطاءِ الجزيةِ. والمرادُ بإعطاءِ الجِزيةِ من حينِ بَذْلِها أو التزامِها إلى حينِ تَسليمِها وإقباضِها، فإنَّهم إذا بَذَلوا الجزيةَ شَرَعوا في الإعطاءِ، ووجَبَ الكَفُّ عنهم إلى أن نقبِضَها منهم، فمتى لم يلتَزِموها، أو التَزَموها وامتَنَعوا من تسليمِها، لم يكونوا مُعطِينَ لها، فليس المرادُ أن يكونوا صاغرينَ حال تناوُلِ الجِزيةِ منهم فقط، ويفارِقُهم الصَّغارُ فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٧٧).

وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ ليس بالاجتهادِ، وإنَّما هو مِن فَضلِ اللهِ، تولَّى قِسْمَتَه بين عبادِه، وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢) [الزخرف: ٣٢]، وهو أيضًا يفتحُ بابَ الرَّجاءِ مع التضرُّعِ إلى اللهِ في تَحقيقِ وعْدِه؛ لأنَّه يفعلُ ما يَشاءُ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ بيانُ أنَّه لا يجِبُ الحَجُّ- الوجوبَ المقتضيَ للفِعلِ وصِحَّتِه- إلَّا على مسلمٍ؛ حيث نهى اللهُ تعالى المشركينَ أنْ يَقرَبوا المسجِدَ الحرامَ، ومَنَعَهم منه، فاستحال أنْ يُؤمَروا بحَجِّ البَيتِ(٤)!!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فيه أنَّ الكافِرَ يُمنَعُ مِن دُخولِ الحَرَمِ؛ وأنَّه لا يُؤذَنُ له في دُخُولِه، لا لِتجارةٍ ولا لِغَيرِها، وإن كان لِمَصلحةٍ لنا(٥).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ المرادُ مِن المسجِدِ الحرامِ جَميعُ الحَرَمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦١).
(٤) يُنظر ((شرح العمدة – كتاب الحج)) لابن تيمية (١/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك لأنَّ مَوضِعَ التِّجاراتِ ليس هو عينَ المَسجِدِ، فلو كان المقصودُ من هذه الآيةِ المنعَ مِن المسجِدِ خاصَّةً، لَمَا خافوا بسبَبِ هذا المنعِ مِن العَيلَةِ، وإنَّما يخافونَ العَيلةَ إذا مُنِعوا مِن حُضورِ الأسواقِ والمَواسِمِ(١)، وسمَّى الحَرَمَ كلَّه مسجدًا لمجاورتِه المسجدَ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قَولُه: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليقٌ للإغناءِ بالمشيئة؛ ولسائلٍ أن يسأَلَ فيقولَ: الغَرَضُ بهذا الخبرِ إزالةُ الخَوفِ بالعَيلةِ، وهذا الشَّرطُ يمنَعُ من إفادةِ هذا المقصودِ، فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّل: عَلَّقَ الإغناءَ بالمشيئةِ؛ لأنَّ الغِنى في الدُّنيا ليس من لوازِمِ الإيمانِ، ولا يدلُّ على محبَّةِ اللهِ؛ فلهذا علَّقَه اللهُ بالمشيئةِ، فإنَّ اللهَ يُعطي الدُّنيا مَن يُحِبُّ ومن لا يحِبُّ، ولا يعطي الإيمانَ والدِّينَ إلَّا مَن يُحِبُّ.

الثاني: لأنَّ الإغناءَ يقَعُ في حقِّ بَعضٍ دُونَ بَعضٍ، فالله تعالى عَلِمَ أنَّ فيهم من لا يبلُغُ هذا الغِنى الموعودَ، وأيضا فالإغناءُ يقَعُ في وقتٍ دون وقتٍ.

الثالث: لإجراءِ الحُكمِ على الحِكمةِ، فإن اقتضَتِ الحِكمةُ والمصلحةُ إغناءَكم أغناكم.

الرابع: إعلامًا بأنَّ الرِّزقَ لا يأتي بحِيلةٍ ولا اجتهادٍ، وإنَّما هو فَضلُ اللهِ.

الخامس: لكي لا يحصُلَ الاعتمادُ على حصولِ هذا المطلوبِ، فيكونُ الإنسانُ أبدًا مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى في طلَبِ الخَيراتِ، ودَفْعِ الآفاتِ، ولتنقطِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصّاب (١/ ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصّاب (١/ ٥١٧).

الآمالُ إليه عَزَّ وجَلَّ.

السادس: أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ هذا الشَّرطِ تَعليمُ رِعايةِ الأدبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1] [الفتح: ٢٧].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ إخبارٌ عن غيبٍ في المُستقبَلِ، وقد وقع الأمرُ مُطابِقًا لذلك الخبرِ، فكان معجزةً[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أصلٌ في قَبولِ الجِزيةِ مِن أهلِ الكِتابِ[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ قَولُه: ﴿عَن يَدٍ﴾ استدَلَّ به مَن لم يُجِزْ توكيلَ مُسلمٍ في دَفْعِ الجزيةِ، ولا أن يَضمَنَها عنه، ولا يُحيلَ بها عليه[4].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ قيل: المرادُ يدُ المؤَدِّي، وعلى هذا استدَلَّ به من قال: تسقُطُ الجِزيةُ بالموتِ والإسلامِ؛ لأنَّ الاستيفاءَ عن يَدِه[5].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٨٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ الجِزيةَ تؤخَذُ بإهانةٍ[١].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ أهلَ الذِّمَّةِ يُترَكون في بلدِ الإسلامِ؛ لأنَّ مَفهومَها الكَفُّ عنهم عند أدائِها، ومن الكَفِّ ألَّا يُجْلَوْا[٢].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال: لا حَدَّ لأقَلِّ الجِزيةِ[٣].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِزيةَ عِوَضُ حَقنِ الدَّمِ، لا أُجرةُ الدَّارِ[٤].

١٣- في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ نساءَهم وصبيانَهم لا جزية

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩-١٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

عليهم؛ لأنَّهم لا يُقاتَلون، بل قد نُهِيَ عن قَتْلِهم[١].

١٤- وُصِفَتِ النَّصارى في قَولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأنَّهم لا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِرِ، مع أنَّ النَّصارى يُقِرُّونَ بمَعادِ الأبدانِ! ووجهُ ذلك أنَّهم لا يُقِرُّون بما أخبَرَ اللهُ به من الأكلِ والشُّربِ واللِّباسِ والنِّكاحِ، والنَّعيم والعذابِ في الجنَّةِ والنَّارِ، بل غايةُ ما يُقِرُّونَ به من النَّعيمِ: السَّماعُ والشَّمُّ، ومنهم مُتفَلسِفةٌ يُنكِرونَ مَعادَ الأجسادِ[٢].

١٥- ليس المرادُ بالعطاءِ في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ العطاءَ الأوَّلَ وحْدَه، بل العطاءُ المستمِرُّ المتكرِّرُ كُلَّ عامٍ[٣].

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغِرينَ حالَ إعطائِهم الجزيةَ، ومِن المعلومِ أنَّ مَن أظهَرَ سَبَّ نبيِّنا في وجوهِنا، وشَتَمَ ربَّنا على رُؤوسِ الملإِ مِنَّا، وطعَنَ في دينِنا في مَجامِعِنا- فليس بصاغرٍ؛ لأنَّ الصاغِرَ: الذَّليلُ الحقيرُ، وهذا فِعلُ مُتعَزِّزٍ مُراغِمٍ، ففي هذه الحالِ يكونُ قتالُ هؤلاء مأمورًا به، ولا تنعقِدُ لهم ذِمَّةٌ، ولو عُقِدَ لهم كان عقدًا فاسِدًا[٤].

١٧- ليس المرادُ بالصَّغار في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أنْ يكونوا صاغرينَ حالَ تناوُلِ الجزيةِ منهم فقط؛ ويفارِقُهم الصَّغارُ

(١) يُنظر: ((النُّكَتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٢١)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٥٨).

(٣) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١١).

فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا، وإنَّما أنْ يلازِمَهم الصَّغارُ والذُّلُّ في كامِلِ مدَّةِ أداءِ الجِزيةِ[١].

١٨- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دليلٌ على توهينِ قولِ مَن قال: إنَّ مَن أسلم مِن رجالهم - وقد مضى بعضُ السَّنَةِ - فعليه مِن الجزيةِ بقَدْرِ ما مضَى منها. لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه جَعَلَ الجزيةَ صَغارًا؛ والصَّغارُ لاحقٌ بالدافعِ وقتَ الدفعِ؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ وكيف يُلْزَمُ المسلمُ صَغارَ الجزيةِ وقد أَعَزَّهُ اللهُ بالإسلام؛ والإسلامُ يَجُبُّ ما قبْلَه[٢]؟!

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للرُّجوعِ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشركينَ عن المسجدِ الحرامِ، المُفادِ بقولِه: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ وجِيءَ به لتأكيدِ الأَمْرِ بإبعادِهم عن المسجدِ الحَرامِ، مع تَعليلِه بعِلَّةٍ أُخْرى تَقتضي إبعادَهم عنه، وهي: أَنَّهم نَجَسٌ[٣].

- وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ فيه حَصْرٌ، وصِيغةُ الحَصْرِ هذِه لإفادةِ نَفْيِ التَّردُّدِ في اعتِبارِهم نَجَسًا؛ فهي للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالنَّجاسةِ، حتَّى كأنَّهم لا وصْف لهم إلَّا النَّجَسيَّة[٤].

- ووُصِفوا بالمصْدَرِ ﴿نَجَسٞ﴾ مُبالَغةً أيضًا، كأنَّهم عينُ النَّجاسةِ، أو هم

(١) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠).

ذَوُو نَجَسٍ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فيه النَّهيُ عن القُرْبِ؛ للمُبالَغةِ، أو للمَنْعِ عن دُخولِ الحَرَمِ[٢].

- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جُعِلَ النَّهيُ على صورةِ نَهيِ المُشرِكينَ عن ذلك؛ مبالغةً في نهيِ المُؤمِنينَ حين جُعِلوا مُكَلَّفينَ بانكفافِ المُشرِكينَ عن الاقترابِ مِن المسجِدِ الحَرامِ[٣].

- قولُهُ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ فيه إضافةُ (العامِ) إلى ضَميرِ (هُم)؛ لمزيدِ اخْتِصاصِهم بحُكمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، ووصْفُ (العامِ) باسمِ الإشارةِ ﴿هَـٰذَا﴾؛ لزيادةِ تمييزِه وبيانِه[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: إنَّ اللهَ يُغْنيكم؛ لأنَّه يَعْلَمُ ما لكم مِن المنافعِ من وِفادةِ القبائلِ، فلمَّا مَنَعكم مِن تمكينِهم من الحجِّ لم يَكُنْ تاركًا مَنْفعتكم؛ فقدَّرَ غِناكُم عنهم بوسائلَ أُخْرى عَلِمها، وأحْكَم تَدبيرَها[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ...﴾ هذه الجملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠-١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، لا تَتفرَّعُ على التي قَبْلَها؛ فالكلامُ انْتِقالٌ من غَرَضِ نَبْذِ العَهْدِ مَع المشركينَ، وأحوالِ المُعامَلةِ بَينهم وبين المسلِمين، إلى غرَضِ المُعامَلةِ بين المسلمينَ وأَهْلِ الكِتابِ من اليهودِ والنَّصارى[١].

- وقولُهُ: ﴿عَن يَدٍ﴾ تأكيدٌ لمعنى ﴿يُعْطُواْ﴾؛ للتَّنصيصِ على الإعطاءِ، و(عن) فيه للمُجاوَزةِ، أي: يَدْفُعوها بأيديهم، ولا يُقبَلُ منهم إرسالُها ولا الحوالةُ فيها، ومَحَلُّ المجرورِ الحالُ مِن الجِزيةِ، والمرادُ يَدُ المُعْطي، أي: يُعْطُوها غيرَ مُمتنِعينَ، ولا مُنازِعينَ في إعطائِها، وهذا كقولِ العَربِ: (أعْطَى بيدِه) إذا انْقادَ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٦).

الآيتان (٣٠-٣١)

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾: أي: يُشابِهونَ، والمُضاهاةُ: مُعارَضةُ الفِعلِ بمِثْله، يقالُ: ضاهَيْتُه: إذا فعَلْتَ مثلَ فِعْله، وأَصْلُ (ضهي): يدلُّ على مُشابَهةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ اليهودَ قالوا: إنَّ عُزَيرًا هو ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ هو ابنُ اللهِ، ذلك قولُهم بألسِنَتِهم، يُشابِهونَ قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، لَعَنَهم اللهُ، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ؟!

اتَّخَذوا عُلَماءَهم وعُبَّادَهم سادةً يُطيعُونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحَرامِ، وتحريمِ الحَلالِ، واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ إلهًا مِن دُونِ اللهِ، وما أُمِرُوا إلَّا لِيَعبُدوا إلهًا واحدًا، هو اللهُ، لا إلهَ إلَّا هو، تنَزَّهَ وتقَدَّس عن شِرْكِهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَمَ اللهُ تعالى في الآيةِ المُتقَدِّمةِ على اليهودِ والنَّصارى بأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالله، شَرَحَ ذلك في هذه الآيةِ، وذلك بأنْ نقَلَ عنهم أنَّهم أثبَتُوا لله ابنًا، ومَن جَوَّزَ ذلك في حَقِّ الإلهِ، فهو في الحقيقةِ قد أنكَرَ الإلهَ، وأيضًا بيَّنَ تعالى أنَّهم بمنزلةِ المُشرِكينَ في الشِّركِ، وإن كانت طُرُقُ القَولِ بالشِّركِ مُختلِفةً؛ إذ لا فَرقَ بين من يَعبُدُ الصَّنمَ، وبين من يعبُدُ المَسيحَ وغَيرَه؛ لأنَّه لا معنى للشِّركِ إلَّا أن يتَّخِذَ الإنسانُ مع اللهِ مَعبودًا، فإذا حصَلَ هذا المعنى، فقد حصَلَ الشِّركُ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِ أهلِ الكِتابِ، ووصَفَهم بما هو السَّبَبُ الباعِثُ على ذلك؛ عطَفَ عليه بعضَ أقوالِهم المُبيحةِ لِقِتالِهم، المُوجِبةِ لِنَكالِهم[(٢)].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وقالت اليهودُ[(٣)]: عُزَيرٌ هو ابنُ اللهِ[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٧-٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٧).

(٣) قال ابنُ تيميةَ بعدَ أن ذكَر أنَّ جمهورَ اليهودِ لا يقولون ذلك: (وبالجملة إنَّ قائِلي ذلك من اليهودِ قَليلٌ، ولكِنَّ الخبَرَ عن الجِنسِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٨٨-٨٩).

وقال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: إن كان قول بَعضِهم، فلِمَ أُضيفَ إلى جَميعِهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّ إيقاعَ اسْمِ الجماعةِ على الواحِدِ مَعروفٌ في اللُّغةِ... والثاني: أنَّ مَن لم يَقُلْه، لم يُنْكِرْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).

وقال الشوكانيُّ: (وظاهِرُ قولِه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ أنَّ هذه المقالةَ لجميعِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢)، ونسَب ابنُ الجوزيِّ لابنِ عباسٍ أنَّ الذين قالوا هذا هم جميعُ بني إسرائيلَ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١).

قال الشنقيطي: (ومما يَدُلُّ على أنَّ هذه المقالةَ صَدَرَتْ من اليهودِ أن هذا القرآنَ يُتْلَى من قديمِ الزمانِ من نزولِ هذه الآيةِ، ولم يُعْلَمْ أن يهوديًّا في زمانِها كَذَّبَ بذلك، وقال: ما قُلْنَا هذا! مع مسارعتِهم إلى التكذيبِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٨٨، ٨٩).

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وقالت النَّصارى: المسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ، هو ابنُ اللهِ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: لِيَتْبَعْ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقى أحدٌ كان يعبُدُ غيرَ اللهِ- سُبحانه- من الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يَتَساقَطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلاَّ مَن كان يعبُدُ اللهَ من بَرٍّ وفاجرٍ وَغُبَّرِ[(٢)] أهلِ الكِتابِ، فيُدعى اليَهودُ، فيقالُ لهم: ما كُنْتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عُزَيرَ ابنَ اللهِ، فيُقال: كذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ، فماذا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، فيُشارُ إليهم: ألاَ تَرِدُونَ[(٣)]؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ[(٤)] بعضُها بعضًا، فيتساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: ما كُنْتُم تَعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ، فيُقال لهم: كَذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ

قيل: كان عزير نبيًّا مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ. وقيل: كان حَبْرًا كبيرًا مِن أحبارِهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٧-١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

(٢) غُبَّر (بِضَمِّ الغَينِ وفتح الباء المُشَدَّدة) أي: بَقايَا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٦).

(٣) تَرِدُونَ: مِن الوُرودِ على الماءِ، أي: الوُصولِ إلى تناوُلِه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣٢).

(٤) يَحطِمُ: أي: يَكسِرُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٨٢).

ولا وَلَدٍ، فيُقال لهم: ماذا تَبغُونَ؟ فيقولونَ: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، قال: فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ؟ فيُحشَرونَ إلى جَهنَّمَ، كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ بعضُها بعضًا، فيَتَساقَطونَ في النَّارِ))(١).

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: نِسبَةُ الوَلَدِ إلى اللهِ تعالى كَذِبًا وزورًا هو قولُ اليهودِ والنَّصارى بألسنتِهم، فلا مُستنَدَ لهم فيما ادَّعَوه(٢).

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾.

أي: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الوَلَدَ إلى الله تعالى، قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبلَهم في ذلك(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يتضمَّنُ معنيَين: أحدهما: إلزامُهم المقالةَ، والتَّأكيدُ في ذلك، كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والمعنى الثاني في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: هو ساذَجٌ لا حُجَّةَ عليه ولا بُرهانَ، غايةُ بَيانِه أنْ يُقالَ بالأفواهِ قَولًا مُجَرَّدًا نفْس دَعْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

قال الرازي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ وُجوهٌ: الأول: أنَّ المُرادَ أنَّ هذا القولَ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُضاهي قَولَ المُشركينَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ. الثاني: أنَّ الضَّميرَ للنَّصارى، أي: قولُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، يُضاهي قولَ اليَهودِ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ؛ لأنَّهم أقدَمُ منهم. الثالث: أنَّ هذا القَولَ مِن النَّصارى يُضاهي قَولَ قُدَمائِهم، يعني: أنَّه كُفرٌ قَديمٌ، فهو غيرُ مُستَحدَثٍ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن جزي))

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ، فيَضِلُّونَ عنه، ويَعْدِلونَ إلى الباطِلِ، ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم ذلك الصَّرْفُ بعد وضوحِ الدَّليلِ على أنَّ الله تعالى لم يتَّخِذْ وَلَدًا(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ * لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ

(١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٣).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾: الكُفَّارُ مِن الأمَمِ السَّابقة: ابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: يُشابِه قَولُ اليَهودِ والنصارى في نِسبتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ أسلافِهم الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو قولُ ابن قتيبة، والزجاج. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٣).

وقيل: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ مُشرِكي العَرَبِ الذين كفَروا مِن قَبْلِهم، إذ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله. وهذا اختيارُ السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

وقيل: يشابِهُ قَولُ النَّصارى في نِسبَتِهم الولَدَ إلى اللهِ، قَولَ اليَهودِ الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو اختيارُ ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣، ٤١٤).

قال الشنقيطي: (وهذا كلُّه لا يُكذِبُ بَعضُه بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ بعد أن ضعَّفَ القَولَ بأنَّهم قدماءُ الذين كَفَروا، أو مُشرِكو العَرَبِ: (فلعَلَّه الصابئونَ المُشرِكونَ الذين كانوا قبلَ موسى والمسيحِ بأرْضِ الشَّامِ ومِصرَ وغيرِها، الذين يجعلونَ الملائكةَ أولادًا له). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ❁ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ❁ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ❁ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى وصَفَ اليَهودَ والنَّصارى بضَربٍ آخَرَ مِن الشِّرْكِ، بِقَولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾[(١)].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: اتَّخذَ اليَهودُ عُلَماءَهم، واتَّخذَ النَّصارى عُبَّادَهم، سادةً يُطيعونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحرامِ، وتَحريمِ الحَلالِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٦، ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عِيسى ابنَ مَريمَ إلهًا مِن دُونِ الله سُبحانَه[1]!

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

أي: وما أُمِرَ اليَهودُ والنَّصارى في كُتُبِهم إلَّا أن يعبُدوا ويُطيعُوا مَعبودًا واحدًا، وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، المُتَفَرِّدُ بالتَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ دونَ ما سِواه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

أي: لا مُستَحِقَّ للعبادةِ إلَّا اللهُ وَحدَه[3].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قال الرازي: (حاصِلُ الكلامِ أنَّ تلك الربوبيَّةَ يحتملُ أن يكونَ المرادُ منها أنَّهم أطاعوهم فيما كانوا مُخالِفينَ فيه لِحُكم الله، وأن يكونَ المرادُ منها أنَّهم قَبِلوا أنواعَ الكُفرِ، فكَفَروا باللهِ، فصار ذلك جاريًا مجرى أنَّهم اتَّخَذوهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، ويحتملُ أنَّهم أثبَتُوا في حَقِّهم الحُلولَ والاتِّحادَ. وكُلُّ هذه الوجوهِ الأربعةِ مُشاهَدٌ وواقِعٌ في هذه الأمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

أي: تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ أتمَّ تنزيهٍ، عن شِرْكِ المُشرِكينَ، وافتراءاتِ الكافِرينَ(١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ على أنَّ مَن أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنِ اللهُ به- من تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استحبابٍ أو إيجابٍ- فقد لَحِقَه من هذا الذمِّ نصيبٌ، ويلحق الذمُّ مَن تبيَّن له الحقَّ فترَكَه أو قصَّرَ في طلبه فلم يتبيَّنْ له، أو أعرضَ عن طلبه لهوىً أو كسلٍ ونحو ذلك(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ مَن أخبَرَ عن كُفرِ غَيرِه، الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يَبتدئَ به، لا حَرَجَ عليه؛ لأنَّه إنَّما ينطِقُ به على معنى الاستعظامِ له والرَّدِّ عليه، فلا يمنَعُ ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكَلَّمَ به أحدٌ، فإذا أمكَنَ مِن انطلاقِ الألسِنَةِ به، فقد أذِنَ في الإخبارِ عنه، على معنى إنكارِه بالقَلبِ واللِّسانِ، والرَّدِّ عليه بالحُجَّةِ والبُرهانِ(٣).

٢- ذَكَرَ اللهُ تعالى اعتقادَ النَّصارى في عيسى على ثلاثةِ أشكالٍ؛ فمنها ما قال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، ومنها: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، ومنها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٨٣).

هذه الاعتقاداتِ حقيقتُها اعتقادٌ واحدٌ عندَهم- لا أنَّها اعتقادُ كلِّ فِرْقةٍ على حِدَةٍ- فما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى عنهم هو قولُ جملةِ النَّصارى؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّه اللهُ باعتبارٍ، وإنَّه ابنُ اللهِ باعتبارٍ آخَرَ، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ باعتبارٍ آخَرَ؛ حيث إنَّهم عَبَدُوا معه المسيحَ وأمَّه، فصار ثالثَ ثلاثةٍ- سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون[١].

٣- إنَّ اللهَ سُبحانه لم يذكُرْ قولًا مقرونًا بذِكرِ الأفواهِ والألسُنِ إلَّا وكان قولًا زُورًا، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[٢] [الفتح: ١١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ دلالةٌ على جوازِ تسميةِ الشيءِ باسمِ الشيءِ إذا جاوَره؛ لأنَّ القولَ - لا محالةَ - بالألسنةِ لا بالأفواهِ[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الإشراكُ باللهِ في حُكْمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه كِلاهما بمعنًى واحدٍ، لا فَرْقَ بينهما البتَّةَ؛ فالذي يَتْبَعُ نظامًا غيرَ نِظامِ اللهِ، وتشريعًا غيرَ ما شَرَعه الله، وقانونًا مُخالِفًا لِشَرعِ اللهِ، مِن وَضعِ البَشرِ، مُعرِضًا عن نورِ السَّماءِ، الذي أنزَلَه اللهُ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، من كان يفعَلُ هذا هو ومَن يعبُدُ الصَّنَمَ ويَسجُدُ للوَثَنِ، لا فرق بينهما البتَّةَ بِوجهٍ

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥١٩).

مِن الوجوه، فهما واحِدٌ؛ فكِلاهما مُشرِكٌ بالله: هذا أشرَكَ به في عبادَتِه، وهذا أشرَكَ به في حُكمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه، والإشراكُ به في حُكمِه، كِلاهما سَواءٌ، وقد قال اللهُ جلَّ وعلا في الإشراكِ به في عِبادَتِه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في الإشراكِ به في حُكْمِه أيضًا: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وفي قراءةِ ابنِ عامرٍ مِن السَّبعةِ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ بصيغةِ النَّهيِ المُطابِقةِ لِقَولِه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فكِلاهما إشراكٌ باللهِ[(١)].

٦- مَن اعتقَدَ طاعةَ أحدٍ لِعَينِه أو لِصَفةٍ فيه، فأطاعه في خلافِ ما أمَرَ اللهُ، فهو من الذين ذُكِروا في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم كانوا يعتَقِدونَ وُجوبَ طاعةِ أحْبارِهم، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّهم اتَّخذوهم أربابًا[(٢)].

٧- هؤلاء الذينَ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ - حيث أطاعُوهم في تحليلِ ما حرَّم اللهُ وتحريمِ ما أحلَّ اللهُ- يكونونَ على وجهينِ:

أحدهما: أنْ يعلَمُوا أنَّهم بدَّلوا دينَ الله؛ فيتَّبِعونَهم على التَّبديلِ، فيعتقدونَ تحليلَ ما حرَّم اللهُ، وتحريمَ ما أحلَّ اللهُ؛ اتِّباعًا لرُؤسائِهم -مع عِلْمِهم أنَّهم خالفُوا دينَ الرُّسُلِ- فهذا كفرٌ، وقد جعَلَه اللهُ ورسولُه شِركًا، وإنْ لم يكونوا يُصَلُّونَ لهم، ويَسجُدونَ لهم.

والثاني: أنْ يكون اعتقادُهم وإيمانُهم بتحريمِ الحرامِ وتحليلِ الحلالِ ثابتًا،

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤١)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧، ٣٨٨).

لكِنَّهم أطاعوهم في مَعصيةِ اللهِ -كما يفعلُ المسلمُ ما يفعلُه مِن المعاصي التي يَعتقِدُ أنَّها معاصٍ- فهؤلاء لهم حُكْمُ أمثالِهم من أهلِ الذُّنوبِ، كما ثبت في الصَّحيحِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[1].

٨- لم تُوصفِ النَّصارى باسم (المُشرِكينَ)- يعني: بأل التَّعريفِ- وإنما وُصِفت بعمومِ فِعْلِ الشِّركِ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ أهلَ الكتابِ ليس في أصلِ دِينِهم شِركٌ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما بعثَ الرُّسُلَ بالتَّوحيدِ، فكلُّ مَن آمن بالرُّسُلِ والكُتُبِ، لم يكنْ في أصلِ دينِهم شِرْكٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ ولكنَّ النَّصارى ابتَدَعوا الشِّركَ، وحيث ميَّزَهُم اللهُ عن المشركين، فعَطَفَ ذِكْرَهُم على ذِكْرِ المُشرِكينَ؛ فلِأَنَّ أصلَ دينِهم اتِّباعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ التي جاءت بالتَّوحيدِ لا بالشِّركِ، وفرْقٌ بين دَلالةِ اللَّفظِ مُفرَدًا ومَقرونًا، فإذا أُفْرِدَ ذِكْرُ المشركينَ دخلَ فيهم أهلُ الكتابِ، وإذا قُرِنُوا بأهلِ الكِتابِ لم يَدخُلوا فيهم[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على إطلاقِ اسمِ الشِّركِ على اليَهودِ والنَّصارى[3].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٠).
والحديث أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥-٤٠٦).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ المقصودُ مِن الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تَشهيرُ القولِ وتمييزُه؛ زِيادةً في تَشنيعِه عِندَ المسلمينَ[(١)].

- وقولُه: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حالٌ مِن القولِ، والمرادُ: أنَّه قولٌ لا يَعْدو الوجودَ في اللِّسانِ، وليس له ما يُحقِّقُهُ في الواقِعِ، وهذا كِنايةٌ عن كوْنِهِ كاذبًا، وفي هذا أيضًا إلزامٌ لهم بهذا القولِ، وسَدٌّ لبابِ تَنصُّلِهم منه؛ إذ هو إقرارُهم بأفواهِهِم، وصَريحُ كلامِهم[(٢)].

- وجُملةُ: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، والاسْتِفهام فيها مُستعْمَل في التَّعجُّبِ من حالِهم في الاتِّباع الباطلِ، حتَّى شبَّهَ المكانَ الذي يُصرَفون إليه باعْتِقادِهم بمكانٍ مجهولٍ مِن شأنِهِ أنْ يُسألَ عنه باسمِ الاسْتِفهامِ عن المكانِ ﴿أَنَّىٰ﴾[(٣)].

٢- **قوله تعالى**: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ...﴾ الجملةُ تَقريرٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾؛ ليُبْنَى على التَّقريرِ زِيادةُ التَّشنيعِ بقولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾

﴿أَن يُتِمَّ﴾: مَصدرٌ مُؤوَّلٌ، وهو في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به، والاستثناءُ هنا مُفرَّغٌ- ناقِصٌ مَنفيٌّ- وإنما دَخَلَ الاستثناءُ المفرَّغُ مع الفِعلِ الْمُثْبَتِ ﴿يَأْبَى﴾- وشَرطُ الاستثناءِ المُفَرَّغِ أن يكونَ بعد نفيٍ أو شِبْهِهِ كالاستفهامِ[١]- لأنَّ ﴿يَأْبَى﴾ في معنى النَّفيِ؛ لأنَّه في معنى (لا يُرِيدُ)، والتَّقديرُ: ولا يُريدُ اللهُ إلَّا إتمامَ نُورِه. وقيل: إنَّ المُستثنى منه مَحذوفٌ، وهو مفعولُ ﴿يَأْبَى﴾، والتَّقديرُ: ويأبى اللهُ كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نورِه، وعليه فـ﴿أَن يُتِمَّ﴾ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ[٢].

(١) قال الشيخ خالد الأزهري: (ولا يتأتَّى التَّفريغُ في الإيجابِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الاستبعادِ؛ لا نقولُ: رأيتُ إلَّا زيدًا؛ لأنَّه يلزَمُ منك أنَّك رأيتَ جَميعَ النَّاسِ إلَّا زيدًا، وذلك محالٌ عادةً). يُنظر: ((شرح التصريح)) (١/ ٥٤٠).

- ولكِنْ أحصى الدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة آياتِ الاستثناءِ في القرآنِ الكَريم، فوجَدَ ثمانيَ عَشْرةَ آيةً، جاء فيها الاستثناءُ المُفَرَّغُ بعد الإيجابِ، وبعض هذه الآياتِ جاء الإثباتُ فيها مُؤَكَّدًا؛ ممَّا يُبعِدُ تأويلَ هذا الإثباتِ بنفيٍ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]... ثمَّ قال: فإنَّنا لو سَلَكْنا هذا الطَّريقَ وسَوَّغْنا هذا التَّأويلَ، ما وَجَدْنا في لغةِ العَرَبِ إثباتًا يستعصي على تأويلِه بالنَّفيِ. يُنظر: ((دراسات لأسلوب القرآن الكريم)) (١/ ٧- ٢٦٦). ويُنظَرُ أيضًا: ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان الأندلسي (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ أهلَ الكِتابِ يُريدونَ أن يُبطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يَقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه، ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دِينَه ويُظهِرَه للنَّاسِ، ولو كَرِه الكافِرونَ، ويُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي أرسَلَ رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالهُدى، وبِدِينِ الإسلامِ؛ لِيُظهِرَه على سائِرِ الأديانِ، ولو كَرِه المُشرِكونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَهَّى اللهُ سُبحانَه أمْرَ أهلِ الكِتابِ مِن جهةِ استنادِهم، زاد ذلك توهيةً مِن جهةِ مُرادِهم؛ بالإعلامِ بأنَّهم بقِتالِهم لأهلِ الطَّاعةِ إنَّما يُقاتِلونَ اللهَ تعالى، وأنَّه لا يُنَفِّذُ غَرَضَهم، بل يريدُ غيرَ ما يريدونَ، ومِن المُقَرَّرِ أنَّه لا يكونُ إلَّا ما يريدُ سُبحانه[1].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: يريدُ اليَهودُ والنَّصارى أن يُبْطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه[2].

(٢/ ٦٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٠-٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٧، ٨].

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

أي: ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دينَه، ويُظهِرَه للنَّاس[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ الكُفَّارُ إتمامَ اللهِ دينَه، فإنَّه سيُتِمُّه لا محالةَ[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهَ تعالى عن الأعداءِ أنَّهم يُحاوِلونَ إطفاءَ نورِ الله، وبيَّنَ تعالى أنَّه يأبى ذلك، وأنَّه يُتِمُّ نورَه- بَيَّنَ كيفيَّةَ ذلك الإتمامِ[٣]، وبيَّنَ النُّورَ المَذكورَ

قال ابن كثير: (مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ، أو نورَ القَمرِ بنَفْخِه! وهذا لا سبيلَ إليه، فكذلك ما أَرسَلَ اللهُ به رسولَه؛ لا بُدَّ أن يَتِمَّ ويَظهَرَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٢).

الذي قد تكَفَّلَ بإتمامِه وحِفْظِه، فقال تعالى[١]:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي بعَثَ رَسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِل على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومعرفةِ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِل على الأعمالِ الصَّالحةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتصارِ على أهلِ الأديانِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائرِ الأديانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥١).

قال الرازي: (لا دينَ بخلافِ الإسلامِ، إلَّا وقد قَهَرَهم المسلمونَ، وظَهَروا عليهم في بعضِ المواضِعِ، وإن لم يكُن كذلك في جميعِ مَواضِعِهم، فقَهَروا اليهودَ وأخرَجُوهم من بلادِ العَرَبِ، وغَلَبوا النَّصارى على بلادِ الشَّامِ وما والاها إلى ناحيةِ الرُّومِ والغَرْبِ، وغَلَبوا المجوسَ على مُلْكِهم، وغَلَبوا عُبَّادَ الأصنامِ على كثيرٍ مِن بلادِهم ممَّا يلي التُّركَ والهِندَ، وكذلك سائرُ الأديانِ؛ فثبت أنَّ الذي أخبَرَ الله عنه في هذه الآيةِ قد وقع وحصَل، وكان ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابن عاشور: (ظهورُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه حصَلَ في العالَمِ، باتِّباعِ أهلِ المِلَلِ إيَّاه في سائرِ الأقطارِ، بالرَّغمِ على كراهِيَةِ أقوامِهم وعظماءِ مِلَلِهم ذلك، ومُقاوَمَتِهم إيَّاه بكلِّ حِيلةٍ، ومع ذلك فقد ظهرَ وعلا، وبان فضلُه على الأديانِ التي جاوَرَها... ولا يلزَمُ مِن إظهارِه على الأديانِ أن تنقَرِضَ تلك الأديانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣، ١٧٤).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى. فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إن كنْتُ لَأظُنُّ حين أنزَلَ اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيكونُ من ذلك ما شاءَ اللهُ))[١].

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى ليَ الأرضَ[٢]، فرأَيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها))[٣].

وعن خَبَّاب بن الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا، ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ، أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلون))[٤].

وقال الألباني: (تُبَشِّرُنا هذه الآيةُ الكَريمةُ بأنَّ المُستقبَلَ للإسلامِ، بسَيطَرتِه وظُهورِه وحُكْمِه على الأديانِ كلِّها، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ ذلك قد تحقَّقَ في عهدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعهدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ والملوكِ الصَّالحين، وليس كذلك، فالذي تحقَّقَ إنَّما هو جزءٌ مِن هذا الوَعدِ الصَّادِقِ). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١/ ٣١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى لي الأرضَ:أي: قَبَضَها وطَوَاها، وجَعَلَها مجموعةً كَهَيئةِ كَفٍّ في مرآةِ نَظَرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))(١).

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ المشركونَ ظُهورَ الإسلامِ على جميعِ الأديانِ، فإنَّ اللهَ سيُظهِرُه(٢).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بُشرى وتثبيتٌ لأهلِ الإسلامِ الدَّاعِينَ له العاملينَ به، أنَّ اللهَ سبحانَه قد تكفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والظُّهورِ على جميعِ الأديانِ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوعدِ الذي لا بدَّ أنْ يُنجِزَه سبحانَه(٣).

٢- بعثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدينِ الحَقِّ يُقصَدُ الخيرُ ويُعمَلُ به، فلا بدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفتنةُ تضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها من الشُّبُهاتِ التي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٦١٥٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٥٨) (١٢٨٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٨٣٢٦).

قال الحاكم (٥/ ٦١٥): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): على شرط مسلم.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

فيها من الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخيرِ؛ لِمَا فيها من ظهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- طبيعةُ الموقِفِ الدَّائِمِ لأهلِ الكِتابِ، مِن نُورِ اللهِ المتمَثِّلِ في دينِه الحَقِّ، الذي يهدِي النَّاسَ- أنَّهم مُحارِبونَ لِنُورِ اللهِ، سواءٌ بما يُطلِقونَه من أكاذيبَ ودسائِسَ وفِتَنٍ، أو بما يحَرِّضونَ به أتباعَهم وأشياعَهم على حَربِ هذا الدِّينِ وأهلِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانُ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا يَقبلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سبحانه وتعالى نفسَه عمَّا يَصِفُه به العبادُ إلَّا ما وصفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات: ١٨٠-١٨١] وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[3].

٣- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانه بين هذينِ الأصلَينِ ﴿الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ كالبَيانِ لِقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ ولذلك كَرَّرَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، غيرَ أنَّه وضَعَ ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾ مَوضِعَ ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ضَمُّوا الكُفرَ بالرَّسولِ إلى الشِّركِ باللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- **قَولُه تعالى:** ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لزيادةِ إثارةِ غَيظِ المُسلِمينَ على أَهْلِ الكتابِ، بكَشْفِ ما يُضمِرونَه للإسلامِ من المُمالاةِ، والتألُّبِ على مُناوأةِ الدِّينِ(٢).

- وقد مَثَّلَ حالَهم في طَلَبِهم أنْ يُبطِلوا نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتكذيبِ، بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَنْفُخَ في نُورٍ عَظيمٍ مُنبَثٍّ في الآفاقِ، يُريدُ اللهُ أنْ يَزيدَه ويُبلِغَه الغايةَ القُصْوى في الإشراقِ أو الإضاءةِ؛ ليُطْفِئَه بنَفخِه ويَطْمِسَه، ومِن كمالِ بلاغةِ هذا الكلامِ أنَّه صالحٌ لتَفكيك التَّشبيهِ؛ بأن يُشبَّهَ الإسلامُ وحْدَه بالنُّورِ، ويُشبَّهَ مُحاوِلُو إبطالِه بمُريدِي إطفاءِ النُّورِ، ويُشَبَّهُ الإرجافُ والتَّكذيبُ بالنَّفخِ، ومِن الرَّشاقةِ أنَّ آلةَ النَّفخِ وآلةَ التَّكذيبِ واحدةٌ، وهي الأفواهُ(٣)، وهذا التَّمثيلُ له دَلالتانِ؛ الأُولى: قوَّةُ نورِ اللهِ، وظُهورُ أَمْرِهِ، حتَّى مَثَلَ أمامَهم نورًا حقيقيًّا، كنُورِ الشَّمْسِ. والثانيةُ: ضَعْفِ كَيدِ الكافرين؛ لأنَّ كُلَّ مُحاولاتِهم لم تَكَدْ تَعْدو النَّفْخَ بأفواهِهم، وما ذلك بمُحقِّقٍ لهم ما يُريدونَ(٤).

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ في إضافةِ النُّورِ إلى اسمِ الجلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

بقولِه: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ مُحاولةَ إطفائِه عَبَثٌ، وأنَّ أصحابَ تِلك المحاولةِ لا يَبلُغون مُرادَهم(١).

- وقولُهُ: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ تَعبيرٌ جميلٌ رشيقٌ؛ لأنَّ المعنى تمَّ بدُونِه؛ فجاءَ هو لإضافةِ ظِلالٍ رقيقةٍ على المعنى العامِّ، اكْتَسى بها جمالًا ورُواءً؛ فقد أفادتْ- أولًا- أنَّ كيدَهم للقرآنِ لم يَعْدُ كلماتٍ جوفاءَ اتَّهمُوه بها (أَساطيرُ الأوَّلين - رِئيٌ من الجِنِّ- شِعْرٌ- لو نَشاءُ لقُلْنا مِثْلَ هذا)؛ هذه الكلماتُ لم يَكُنْ لها نصيبٌ من الوجودِ سِوى التلفُّظِ بها لم تتمكَّنْ حتَّى من قُلوبِ قائليها، وهذا يدُلُّ على ضَعْفِ كيدِهم، وهي تُفيدُ- ثانيًا- أنَّ النُّورَ كان ماثلًا أمامَهم حتَّى قَصَدوه قصدًا في مكانٍ وجِهةٍ، وهذا يدلُّ على ظُهورِ أَمْرِ اللهِ، وقوَّةِ انْتِصارِه، وهي تُفيد - ثالثًا - أنَّ هذا النُّورَ لم يَكُنْ لأيِّ عامِلٍ آخَرَ أنْ يُطْفِئه (ريحٌ شديدةٌ مثلًا، أو عاصِفةٌ مُدمِّرةٌ)؛ فهو قائمٌ رَغْمَ هذه التقلُّباتِ التي لا يَكادُ يَخْلو منها وَقتٌ؛ فكيف يَتسنَّى لهم أنْ يُطْفِئوه بأفواهِهم؟! إنَّه نُورٌ قويٌّ باهِرٌ، وسيَظلُّ- هكذا- نُورًا باهرًا قويًّا، ولو كَرِهَ الكافرون(٢).

- ومِن محاسِنِ البيانِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أنَّ فيه إضافتَينِ؛ إحْداهُما: إضافةُ النُّورِ إلى اللهِ تعالى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾، والمُرادُ به دِينُ الإسلامِ، والأُخْرى إضافةُ الأفواهِ، وهي الآلةُ المُستَعْملةُ للإطفاءِ إلى جماعةِ المُريدينَ لإطفاءِ النُّورِ: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وعند التَّأمُّلِ في الإضافةِ الأُوْلى: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يتَّضِحُ أنَّ النُّورَ المُضافَ قَدْ اكْتَسَبَ قَدْرًا مِن خَصائصِ القوَّةِ والعَظَمةِ والشَّرَفِ والعُلوِّ والبَقاءِ من المضافِ إليه (الله)، ثم تأتي الإضافةُ الأُخْرى: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بإضافةِ الأفواهِ الضَّعيفةِ إلى نفَرٍ مِن البَشَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

المخلوقينَ الضُّعفاءِ؛ فالمضافُ فيها- وهو كلمةُ: (أفواهٍ)- على ما فيه من الضَّعْفِ العُضويِّ والعَضَليِّ يَزدادُ ضعفًا من خلال إضافتِه إلى الضَّميرِ المُتَّصِلِ (هُمْ) العائدِ إلى أولئك المخلوقينَ المهازيلِ، وهذا مِن عجيبِ البَيانِ؛ إذ يَجْمعُ أَمْرَينِ؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بإرادتِهم، وزعْمِهم أنَّه نورٌ ضعيفٌ يُمكِنُ أنْ يَنطفِئَ بمجرَّد النَّفخِ، والآخَرُ: تَصغيرُ شأنِهم، وتَضعيفُ كيدِهم؛ فهم بالمقارنةِ مع قوَّةِ الخَالقِ العظيمِ ضُعفاءُ، مهما أُوتُوا مِن قوَّةٍ، ومَحْدُودون مهما اسْتَعْمَلوا من آلةٍ وأداةٍ؛ فكيف إذا كانتْ أداةُ الإطفاءِ أفواهَهم[١]؟

- وقولُه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فيه إظهارُ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهِ عزَّ وجلَّ؛ زيادةً في الاعتِناءِ بشأنِه، وتَشريفًا له على تشريفٍ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكْمِ[٢].

- و(لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وهي تُفيدُ المبالغةَ بأنَّ ما بَعْدَها أجدرُ بانْتِفاءِ ما قَبْلَها لو كان مُنْتفيًا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ عبَّرَ عن الإسلامِ بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ تنويهًا بِفَضلِه، وتعريضًا بأنَّ ما هم عليه ليس بهُدًى ولا حقٍّ[٤].

- قولُهُ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُصَّ

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٧٣).

المشرِكون هنا بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الكَراهةَ كراهةٌ مُختصَّةٌ بظهورِ دِينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ظهورَ دينِ الإسلامِ أشدُّ حسرةً على المشركين مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأنَّهم الذين ابتدءُوا بمعارضتِه وعداوتِه، ودَعَوا الأُممَ للتألُّبِ عليه، واستَنْصروا بهم، فلم يُغنوا عنهم شيئًا، ولأنَّ أتمَّ مظاهرِ انتصارِ الإسلامِ كان في جزيرة العربِ، وهي ديارُ المشركينَ، وخُصَّ الكافرون قَبْلُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّها كراهةُ إتمامِ نُورِ اللهِ في قَديمِ الدَّهْرِ، وباقِيه يَعُمُّ الكَفَرةَ من لَدُنْ خَلْقِ الدُّنيا إلى انْقِراضِها، ووَقعتِ الكراهةُ والإتمامُ مِرارًا كثيرةً[1].

- وفي هاتَينِ الآيتَينِ مُناسَباتٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سُورةِ التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، بَينمَا قال عزَّ وجَلَّ في سُورةِ الصَّفِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩]؛ فقال تعالى في الآيةِ الأُولى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾، وقال في الثَّانية: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾: فاختُصَّتِ الأُولى بـ (أنْ)، والثانيةُ باللَّامِ دون (أنْ)؛ ووجْهُ هذِه المناسَبةِ: أنَّ الإرادةَ في الآيةِ الأُولى تَعلَّقتْ بإطفاءِ نُورِ اللهِ بأفواهِهم، وإطفاءُ نورِ اللهِ إنَّما يكونُ بما حاوَلوا مِن دَفْعِ الحَقِّ بالباطِلِ؛ فالحقُّ يُسمَّى نُورًا؛ لأنَّ حُجَجَه وبَراهينَه تُضيءِ لطالبِه بها إليه، والباطِلُ هو قولُهم بأفواهِهم، وهو ما أخْبَرَ اللهُ تعالى به قبلُ عن اليهودِ والنَّصارَى بقولِه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: هو قولٌ لا حَقيقةَ له، ولا مَحصولَ، وبمِثلِه لا يُدفعُ الحقُّ، وبالأفواهِ لا يُطفأُ هذا النورُ كما يُطفأُ السِّراجُ؛ لأنَّ هذا النُّورَ، وإنْ أَشْبَهَه في أنَّه يَهدِي، ويُبيِّن الحقَّ مِن الباطِل، فهو بخِلافِه في الامتِناعِ من الإطفاءِ كما يَتهيَّأ ذلك في السِّراجِ.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ الصَّفِّ، وتَعليقُ الإرادةِ فيها بالإطفاءِ مع زِيادةِ اللامِ، فعلى قولِ المحقِّقينَ مِن النَّحويِّين، فالفعلُ بعدَ هذه اللَّامِ مُعدًّى إلى مفعولٍ مَحذوفٍ، واللَّامُ الداخلةُ على الفِعلِ المنصوبِ تكونُ مُنبِئةً على العِلَّةِ التي لها أُنشِئَ الفِعلُ، والمرادُ في الآيةِ على هذا التَّحقيقِ: يُريدون أنْ يكذبوا؛ ليُطْفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الصف: ٧]؛ فقوله: ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ لم يُذْكَر فيه مفعولُ ما يُريدونَ؛ اعتمادًا على ما نَبَّه عليه بقولِه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾، فكأنَّه قِيل: يُريدونَ افتراءَ الكذبِ؛ ليُطْفِئوا نورَ الله؛ فلهذا خُصَّتِ الآيةُ الثانيةُ بدُخولِ اللَّامِ على (يُطْفِئوا)، ولَمَّا كان المرادُ في الآيةِ الأُولَى الإطفاءَ بالأفواهِ لِمَا دَلَّ عليه مُفتَتحُ الآياتِ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠]، كانتِ الإرادةُ مُعدَّاةً إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ تعالى بأفواهِهم، أي: يُريدونَ أنْ يَدْفعوا الحقَّ بالباطِلِ مِن أفواهِهم(١).

وأيضًا مِمَّا يُبيِّنُ تِلك المناسباتِ ما يَلي:

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٤-٧٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٦).

أولًا: في الغاياتِ الظَّاهرةِ والمخفيَّةِ، حيثُ قال في التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾، وفي آيةِ الصَّفِّ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾، وقَبْلَ النَّظَرِ في دَلالاتِ هذا الاختلافِ بين الآيتَينِ، والمعنى الذي يُضيفُه دُخولُ اللامِ في الثَّانيةِ؛ يُشارُ إلى مُقدِّمة نَحْويَّةٍ يسيرةٍ تُعينُ على فَهْمِ المعنى، وهي أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾ في الآيتَينِ منصوبٌ بـ (أنْ) الظَّاهِرةِ في الأُولى، والمُضْمَرةِ في الثَّانيةِ، وتَقديرُ الثَّانيةِ: يُريدونْ لأنْ يُطْفِئوا، و(أنْ) والفِعْلُ المضارعُ بَعْدَها تؤوَّلُ بمَصْدرِ (إطفاء)، وعلى هذا يكونُ التَّقديرُ في آيةِ التَّوبةِ: (يُريدون إطفاءَ نَورِ اللهِ)، وفي آيةِ الصَّفِّ: (يُريدونِ لإطفاءِ نورِ اللهِ)، وهذه اللَّامُ هي لامُ التَّعليلِ، وفي هذا الاختِلافِ اللَّفظيِّ بين الآيتَينِ إشارةٌ إلى أنَّهم يُغايرونَ في إظهارِ غاياتِهم وأهدافِهم؛ ففي آيةِ التَّوبةِ: هم يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ صَراحةً، وبصُورةٍ ظاهرةٍ ومباشِرةٍ؛ فالإطفاءُ (وهو المفعولُ به للفِعْلِ: يُريدونَ)، هو مُرادُهم عَلَنًا؛ فالغايةُ من إرادتِهم هنا ظاهرةٌ وصريحةٌ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ، وتَقديرُها: (يُريدونَ لإطفاءِ نُورِ اللهِ)؛ فالشَّيءُ المُرادُ فيها (وهو المفعولُ بِهِ للفِعْلِ: يُريدون) غيرُ مذكورٍ، أي: إنَّهم يُريدون مُراداتٍ مُخْتلِفةً يَجْعلونها وسائلَ مُوصِلةً في نهاياتِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ؛ فهم لا يُظهِرون عَلَنًا أنَّهم يُريدونَ الإطفاءَ، وإنَّما يُريدونَ أنْ يَصِلوا إلى الإطفاءِ من خلالِ طُرُقٍ غير مُباشِرةٍ تُوصِلُ في زَعْمِهم وتَدْبيرِهم إليه؛ ولذلك يَظهرونَ في هذه الحالِ بعباءاتٍ مُختلِفةٍ، ويَدْعُمون البرامجَ والمشروعاتِ، ويَرْفعونَ شِعاراتٍ إصلاحيَّةً في ظاهِرِها، لكِنَّها تتغيَّا في حقيقتِها إطفاءَ نُورِ اللهِ، وما مِن شكٍّ في أنَّ خُطورةَ هؤلاء في الحالِ الثَّانيةِ، وهي حالُ الغاياتِ المخفيَّةِ؛ أشدُّ من خطورتِهم في الحالِ الأُولى التي يُصرِّحون فيها بمُراداتِهم، ويُعلِنونَ فيها غاياتِهم.

وقدِ اتَّفقتْ الآيتانِ في البَدْءِ بالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يُرِيدُونَ﴾ الذي يَدُلُّ

على الحدوثِ والتَّجدُّدِ في الحاضِرِ والمُستقبَلِ، ولم يأتِ التعبيرُ بالفِعْلِ الماضي (أَرَادُوا) الذي يَدُلُّ في الأَصْلِ على انْقِضاءِ حُدوثِ الفِعْلِ في الزَّمنِ الماضي؛ فهم يُريدونَ بصورةٍ مُتجدِّدةٍ ومُتكرِّرةٍ إطفاءَ نُورِ اللهِ مُنذُ ظهورِ ذلك النُّورِ إلى زمنِنا الحاضِرِ، وستتجدَّدُ معهم تلك الإرادةُ، وتَستمِرُّ ما بقي هذا النُّورُ الممتدُّ على مدَى الزَّمنِ المُتتابِعِ، وما بَقِيتْ فيهم قُوَّةٌ على النَّفْخِ؛ إنَّهم عَبْرَ التاريخِ لم يَقِفوا عند حدِّ انحرافِهم الشَّخصيِّ عن دِينِ الحَقِّ، واتِّباعِهم شهواتِهم، إنَّما هم كذلك يُعلِنونَ باستمرارِ الحربَ على دِينِ الحَقِّ، ويُريدونَ إطفاءَ نُورِ اللهِ في الأرضِ.

ثانيًا: في الموقِفِ الرَّبَّانيِّ؛ حيثُ جاءَ الموقِفُ الربانيُّ من تلك الإراداتِ والغاياتِ في الآيتينِ مُختلِفًا في المَبْنى؛ ليُعطيَ المُتأمِّلَ دَلالاتٍ إضافيَّةً في المعنى، تَتناسَبُ مع اختلافِ الدَّلالاتِ في الغاياتِ في الآيتينِ: ففي آيةِ التَّوبةِ يَقولُ اللهُ تعالى بجُملةٍ فِعليَّةٍ حاصِرةٍ: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، والإباءُ: هو الامْتِناعُ بقوَّةٍ؛ فاللهُ تعالى هنا يأبى كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نُورِهِ، وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ (يَأْبى) من المُبالَغةِ والدَّلالةِ على الامْتِناعِ ما ليس في نَفْيِ الإرادةِ، لو كان التَّعبيرُ: (ولا يُريدُ اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ)؛ فهم يُريدونَ إطفاءَ النُّورِ، واللهُ الذي له جميعُ العَظَمةِ وكمالُ القُدْرةِ والعِزِّ ونفوذُ الكَلَمةِ يَأْبى إلَّا أن يُتِمَّ نُورَه، ثُم يُجدِّدون الإرادةَ، واللهُ يَأْبَى ... وما تَزالُ إراداتُهم تَتجدَّد، ويتجدَّد معها إباءُ العظيمِ- جلَّ وعلَا- وامتناعُهُ من كلِّ شيءٍ إلَّا إتمام النُّورِ.

واسْتِعمالُ الجُملةِ الفِعْليَّةِ الحاصِرةِ بفِعْلِها المضارعِ (يَأْبَى) المُشعِرِ بقوَّةِ الامْتِناعِ؛ يَتناسَبُ مع الغايةِ الصَّريحةِ والجُرأةِ المُعلَنةِ التي ظَهَرتْ منهم في أَوَّلِ الآيةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ فرايةُ الإطفاءِ لنُورِ اللهِ المُعلَنةُ بصراحةٍ وجُرأةٍ لا يُناسِبها إلَّا القوَّةُ في بيانِ الموقفِ الإلهيِّ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ التي جاءتْ إرادةُ الإطفاءِ فيها عَبْرَ الوسائلِ والأعوانِ

والشِّعاراتِ الإصلاحيَّةِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]؛ فيُناسِبُها أنْ تكونَ صياغةُ الموقفِ الإلهيُّ فيها من خِلالِ الجُمْلةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨]؛ التي تَدلُّ على الدَّوامِ والثُّبوتِ، أي: إنَّهم يُريدونَ أمورًا يُخادِعونَ فيها ويَكيدونَ؛ ليَصِلوا من خلالِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ، فلربَّما شَعَروا بشَيءٍ من القُدْرةِ، ووَجَدوا من الأعوانِ مَنْ يَمُدُّهم بعَونِهِ بقصدٍ سيِّءٍ، أو بنيَّةٍ حَسَنةٍ، أو وَجَد بعضُ أَهْلِ الإيمانِ في نَفْسِهِ أنَّ الدِّينَ يَتضاءلُ، وأنَّ نُورَهُ آخِذٌ في الانحسارِ؛ فيأتي الموقِفُ الإلهيُّ الواعِدُ بدوامِ إتمامِ النُّورِ، وبخاصَّةٍ في الأحوالِ التي يُريدونَ فيها الإطفاءَ من خلالِ الدُّروبِ المُلتويةِ.

وإتمامُ النُّورِ الموعودُ به في الآيتينِ لا يَقْتَصِرُ على مُجرَّدِ إشراقِه، بل الموقِفُ الإلهيُّ يَعِدُ بإكمالِه وإعلائِه، ويُبشِّرُ بتبليغِه غايتَه بنَشْرِه في الآفاقِ، وإظهارِهِ على الدِّينِ كُلِّهِ، حتى يَبْلُغَ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، وحتَّى لا يَبْقى بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدْخَلَ اللهُ فيه هذا النُّورَ.

لقدِ اجْتَمعتْ في معاني هاتَينِ الآيتَينِ الصُّورُ التكامُليَّةُ التي تُظهِر بتفنُّنٍ حالَ دِينِ الحَقِّ، وإراداتِ أعدائِه وغاياتِهم ضِدَّهُ، والموقِفُ الرَّبَّانيُّ الذي يَختِمُ فيه المؤمنُ قراءتَهُ المُتدبِّرةَ لهاتينِ الآيتينِ، لكنَّ البيانَ لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ؛ إذ يتأكَّدُ المعنى من خلالِ الكلمةِ الختاميَّةِ الواردةِ بَعْدَ الآيتينِ في السُّورتين بلَفْظٍ واحدٍ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ فهو سُبْحانه قد أَرْسَلَ رَسولَهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حاملًا لمنهجِ النُّورِ والهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ ليُظْهِرَ رِسالتَهَ على جميعِ الرِّسالاتِ، ولم يُرْسِلْه لتَنْتصِرَ على رِسالتِهِ إراداتُ النَّافخينَ[١].

– ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ أيضًا: أنَّ آيةَ التَّوبةِ زادتْ على آيةِ الصَّفِّ عَشْرة

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).

أحرفٍ؛ ووجهُ ذلك أنَّ زيادةَ آيةِ التَّوبةِ مُقابَلٌ بها ما ورَد من الطُّولِ في المحكيِّ في هذِه السُّورةِ مِن قولِ الطائفتَينِ مِن اليَهودِ والنَّصارَى؛ قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٣٠]؛ فوقَع في المحكيِّ هنا طُولٌ اقتَضى ما بُني جوابًا عليه؛ ليتناسَبَ. وأمَّا آيةُ الصَّف فمُقابَلٌ بها قولُ عيسى عليه السَّلامُ لَمَّا قال لهم: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ثم قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وإنَّما الجوابُ على المحكيِّ مِن قولِهم خاصَّةً، وهو قولهم: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وليس هذا في الطُّولِ وعِدَّةِ الكَلِم المحكيِّ في سُورة بَراءة؛ فالواقعُ في سُورةِ بَراءة سِتُّ كَلِماتٍ، وفي الصَّفِّ ثلاثُ كَلِماتٍ، ثمَّ إنَّ الواقِعَ في سُورةِ بَراءة مقالُ طَائفتَينِ (اليهود والنَّصارى) مُفْصَحًا به، والواقِعَ في الصَّفِّ مقالةُ طَائفةٍ واحدةٍ، وهذا مُراعًى؛ فوَرَد كلٌّ مِن الآيتَينِ مُناسِبًا لِمَا اتَّصل به وعلى ما يَجِبُ في السُّورتَينِ(١).



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

الآيتان (٢٤-٢٥)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَكْنِزُونَ﴾: أي: يَجمَعونَ، والكَنْزُ: جعلُ المالِ بعضِه على بعضٍ وحفظُه. وكلُّ ما لم تؤدَّ زكاتُه فهو كنزٌ، وأَصلُ (كنز) يدلُّ على تجمُّعٍ في الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، إنَّ كَثيرًا مِن عُلَماءِ اليَهودِ، وعُبَّادِ النَّصارى، يتمَلَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ، ويُعْرِضونَ عن الحَقِّ، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنه، والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُخرِجونَ حُقوقَ الله منها، ولا يُنفِقونَ منها في سَبيلِ الله فبَشِّرْهم- يا مُحمَّدُ- بعذابٍ مُوجِعٍ، يومَ يُوقَدُ على كُنُوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُكوَى بها جِباهُهم، وجُنُوبهم وظُهورُهم، ويقالُ لهم توبيخًا وتهكُّمًا: هذا ما جَمَعْتُم لأنفُسِكم، فذُوقوا عذابَ ما كُنتُم تكنِزونَه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

﴿أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ جلَّ وعلا أنَّ اليَهودَ والنَّصارى اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا؛ بيَّنَ أنَّ الرُّهبانَ والأحبارَ لا ينبغي اتِّخاذُهم أربابًا؛ لأنَّ أكثَرَهم فَجَرةٌ غيرُ مُستَقيمينَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى رؤساءَ اليَهودِ والنَّصارى بالتكَبُّرِ والتَّجبُّرِ، وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ والترفُّعِ على الخَلقِ؛ وصَفَهم في هذه الآيةِ بالطَّمَعِ والحِرصِ على أخذِ أموالِ النَّاسِ؛ تنبيهًا على أنَّ المَقصودَ مِن إظهارِ تلك الربوبيَّةِ والتجبُّرِ والفَخرِ، أخذُ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ، إنَّ كثيرًا[(٣)] من عُلَماءِ اليهودِ وعُبَّادِ النَّصارى، يتملَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ[(٤)]؛ فاحْذَروا التشبُّه بعُلَماءِ السُّوءِ، والعُبَّادِ الضالِّينَ، ولا

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣-٣٤).
(٣) قال ابن عاشور: (أسنَدَ الحُكمَ إلى كثيرٍ منهم دونَ جميعِهم؛ لأنَّهم لم يَخلُوا من وجودِ الصَّالحينَ فيهم، مثل عبدِ الله ابنِ سَلَامٍ، ومُخَيريقٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).
(٤) قال ابن عاشور: (الباطِلُ يشملُ وجوهًا كثيرةً؛ منها: تغييرُ الأحكامِ الدِّينيةِ؛ لِمُوافَقةِ أهواءِ النَّاسِ. ومنها: القضاءُ بين النَّاسِ بغيرِ إعطاءِ صاحِبِ الحَقِّ حَقَّه المُعَيَّنَ له في الشَّريعةِ. ومنها: جَحْدُ الأماناتِ عن أربابِها أو عن ورَثَتِهم. ومنها: أكلُ أموالِ اليتامى وأموالِ الأوقافِ والصَّدَقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٩، ٤٤٠).

تكونُوا مِثْلَهم[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويُعرِضُ أولئك الأحبارُ والرُّهبانُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَمنعونَ النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ عطَف عليه قولَه هذا، والمناسبةُ بينَهما: أنَّ كلتا الجملتين تنبيهٌ على مساوي أقوامٍ يضعُهم الناسُ في مقاماتِ الرفعةِ والسؤددِ، وليسوا أهلًا لذلك، فمضمونُ الجملةِ الأُولَى بيانُ مساوي أقوامٍ رفَع الناسُ أقدارَهم لعلمِهم ودينِهم، وكانوا منطوينَ على خبائثَ خفيةٍ، ومضمونُ الجملةِ الثانيةِ بيانُ مساوي أقوامٍ رفعَهم الناسُ لأجلِ أموالِهم، فبيَّن الله أنَّ تلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٤١)، (٢٨/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

قال ابنُ عاشور: (الصدُّ عن سبيلِ الله: الإعراضُ عن متابعةِ الدِّينِ الحَقِّ في خاصَّةِ النَّفسِ، وإغراءُ النَّاسِ بالإعراضِ عن ذلك، فيكون هذا بالنِّسبةِ لأحكامِ دينِهم؛ إذ يُغيِّرونَ العمَلَ بها، ويُضَلِّلونَ العامَّةَ في حقيقتِها، حتى يَعمَلوا بخلافِها، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُتَّبِعونَ لِدينِهم، ويكونُ ذلك أيضًا بالنِّسبةِ إلى دِينِ الإسلامِ؛ إذ يُنكِرونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُعلِّمونَ أتباعَ مِلَّتِهم أنَّ الإسلامَ ليس بِدِينِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

الأموالَ إذا لم تنفقْ في سبيلِ الله لا تُغني عنهم شيئًا مِن العذابِ(١)؛ فإنَّ الناسَ عالةٌ على العلماءِ، وعلى العبَّادِ، وعلى أربابِ الأموالِ، فإذا فسَدتْ أحوالُ هؤلاء فسَدتْ أحوالُ الناسِ(٢).

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٣) [التوبة: ١٠٣].

عن خالد بنِ أسلمَ، قال: (خرَجْنا مع عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، فقال أعرابيٌّ: أخبِرْني عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عُمَرَ رَضيَ الله عنهما: مَن كَنَزَها فلم يُؤَدِّ زكاتَها، فوَيلٌ له؛ إنَّما كان هذا قَبلَ أن تُنزَلَ الزَّكاةُ(٤)، فلما أُنزِلَت جعَلَها اللهُ طُهرًا للأموالِ)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

(٣) وهو قولُ ابنِ عُمَرَ، وعُمَرَ بن عبد العزيز، وعِراكِ بنِ مالكٍ، وهبَةِ الله بن سلامة المُقري، وابن حزم، وابن البارزي، ومرعي الحنبلي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للمقري (ص: ٩٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨)، ((ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه)) لابن البارزي (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٩)، ((قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن)) لمرعي الحنبلي (ص: ١١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٧).

(٤) قال ابن حجر: (قولُه: «إنَّما كان هذا قبلَ أنْ تَنزِلَ الزَّكاةُ» هذا مُشْعِرٌ بأنَّ الوَعيدَ على الاكْتِنازِ، وهو حَبْسُ ما فَضَلَ عَنِ الحاجةِ عَنِ المُواساةِ به كان في أَوَّلِ الإسلام ثُمَّ نُسِخَ ذلك بفَرْضِ الزَّكاةِ، لَمَّا فتَحَ اللَّهُ الفُتوحَ، وقُدِّرَتْ نُصُبُ الزَّكاةِ، فعلى هذا المُرادُ بنُزولِ الزَّكاةِ بيانُ نُصُبِها ومَقاديرِها، لا إنْزالُ أصْلِها، والله أعلم). ((فتح الباري)) (٣/ ٢٧٣).

(٥) رواه البخاري (١٤٠٤).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ: أنَّ هذا الحُكمَ- وهو وجوبُ إنفاقِ كُلِّ ما يملِكُ المؤمنُ مِن النَّقدَينِ- كان في أوَّلِ الإسلامِ، وقَبلَ فَرْضِ الزَّكاةِ، وليس معناه أنَّ آيةَ براءة هذه نزلت قبل

وقيل: الآيةُ مُحكَمةٌ، ولا نَسْخَ فيها(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

إيجابِ الزَّكاةِ؛ لِما عليه الجمهورُ مِن أنَّ الزَّكاة فُرِضَت في السَّنَةِ الثانية من الهجرةِ، وبراءة نزَلَت سنةَ تِسعٍ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٣٥١).

(١) وهو قول جمهور المفسرين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختلف المفَسِّرون في هذه الآية على ثلاثةِ أقوال:... الثالث: أنها في المسلمينَ، قاله ابن عباس والسُّدِّي، وفي المراد بالإنفاقِ هاهنا قولان: أحدهما: إخراجُ الزكاةِ، وهذا مذهَبُ الجمهور، والآيةُ على هذا مُحكَمةٌ... والثاني: أن المرادَ بالإنفاقِ إخراجُ ما فضَلَ عن الحاجةِ، وقد زعم بعضُ نَقَلةِ التَّفسيرِ: أنَّه كان يجب عليهم إخراجُ ذلك في أوَّلِ الإسلامِ، ثم نُسِخَ بالزكاةِ، وفي هذا القَولِ بُعدٌ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

وقال البغوي: (الآيةُ نزَلَت في مَنْعِ الزَّكاةِ، لا في جَمْعِ المالِ الحلالِ؛ قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ للرَّجُلِ الصَّالِحِ»). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٣).

وقال ابن عاشور: (وجهُ مُناسَبةِ نُزولِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ: أنَّ هذه السُّورةَ نَزَلت إثرَ غَزوةِ تَبوكَ، وكانت غزوةُ تَبوكَ في وقتِ عُسرةٍ، وكانت الحاجةُ إلى العُدَّةِ والظَّهرِ كثيرةً، كما أشارت إليه آيةُ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقد ورد في السِّيرةِ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حضَّ أهلَ الغِنى على النَّفَقةِ والحملانِ في سبيلِ اللهِ، وقد أنفق عثمانُ ابنُ عَفَّان ألفَ دينارٍ ذَهبًا على جيشِ غَزوةِ تَبوك، وحمَل كثيرٌ مِن أهل الغِنى، فالذين انكَمَشوا عن النَّفَقةِ هم الذين عَنَتْهم الآيةُ بـ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا شَكَّ أنَّهم من المنافقين... والوعيدُ مَنوطٌ بالكَنزِ وعَدَمِ الإنفاقِ، فليس الكَنزُ وَحْدَه بمُتَوَعَّدٍ عليه، وليست الآيةُ في مَعرِضِ أحكامِ ادِّخارِ المال، وفي مَعرِضِ إيجابِ الإنفاقِ، ولا هي في تعيينِ سُبُلِ البِرِّ والمعروفِ التي يجِبُ الإخراجُ لأجْلِها من المالِ، ولا داعيَ إلى تأويلِ الكَنزِ بالمال الذي لم تؤَدَّ زكاتُه حين وجوبِها، ولا إلى تأويلِ الإنفاقِ بأداءِ الزَّكاةِ الواجبة، ولا إلى تأويلِ سبيلِ الله بالصَّدَقاتِ الواجبة؛ لأنَّه ليس المرادُ باسمِ الموصول العمومَ، بل أُريدَ به العهدُ، فلا حاجة إلى ادِّعاءِ أنَّها نسَخَتْها آيةُ وُجوبِ الزكاة؛ فإنَّ وُجوبَ الزَّكاةِ سابقٌ على وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧).

أي: والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ بعضَها إلى بعضٍ، ويُمسِكُونَها، ولا يُخرِجونَ حقوقَ الله منها- مِن الزَّكاةِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، وبَذْلِها في الجهادِ- فبَشِّرْهم يا مُحمَّدُ بعذابٍ مُوجِعٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٦).

قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ...﴾ إلى آخره، مُستأنَفٌ نازِلٌ في هذه الأمَّةِ ... واختلفوا في المرادِ بهذا الكَنزِ، وتَركِ هذا الإنفاقِ؛ فالذي عليه الأكثرونَ -وهو الإجماعُ اليَومَ- أنَّ المُرادَ بهذا الكَنزِ: هو جَمعُ المالِ الذي لا تؤدَّى زكاتُه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٩٣، ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال القرطبي: (قال أبو ذَرٍّ وغيرُه: المرادُ بها: أهلُ الكتابِ وغَيرُهم مِن المسلمينَ، وهو الصَّحيحُ؛ لأنه لو أراد أهلَ الكِتابِ خاصَّةً، لقال: ويَكنِزونَ، بغيرِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣). ويُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (٤/ ١٠،٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال الشنقيطي: (كان أبو ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه عنده مذهَبٌ مَعروفٌ مُخالِفٌ لِجَميعِ أقوالِ الصَّحابةِ، يضيقُ في اقتناءِ المال، وكان رضي اللهُ عنه يقول: إنَّ الإنسانَ إذا ادَّخَرَ شيئًا زائدًا عن خَلَّتِه الضروريَّةِ، فهو كنزٌ يُكوى به وَجهُه وظَهرُه وجَنبُه، وكان يذكُرُ هذا للنَّاسِ؛ ومن أجلِ هذا أمَرَه عُثمانُ رَضِيَ الله عنه أيَّامَ خِلافتِه أن يخرُجَ إلى الربذةِ، وتوفِّي بها رضي الله عنه وأرضاه، وأبو ذَرٍّ معذورٌ؛ لأنه جاء النبيَّ في أوَّلِ الإسلامِ، وكان المسلمون في أوَّلِ الإسلامِ فُقَراءَ ليس عندهم شيءٌ، وكان التَّشديدُ في إمساكِ الذَّهَبِ والفضَّةِ في ذلك الوقتِ عَظيمًا، فسَمِعَ من النبيِّ شَيئًا ورجع إلى أهلِه بالباديةِ، ثم أنزل اللهُ فريضةَ الزَّكاةِ، وكثُرَ المال واتَّسعَ الأمر، وزال التَّشديدُ، ولم يَعلَمْ رَضِيَ الله عنه بشيءٍ من ذلك، فصار على التَّشديدِ الأوَّلِ؛ لأنَّه سَمِعَه من رسولِ الله، ولم يسمَعْ ما طرأ بعد ذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ * يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ * كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١ - ٤].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((همُ الأخسَرونَ وربِّ الكعبةِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، فِدَاك أبي وأمِّي، مَن هُم؟ قال: هم الأكثَرونَ أموالًا، إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا- مِن بينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه وعن يَمينِه وعن شِمالِه- وقليلٌ ما هم، ما مِن صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غنَمٍ، لا يُؤدِّي زكاتَها، إلَّا جاءت يومَ القيامةِ أعظَمَ ما كانت وأسْمَنَه، تنطَحُه بقُرونِها، وتَطَؤُه بأظلافِها، كلَّما نَفِدَت أُخْراها، عادت عليه أُولاها، حتى يُقضَى بين النَّاسِ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((مَن آتاه اللهُ مالاً فلم يؤَدِّ زكاتَه؛ مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ[٢] له زَبيبَتانِ[٣]، يُطَوِّقُه يومَ القِيامةِ، يأخُذُ بلِهْزِمَتَيه- يعني بشِدْقَيه- يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنْزُك. ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾... إلى آخرِ الآيةِ))[٤].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((كنتُ ألبَسُ أوْضاحًا[٥] من ذَهَبٍ، فقُلْتُ: يا رسولَ الله، أكَنْزٌ هو؟ فقال: ما بلَغَ أن تُؤدَّى زكاتُه فزُكِّيَ، فليس بكَنزٍ))[٦].

(١) رواه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠) واللفظ له.

(٢) أقرع: أي الذي لا شَعْرَ على رأسِه؛ لِكَثرةِ سَمِّه، وطُولِ عُمُرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٧).

(٣) الزَّبيبةُ: نُكْتة سوداءُ فوقَ عين الحَيَّة وقيل غير ذلك. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠٤).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٥).

(٥) أوْضاح: جمعُ وَضَحٍ: نوعٌ من الحَلْيِ، يُعمَلُ مِن الفِضَّةِ، سُمِّيَ به لبياضِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٩٥).

(٦) رواه أبو داود (١٥٦٤)، والطبراني (٢٣/ ٢٨١) (٦١٣)، والحاكم (١/ ٥٤٧)، والبيهقي (٤/ ٨٣) (٧٤٨٥).

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزلَ، قالوا: فأيَّ المالِ نتَّخِذُ؟ قال عُمَرُ: فأنا أعلَمُ لكم ذلك. فأوضَعَ على بَعيرِه، فأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنا في أثَرِه، فقال: يا رسولَ الله، أيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ فقال: ليتَّخِذْ أحدُكم قَلبًا شاكرًا، ولِسانًا ذاكرًا، وزوجةً مُؤمِنةً تُعِينُ أحَدَكم على أمْرِ الآخِرةِ))[1].

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

أي: يومَ[2] يُوقَدُ فيه على كُنوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُحرق بالذَّهَبِ والفِضَّةِ المَكنُوزةِ جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم[3].

حسَّنه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٠/ ٤٣٩)، وحسن الألبانيُّ في ((ضعيف سنن أبي داود)) (١٥٦٤) المرفوع منه فقط، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((المجموع)) (٦/ ١٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤) بنحوه، وابن ماجه (١٨٥٦) واللفظ له، وأحمد (٢٢٤٣٧).
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥١٧).

(٢) قال ابنُ جريرٍ: (فاليومُ مِن صِلَةِ العذابِ الأليمِ، كأنَّه قِيل: يُبَشِّرُهم بعذابٍ أليمٍ يُعَذِّبُهم الله به في يومِ يُحْمَى عليها). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦).
وقال القرطبيُّ: («يَوْمَ» ظرفٌ، والتَّقديرُ يُعذَّبونَ يومَ يُحْمَى. ولا يصحُّ أنْ يكونَ على تقديرِ: فبشِّرْهم يومَ يُحْمَى عليها؛ لأنَّ البشارةَ لا تكونُ حينَئِذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).
قال الواحدي: (قال المفسِّرون: من كان له مالٌ في الدُّنيا لم يؤدِّ زكاتَه، أُحمِيَ دراهمُه ودنانيرُه في نارِ جهنَّم، وكُوِيَ بها في هذه المواضِعِ؛ لا يُوضَعُ دينارٌ مكانَ دِينارٍ، ولا دِرهَمٌ مكانَ دِرهَمٍ،

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يؤدِّي منها حَقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القِيامةِ، صُفِّحَت له صفائحُ[١] مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعِيدَت له، في يومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ، حتى يُقضَى بين العِبادِ، فيُرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))[٢].

وعن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (بَشِّرِ الكانزينَ بِرَضْفٍ[٣] يُحْمَى عليه في نارِ جهنَّمَ، ثم يُوضَعُ على حَلَمة ثَدْيِ أحَدِهم حتى يَخرُجَ من نُغْضِ[٤] كَتِفِه، ويُوضَعُ على نُغْضِ كَتِفِه حتى يَخرُجَ مِن حَلَمَةِ ثَدْيِه، يتزَلزَلُ[٥])[٦].

ولكن يُوسَّعُ جِلْدُه، فيُوضَعُ بكُلِّ دِرهمٍ ودينارٍ كَيَّةٌ على جِلْدِه»، وهذا معنى قولِ ابنِ مَسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٣).

وقال ابن عاشور: (كيفيَّةُ إحضارِ تلك الدَّراهم والدَّنانيرِ لتُحمى؛ مِن شُؤونِ الآخرةِ الخارِقةِ للعاداتِ المألوفةِ، فبقدرةِ الله تُحضَرُ تلك الدَّنانيرُ والدَّراهمُ أو أمثالُها، كما ورد في حديثِ مانعِ الزكاةِ في المُوطَّأِ والصَّحيحين أنَّه «يُمثَّلُ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ يأخُذُ بِلِهزِمَتَيه، يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُك»، وبقدرة الله يُكوى المُمتَنِعون من إنفاقِها في سبيلِ الله، وإن كانت قد تَداوَلَ أعيانَها خَلْقٌ كَثيرٌ في الدُّنيا، بانتقالها من يدٍ إلى يدٍ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(١) صُفِّحَت له صفائِحَ: تصفيحُ الشَّيءِ: جَعْلُه عَريضًا، والصفائح: جَمعُ صَفيحةٍ؛ مِن صَفَّحْتُ الشَّيءَ: إذا بسطْتَه. يُنظر: ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٢/ ٤٠٩)، ((نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار)) للعيني (٨/ ٧٩).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

(٣) الرَّضْف: الحِجَارَةُ المُحْمَاةُ على النَّار. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٣١)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٧).

(٤) النُّغْضُ: هو العَظمُ الرَّقيقُ على طَرَفِ الكَتِف. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

(٥) الزَّلْزَلَةُ في الأصْل: الحَرَكَةُ العظيمةُ والإزعاجُ الشديدُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٨). قال النوويُّ: (قولُه «يتزلزل» أي يتحرَّك. قال القاضي: قيل: معناه أنَّه بسببِ نضجِه يتحرَّك لكونِه يهتري، قال: والصوابُ أنَّ الحركةَ والتزلزلَ إنَّما هو للرضفِ، أي يتحرَّك من نغضِ كتفِه حتَّى يخرجَ مِن حلمةِ ثديِه) ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

(٦) رواه البخاري (١٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٩٩٢).

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

أي: يُقالُ توبيخًا وتهكُّمًا مِن الذينَ تُكوَى جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورُهم، بكُنوزِهم: هذا الذي تُكْوَونَ به في النَّارِ[١] هو ما جَمَعْتُم في الدُّنيا لأنفُسِكم، دونَ أن تُؤَدُّوا حُقوقَ الله فيه، فاطعَمُوا عذابَ هذا الذي كُنتُم تَكْنِزونَه[٢].

عن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من صاحِبِ إبلٍ ولا بقرٍ ولا غَنَم، لا يؤدِّي حَقَّها، إلا أُقعِدَ لها يومَ القيامةِ بِقَاعٍ قَرقَرٍ[٣] تطؤه ذاتُ الظِّلْف بظِلْفِها[٤] وتنطَحُه ذاتُ القَرنِ بقَرنِها، ليس فيها يومَئذ جمَّاءُ[٥] ولا مكسورةُ القَرْن. قلْنا: يا رسولَ الله، وما حَقُّها؟ قال: إطراقُ فَحْلِها[٦]، وإعارةُ دَلْوِها، ومَنِيحَتُها[٧]، وحَلْبُها على الماءِ، وحَملٌ عليها في سبيلِ الله. ولا مِن صاحِبِ مالٍ لا يُؤَدِّي زكاتَه، إلَّا تَحوَّلَ يومَ القِيامةِ شُجاعًا أقرَعَ، يَتْبَعُ صاحِبَه حيثما ذهَبَ، وهو يفِرُّ منه، ويُقال: هذا مالُك الذي كنْتَ تَبخَلُ به، فإذا

---

(١) قال ابن عطية: (قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارةٌ إلى المالِ الذي كُوِيَ به، ويحتملُ أن تكونَ إلى الفِعلِ النَّازلِ بهم، أي: هذا جزاءُ ما كَنَزْتُم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

(٣) القَرقَر: هو المكانُ الواسِعُ المُستَوي. يُنظر: ((حاشية السيوطي على سنن النسائي)) (٥/ ١٣).

(٤) الظِّلْفُ: هو للبَقَر والغَنَم كالحافِرِ للفَرَس والبغل، والخُفِّ للبَعيرِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٩).

(٥) الجمَّاءُ: التي لا قَرْنَ لها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٠٠).

(٦) إطراقُ فَحلِها: أي: إنزاؤه. يقال: طرَقَ الفَحلُ النَّاقةَ: إذا نزا عليها. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤٢٠).

(٧) المنيحةُ: ناقةٌ أو بقَرةٌ أو شاةٌ ينتفِعُ بلَبَنِها ووَبَرِها وصُوفِها وشَعرِها زمانًا ثم يردُّها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٢).

رأى أنَّه لا بُدَّ منه، أدخَلَ يدَه في فِيه، فجعَلَ يَقضَمُها[١] كما يَقْضَمُ الفَحلُ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ...﴾ هذا تحذيرٌ مِن الله تعالى لعبادِه المؤمنينَ عن كثيرٍ مِن العُلَماءِ والعُبَّادِ، الذين يأكلونَ أموالَ النَّاسِ بغَيرِ حقٍّ، ويصُدُّونَ عن سَبيلِ الله؛ فإنَّهم إذا كانت لهم رواتِبُ مِن أموالِ النَّاسِ، أو بذَلَ النَّاسُ لهم من أموالِهم، فإنَّه لأجْلِ عِلْمِهم وعِبادَتِهم، ولأجْلِ هُداهم وهدايَتِهم، وهؤلاءِ يأخُذُونها، ويصُدُّونَ النَّاسَ عن سبيل الله، فيكونُ أخْذُهم لها على هذا الوَجه سُحتًا وظُلمًا؛ فإنَّ النَّاسَ ما بَذَلوا لهم مِن أموالِهم، إلَّا لِيَدُلُّوهم إلى الطَّريقِ المستقيم، ومِن أخْذِهم لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقٍّ: أن يُعطُوهم لِيُفتُوهم، أو يَحكُموا لهم بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ، فهؤلاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ، لِيُحذَرْ منهم هاتانِ الحالتانِ: أخْذُهم لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقٍّ، وصَدُّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذكَرَ اللهُ هنا انحرافَ الإنسانِ في مالِه، وذلك بأحَدِ أمرَينِ: إمَّا أن يُنفِقَه في الباطِلِ الذي لا يُجدِي عليه نَفعًا، بل لا يَنالُه منه إلَّا الضَّرَرُ

(١) يَقضَمُها: أي: يأكُلُها. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٥٠٠).

(٢) رواه مسلم (٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

المَحْضُ، وذلك كإخراجِ الأموالِ في المعاصِي والشَّهَواتِ، التي لا تُعِينُ على طاعةِ الله، وإخراجِها للصَّدِّ عن سبيلِ الله. وإمَّا أن يُمسِكَ مالَه عن إخراجِه في الواجِباتِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فيه تحذيرُ المُؤمنينَ مِن حالِ الذين صار جمْعُ الأموالِ، والافتِتانُ بِكَثرَتِها، وخَزْنُها في الصَّناديقِ، أعظَمَ هَمِّهم في الحياةِ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ إنْ قيل: مَن لم يكْنِزْ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله، وأنفَقَ في المعاصي، هل يكونُ حُكمُه في الوعيدِ حُكمَ مَن كنَزَ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله؟

قيل له: إنَّ ذلك أشَدُّ؛ فإنَّ مَن بذَّرَ مالَه في المعاصِي، عصى من جِهَتينِ: بالإنفاقِ والتَّناوُلِ، كشِراءِ الخَمرِ وشُربِها. بل من جهاتٍ إذا كانت المعصيةُ ممَّا تتعَدَّى، كمن أعان على ظُلمِ مُسلمٍ؛ مِن قَتلِه أو أخْذِ مالِه، إلى غيرِ ذلك. والكانِزُ عصى من جِهَتينِ، وهما منعُ الزَّكاةِ، وحَبسُ المالِ لا غيرُ، وقد لا يُراعى حبسُ المالِ. واللهُ أعلَمُ(٣).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا يندرِجُ فيه مَن كنَزَ المالَ عن النَّفَقةِ الواجبةِ في سبيل الله.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٨).

والجهادُ أحَقُّ الأعمالِ باسمِ سَبيلِ الله، سواءٌ كان مَلِكًا أو مُقَدَّمًا، أو غَنِيًّا أو غيرَ ذلك. وإذا دخَلَ في هذا ما كُنِزَ من المالِ المَورُوثِ والمكسوبِ، فما كُنِزَ مِن الأموالِ المُشتَرَكةِ التي يستحِقُّها عمومُ الأمَّةِ- ومُستَحَقُّها: مصالِحُهم- أَوْلى وأَحْرى[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ ذمٌّ ووعيدٌ لِمَن يمنعُ حقوقَ مالِه الواجبةَ، مِن الزَّكاةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ، وقِرَى الضَّيفِ، والإنفاقِ في النَّوائِبِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ...﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛ وذلك على القولِ بأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهلِ الكِتابِ[3].

٨- من أحَبَّ شَيئًا وقَدَّمَه على طاعةِ الله، عُذِّبَ به؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾؛ فهؤلاء لَمَّا كان جمعُ هذه الأموالِ آثَرَ عِندَهم مِن رِضا الله عنهم، عُذِّبوا بها[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١).

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إسنادُ هذه الجريمةِ المُزريةِ إلى الكَثيرينَ منهم دونَ جَميعِهم، مِن دقائِقِ تَحرِّي الحَقِّ في عباراتِ الكتابِ العَزيزِ؛ فهو لا يحكُمُ على الأمَّةِ الكبيرةِ بفَسادِ جَميعِ أفرادِها، أو فِسْقِهم أو ظُلْمِهم، بل يُسنِدُ ذلك إلى الكثيرِ أو الأكثَرِ، أو يُطلِقُ اللَّفظَ العامَّ ثمَّ يستثني منه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقُ الأكلِ على أخْذِ مالِ الغيرِ، إطلاقٌ شائعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾(٢) [الفجر: ١٩].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أفرَدَ الضَّميرَ في ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ مع تقدُّمِ اثنَينِ ﴿ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾؛ ليدُلَّ على الأنواعِ الكثيرةِ، أي: يُنفِقونَ ما وجَبَ عليهم من هذه الأموالِ التي جَمَعوها من هَذينِ النَّوعَينِ مُجتَمِعَينِ أو مُنفَرِدَينِ. ولو ثَنَّى لأوهَمَ أنَّ اجتماعَهما شَرطٌ للتَّرهيبِ. وقيل: يجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ إلى الفِضَّةِ؛ لأنَّ الذَّمَّ على كَنْزِها، والحاجةَ إليها -لِكَثرَتِها- أقَلُّ، فالذَّمُّ على كَنزِ الذَّهَبِ مِن بابِ الأَوْلى؛ لأنَّه أعلى منها وأعَزُّ. وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى المعنى دونَ اللَّفْظِ؛ لأنَّ المكنوزَ دراهِمُ ودَنانيرُ، لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهما جُمْلةٌ وافيةٌ، وعِدةٌ كثيرةٌ ودنانيرُ ودراهِمُ؛ فهو كقولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٨).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: فأخبِرْهم على سبيلِ التهكُّم؛ لأنَّ الذين يكنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، إنَّما يكنِزونَهما ليتَوسَّلوا بهما إلى تحصيلِ الفَرَجِ يومَ الحاجةِ. فقيل: هذا هو الفَرَجُ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾ قدَّمَ الجِباهَ ثمَّ الجُنُوبَ؛ لأنَّ مانِعَ الصَّدَقةِ في الدُّنيا كان يَصرِفُ وَجْهَه أوَّلًا عن السَّائِلِ، ثم يَنُوءُ بِجانبِه، ثمَّ يتولَّى بِظَهْرِه[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ افْتِتاحُ الجُمْلةِ بالنِّداءِ، واقْتِرانُها بحرْفَي التَّأكيدِ (إنَّ، واللام)؛ للاهْتِمامِ بمَضْمونِها، ورفْعِ احْتِمالِ المُبالغةِ فيه لغَرابتِه[٣].

- وقولُه: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالأكْلِ؛ بناءً على أنَّهُ مُعْظَمُ الغَرَضِ مِنَ المالِ، وتَقْبيحًا لحالِهم، وتَنْفيرًا للسَّامِعينَ عنهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ على القول بأنَّ الاسمَ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكثيرِ مِنَ الأَحْبارِ والرُّهبانِ؛ فيَكونُ مبالغةً في الوَصْفِ بالحِرْصِ والضَّنِّ بهما بَعْدَ وَصْفِهِمْ بما سَبَقَ مِنْ أخْذِ الرِّشا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعلى القولِ بأنَّ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكانزينَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فيَكونُ قَرَنَ في النَّظْمِ بين الكانِزينَ مِنَ المُسلِمينَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، وبَيْنَ المُرْتَشينَ مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ تَغليظًا ودَلالةً على أنَّهم سواءٌ في التَّبشيرِ بالعذابِ في قولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

- وفيه تَخْصيصُ الذَّهبِ والفِضَّةِ بالذِّكْرِ مِنْ بين سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما قِيَمُ الأموالِ وأَثْمانُها وقانونُ التَّموُّلِ وأثمانُ الأشياءِ، وهما لا يُكْنَزانِ إلَّا عَنْ فَضْلةٍ عَنِ الحاجةِ وعن كَثْرةٍ، ومَنْ كَثُرا عِنْدَهُ حتَّى يَكْنِزَهُما لَمْ يَعْدَمْ سائرَ أَجْناسِ المالِ؛ فكان ذِكْرُ كَنْزِهما دليلًا على ما سِواهما[(٢)].

٢- ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ ...﴾ فيه إسْنادُ الفِعْلِ المبنيِّ للمَفْعولِ ﴿يُحۡمَىٰ﴾ إلى المَجْرورِ ﴿عَلَيۡهَا﴾؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بذِكْرِ المفعولِ المَحْميِّ لظُهورِه؛ إذ هو النَّارُ التي تُحْمى؛ ولذَلِكَ لَمْ يُقْرَنْ بعلامةِ التَّأنيثِ، فكأنَّه قيل: يومَ يَحمِي الحامونَ عليها، وعُدِّي بـ(على)؛ لإفادةِ أنَّ الحَمْيَ تَمكَّنَ مِنَ الأموالِ بحيثُ تَكْتَسِبُ حرارةَ المَحميِّ كُلَّها، ثُمَّ أُكِّدَ مَعْنى التَّمكُّنِ بمعنى الظَّرفيَّةِ التي في قولِه: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).

فصارتِ الأموالُ مَحميَّةً عليها النَّارُ، ومَوضوعةً في النَّارِ[(١)].

- قولُه: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فيه تَوبيخٌ لهم؛ إذْ مَعْنى ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾: لِتَنْتَفِعَ به أَنْفُسُكم وتَلْتَذَّ، فصار عذابًا لكم، وزيادةُ قولِه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ للتَّنديمِ والتَّغليظِ[(٢)].

- وجُمْلةُ: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخٌ وتنديمٌ، والفاءُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ لتَفْريعِ مَضمونِ جُمْلةِ التَّوبيخِ على جُمْلةِ التَّنديمِ الأُوْلى ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ سُلوكُ مَسْلَكِ الإطنابِ بالتَّعدادِ في التَّعبيرِ عَنِ التَّعميمِ؛ لاسْتِحضارِ حالةِ ذَلِكَ العِقابِ الأليمِ؛ تهويلًا لشأنِه؛ فلذلك لم يَقُلْ: (فتُكْوى بها أجسادُهُمْ)[(٤)].

- قوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصوليَّةِ ﴿مَا﴾؛ للتَّنبيه على غَلَطِهم فيما كَنَزوا؛ لقَصْدِ التَّنديمِ[(٥)]. وفيه إيجازٌ؛ حيثُ أُضْمِرَ القولُ في ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾، أي: يُقالُ لهم وَقْتَ الكَيِّ[(٦)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ
زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِدَّةَ﴾: أي: عَدَد، وأصل العدِّ: إِحْصاءُ الشيءِ(١).

﴿حُرُمٌ﴾: أي: مُحَرَّمةٌ، وأصلُ (حرم): يدلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ(٢).

﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي: الدينُ الصَّحيحُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوِي والمُستوفَى، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ وحِفظِه(٣).

﴿النَّسِيءُ﴾: أي: تَأْخيرُ تَحْريمِ المُحَرَّمِ، وأصلُ (نسأ): يدلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٩-٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣، ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾: أي: لِيُوافِقوا، والمُواطَأةُ: المُوافَقةُ، وأصلُه أن يطَأَ الرَّجُلُ برِجلِه مَوطِئَ صاحِبِه[١].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنده -تعالى- اثنَا عشَرَ شَهرًا، في حكم الله وتقديره المسطَّر في اللوح المحفوظ منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، منها أربَعةٌ يَحرُمُ فيها القتال وانتهاكُ المَحارِمِ أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غَيرِها، ذلك الدِّينُ المُستَقيمُ، والحسابُ الصَّحيحُ، فلا تَظلِموا فيهنَّ أنفُسَكم بارتكابِكم السَّيِّئاتِ، وقاتِلوا المُشرِكينَ بأجمَعِكم، كما يُقاتِلونكم بأجمَعِهم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ.

ويُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ تأخيرَ تَحريمِ الأشهُرِ الحُرُم، وتغييرَها عمَّا شَرَعه اللهُ تعالى، زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي قُريشٍ، وقد كانوا يُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويَستَبدِلونَ به صَفَرًا، فيَجعَلونَه مُحَرَّمًا، وفي العامِ الذي يليه يَعودونَ لِتَحريم مُحَرَّمٍ، يُضِلُّ اللهُ بذلك الكُفَّارَ؛ يُحِلُّونَ ذلك التَّأخيرَ والتَّغييرَ عامًا، ويُحَرِّمونَه عامًا؛ لِيُوافِقُوا بذلك عددَ الأشهُرِ التي حَرَّمها اللهُ كلَّ عامٍ؛ فهم في كلِّ عامٍ لهم أربعةُ أشهُرٍ مُحَرَّمةٌ، كما حَرَّمَ اللهُ أربعةَ أشهُرٍ، لكِنَّهم يُؤَخِّرونَ ويُغَيِّرونَ الأشهُرَ، فيُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ تعالى، حُسِّنَ لهم قَبيحُ أعمالِهم، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنواعًا مِن قبائحِ أهلِ الشِّركِ وأهْلِ الكتابِ؛ ذكَرَ أيضًا نوعًا منه، وهو تغييرُ العَرَبِ أحكامَ الله تعالى؛ لأنَّه حَكَمَ في وقتٍ بحُكمٍ خاصٍّ، فإذا غيَّروا ذلك الوَقتَ، فقد غيَّروا حُكمَ الله(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي تَليها عَودٌ إلى الكلامِ في أحوالِ المُشرِكينَ، وما يُشرَعُ مِن مُعامَلَتِهم بعد الفَتحِ، وسُقوطِ عصبيَّةِ الشِّركِ، وكان الكلامُ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، وما يجِبُ أن ينتهيَ به من إعطاءِ الجِزيةِ مِن قَبيلِ الاستطرادِ، اقتضاه ما ذَكَرَ قبلَه من أحكامِ قِتالِ المُشرِكينَ ومُعامَلَتِهم، وقد ختم الكلامَ في أهلِ الكتابِ ببيانِ حالِ كثيرٍ مِن رجالِ الدِّين الذين أفسدَتْ عليهم دينَهم المطامعُ الماليَّةُ، وإنذارِ مَن كانت هذه حالَهم بالعذابِ الشديدِ يومَ القيامةِ، وجعلِ هذا الإنذارِ موجهًا إلينا وإليهم جميعًا، ومِن ثَمَّ كان التناسبُ بينَ الكلامِ فيما يشترِكُ فيه المسلمون معَ أهلِ الكتابِ مِن الوعيدِ على أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وكنزِ النَّقْدين، إلى ما يجبُ أن يخالفوا فيه المشركينَ مِن إبطالِ النسيءِ، ومِن أحكامِ القتالِ- تناسبًا ظاهرًا قويًّا(٢).

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ كَثيرٌ ممَّا ينبني على التَّاريخِ: كالحجِّ في غيرِ موضِعٍ، وإتمامِ عَهدِ مَن له مُدَّةٌ إلى مُدَّتِه، والزكاةِ، والجِزيةِ، وخُتِمَ ذلك بالكَنزِ الذي لا يُطلَقُ شَرعًا إلَّا على ما لم تؤَدَّ زَكاتُه، وكان مُشرِكو العَرَبِ، الذين تقدَّمَ الأمرُ بالبراءةِ منهم، والتَّأذينِ بهذه الآياتِ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ فيهم، قد أحدَثوا في الأشهُرِ بالنَّسِيءِ الذي أُمِروا أن يُنادُوا في الحَجِّ بإبطالِه، ما غَيَّرَ السِّنينَ عن مَوضُوعِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧).

الذي وَضَعَها اللهُ عليه، فضاهَوْا به فِعلَ أهلِ الكتابِ بالتَّدَيُّنِ بتَحليلِ أكابِرِهم وتحريمِهم، كما ضاهَى أولئك قَولَ أهْلِ الشِّركِ في النبوَّةِ والأبُوَّةِ(١)، قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

أي: إنَّ عددَ الشُّهورِ في حُكمِ الله وتَقديرِه، اثنا عشَرَ شَهرًا قَمَرِيًّا، مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ(٢) مُنذُ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وعن أبي بكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذُو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورجَبُ شَهرُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشَعبانَ))(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال الواقدي: يعني اللَّوحَ المَحفوظَ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

قال ابن رجب: (فأخبَرَ سبحانه أنَّه منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وخلقَ اللَّيلَ والنَّهارَ، يدورانِ في الفَلَكِ، وخلَقَ ما في السَّماء من الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجوم، وجعَلَ الشَّمسَ والقمَرَ يسبحانِ في الفَلَك، وينشأ منهما ظُلمةُ الليل وبياضُ النَّهارِ، فمِن حينئذٍ جعَلَ السنةَ اثنَي عشَرَ شَهرًا، بحسب الهلالِ، فالسَّنَةُ في الشَّرعِ مُقدَّرةٌ بِسَيرِ القَمرِ وطُلوعِه، لا بِسَيرِ الشَّمسِ وانتقالِها، كما يفعَلُه أهلُ الكتابِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

(٤) رواه البخاري (٧٤٤٧)، ومسلم (١٦٧٩) واللفظ له.

قال ابن كثيرٍ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحديثِ: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾.

أي: مِن هذه الشُّهورِ الاثنَي عشَرَ أربعةُ أشهُرٍ، يَحْرُم انتهاكُ المحارِمِ فيها[1]،

اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ))، تقريرٌ منه- صلواتُ الله وسلامُه عليه- وتثبيتٌ للأمْرِ على ما جعَلَه اللهُ تعالى في أوَّلِ الأمرِ، من غيرِ تَقديمٍ ولا تأخيرٍ، ولا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا نَسيءٍ ولا تبديلٍ، كما قال في تحريمِ مكة: «إنَّ هذا البلَدَ حَرَّمه اللهُ يومَ خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يومِ القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أي: الأمرُ اليومَ شَرعًا كما ابتدأ اللهُ ذلك في كتابِه يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ. وقد قال بعض المفسِّرين والمتكلِّمين على هذا الحديثِ: إن المرادَ بقَولِه: «قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أنَّه اتَّفَقَ أنْ حَجَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تلك السَّنةِ في ذي الحِجَّةِ، وأنَّ العَرَب قد كانت نَسَأتِ النَّسيءَ، يحجُّونَ في كثيرٍ من السنين، بل أكثرِها، في غير ذي الحِجَّة!! وزعموا أنَّ حَجَّةَ الصِّدِّيقِ في سنةِ تِسعٍ كانت في ذي القَعدةِ! وفي هذا نَظَرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ - ٤٩٥).

(١) اختلف العلماءُ في تحريمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ؛ فذهَب الجمهورُ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ منسوخٌ بالأمرِ بقتالِ المشركين حيثما وُجِدوا، في قولِه تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، وممن ذهَب إلى ذلك سعيدُ بنُ المسيبِ، وسليمانُ بنُ يَسارٍ، وقتادةُ، والزهريُّ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّام، وابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (ص: ٢٠٦- ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

وذهَب آخرونَ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ باقٍ، غيرُ منسوخٍ، وهو قولُ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، ورجَّحه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (١/ ٢٠٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (اختلف العُلَماءُ في تحريمِ ابتداءِ القِتالِ في الشَّهرِ الحرام: هل هو منسوخٌ أو مُحكَمٌ؟ على قولين: أحدُهما- وهو الأشهَرُ- أنَّه منسوخٌ؛ لأنَّه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾، وأمر بقِتالِ المشركين، وظاهرُ السِّياقِ مُشْعِرٌ بأنَّه أمَرَ بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان مُحَرَّمًا في الشَّهرِ الحَرامِ، لأوشَكَ أن يُقَيِّدَه بانسلاخِها؛ ولأنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حاصَرَ أهلَ الطَّائِفِ في شَهرٍ حرامٍ- وهو ذو القَعدة- كما ثبت في الصَّحيحين: أنه خرج إلى هوازِنَ في شوَّال، فلما كسَرَهم واستفاءَ أموالَهم، ورجَعَ فَلُّهم، فلجَؤوا إلى الطَّائِفِ- عَمد إلى الطَّائِفِ فحاصَرَها أربعينَ يومًا، وانصرف ولم يفتَتِحْها، فثبت أنَّه حاصر في الشَّهرِ الحرامِ. والقَولُ الآخَر: أنَّ ابتداءَ القِتالِ في الشَّهرِ الحرامِ حَرامٌ، وأنَّه لم يُنسَخْ تَحريمُ الحرامِ). ((تفسير

أَشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غيرِها، وهي: ذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحرَّمٌ، ورجَب[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: هذا الذي أخبَرْتُكم به- مِن كَونِ الشُّهورِ اثنَي عَشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ

ابن كثير)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابن القيم: (غَزوُ الطَّائِفِ كان من تمامِ غَزوةِ هَوازِنَ، وهم بدَؤُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقتالِ، ولَمَّا انهزموا دخَلَ مَلِكُهم- وهو مالك بن عوف النضري- مع ثقيفٍ في حِصنِ الطَّائِفِ، مُحاربينَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان غَزوُهم من تمامِ الغَزوةِ التي شَرَعَ فيها، واللهُ أعلم. وقال الله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، وليس فيها منسوخٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فهاتان آيتانِ مدنيَّتان بينهما في النُّزول نحوُ ثمانيةِ أعوام، وليس في كتابِ الله ولا سُنَّةِ رَسولِه ناسِخٌ لِحُكمِهما، ولا أجمَعَت الأمَّةُ على نَسْخِه، ومن استدَلَّ على نسخِه بِقَولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ونحوِها من العُموماتِ، فقد استدَلَّ على النَّسخِ بما لا يدُلُّ عليه). ((زاد المعاد)) (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠).

وقال الشنقيطي: (وَمِنْ أَصْرَحِ الأدلةِ في ذلك هو الحديثُ الذي أَشَرْنَا إليه؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ به يومَ النحرِ في حجةِ الوداعِ عامَ عَشْرٍ، ولم يَعِشْ بعد ذلك إلا نحوَ ثمانينَ يومًا، وقد صَرَّحَ فيه بأن ذلك الشهرَ حرامٌ، وذلك اليومَ حرامٌ، وذلك البلدَ حرامٌ، ولم يَأْتِ بعدَ ذلك شيءٌ يَنْسَخُ هذا التحريمَ الثابتَ عنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٣).

قال الواحدي: (﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجَب، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّم، في قولِ الجَميعِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٩).

وقال الشنقيطي: (فالتَّحقيقُ أنَّ هذه الصورةَ التي نزل بها القرآنُ، التي كان يفعَلُ لهم الكِنانيُّونَ: أنَّهم سنةً يُحَرِّمونَ صَفرًا، ويُحِلُّونَ المُحَرَّمَ مكانَه، وفي سنةٍ يُبقونَ الأمرَ على حالِه، فيُحِلُّونَ المُحَرَّمَ سَنةً، ويُحَرِّمونَه سنةً؛ لِيُواطِئوا بذلك -يُوافِقوا- عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله، وهي أربعةُ أشهُرٍ مِن السَّنَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٥).

حُرُمٌ- هو الدِّينُ المُستَقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ[١].

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: فلا تَظلِموا- أيُّها النَّاسُ- أنفُسَكم في هذه الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ[٢]، بارتكابِ السَّيِّئاتِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالدِّينِ القَيِّمِ هنا: الدِّينُ المُستقيمُ: ابن جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن ذهب إلى أنَّ المراد: الحسابُ الصَّحيحُ المستقيمُ: مُقاتِل، وابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٦٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).
وجمعَ الشَّوكاني بين القَولَينِ، فقال: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: كَونُ هذه الشهورِ كذلك، ومنها أربعةٌ حُرمٌ؛ هو الدِّينُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوفى). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩).
(٢) ذهَب جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بإيقاعِ القتالِ فيها، والهتكِ لحرمتِها ولذا قالوا: إن تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرُمِ ثابتٌ محكمٌ لم يُنْسَخْ لهذه الآيةِ وغيرِها، وذهَب آخرونَ إلى أنَّ هذه الآيةَ على هذا التأويلِ منسوخةٌ بإباحةِ القتالِ في جميعِ الشهورِ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ الظلمَ هنا مؤوَّلٌ بارتكابِ المعاصي، وأنَّ حرمةَ المقاتلةِ في الأشهرِ الحرم منسوخةٌ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٣).
(٣) وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين، منهم: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. ونسَبه الرازي للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).
وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).
قال القرطبي: (خصَّ اللهُ تعالى الأربعةَ الأشهُرَ الحُرُمَ بالذِّكرِ، ونهى عن الظُّلم فيها؛ تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزَّمانِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، على هذا أكثَرُ أهلِ التَّأويلِ، أي: لا تَظلِموا في الأربعةِ الأشهُرِ أنفُسَكم).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وعن جابرِ بنِ عبد الله رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يغزُو في الشَّهرِ الحرامِ، إلَّا أن يُغزَى- أو يُغْزَوْا- فإذا حضَرَ ذاك، أقام حتى ينسلِخَ))[١].

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾.

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- المُشرِكينَ كلَّهم، وأنتم مجتَمِعونَ مُؤتَلِفونَ مُتَوافِقونَ جميعًا على قتالِهم، بلا تفرُّقٍ ولا تخاذُلٍ ولا تقاطُعٍ، كما يقاتِلُكم المُشرِكونَ مُجتَمِعينَ غيرَ مُتَفَرِّقينَ[٢].

((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٧).
وقيل: المعنى: فلا تَظلِموا أنفُسَكم بالمعاصي في جميعِ أشهُرِ السَّنَةِ، وممن اختاره ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).
وقال ابنُ عاشورٍ: (والأنفُسُ تَحتَمِلُ أنَّها أنفُسُ الظَّالِمينَ في قَولِه: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ أي: لا يظلِمْ كُلُّ واحدٍ نفسَه... ويجوز أن يكون الظُّلمُ بمعنى الاعتداءِ، ويكون المرادُ بالأنفُسِ أنفُسَ غيرِ الظَّالمينَ، وإضافتُها إلى ضميرِ المُخاطَبينَ للتَّنبيهِ على أنَّ الأمَّةَ كالنَّفسِ مِن الجَسَد). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).

(١) أخرجه القاسم بن سلام في ((الناسخ والمنسوخ)) (٣٨٩)، وأحمد (١٤٥٨٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في ((بغية الباحث)) (٦٤٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٤٨٧٩).
صحح إسناده ابن كثير في ((التفسير)) (١/ ٣٣٠)، وابن حجر في ((العجاب)) (١/ ٤٧٠)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٦٩): رجاله رجال الصحيح، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٢٥٦): حسن على شرط مسلم.

(٢) ممَّن اختار هذا القول: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والرازي، والشَّوكاني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم إن قاتَلْتُم المُشرِكينَ كافَّةً، واتَّقيتُم اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه؛ فإنَّ اللهَ معكم بِعَونِه وتأييدِه، وينصُرُكم على أعدائِكم المُشرِكينَ(١).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ

قال ابن عطية: (قال بعضُ النَّاسِ: كان الفَرضُ بهذه الآيةِ قد توجَّهَ على الأعيانِ، ثم نُسِخَ ذلك بعدُ، وجُعِلَ فَرضَ كِفايةٍ. وهذا الذي قالوه لم يُعلَم قطُّ مِن شَرْعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه ألزَمَ الأمَّةَ جَميعًا النَّفْرَ، وإنَّما معنى الآية: الحضُّ على قِتالِهم والتحزُّبُ عليهم وجَمعُ الكَلِمةِ، ثم قيَّدَها بِقَولِه: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، فبِحَسَب قتالِهم واجتماعِهم لنا يكونُ فَرضُ اجتماعِنا لهم، وأمَّا الجِهادُ الذي يُنتَدَبُ إليه، فإنَّما هو فرضٌ على الكفايةِ؛ إذا قام به بعضُ الأمَّةِ سقَطَ عن الغَيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١). ويُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

وقيل: المعنى: وقاتِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- جميعَ المُشرِكينَ، كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَكم جميعًا، وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).

قال ابنُ تيميَّة: (وقَولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ أي: قاتِلوهم كلَّهم، لا تَدَعُوا مُشرِكًا حتى تُقاتِلوه، فإنَّها أُنزِلَت بعد نَبْذِ العُهودِ، ليس المرادُ: قاتِلوهم مُجتَمِعينَ، أو جميعُكم؛ فإنَّ هذا لا يجِبُ، بل يُقاتَلون بحسَبِ المَصلحةِ، والجهادُ فرضٌ على الكفايةِ، فإذا كانت فرائِضُ الأعيانِ لم يؤكَّدِ المأمورونَ فيها بـ ﴿كَآفَّةٗ﴾، فكيفَ يؤكَّدُ بذلك في فُروضِ الكفايةِ؟! وإنما المقصودُ تعميمُ المقاتَلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦٧).

وقال الواحدي: (يريدُ: قاتِلوهم كُلَّهم ولا تُحابوا بعضَهم بتَرْكِ القِتالِ؛ كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَ جَميعِكم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قاتِلوهم بأجمَعِكم، مجتمعينَ على قتالِهم كما يفعلونَ هم. يريد: تعاوَنوا وتَناصَروا على ذلك ولا تتَجادَلوا، وكلا المعنيينِ يحتَمِلُه قوله: جميعًا). ((البسيط)) (١٠/ ٤١٥، ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الآيةَ السَّابِقة كالمُقَدِّمةِ إلى المقصودِ هنا، وهو إبطالُ النَّسيءِ وتَشنيعُه[١].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

أي: إنَّما تأخيرُ تَحريم الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُم، وتغييرُها عمَّا شَرَعَه اللهُ- بأن يكونَ شَهرُ مُحَرَّمٍ الحرامُ حلالًا، وشهرُ صَفَر الحَلالُ حَرامًا[٢]- زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي العَرَبِ، الذين ابتَدَعوا هذا التَّأخيرَ[٣].

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

(٢) قال الواحدي: (قال العُلَماءُ وأهلُ التَّفسيرِ: إنَّ العَرَبَ كانت تحرِّمُ الشُّهورَ الأربعةَ، وكان ذلك ممَّا تمسَّكَت به مِن مِلَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلامُ، وكانت العربُ أصحابَ حُروبٍ وغاراتٍ، فشَقَّ عليهم أن يَمكُثُوا ثلاثةَ أشهُرٍ متواليةً لا يُغيرُونَ فيها... فكانوا يؤخِّرونَ تَحريمَ المُحَرَّمِ إلى صَفَرَ، فيُحَرِّمونَه، ويستَحِلُّونَ المُحَرَّمَ، وكانوا يمكُثون بذلك زمانًا يُحَرِّمونَ صَفَرَ وهم يُريدونَ به المُحَرَّمَ، ويقولون: هو أحَدُ الصَّفَرَينِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٠).

وقال ابن تيمية: (روى أحمدُ عن أبي وائلٍ، في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، قال: كان رجلٌ ينسَأُ النَّسيءَ مِن كِنانةَ، وكان يجعَلُ المُحَرَّم صَفَرًا يستحِلُّ فيه الغنائِمَ، فنزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٣٧]. وهذا ممَّا أجمَعَ عليه أهلُ العِلمِ بالأخبارِ والتَّفسيرِ والحديثِ). ((شرح عمدة الفقه)) (٢/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٨، ٤٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩١، ١٩٣).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ بيانٌ لِما فَعَلَتْه العَربُ مِن جَمْعِها من أنواعِ الكُفرِ؛ فإنَّها... أنكَرَت البَعثَ فقالت: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]. وأنكَرَت بَعثةَ الرُّسُلِ، فقالوا: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]. وزعَمَت أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ إليها، فابتَدَعَتْه من ذاتِها مُقتَفيةً لِشَهواتِها، فأحَلَّت ما حَرَّمَ الله، ولا مُبدِّلَ لِكَلِماتِه، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثلاثُ قِراءاتٍ:

١- قراءةُ: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بضَمِّ الياءِ وفتح الضادِ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: أنَّ الكافرين يُضَلُّونَ[1].

٢- قراءةُ: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضَمِّ الياء وكسرِ الضاد، ومعناه أنَّ الكفَّارَ يُضِلُّونَ بالنَّسيءِ أتباعَهم في إحْلالِهم المحَرَّمَ مَرَّةً، وتحريمِهم إيَّاه أخرى. أو: يُضِلُّ اللهُ الذين كفروا[2].

٣- قراءةُ: ﴿يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفَتحِ الياءِ وكَسرِ الضَّادِ، والفِعلُ للكفَّارِ الضَّالِّينَ، فهم يَضِلُّونَ لا يَهتَدونَ[3].

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: يُضَلُّ بتأخيرِ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، الذينَ كفَروا[4].

---

(١) وقرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٢) وقرأ بها يعقوبُ الحضرميُّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٣) وقرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨).

(٤) قال الواحدي: (ومعناه: أنَّ كبَراءَهم يُضِلُّونَهم بحَمْلِهم على هذا التَّأخيرِ في الشُّهورِ، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى المفعولِ، كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي: زَيَّنَ لهم ذلك حامِلوهم وداعُوهم إليه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٧)، ويُنظر: ((تفسير الرازي))

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

أي: يُحِلُّ الذينَ كَفَروا ذلك النَّسيءَ عامًا دونَ عامٍ، فيُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويُحَرِّمونَه في عامٍ آخَرَ، فإذا قاتلوا في المحرَّمِ أحلُّوه، وحرَّموا مكانَه صَفرًا، وإذا لم يُقاتِلوا فيه حرَّمُوه[١].

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لِيُوافِقوا بتَحليلِهم شَهرَ مُحَرَّمٍ، وتَحريمِهم شَهرَ صَفَرٍ، عدَدَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ كُلَّ عامٍ بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ في العَدَدِ، فيُحِلُّوا بتأخيرِ حُرمةِ شَهرِ مُحَرَّمٍ، ما حرَّمَه الله تعالى[٢]!

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

أي: حُسِّنَ للمُشرِكينَ سيِّئُ أعمالِهم وقَبيحُها[٣].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم، ويخذُلُهم عن الهُدى[٤].

(١٦/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ - ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١، ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

ذهب السعدي والشنقيطي إلى أنَّ المُزَيِّنَ لهم: هو الشَّيطانُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ * وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٧ - ١١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الحِرصُ على استعمالِ تَقوى الله في السِّرِّ والعَلَنِ، والقيام بِطاعَتِه، خصوصًا عند قتال الكُفَّارِ؛ فإنَّه في هذه الحالِ ربَّما ترَكَ المؤمِنُ العمَلَ بالتَّقوى

(ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦، ٤٩٧).

قال الشوكاني: (لا يَهدِيهم هدايةً تُوصِلُهم إلى المطلوبِ، وأمَّا الهدايةُ بمعنى الدَّلالةِ على الحقِّ، والإرشادِ إليه؛ فقد نَصَبَها اللهُ سُبحانه لِجَميعِ عِبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١).

قال الشنقيطي: (﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه الآيةُ وأمثالُها بالقرآنِ، فيها سؤالٌ مَعروفٌ، وإشكالٌ مشهورٌ، وهو أن يقول طالِبُ العلم: هذه الآيةُ وأمثالُها صرَّحَ الله فيها بأنَّه لا يهدي الكافرينَ، مع أنَّا نُشاهدُ اللهَ يهدي كثيرًا من الكافرين، فاللهُ يهدي من يشاءُ مِن الكفَّار، ويُضِلُّ من يشاء، فما وجهُ تعميمِه في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا وجهُ السؤالِ، وللعلماءِ عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ: مِن العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدي القومَ الكافرين الذين سبَقَ في عِلمِه عَدمُ هدايتِهم، وشقاؤُهم شقاءً أزليًّا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ٧] ونحوِ ذلك من الآيات. وعلى أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَر، فلا إشكالَ.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ما دامُ اللهُ جلَّ وعلا مُريدًا منهم أن يكونوا كافرينَ، فإذا شاء اللهُ أن يهديَهم هداهم. وقال بعضُ العلماءِ: لا يهديهم ما داموا مُصِرِّينَ على كُفْرِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦-٤٩٧).

في معاملةِ الكُفَّارِ الأعداءِ المُحارِبينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ جُعِلَ النَّسيءُ زيادةً في الكُفرِ؛ لأنَّ الكافِرَ كلمَّا أحدَثَ مَعصِيةً ازداد كُفرًا، فزادَتْهم رِجسًا إلى رِجْسِهم، كما أنَّ المؤمِنَ كلَّما أحدَثَ طاعةً ازدادَ إيمانًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾[٢] [التوبة: ١٢٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ مِن أسوَأِ الأعمالِ وأخبَثِها تحليلَ ما حَرَّمَه اللهُ، وتحريمَ ما أحَلَّ اللهُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾. فإن قيل: أجزاءُ الزَّمانِ مُتشابِهةٌ في الحقيقةِ، فما السَّبَبُ في هذا التَّمييزِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا المعنى غيرُ مُستبعَدٍ في الشَّرائعِ؛ فإنَّ أمثِلتَه كثيرةٌ، ألا ترى أنَّه تعالى ميَّزَ البلدَ الحرامَ عن سائِرِ البلادِ بمَزيدِ الحُرمةِ، ومَيَّزَ يومَ الجُمُعةِ عن سائِرِ أيَّامِ الأسبوعِ بمزيدِ الحُرمةِ، وميَّزَ يومَ عرفةَ عن سائِرِ الأيامِ بتلك العبادةِ المخصوصةِ، وميَّزَ شَهرَ رَمَضانَ عن سائِرِ الشُّهورِ بمَزيدِ حُرمةٍ، وهو وجوبُ الصَّومِ، وميَّزَ بعضَ ساعاتِ اليومِ بوجوبِ الصَّلاةِ فيها، وميَّزَ بعض

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

اللَّيالي عن سائرِها، وهي ليلةُ القَدْرِ، وميَّزَ بعضَ الأشخاصِ عن سائرِ النَّاسِ بإعطاءِ خِلعةِ الرِّسالةِ، وإذا كانت هذه الأمثلةُ ظاهرةً مَشهورةً، فأيُّ استبعادٍ في تخصيصِ بَعضِ الأشهُرِ بمزيدِ الحُرمةِ[١]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ قال أهلُ المعاني: وفي جَعْلِ بعضِ الشُّهورِ أعظَمَ حُرمةً من بعضٍ، فوائِدُ من المصلحةِ في الكَفِّ عن الظُّلمِ فيها؛ لِعِظَمِ مَنزِلَتِها في حُكمِ خالِقِها، فربَّما أدَّى ذلك إلى تَركِ الظُّلمِ رأسًا؛ لانطفاءِ الثَّائرةِ في تلك المدَّةِ[٢].

٣- ضَبطُ التَّوقيتِ: مِن أصولِ إقامةِ نِظامِ الأمَّةِ، ودَفْعِ الفوضى عن أحوالِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ...﴾، مِن أحكامِ كتابِ الله التشريعيةِ أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بحسابِ الشهورِ والسِّنين، كالصيامِ والحجِّ وعدةِ المطلقاتِ والرضاعِ، فالمعتبرُ فيه الأشهرُ القمريةُ، ولهذا فسَّرَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام الأربعةَ الحرمَ، بأنها: رجبُ مُضَرَ، وذو القعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحَرَّمٌ[٤]، وهذه الشهورُ القمريةُ هي أقدمُ أشهُرِ التوقيتِ في البشرِ وأضبطِها، ويمكنُ العلمُ بها بالرؤيةِ البصريةِ للأُميين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤١، ٤٢).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).
(٤) تقدَّم تخريجه من حديث أبي بكرةَ.

والمتعلِّمين في البدوِ والحضرِ على سواءٍ، ولَمَّا استعمرَ الكفارُ كثيرًا مِن البلادِ الإسلاميةِ حَوَّلُوا التاريخَ إلى تاريخِهم؛ استعبادًا واستذلالًا للشعوبِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى وضَعَ هذه الأشهُرَ، وسَمَّاها ورَتَّبها على ما هي عليه، وأنزل ذلك على أنبيائِه، فيُستَدَلُّ به لِمَن قال: إنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وجهُ تخصيصِ المعاصي في هذه الأشهُرِ بالنَّهي: أنَّ اللهَ جعَلَها مواقيتَ للعِبادةِ، فإنْ لم يكُنْ أحَدٌ مُتَلَبِّسًا بالعبادةِ فيها، فليَكُنْ غيرَ مُتلَبِّسٍ بالمعاصي، وليس النَّهيُ عن المعاصي فيها بمقتَضٍ أنَّ المعاصِيَ في غيرِ هذه الأشهُرِ ليست منهيًّا عنها، بل المرادُ أنَّ المعصيةَ فيها أعظَمُ، وأنَّ العمَلَ الصَّالِحَ فيها أكثَرُ أجرًا(٣).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه ذِكرُ الأشهُرِ الحُرمِ، وتعظيمُ الظُّلم فيها زيادةً عليه في غَيرِها، ومن هنا شُرِعَ تَغليظُ الدِّيَةِ في القَتلِ فيها، على ما ذهب إليه بعضُ العُلماءِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠-١٨١)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٠).

٨- قولُه تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يريد: اللَّوحَ المحفوظَ. وأعاده بعد أن قال: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ كثيرًا من الأشياءِ يُوصَفُ بأنَّه عند الله، ولا يُقالُ إنَّه مكتوبٌ في كتابِ الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[1].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إنَّما قال: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لِيُبيِّنَ أنَّ قضاءَه وقَدَرَه كان قبل ذلك، وأنَّه سبحانه وضَعَ هذه الشُّهورَ وسمَّاها بأسمائِها، على ما رتَّبَها عليه يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وأنزل ذلك على أنبيائِه في كتُبِه المُنزَّلةِ، وهو معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وحُكمُها باقٍ على ما كانت عليه، لم يُزِلْها عن ترتيبِها تغييرُ المُشركين لأسمائها، وتقديمُ المُقَدَّمِ في الاسمِ منها، والمقصودُ من ذلك اتِّباعُ أمرِ الله فيها، ورَفضُ ما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن تأخيرِ أسماء الشُّهورِ وتقديمِها، وتعليقِ الأحكامِ على الأسماءِ التي رتَّبوها عليه؛ ولذلك قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في خُطبَتِه في حَجَّةِ الوداعِ: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ))[2]. وأنَّ الذي فعَلَ أهلُ الجاهليَّةِ مِن جَعْلِ المُحَرَّمِ صَفَرًا، وصَفَرٍ مُحَرَّمًا؛ ليس يتغيَّرُ به ما وصَفَه الله تعالى[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا هو الدِّينُ القَيِّمُ؛ ليُبيِّنَ أنَّ ما سواه من أمْرِ النَّسيءِ وغَيرِه مِن عاداتِ الأُمَمِ، ليس قَيِّمًا؛ لِمَا يَدخُلُه مِن الانحرافِ والاضطرابِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٤١).

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ السَّيِّئةَ- وإنْ كانت لا تتضاعَفُ- إلَّا أنَّها قد تَعْظُمُ أحيانًا بشَرَفِ الزَّمانِ أو المكانِ[١].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ جملةُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ تأييدٌ وضَمانٌ بالنَّصرِ عند قِتالِهم المُشرِكينَ؛ لأنَّ المعيَّةَ هنا مَعيَّةُ تأييدٍ على العَمَلِ، وليست معيَّةَ عِلمٍ؛ إذ لا تختَصُّ معيَّةُ العِلمِ بالمتَّقينَ[٢].

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن سُورةِ براءةَ، مِن أصرَحِ النُّصوصِ القُرآنيَّةِ في أنَّ كُلَّ مَن اتَّبَع نِظامًا غيرَ نِظامِ الله، وتشريعًا غيرَ تَشريعِ الله، وقانونًا غيرَ قانونِ الله؛ أنَّه كافِرٌ بالله؛ إن كان يزعُمُ الإيمانَ فقد كفَرَ، وإن كان كافرًا، فقد ازداد كُفرًا جديدًا إلى كُفرِه الأوَّلِ[٣].

١٤- قال تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾، فعَبَّرَ عن الحولِ بلفْظٍ يدورُ على معنَى السَّعةِ فقال: ﴿عَامًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم يَفعلونَه ولو لم يَضطرَّهم إلى ذلك جدبُ سَنةٍ ولا عَضُّ زمانٍ، بل بمُجرَّدِ التَّشهِّي؛ فإنَّهم ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ هكذا دائمًا كلَّما أرادوا، وليس المرادُ أنَّهم كلَّ سَنةٍ يَفعلون ذلك، مِن غيرِ إجلالٍ لسَنةٍ مِن السِّنينَ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- **قولُه تعالى:** ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥٣).

أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

- في قولِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ للاهْتِمامِ بمضمونِه؛ لتتوجَّهَ أَسْماعُ النَّاسِ وألبابُهم إلى وَعْيِه[1].

- وقولُه: ﴿ٱلشُّهُورِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عبَّرَ هنا بجَمْعِ الكَثْرةِ (الشُّهورِ)؛ وذلك لأنَّها كانتْ أَزْيدَ مِنْ عَشرةٍ، بخِلافِ قولِهِ في سُورةِ البَقرةِ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، حيثُ جاء بلَفْظِ جَمْعِ القِلَّةِ ﴿أَشْهُرٌ﴾ وهو مُناسِبٌ؛ لأنَّهُ أَشْهُرٌ قليلةٌ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُهُ[2].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يَتضمَّنُ مَعْنى البُعْدِ، فيه تفخيمُ المُشارِ إليه، وهو الدِّينُ[3].

- قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه تَخْصيصُ النَّهْيِ عن المَظالِمِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ؛ تَشريفًا لها، وتعظيمًا بالتَّخصيصِ بالذِّكْرِ، وإنْ كانتِ المظالِمُ مَنْهيًّا عَنْها في كُلِّ زمانٍ[4].

- قولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ احْتِراسٌ مِن ظَنِّ أنَّ النَّهيَ عن انْتِهاءِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ يَقْتضي النَّهْيَ عن قِتالِ المشركينَ فيها إذا بَدؤوا بقِتالِ المُسلِمينَ، وبهذا يُؤذِنُ التَّشبيهُ التَّعليليُّ في قولِهِ: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٥).

فيكونُ المَعْنى: فلا تَنْتَهِكوا حُرْمةَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ بالمعاصي، أو باعْتِدائكُم على أعدائكُم؛ فإنْ هُمْ بادَؤوكُمْ بالقتالِ فقاتِلُوهم؛ فمقصودُ الكلامِ هو الأَمْرُ بقِتالِ المُشْركِينَ الذين يُقاتِلونَ المسلمينَ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ، وتعليلُه بأنَّهُم يَسْتحِلُّونَ تلك الأَشْهُرَ في قِتالِهم المُسلِمينَ[١].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الجُمْلةُ بمَنْزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قَبْلَها؛ مِنْ أَجْلِ ما فيها مِن العُمومِ في المُتَّقينَ[٢].

- وفيه وضْعُ الظاهِرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لَمْ يَقُلْ: (واعْلَموا أنَّ اللهَ مَعَكُم)-؛ مَدْحًا لهم بالتَّقوى، وحَثًّا للقاصِرينَ على القِتالِ، وإيذانًا بأنَّ مَعِيَّةَ اللهِ للمُتَّقينَ عليها المدارُ في النَّصْرِ، وقيل: هي بِشارةٌ وضَمانٌ لهم بالنُّصْرةِ؛ بسَببِ تَقْواهُمْ[٣]، وأيضًا أظْهرَ الوَصْفَ تَعليقًا للحُكمِ به، وتَعميمًا[٤].

٢- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ...﴾؛ لأنَّ ذلك كالمُقدِّمةِ إلى المقصودِ، وهو إبْطالُ النَّسيءِ وتَشْنيعُه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلۡكُفۡرِ﴾ تَقْتضي أنَّهُ لا يَعْدُو كونَه مِنْ أَثَرِ الكُفْرِ لمَحبَّةِ الاعْتِداءِ والغاراتِ؛ فهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، ويَلْزَمُ مِنْ كونِه زيادةً في الكُفْرِ: أنَّ الذين وَضَعوهُ ليسوا إلَّا كافرينَ وما هم بمُصْلِحينَ، وما الذين تابَعوهم إلَّا كافِرونُ كذلك، وما هم بمتَّقينَ[١].

- وجُمْلةُ: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ بيانٌ لسَببِ كونِ النَّسيءِ ضَلالًا[٢].

- واخْتيرَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ في (يُضَلُّ- يُحلُّونَهُ- يُحرِّمونَهُ)؛ لدَلالتِهِ على التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، أي: هم في ضلالٍ مُتجدِّدٍ مُسْتَمِرٍّ بتَجدُّدِ سَببِه[٣].

- قولُه: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَا﴾ دونَ أنْ يَقولَ مَثلًا: (لِيُواطِئُوا عِدَّةَ الشُّهورِ الحُرُمِ)؛ للإشارةِ إلى تَعليلِ عَمَلِهم في اعْتِقادِهِمْ بأنَّهم حافَظوا على عِدَّةِ الأشْهُرِ التي حرَّمها اللهُ تَعظيمًا؛ ففيه تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ بهم[٤].

- وعطَف ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ عَلَى ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ تَنزيلًا للأمْرِ المترتِّبِ على العِلَّةِ مَنزلةَ المقصودِ مِن التَّعليلِ، وإنْ لم يَكُنْ قَصْدُ صاحبِه به التَّعليلَ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ والتَّخطئةِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[٥] [القصص: ٨].

- وفي قولِه: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ- حيثُ لم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَقُلْ: (فيُحِلُّوهُ)-؛ لزيادةِ التَّصريحِ بتَسجيلِ شَناعةِ عَمَلِهِمْ[١].

- وجُمْلةُ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ اسْتِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما حُكِيَ مِنِ اضْطرابِ حالِهم يُثيرُ سؤالَ السائلينَ عن سببِ هذا الضِّغْثِ من الضَّلالِ الذي تَملَّؤوه؛ فقيل: لأنَّهم زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُل: -(واللهُ لا يَهديهم)-؛ لقَصدِ إفادةِ التَّعميمِ الذي يَشمَلُهم وغيرَهم، أي: هذا شأنُ اللهِ مع جَميعِ الكافِرينَ[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٥).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱنفِرُواْ﴾: أي: اخرُجوا مِن مَنازِلِكم إلى مَغْزاكم، والنَّفْرُ: مُفارقةُ مكانٍ إلى مكانٍ لأمْرٍ هاجَه على ذلك، وأَصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ[(١)].

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: أي: تَثاقَلْتُم، وتَباطَأْتُم وتَكاسَلْتُم، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[(٢)].

﴿مَتَٰعُ﴾: أي: مُتْعة، وانْتِفاع، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

﴿ٱلۡغَارِ﴾: نَقْبٌ في الجَبَلِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتَطامُنٍ(١).

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، ما بالُكم إذا دُعِيتُم إلى الجِهادِ في سبيلِ الله تكاسَلْتُم، ومِلْتُم لِلُزومِ مَساكِنِكم؟! أَرِضًا منكم بنَعيمِ الدُّنيا بَدَلًا من نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ؟! فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا مُقارنةً بنَعيمِ الآخرةِ إلَّا قَليلٌ، إن لم تُبادِرُوا للجِهادِ الذي دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عذابًا مُوجِعًا، ويستبدِلْ بكم قومًا آخَرينَ، إذا دُعُوا للجِهادِ أجابُوا، ولا تضُرُّوا اللهَ شَيئًا بعَدمِ تَلبِيَتِكم داعِيَ الجِهادِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

وإنْ لم تنصُروا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَينصُرُه اللهُ تعالى، كما نَصَرَه مِن قَبلُ حين اضطُرَّ إلى الخروجِ مِن مكَّة، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه، حين كانا في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ للاختباءِ من كفَّارِ قُريشٍ، إذ يقولُ لأبي بكرٍ: لا تَحزَنْ؛ إنَّ اللهَ معنا، فأنزَلَ اللهُ سَكينَتَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَوَّاه بجُنودٍ مِن الملائكةِ لم تَرَوْها أنتم، وجَعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ هي السُّفلى، وكلِمةُ الله هي العليا، واللهُ عزيزٌ حَكيمٌ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾

﴿ثَانِيَ﴾: حالٌ مِن الهاءِ في ﴿أَخۡرَجَهُ﴾، أي: أحَدَ اثنَين. ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

مُضافٌ إليه مَجرورٌ، وعلامةُ جرِّه الياءُ؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمُثنَّى[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (الواو) استئنافيَّة. ﴿كَلِمَةُ﴾ مبتدأٌ مَرفوعٌ. ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لـ (كَلِمَةُ اللَّه)، ويجوزُ أن تكونَ ﴿هِيَ﴾ ضميرَ فَصلٍ، و﴿الْعُلْيَا﴾ هي الخَبَرُ. والجملةُ كُلُّها استئنافيَّةٌ، لا محَلَّ لها من الإعرابِ[(٢)].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرَحَ معايِبَ هؤلاءِ الكُفَّارِ وفَضائِحَهم، عاد إلى التَّرغيبِ في مُقاتَلَتِهم[(٣)].

وأيضًا لَمَّا أوعَزَ اللهُ تعالى في أمرِ الجِهادِ، وأزاح جميعَ عِلَلِهم، وبيَّنَ أنَّ حُسْنَه لا يختَصُّ به شَهرٌ دونَ شَهرٍ، وأنَّ بَعضَهم كان يُحِلُّ لهم ويُحَرِّمُ، فيتَّبِعونَه

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٣٤١)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

بما يؤدِّي إلى تحريم الشَّهرِ الحلالِ، وتحليلِ الشَّهرِ الحرام بالقتال فيه- عاتَبَهم اللهُ سبحانه على تخلُّفِهم عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الآمِرِ لهم بالنَّفْرِ في غزوةِ تَبُوكَ عن أمْرِه سبحانَه، فقال تعالى[1]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ما الذي يَدعُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- إذا أُمِرْتُم بجهادِ الكُفَّارِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، إلى أن تَتَثاقلوا وتتَباطَؤوا وتتقاعَسُوا، وتَميلوا إلى لُزومِ أرضِكم ومَساكِنِكم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٠، ٥٠١).

قال الواحدي: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ هذه الآيةَ حَثٌّ لِمَن تثاقَلَ عن غزوةِ تَبُوك، وذلك كان في زَمانِ عُسرةٍ مِن الناس، وجدْبٍ من البلادِ، وشدَّةٍ من الحَرِّ، حين أخرَفَت النَّخلُ، وطابَت الثِّمارُ، فعظُم ذلك على النَّاسِ، وشَقَّ عليهم الخروجُ إلى القتالِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٣٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٩).

وقال الرازي: (إنَّما استثقَلَ النَّاسُ ذلك لوجوهٍ: أحدها: شِدَّةُ الزَّمانِ في الصَّيفِ والقَحْطِ. وثانيها: بُعدُ المسافةِ، والحاجةُ إلى الاستعدادِ الكَثيرِ الزَّائدِ على ما جرَتْ به العادةُ في سائر الغَزَوات. وثالثها: إدراكُ الثِّمارِ بالمدينةِ في ذلك الوقتِ. ورابعها: شِدَّةُ الحَرِّ في ذلك الوقت. وخامسها: مهابةُ عَسكَرِ الرُّوم. فهذه الجِهاتُ الكثيرةُ اجتمَعَت فاقتَضَت تثاقُلَ النَّاسِ عن ذلك الغَزوِ. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

وقال ابن عطية: (العِتابُ في هذه الآية هو للقَبائِلِ وللمؤمنينَ الذين كانوا بالمدينةِ، وخَصَّ الثلاثةَ: كعبَ بنَ مالكٍ، ومُرارةَ بن الرَّبيعِ، وهلالَ بنَ أُميَّةَ، بذلك التَّذنيبِ الشَّديدِ بحَسَب مكانِهم من الصُّحبةِ؛ إذ هم من أهلِ بَدرٍ، وممَّن يُقتَدى بهم، وكان تخلُّفُهم لِغَيرِ عِلَّةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤).

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾.

أي: ما لَكُم فَعَلْتُم ذلك- أيُّها المُؤمِنونَ- أَرِضًا منكم بنَعيمِ الحياةِ الدُّنيا وراحَتِها، بدَلًا مِن نعيمِ الجنَّةِ في الآخرة[1]؟!

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أي: فما الذي يتمَتَّعُ به المتمَتِّعونَ في الحياةِ الدُّنيا- التي مالتْ بكم- مُقارنةً بما سيتمَتَّعُ به المُؤمِنونَ في الجنَّةِ؛ إلَّا يسيرٌ مَحدودٌ، ووقتُه قصيرٌ معدودٌ، فكيف تُقَدِّمونَ القَليلَ الزَّائِلَ على الكثيرِ الباقي؟! فاطلُبوا- أيُّها المؤمنونَ- نعيمَ الآخرةِ بطاعةِ رَبِّكم، والمُسارَعةِ إلى إجابةِ أمْرِه في النَّفيرِ؛ لِجهادِ عَدُوِّه وعَدُوِّكم[2].

عن المُستَورِد بن شدَّاد رَضيَ الله عنه، قال: ((سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: واللَّه ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْينظُرْ بمَ ترجِعُ؟))[3].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٧).

قال الرازي: (الدليلُ على أنَّ مَتاعَ الدُّنيا في الآخرةِ قَليلٌ: أنَّ لَذَّاتِ الدُّنيا خسيسةٌ في أنفُسِها، ومَشُوبةٌ بالآفاتِ والبليَّاتِ، ومُنقطعةٌ عن قريبٍ لا محالةَ، ومنافِعُ الآخرةِ شَريفةٌ عاليةٌ، خالصةٌ عن كلِّ الآفات، ودائمةٌ أبَديَّةٌ سرمديَّةٌ؛ وذلك يوجِبُ القَطعَ بأنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ حَقيرٌ خَسيسٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رغَّبَهم في الآيةِ الأُولى في الجِهادِ بناءً على التَّرغيبِ في ثوابِ الآخرةِ؛ رغَّبَهم في هذه الآيةِ في الجهادِ بناءً على أنواعٍ أُخَرَ مِن الأمورِ المُقَوِّيةِ للدَّواعي، وهي ثلاثةُ أنواعٍ: قولُه تعالى: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. الثاني: قولُه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. الثالث: قولُه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[1].

وأيضًا فهذا وعيدٌ وتَهديدٌ عَقَّبَ به المَلامَ السَّابِقَ؛ لأنَّ اللَّومَ وقَعَ على تثاقُلٍ حصَلَ، ولَمَّا كان التَّثاقُلُ مُفْضِيًا إلى التخَلُّفِ عن القتالِ، صَرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودُوا لمِثلِ ذلك التَّثاقُلِ[2]، فقال:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنْ لم تُبادِروا- أيُّها المُؤمِنونَ- بالخُروجِ إلى الجهادِ بعد أن دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨، ٥٠٩).

قال ابنُ تيمية: (قد يكون العذابُ مِن عِندِه، وقد يكونُ بأيدي العِبادِ، فإذا ترك النَّاسُ الجِهادَ في سبيل الله، فقد يَبتَلِيهم بأن يُوقِعَ بينهم العداوةَ، حتى تقَعَ بينهم الفِتنةُ كما هو الواقِعُ؛ فإنَّ النَّاسَ إذا اشتَغَلوا بالجهادِ في سبيلِ الله، جمَعَ اللهُ قُلوبَهم وألَّف بينهم، وجعَلَ بأْسَهم على عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤).

وقال السعدي: (عدمُ النَّفيرِ في حالِ الاستنفارِ، مِن كبائِرِ الذُّنوبِ المُوجِبةِ لأشَدِّ العقاب؛ لِمَا فيها من المضارِّ الشَّديدة، فإنَّ المُتخَلِّفَ قد عصى اللهَ تعالى، وارتكَبَ نَهْيَه، ولم يساعِدْ على نصرِ دِينِ الله، ولا ذَبَّ عن كتابِ الله وشَرْعِه، ولا أعان إخوانَه المُسلمينَ على عَدُوِّهم الذي يريدُ أن يستأصِلَهم، ويمحَقَ دينَهم، وربما اقتدى به غيرُه مِن ضُعَفاءِ الإيمانِ، بل ربما فَتَّ في أعضادِ مَنْ قاموا بجهادِ أعداءِ الله؛ فحقيقٌ بمَن هذا حالُه أن يتوعَّدَه اللهُ بالوعيدِ الشَّديدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

عن ابن عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكتُم الجهادَ- سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتى تَرجِعوا إلى دينِكم))[١].

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

أي: ويَستَبدِلِ اللهُ سبحانه بكم قومًا آخَرينَ، أطوَعَ لله منكم، إذا استُنْفِروا إلى الجِهادِ أجابُوا، ونَصَروا دينَ الله عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).

قال ابنُ القطانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريقٌ صحيحٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجالُ إسنادِه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموعِ طرقِه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠).

قال الرازي: (المرادُ تَنبيهُهم على أنَّه تعالى متكفِّلٌ بنصرِه على أعدائِه، فإنْ سارَعوا معه إلى الخُروجِ حَصَلت النُّصرةُ بهم، وإن تخلَّفوا وقعَتِ النُّصرةُ بغَيرِهم، وحصل العُتبى لهم؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ غَلَبةَ أعداءِ الدينِ، وعِزَّ الإسلامِ، لا يحصُلُ إلَّا بهم... قال المحقِّقون: إنَّ هذه الآيةَ خِطابٌ لِمَن استنفَرَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَنفِروا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٨).

.[٣٨

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾.

أي: ولا تَضُرُّوا اللهَ سُبحانَه شَيئًا؛ فهو غَنيٌّ عنكم، وناصِرٌ دينَه، وإنَّما تَضرُّونَ أنفُسَكم، بتَرْكِكم الجهادَ في سَبيلِه عزَّ وجلَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادِرٌ على فِعلِ كلِّ شيءٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ أراده سبحانَه، ومِن ذلك قُدرتُه على استبدال قومٍ آخرينَ بكم، وعلى نصرِ دينِه مِن دُونِكم(٢).

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا ذِكرُ طَريقٍ آخَرَ في ترغيبِهم في الجهادِ؛ وذلك لأنَّه تعالى ذكَرَ في الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤).

الأولى أنَّهم إن لم يَنفِروا باستنفارِه، ولم يشتَغِلوا بنُصرَته صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ اللهَ ينصُرُه بدليلِ أنَّ اللهَ نَصَره وقَوَّاه حالَ ما لم يكُنْ معه إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ، فهاهنا أَوْلى[١].

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى نَفسَه الأقدَسَ بما هو له أهلٌ مِن شُمولِ القُدرةِ، وعَظيمِ البأسِ والقُوَّة؛ أتبع ذلك بدَليلٍ يتضَمَّنُ أنَّ المُستَنفِرَ لهم- وهو نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولا مُتَوقِّفٍ نَصرُه عليهم، كما لم يَحتَجْ إليهم- بحِياطةِ القادِرِ له- فيما مضى من الهجرةِ التي ذَكَرَها، وأنَّ نَفْعَ ذلك إنما هو لهم، باستجلابِ ما وُعِدُوه، واستِدْفاعِ ما أُوعِدُوه في الدَّارَينِ، قال تعالى[٢]:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: إن تَترُكوا- أيُّها المُؤمِنونَ- نُصرةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣] على الكُفَّارِ، فسَينصُرُه اللهُ تعالى كما نَصَرَه مِن قَبلُ، حين اضطَرَّه كفَّارُ قُريشٍ إلى الخُروجِ مِن مكَّةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٢).

(٣) ذكرَ الألوسيُّ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يَرجِعُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اتِّفاقًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٣، ٥١٤).

قال القرطبي: (هو خرَجَ بنَفْسِه فارًّا، لكِنْ بإلجائِهم إلى ذلك حتى فعَلَه، فنسَبَ الفِعلَ إليهم، ورتَّبَ الحُكمَ فيه عليهم؛ فلهذا يُقتَلُ الـمُكرِه على القَتلِ، ويَضمَنُ المالَ الـمُتْـلَفَ بالإكراه؛ لإلجائِه القاتِلَ والـمُتْـلِفَ إلى القَتلِ والإتلافِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٤).

﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

أي: نصَرَ اللهُ رسولَه محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حين اضطُرَّ للخُروجِ مِن مكَّةَ، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[١] حين كانا مُختَفِيَينِ من كفَّارِ قُريشٍ في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ[٢].

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُسلِمينَ: ((إنِّي أُريتُ دارَ هِجْرَتِكم، ذاتَ نَخلٍ بين لابَتَينِ- وهما الحَرَّتانِ- فهاجر مَن هاجَرَ قِبَلَ المدينةِ، ورجَعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأرضِ الحَبَشةِ إلى المدينةِ، وتجهَّزَ أبو بكرٍ قِبَلَ المدينة، فقال له رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: على رِسْلِك[٣] فإنِّي أرجو أن يُؤذَنَ لي، فقال أبو بكرٍ: وهل ترجو ذلك بأبي أنتَ؟ قال: نعم، فحَبَس أبو بكرٍ نَفسَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيصحَبَه، وعَلَف راحِلَتينِ- كانَتا عِندَه- ورَقَ السَّمُرِ- وهو الخَبَطُ- أربعةَ أشهُرٍ. قالت عائشةُ: فبينما نحن يومًا جُلوسٌ في بيت أبي بكرٍ في نحرِ الظَّهيرةِ[٤]، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتقنِّعًا، في ساعةٍ لم يكُن يأتينا

---

(١) قال ابنُ عاشور: (الاثنانِ هما النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ، بتواتُرِ الخَبَر، وإجماع المُسلِمينَ كُلِّهم؛ ولِكَونِ الثَّاني معلومًا للسَّامعين كُلِّهم، لم يُحتَجْ إلى ذِكْرِه، وأيضًا لأنَّ المقصودَ تَعظيمُ هذا النَّصرِ مع قِلَّةِ العَدَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال ابن تيمية: (لا خلافَ بين أهلِ العِلم أنَّ الغارَ المذكورَ في القرآنِ، إنَّما هو غارٌ بجَبَلِ ثَورٍ، قريبٌ من مكَّةَ، معروفٌ عند أهلِ مَكَّةَ إلى اليومِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ١٦٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٧).

(٣) على رِسْلِك: أي: على مَهلِكَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٧).

(٤) نحرُ الظَّهيرةِ: وقتُ القائلةِ وشِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

فيها. فقال أبو بكرٍ: فِداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه السَّاعةِ إلَّا أمرٌ! قالت: فجاء رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاستأذَنَ، فأَذِنَ له فدخَلَ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ: أَخرِجْ مَنْ عِندك. فقال أبو بكرٍ: إنَّما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسولَ الله! قال: فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ. فقال أبو بكرٍ: الصَّحابةَ[١] بأبي أنت يا رسولَ الله. قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نعم. قال أبو بكرٍ: فخُذ- بأبي أنت يا رسولَ الله- إحدى راحِلَتيَّ هاتين، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بالثَّمَن. قالت عائشةُ: فجَهَّزْناهما أحَثَّ الجَهازِ[٢]، وصَنَعْنا لهما سُفرةً في جِرابٍ[٣]، فقطَعَت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً من نِطاقِها[٤]، فربَطَت به على فَمِ الجِرابِ؛ فبذلك سُمِّيَت ذاتَ النِّطاقَينِ، قالت: ثم لَحِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ بغارٍ في جبَلِ ثَورٍ، فكَمِنا[٥] فيه ثلاثَ ليالٍ، يَبيتُ عندهما عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ، وهو غلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ[٦] فيُدلِجُ[٧] مِن عِندِهما بسَحَرٍ، فيُصبِحُ مع قريشٍ بمكَّةَ كبائِتٍ، فلا يسمَعُ أمرًا يُكتادانِ به إلَّا وَعاه، حتى يأتِيَهما بخبرِ ذلك حينَ يَختلِطُ الظَّلامُ، ويرعى عليهما عامِرُ بنُ فُهَيرةَ- مولى أبي بكرٍ- مِنْحةً مِن غَنَمٍ[٨]، ....

(١) الصَّحابةَ: أي: أريدُ المُصاحَبةَ وأطلُبُها. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٥/ ١١٧).

(٢) أحَثَّ الجَهازِ: أي: أسرَعَه وأعجَلَه. يُنظر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (٧/ ٢٧٥).

(٣) سُفرةً في جِرابٍ: أي: زادًا في جِرابٍ؛ لأنَّ أصلَ السُّفرةِ في اللُّغةِ الزَّادُ الذي يُصنَعُ للمُسافِرِ، ثمَّ استُعمِلَ في وعاءِ الزَّادِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٣٢).

(٤) النِّطاقُ: ما يُشَدُّ به الوسَطُ. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٦/ ١١).

(٥) فكَمِنا: أي: اختَفَيا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٦) ثَقِفٌ لَقِنٌ: الحاذِقُ السَّريعُ الفَهمِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٧) يُدْلِجُ: أي يَخرُجُ بسَحَرٍ إلى مكَّةَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٨) مِنْحة مِن غَنَم: شاةٌ يُعطيها الرَّجُلُ غيرَه؛ ليحلِبَها ثمَّ يَرُدَّها إليه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٨/ ٤٣٠).

فيُريحُها[١] عليهما حين تذهَبُ ساعةٌ مِن العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسْلٍ- وهو لبَنُ منحَتِهما ورَضيفهما- حتى ينعِقَ بها[٢] عامرُ بن فُهَيرةَ بِغَلَسٍ[٣] يفعَلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ مِن تلك الليالي الثَّلاثِ، واستأجَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ رَجُلًا من بني الدِّيلِ هاديًا خِرِّيتًا- والخِرِّيتُ الماهِرُ بالهدايةِ- وهو على دينِ كُفَّارِ قُريشٍ، فأمِناه فدَفَعا إليه راحِلَتَيهما، وواعَداه غارَ ثَورٍ بعد ثلاثِ لَيالٍ، براحِلَتَيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلَقَ معهما عامِرُ بنُ فُهَيرةَ، والدَّليلُ، فأخَذَ بهم طريقَ السَّواحِلِ))[٤].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

أي: إذ يقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِصاحِبِه أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لا تحزَنْ- يا أبا بكرٍ- لأنَّ اللهَ مَعَنا بنَصْرِه وحِفْظِه، ولن يَصِلَ المشركونَ إلينا[٥].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضيَ الله عنه حَدَّثَه، قال: ((نظَرْتُ إلى

---

(١) فيُريحُها: أَي: فيَرُدُّها إلى المَراحِ، وهو مأواها في الليلِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢١/ ٣١٠)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٧).

(٢) ينعق بها: أي: يصيح بغنمه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٣) الغَلَسُ: هو ظَلامُ آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٨).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال السمعاني: (﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ أي: لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١١).

وقال السعدي: (أجمع المُسلِمونَ على أنَّه هو المرادُ بهذه الآيةِ الكريمة؛ ولهذا عَدُّوا مَن أنكَرَ صُحبةَ أبي بكرٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كافِرًا؛ لأنَّه مُنكِرٌ للقُرآنِ الذي صَرَّحَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

أقدامِ المُشرِكينَ على رُؤوسِنا ونحن في الغارِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ إلى قَدَمَيه أبصَرَنا تحت قَدَمَيه! فقال: يا أبا بكرٍ، ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالِثُهما؟))[١].

وعن ابنِ عَبَّاس رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أمَّتي خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ، ولكِنْ أخي وصاحِبي))[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عليَّ في مالِه وصُحبتِه أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخذًا خليلًا، لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنْ أخُوَّةُ الإسلامِ، لا تَبقَينَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ[٣] إلَّا خَوخةُ أبي بكرٍ))[٤].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٣).

(٣) الخَوخَةُ: البابُ الصَّغيرُ بين البَيتَينِ أو الدَّارينِ ونحوه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٥١).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣١).

والقولُ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو اختيارُ مقاتلِ بن سليمان، وابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ جُزيٍّ، وابنِ كثيرٍ، والقاسميِّ، والسعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي. وعزاه ابنُ عطيةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل اللهُ طُمأنينتَه على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. واختاره النحَّاس، والواحدي، وابن العربي، والرازي، والبيضاوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: وقَوَّى اللهُ رسولَه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعانَه بجُنودٍ مِن الملائكةِ، لم تَرَوْها أنتم[١].

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ- وهي الشِّركُ والكُفرُ- حقيرةً مَقهورةً، منحَطَّةً وساقطةً، فأذَلَّ اللهُ الشِّركَ وأهْلَه، وخَذَلَهم ودَحَرَهم[٢].

(١٠/ ٤٤٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨١).

وممَّن قال مِن السلفِ أنَّ الضَّميرَ في عليه عائدٌ على أبي بكرٍ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عباسٍ، وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل الله طُمأنينَتَه على النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ. وهو قولُ المُبَرِّد، واختاره ابنُ الأنباري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أي: قوَّاه، يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بلا خلافٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، قال ابن عباس: يريد: وقَوَّاه بجنودٍ لم تَرَوْها، يريد: الملائكةَ، يَدعونَ اللهَ له، وقال الزجَّاج: أَيَّدَه بملائكةٍ يَصرِفونَ وجوهَ الكُفَّارِ وأبصارَهم عن أن يَرَوه، وقال غيرُه: يعني ما كان من تقويةِ الملائكةِ لِقَلبه بالبِشارةِ بالنَّصرِ مِن رَبِّه، ومن إلقاءِ اليأسِ في قُلوبِ المُشرِكينَ حتى انصَرَفوا خائِبينَ، وهذه الأقوالُ على أنَّ هذا التأييدَ بالملائكةِ كان في الغارِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٤٢).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥)، ((العذب

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

أي: وكَلِمةُ الله- وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ودينُه الذي شَرَعه لعبادِه- هي الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه(١).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلَ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيلِ الله))(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

واللهُ عَزيزٌ في انتقامِه وانتصارِه مِن الكُفَّارِ، لا يقهَرُه، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، ولا يفوتُه أحَدٌ، قاهِرٌ غالِبٌ، مَنيعُ الجَنابِ، لا يُضامُ مَن لاذ ببابِه، حكيمٌ في أقوالِه وأفعالِه، وفي تدبيرِه خَلْقَه، يضَعُ سُبحانَه الأشياءَ مواضِعَها اللَّائِقةَ بها، وقد يؤخِّرُ نَصرَ حِزبِه إلى وقتٍ آخَرَ(٣).

النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

وقال السعدي: (قوله ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي: كَلِماتُه القَدَريَّةُ وكَلِماتُه الدِّينيةُ؛ هي العاليةُ على كَلِمةِ غَيرِه، التي من جُملَتِها قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فدِينُ الله هو الظَّاهِرُ العالي على سائِرِ الأديانِ، بالحُجَجِ الواضحةِ، والآياتِ الباهرةِ، والسُّلطانِ النَّاصِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها، يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ الله، وطَلَبِ الآخرةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ متاعُ الدُّنيا في جَنْبِ متاعِ الآخرةِ، قليلٌ حَقيرٌ، وسعادةُ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى سعادةِ الآخرةِ، كالقَطرةِ في البَحرِ، وتَرْكُ الخيرِ الكَثيرِ لأجلِ الشَّرِّ القليلِ، شَرٌّ عَظيمٌ، وهو جَهلٌ وسَفَهٌ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هذه الآيةُ فيها سِرٌّ عَظيمٌ يعلَمُ به الإنسانُ أنَّ كُلَّ ما يفعَلُه إنَّما أثَرُه راجِعٌ إلى نَفسِه، فإن كان شَرًّا فهو يجني شَرًّا على نَفسِه، وإن كان خَيرًا فهو يجلِبُ الخيرَ لِنَفسِه ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾(٣).

٤- مَن كان اللهُ تعالى معه بعِزَّتِه التي لا تُغلَب، وقُدرتِه التي لا تُقهَر، ورَحمَتِه التي قام ويقومُ بها كلُّ شَيءٍ- فهو حقيقٌ بألَّا يستسلِمَ لِحُزنٍ ولا خوفٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨).

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾[1].

٥- قال تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ اللهُ جلَّ وعلا يَشرَعُ بأفعالِ رُسُلِه وأقوالِهم لِخَلقِه؛ فاللهُ جلَّ وعلا مع عظَمَتِه وجَلالِه وتَصريحِ النَّبيِّ بأنَّه معه، وأنَّ اللهَ أيَّده بجُنودِ الملائكةِ، مع هذا يدخُلُ في غارٍ في ظلمةِ اللَّيلِ، والغارُ فيه الحيَّاتُ وخَشاشُ الأرضِ؛ لِيَسُنَّ للنَّاسِ ويَشرَعَ لهم حَملَ أعباءِ تَبليغِ الرِّسالةِ والدَّعوة، وأن يتحَمَّلوا في شأنِ الدَّعوةِ إلى الله كُلَّ البَلايا والمشاقِّ، ويَستَهينوا فيها بكلِّ عَظيمٍ، هذا هو السِّرُّ في ذلك[2].

٦- في قولِ الله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ أنَّ الحُزنَ قد يَعرِضُ لخَواصِّ عِبادِ الله الصِّدِّيقينَ، ولا ينقصُهم إضافةُ الحزنِ إليهم، مع أنَّ الأَوْلى إذا نزَلَ بالعبدِ أن يَسعى في ذَهابِه عنه؛ فإنَّه مُضعِفٌ للقَلبِ، مُوهِنٌ للعَزيمةِ، ولم يكنْ حُزنُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه لشَكٍّ وحَيرةٍ، وإنَّما كان خوفًا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَصِلَ إليه ضَرَرٌ[3]. وقيل: ليس في نهيِ أبي بكرٍ عن الحُزنِ ما يدُلُّ على وجودِه، بل قد يُنهى عنه؛ لئلَّا يُوجَدَ إذا وُجِدَ مُقتَضيه، فالنَّهيُ عن الشَّيءِ لا يدُلُّ على وقوعِه، بل يدُلُّ على أنَّه ممنوعٌ منه؛ لئلَّا يقَعَ فيما بعدُ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فهذا لا يدُلُّ على أنَّه كان يُطيعُهم. فقَولُه ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ لا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ كان قد حَزِنَ، لكنْ مِن المُمكِنِ في العَقلِ أنَّه يحزَنُ، فقد يُنهى عن ذلك؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).

لئلَّا يفعَلَه[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ في الآيةِ فَضيلةُ السَّكينةِ، وأنَّها مِن تمامِ نِعمةِ الله على العَبدِ في أوقاتِ الشَّدائدِ والمخاوفِ التي تَطيشُ بها الأفئدةُ، وهي تكونُ على حسَبِ مَعرفةِ العَبدِ بربِّه، وثِقَتِه بِوَعدِه الصَّادِقِ، وبحَسَبِ إيمانِه وشَجاعَتِه[٢].

٨- كلُّ مَن وافَقَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ خالفَ فيه غَيرَه؛ فهو من الذينَ اتَّبَعوه في ذلك؛ وله نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فإنَّ المعيَّةَ الإلهيَّةَ المتضَمِّنةَ للنَّصرِ هي لِما جاء به إلى يوم القِيامةِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فيه أنَّه لا حُزنَ مع الله، وأنَّ مَن كان اللهُ معه، فما له وللحُزنِ؟ وإنَّما الحُزنُ كلُّ الحُزنِ لِمَن فاته اللهُ، فمن حصَلَ اللهُ له، فعلى أيِّ شَيءٍ يَحزَنُ؟ ومن فاته اللهُ فبأيِّ شَيءٍ يَفرَحُ[٤]؟

١٠- والمعيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ معيَّةٌ خاصَّةٌ، غيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فالمعيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي حُسنَ الظَّنِّ بإجابَتِه سُبحانَه، ورِضاه وحِفْظَه وصِيَانَتَه، وأمَّا المعيَّةُ العامَّةُ فتَقتَضي التَّحذيرَ مِن عِلمِه، واطِّلاعِه وقُدرَتِه، وبَطْشِه وانتِقامِه[٥].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذانِ الاسمانِ مِن أسماءِ

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٧، ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

الله: (العَزيزُ الحكيمُ) المتضَمِّنانِ هاتَينِ الصِّفَتينِ مِن صِفاتِ الله، وهي عِزُّه وحِكمَتُه وحُكْمُه- هما أبلَغُ شَيءٍ في امتثالِ أمْرِه وطاعَتِه جَلَّ وعلا؛ لأنَّ عِزَّتَه- أي: غَلَبَتَه وقُوَّتَه وقَهْرَه وسُلطانَه- يجعَلُك أيُّها المِسكينُ، تخافُه وتخضَعُ لأمْرِه ونَهْيِه، وكونُه جلَّ وعلا حكيمًا لا يأمُرُك إلَّا بما فيه لك الخَيرُ، ولا ينهاك إلَّا عمَّا فيه لك الشَّرُّ؛ ذلك يقتضِي أيضًا أن تُطيعَه وتخضعَ لأمْرِه ونَهيِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بُنِي (قيل) للمَفعولِ، والقائِلُ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يُذكَرْ؛ إغلاظًا ومُخاشنةً لهم، وصَونًا لِذِكرِه؛ إذ أخلَدَ إلى الهُوَينا والدَّعةِ مَن أخلَدَ، وخالَفَ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ خِطابٌ لكلِّ قرْنٍ، وقد أَخبَرَ فيه أنَّه مَن نَكَل عن الجهادِ المأمورِ به، نَزَعَ الأمرَ منه، وعذَّبَه، واستبدَلَ به مَن يقومُ بالجهادِ- وهذا هو الواقِعُ- وإنَّ هذا الدِّينَ لِمَن ذَبَّ عنه[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ دلَّ على فضيلةِ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه من وجوهٍ؛ منها: الأول: أنَّ الهجرةَ كانت بإذنِ الله تعالى، وكان في خِدمةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جماعةٌ مِن المُخلِصينَ، وكانوا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٠).

في النَّسَبِ إلى شجرةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرَبَ من أبي بكرٍ؛ فتخصيصُ الله إيَّاه بهذا التَّشريفِ دلَّ على منصبٍ عالٍ له في الدِّينِ. الثاني: أنَّه تعالى سَمَّاه ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فجُعِل ثانيَ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حالَ كَونِهما في الغارِ، والعلماءُ أثبتوا أنَّه رَضِيَ الله عنه كان ثانيَ محمَّدٍ في أكثَرِ المناصِبِ الدينيَّةِ. الثالث: أنَّه تعالى وصَفَ أبا بكرٍ بِكَونِه صاحِبًا للرَّسولِ، وذلك يدلُّ على كمالِ الفَضلِ. الرابع: قَولُه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ولا شَكَّ أنَّ المرادَ مِن هذه المعيَّةِ: المعيَّةُ بالحِفظِ والنُّصرةِ، والحِراسةِ والمَعونةِ، وبالجملةِ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسُّلام شَرَكَ بين نفسِه وبين أبي بكرٍ في هذه المعيَّةِ، وذلك منصِبٌ في غايةِ الشَّرفِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على جوازِ الفِرارِ مِن خَوفِ العَدُوِّ، والاستخفاءِ في الغِيرانِ وغيرِها، وعدمِ الاستسلامِ المؤدِّي إلى الآلامِ والهُمومِ، وألَّا يُلقِيَ بيَدِه إلى العدُوِّ؛ توكُّلًا على الله، واستسلامًا له، ولو شاء ربُّكم لعَصَمه مع كَونِه معهم، ولكِنَّها سُنَّةُ الأنبياءِ، وسِيرةُ الأمَمِ، حَكَمَ اللهُ بها لتكونَ قُدوةً للخَلقِ، وأنمُوذجًا في الرِّفقِ، وعمَلًا بالأسبابِ، وهذا أدَلُّ دليلٍ على فسادِ مَن منعَ ذلك، وقال: من خافَ مع الله سِواه كان ذلك نقصًا في توكُّلِه، ولم يؤمِنْ بالقَدَرِ. وهذا كلُّه في معنى الآية، ولله الحَمدُ والهداية[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ بيانُ أنَّ نَصرَ رسولِ الله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٠-٥٢).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَرْضٌ علينا؛ لأنَّه مِن التَّعزيرِ المَفروضِ؛ ولأنَّه مِن أعظَمِ الجِهادِ في سبيلِ الله؛ ولذلك قال سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [الصف: ١٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ ...﴾ جعَلَ أبا بكرٍ في مقابلةِ الصَّحابةِ أجمَعَ، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ بِصَاحبه في الغار، بتأنيسِه له، وحَمْلِه على عُنُقِه، ووفائِه له بوقايتِه له بنفسه، وبمواساته بماله، وبهذه الفضائلِ استحَقَّ أن يقالَ فيه: ((لو كنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خَليلًا))[2] وسبقَت له بذلك كُلِّه الفضيلةُ على النَّاسِ[3].

قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ: خرج أبو بكرٍ بهذه الآيةِ مِن المعاتَبةِ التي في قَولِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾[4]. وقال الشَّعبي: عاتبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أهلَ الأرضِ جميعًا في هذه الآيةِ غيرَ أبي بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللهُ عنه[5].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه هو الثَّاني في الإسلامِ، وفي بذْلِ النَّفسِ، وفي الزُّهدِ، وفي الصُّحبةِ، وفي الخِلافةِ، وفي العُمُرِ، وفي سبَبِ الموتِ؛ لأنَّ الرَّسولَ مات عن أثَرِ السُّمِّ، وأبو بكرٍ سُمَّ فمات[6].

٨- قال بعضُ العُلَماءِ: في قَولِه تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣، ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٩).

(٦) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٢).

ما يدلُّ على أنَّ الخليفةَ بعد النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه؛ لأنَّ الخليفةَ لا يكونُ أبدًا إلَّا ثانيًا[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ لا يختَصُّ بمُصاحَبتِه في الغارِ، بل هو صاحِبُه المُطلَقُ الذي كَمُلَ في الصُّحبةِ كَمالًا لم يَشْرَكْه فيه غَيرُه، فصار مُختَصًّا بالأكمَلِيَّةِ مِن الصُّحبةِ[٢].

١٠- وُحِّدَ الضميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ لأنَّ نزولَ السَّكينةِ على أحَدِهما يستلزِمُ مُشاركةَ الآخَرِ له؛ إذ مُحَالٌ أن يَنزِلَ ذلك على الصَّاحِبِ دونَ المصحوبِ، أو على المصحوبِ دونَ الصَّاحِبِ المُلازِمِ، فلمَّا كان لا يحصُلُ ذلك إلَّا مع الآخَرِ وَحَّد الضميرَ، وأعاده إلى الرَّسولِ؛ فإنَّه هو المقصودُ، والصَّاحِبُ تابِعٌ له، ولو قيل: (فأنزل السَّكينةَ عليهما وأيَّدَهما)؛ لأوهَمَ أنَّ أبا بكرٍ شريكٌ في النبوَّةِ! كهارونَ مع موسى؛ حيث قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾[٣] [القصص: ٣٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٩١).

اسْتِفهامٌ مَعْناهُ الإنكارُ والتَّقريعُ؛ فإنَّه وإنْ كان في الظَّاهِرِ اسْتِفهامًا، إلَّا أنَّ المُرادَ منه المُبالغةُ في الإنكارِ[١].

- وقولُه: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ فيه تَمْثيلٌ لحالِ الكارِهينَ للغَزْوِ، المُتطلِّبينَ للعُذْرِ عَنِ الجِهادِ كسلًا وجُبْنًا، بحالِ مَنْ يُطْلَبُ منه النُّهوضُ والخُروجُ، فيُقابِلُ ذلك الطَّلَبَ بالالْتِصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ مِنَ القُعودِ، فيَأبى النُّهوضَ فضلًا عن السَّيرِ[٢]، وعُدِّي التَّثاقُل بـ(إلى)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الميلِ والإخلادِ، كأنَّه تَثاقُلٌ يَطلُب فاعلُه الوصولَ إلى الأرضِ؛ للقُعودِ والسُّكونِ بها[٣].

- وفيه تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عَجزٍ، ولكنَّه عن تَعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم[٤].

- قولُه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا الاسْتِفهامُ فيه نوعٌ مِنَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ فهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ تَعجُّبيٌّ[٥].

- واخْتيرَ فِعْلُ الرِّضا في قولِه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ نَحو: (آثرتُمْ) أو (فضَّلتُمْ)؛ مُبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ فِعلَ (رَضِي بكذا) يَدُلُّ على انْشِراحِ النَّفْسِ[٦].

- قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ترشيحُ الحياةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧-١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).
(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الدُّنيا بما يؤذِنُ بنَفاستِها، ويَسْتدعي الرَّغبةَ فيها، وتَجْريدُ الآخِرةِ عَنْ مِثلِ ذلك، وتَخصيصُها بالذِّكرِ هنا- مبالغةٌ في بَيانِ حَقارةِ الدُّنيا ودَناءتِها، وعِظَمِ شأنِ الآخِرةِ وعُلوِّها[(١)].

- وفيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: فما مَتاعُها-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ فيه وَصْفُهم بالمُغايرةِ لهم؛ لتَأكيدِ الوعيدِ، والتَّشديدِ في التَّهديدِ بالدَّلالةِ على المُغايرةِ الوَصْفيَّةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ للكلامِ؛ لأنَّهُ يُحقِّقُ مَضمونَ لَحاقِ الضُّرِّ بِهِم؛ لأنَّهُ قَديرٌ عليهم في جُمْلةِ كُلِّ شَيءٍ، وعدَمُ لَحاقِ الضُّرِّ بِهِ؛ لأنَّهُ قَديرٌ على كُلِّ شيءٍ؛ فدَخَلتِ الأشياءُ التي مِنْ شأنِها الضُّرُّ[(٤)]؛ ففي خِتامِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه سُبْحانَه لَمَّا رَتَّبَ على انْتِفاءِ نَفْرِهِم التَّعذيبَ والاسْتِبدالَ وانْتِفاءَ الضَّررِ، أَخْبَرَ تعالى أنَّه على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ مِنَ التَّعذيبِ والتغييرِ وغيرِ ذلك[(٥)].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠).

ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

- قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لقولِه: ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ يكونَ قُعودُهُم عَنِ النَّفيرِ مُضِرًّا باللهِ ورسولِهِ، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ سؤالًا عن حُصولِ النَّصْرِ بدونِ نَصيرٍ؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يَنْصُرُه، كما نَصَرَه حَينَ كان ثانيَ اثْنينِ لا جَيشَ مَعَه؛ فالذي نَصَرَه حين كان ثانيَ اثْنينِ قديرٌ على نَصْرِهِ وهو في جيشٍ عظيمٍ، فتبيَّنَ أنَّ تَقديرَ قُعودِهِمْ عن النَّفيرِ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا[(١)].

- وفي قولِه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ حُذِفَ الجزاءُ، وأُقيمُ سببُه مَقامَه، والتَّقديرُ: إنْ لم تَنْصروه فسَيَنْصرَهُ اللهُ الذي قد نَصَرَه في وقتِ ضرورةٍ أَشدَّ مِنْ هذه المرَّةِ، أو: إنْ لَمْ تَنْصروهُ فَقَدْ أَوْجَب له النُّصْرَةَ حتَّى نَصَرَه في مِثْلِ ذلك الوَقْتِ، فلَنْ يَخذلَه في غيرِه[(٢)].

- وجُمْلةُ: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ مُستأنفةٌ بمنزلةِ التَّذييلِ للكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا أَخْبرَ عَنْ كلمةِ الذين كَفَروا بأنَّها صارتْ سُفْلى، أفادَ أنَّ العَلاءَ انحصرَ في دِينِ اللهِ وشأنِه؛ فضَميرُ الفَصْلِ ﴿ هِيَ ﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ؛ ولذلك لَمْ تُعْطَفْ ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ ﴾ على ﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾؛ إذْ ليس المُقصودُ إفادةَ جعْلِ كَلِمةِ اللهِ عُلْيا؛ لِمَا يُشْعِرُ بِهِ الجَعْلُ مِنْ إحداثِ الحالةِ، بِل المَقصودُ إفادةُ أنَّ العلاءَ ثابتٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٦).

لها، ومَقْصورٌ عليها، وأنَّها في نَفْسِها كذلك لا يَتبدَّلُ شأنُها، ولا يَتغيَّرُ حالُها دونَ غَيرِها مِنَ الكَلِمِ؛ ولذلك وُسِّطَ ضميرُ الفصلِ؛ فكانتِ الجُملةُ كالتَّذييلِ لَجَعْلِ كلمةِ الذين كَفَروا سُفْلى(١).

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ لمضمونِ الجُمْلتينِ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يَغْلِبُه شيءٌ، والحكيمُ لا يَفوتُه مَقْصِدٌ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَكونَ كلمتُه العُليا، وكَلِمةُ ضدِّهِ السُّفْلى(٢)، وناسَبَ هنا الوصْفُ بالعِزَّةِ الدَّالَّةِ على القَهْرِ والغَلَبَةِ، والحِكْمةِ الدَّالَّةِ على ما يَصْنَعُ مع أنبيائهِ وأوليائهِ، ومَنْ عاداهُم مِنْ إعزازِ دِينِه، وإخمادِ الكُفْرِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥). وهذا الوجهُ لا يَتأتَّى في قِراءة (وكَلِمَةَ اللهِ هِي العُلْيَا) بالنَّصب عطفًا على ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

الآيات (٤١-٤٣)

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾: أي: خَفَّتْ عليكم الحَركةُ أو ثَقُلَت، مُوسِرينَ أو مُعسِرينَ، شبابًا أو شُيوخًا، والخِفافُ جمعُ خفيفٍ. والثقالُ: جمعُ ثقيلٍ، والخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[1].

﴿عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾: أي: غَنيمةً حاضِرةً، سَهْلةَ التَّناوُلِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، والعَرَضُ: طَمَعُ الدُّنيا، قليلًا كان أو كثيرًا، وسُمِّيَ به؛ لأنَّه يُعْرِضُ، أي: يُريكَ عُرضَه[2].

﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾: أي: مَوضعًا قريبًا سَهْلًا غيرَ شاقٍّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤، ٢٨٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: أي: السَّفَرُ البَعيدُ المَسافةِ، والناحيةُ التي تلحَقُك المشَقَّةُ في الوصولِ إليها، وأصل (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ(١).

المعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنينَ أن يَخرُجوا لجِهادِ الكُفَّارِ مُسرِعينَ، سواءٌ كانوا خِفافًا أم ثِقالًا، وأن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى؛ فإنَّ ذلك خيرٌ لهم إن كانوا يَعلَمونَ.

ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: لو كان ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عن غَزوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضرةً سهلةَ التَّناوُلِ، وسَفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك، لكِنْ طالَتْ عليهم مسافةُ السَّفَرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَرَكوا المَسيرَ معك لِشدَّةِ المشَقَّةِ، وسَيَحلِفونَ لك- يا محمَّدُ- كذبًا فيَقولون: والله لو استَطَعْنا الخُروجَ معكم لَخَرجْنا، يُهلِكونَ أنفُسَهم، واللهُ يعلَمُ أنَّهم كاذِبونَ.

عفا اللهُ عنك- يا مُحمَّدُ- على إذنِك لهؤلاءِ المُنافِقينَ حين استأذَنُوك للتخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ لهم؟ كان ينبغي ألَّا تأذَنَ لهم حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ في أنَّ لهم عذرًا، وتَعلَمَ الكاذبينَ الذين لا عُذرَ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وبَّخ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ على التَّثاقُلِ عَن النَّفْرِ لَمَّا استنفَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتوعَّدَ تعالى مَن لا ينفِرُ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ النَّفيرِ العامِّ، وأتبَعَه بهذا الأمرِ الجَزمِ، الذي يُوجِبُ القِتالَ على كلِّ فَردٍ مِن الأفرادِ بما استطاع، ولا يُعذَر فيه أحَدٌ بالتخَلُّفِ عن الإقدامِ، وتَركِ طاعةِ الإمامِ[١]، فقال تعالى:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

أي: اخرُجوا- أيُّها المُؤمِنونَ- إلى جهادِ الكُفَّارِ[٢] مُسرِعينَ، سواءٌ خَفَّ عليكم الجِهادُ وسَهُلَ، أم ثقُلَ وصَعُبَ، سواءٌ كُنتُم شبابًا أم شُيوخًا، أغنياءَ أم فُقَراءَ، أقوياءَ أم ضُعَفاءَ، نَشيطينَ أم كُسالى، فارغينَ مِن الشُّغُلِ أم مَشغولينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٩٧).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَ اللهُ تعالى بالنَّفيرِ العامِّ مع الرَّسولِ- صلواتُ الله وسلامُه عليه- عامَ غَزوةِ تبوك؛ لقتالِ أعداءِ الله من الرُّومِ الكَفَرةِ مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).

قال الجصَّاص: (معلومٌ في اعتقادِ جَميعِ المُسلِمينَ أنَّه إذا خاف أهلُ الثُّغورِ مِن العَدُوِّ، ولم تكن فيهم مقاوَمةٌ لهم، فخافوا على بلادِهم وأنفُسِهم وذرارِيِّهم: أنَّ الفَرضَ على كافَّةِ الأمَّةِ أن يَنفِرَ إليهم مَن يكُفُّ عادِيَتَهم عن المسلمينَ، وهذا لا خِلافَ فيه بين الأمَّةِ؛ إذ ليس مِن قَولِ أحدٍ مِن المسلمينَ إباحةُ القُعودِ عنهم، حتى يستبيحوا دماءَ المُسلمين، وسَبْيَ ذرارِيِّهم). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٤٦-١٤٧).

وقال القرطبي: (إذا تعيَّنَ الجِهادُ بِغَلَبةِ العَدُوِّ على قُطرٍ مِن الأقطارِ... وجب على جميعِ أهلِ

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا استُنفِرْتُم فانفِرُوا))(١).

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ابذُلوا جُهدَكم واستَفرِغوا وُسْعَكم- أيُّها المؤمنونَ- في إنفاقِ أموالِكم في تجهيزِ الغُزاةِ، والإعدادِ للجِهادِ، وقتالِ الكُفَّارِ بأنفُسِكم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله عزَّ وجلَّ(٢).

تلك الدَّارِ أن ينفِروا ويَخرُجوا إليه خِفافًا وثِقالًا، شبابًا وشُيوخًا، كلٌّ على قَدرِ طاقَتِه، مَن كان له أبٌ بغَيرِ إذنِه، ومَن لا أبَ له، ولا يتخَلَّف أحدٌ يقدِرُ على الخروجِ، مِن مقاتِلٍ أو مُكثِّرٍ. فإنْ عجَزَ أهلُ تلك البَلدةِ عن القيامِ بعَدُوِّهم، كان على مَن قارَبَهم وجاوَرَهم أن يخرُجوا على حسَبِ ما لَزِمَ أهلَ تلك البلدةِ، حتى يعلموا أنَّ فيهم طاقةً على القيامِ بهم ومُدافَعتِهم، وكذلك كلُّ مَن عَلِمَ بضَعفِهم عن عَدُوِّهم، وعَلِمَ أنَّه يُدرِكُهم ويُمكِنُه غِياثُهم، لَزِمَه أيضًا الخروجُ إليهم، فالمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ على مَن سواهم، حتى إذا قام بدَفعِ العَدُوِّ أهلُ النَّاحيةِ التي نزل العدوُّ عليها واحتَلَّ بها؛ سقَطَ الفَرضُ عن الآخرينَ، ولو قارب العدُوُّ دارَ الإسلامِ ولم يَدخُلوها، لَزِمَهم أيضًا الخروجُ إليه، حتى يَظهَرَ دِينُ الله، وتُحمى البَيضةُ، وتُحفَظَ الحَوزةُ، ويُخزى العَدُوُّ، ولا خلافَ في هذا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥١، ١٥٢).

(١) رواه البخاري (٣٠٧٧)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).

قال الجصاص: (أوجَبَ فَرضَ الجهادِ بالمالِ والنَّفسِ جَميعًا: فمَن كان له مالٌ وهو مريضٌ أو مُقعَدٌ، أو ضعيفٌ لا يصلُحُ للقتالِ؛ فعليه الجهادُ بمالِه بأن يُعطِيَه غَيرَه فيَغزوَ به، كما أنَّ مَن له قوَّةٌ وجَلَدٌ، وأمكَنَه الجهادُ بنَفسِه؛ كان عليه الجهادُ بنَفسِه- وإن لم يكن ذا مالٍ ويَسارٍ- بعد أن يجِدَ ما يُبَلِّغُه، ومن قَوِيَ على القتالِ وله مالٌ؛ فعليه الجهادُ بالنَّفسِ والمال، ومن كان عاجزًا بنَفسِه مُعدِمًا؛ فعليه الجِهادُ بالنُّصحِ لله ولِرَسولِه، بقَولِه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]. ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((الفتاوى

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاهدُوا المُشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))[1].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أمْرُكم بالنَّفيرِ، وأمْرُكم بالجِهادِ بالأموالِ والأنفُسِ، فيه خيرٌ عظيمٌ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- في دُنياكم وآخِرَتِكم، وهو خيرٌ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا، إن كُنتُم تَعلَمونَ حقًّا شَرَفَ الجِهادِ، وفَضلَ المُجاهدينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ

الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٣٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، واللفظ له، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (١٣٦٣٨).
صححه ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٨/٤١٧)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جاهدُوا في سبيلِ الله؛ فإنَّ الجِهادَ في سبيلِ الله بابٌ مِن أبوابِ الجنَّةِ، يُنَجِّي اللهُ به مِنَ الهَمِّ والغَمِّ))[١].

وعن سهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رِباطُ يَومٍ في سبيلِ الله خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، وموضِعُ سَوطِ أحَدِكم من الجنَّةِ خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، والرَّوحةُ يَروحُها العَبدُ في سبيلِ اللهِ أو الغَدوةُ، خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها))[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن أحَدٍ يَدخُلُ الجنَّةَ، يُحِبُّ أن يرجِعَ إلى الدُّنيا، وأنَّ له ما على الأرضِ مِن شَيءٍ، غيرُ الشَّهيدِ؛ فإنَّه يتمَنَّى أن يرجِعَ، فيُقتَلَ عَشرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرى من الكَرامةِ))[٣].

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٩)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (١/ ١٣٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٤٠٤).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال ابنُ كثير في ((التفسير)) (٤/ ٥): حسنٌ عظيمٌ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٥): أحدُ أسانيدِ أحمدَ وغيره ثقاتٌ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٩٤١): بمجموع طرقِه.

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (١٨٧٧) واللفظ له.

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تَرغيبِهم في الجِهادِ في سبيلِ الله، وكان قد ذَكَرَ قَولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ عاد إلى تقريرِ كَونِهم مُتَثاقِلينَ، وبيَّنَ أنَّ أقوامًا- مع كلِّ ما تقَدَّمَ مِن الوعيدِ، والحَثِّ على الجهادِ- تخلَّفوا في غَزوةِ تَبوك [1]، فقال تعالى:

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

أي: لو كان- يا مُحمَّدُ- ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتَخلِّفينَ عن غَزْوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضِرةً سَهلةَ التَّناوُلِ، وسفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك؛ طمَعًا في متاعِ الحياةِ الدُّنيا[2].

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

أي: ولكنْ طالَتْ عليهم مَسافةُ السَّفرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَرَكوا المَسيرَ معك؛ لشِدَّةِ المشَقَّةِ[3].

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (المرادُ بذلك كلِّه: غَزوةُ تَبُوك). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

أي: وسيَحلِفُ لك- يا مُحمَّدُ- هؤلاءِ المُنافِقونَ، فيقولونَ كاذِبينَ: واللهِ لو أطَقْنا الخُروجَ معكم في الغَزْوِ- بوجودِ المالِ والمراكِبِ، وقُوَّةِ البَدَنِ- لخَرَجْنا معكم لِقتالِ الرُّومِ(١).

﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: يُوجِبُ المنافِقونَ لأنفُسِهم غضَبَ الله وعِقابَه؛ بسبَبِ نِفاقِهم، وحَلِفِهم بالله تعالى كاذِبينَ، وتخَلُّفِهم عن الجِهادِ(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ- في اعتذارِهم عن القُعودِ، وحَلِفِهم- كاذِبونَ؛ لأنَّهم كانوا قادِرينَ على الخُروجِ لِلقتالِ، ولكِنَّهم قَعَدوا عنه؛ لِنِفاقِهم، وزُهدِهم في الخَيرِ(٣).

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بكَّتَهم على وجهِ الإعراضِ؛ لأجلِ التخَلُّفِ والحَلِفِ عليه كاذِبًا؛ أقبَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هؤلاءِ هم المُنافِقونَ، بلا ريبٍ ولا خِلافٍ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

إليه صلَّى الله عليه وسلَّم بالعتابِ في لذيذِ الخِطابِ على الاسترسالِ في اللِّين لهم والائتلافِ، وأخْذِ العَفوِ وتَرْكِ الخِلافِ إلى هذا الحَدِّ، فقال مُؤذِنًا بأنَّهم ما تخلَّفوا إلَّا بإذنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لأعذارٍ ادَّعَوها كاذبينَ فيها، كما كَذَبوا في هذا الحَلِف[1]:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾.

أي: سامَحَك اللهُ وغَفَرَ لك- يا مُحمَّدُ- على إذْنِك لِهؤلاءِ المُنافِقينَ، الذين استَأذَنوك في التخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ للمُنافِقينَ أن يتخَلَّفوا عن المَسيرِ معك لِغَزوِ الرُّوم[2]؟!

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: كان ينبغي لك- يا مُحمَّدُ- عندما استأذَنَك المتخَلِّفونَ عن المَسيرِ معك لِجهادِ الرُّومِ، ألَّا تأذَنَ لأحدٍ منهم[3] حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ الذينَ لهم عُذرٌ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
قال الواحدي: (قال قتادةُ وعمرُو بنُ ميمون: «اثنان فعَلَهما رسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولم يُؤمَرْ فيهما بشيءٍ: إذنُه للمُنافقين، وأخْذُه الفِداءَ مِن الأُسارى، فعاتبه الله كما تَسمَعونَ»... قال أهلُ المعاني: وهذا يدلُّ على أنَّه فعَلَ ما لم يؤذَنْ له فيه؛ لأنَّه لا يُقالُ: لِمَ فَعَلْتَ: فيما أُذِنَ له في فِعْلِه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٥٥).
وقال ابنُ عاشور: (استأذَنَ فريقٌ مِن المنافقينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن يتخلَّفوا عن الغزوةِ؛ منهم عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، والجَدُّ بنُ قيس، ورفاعةُ بنُ التَّابوتِ، وكانوا تِسعةً وثلاثين، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وأذِنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَن استأذَنَه؛ حَملًا للنَّاسِ على الصِّدقِ؛ إذ كان ظاهرُ حالِهم الإيمانَ، وعِلمًا بأنَّ المُعتَذرينَ إذا أُلجِؤوا إلى الخُروجِ لا يُغْنونَ شَيئًا، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التوبة: ٤٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

(٣) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ هذه

تخلُّفِهم، فتعذِرَهم، وتعلَمَ الكاذِبينَ الذين لا عُذرَ لهم، وإنما تخَلَّفوا نِفاقًا وشَكًّا في دينِ الله[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ

الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء، وقَولُه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ يُوهمُ خلافَ ذلك. والجوابُ ظاهِرٌ: وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء من أصحابِه الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ، كصلاةِ جُمعةٍ أو عيدٍ أو جماعةٍ، أو اجتماعٍ في مشورةٍ، ونحو ذلك، كما بيَّنَه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخَلُّفِ عن الجهادِ، فهو الذي بيَّنَ اللهُ لرسولِه أنَّ الأَوْلى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادقُ في عُذرِه من الكاذبِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فظهَرَ أنْ لا مُنافاةَ بين الآياتِ، والعِلمُ عند الله تعالى. ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والبغويِّ، والزمخشريِّ، والشوكانيِّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

وقيل: إنَّ معنَى الآيةِ: أنَّه كانَ يَنْبغي لك -يا محمدُ- عندما استأْذَنك المتخلِّفون عن المسيرِ معك لجهادِ الرُّوم أن لا تأذنَ لأحدٍ منهم؛ مِن أجلِ أن تعلمَ الصَّادقَ منهم مِن الكاذبِ، فإنَّ المُنافِقين كانوا مُصرِّين على القعودِ عن الغزوِ، سواء أذِنت لهم، أم لم تأذَنْ، وهو قولُ ابنِ عطية، وأبي حيان، وابنِ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

قال أبو حيان: (قوله: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في استئذانِك. وأنَّك لو لم تأذنْ لهم خرجوا معك. ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾: يريدُ في أنَّهم استأذنوك يُظهرون لك أنَّهم يقفون عندَ حدِّك وهم كذبةٌ، وقد عزَموا على العصيانِ أذِنت لهم أو لم تأذنْ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧).

أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في هذا إشارةٌ إلى ذَمِّهم بِسُفولِ الهِمَم، ودَناءَةِ الشِّيَم؛ بالعَجزِ والكَسَل، والنَّهَم والثِّقَل، وإلى أنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ، لا يحمِلُه إلَّا ماضي الهَمِّ، صادِقُ العَزمِ[١].

٢- حُبُّ المنافِعِ الماديَّةِ، والرَّغبةُ فيها، لاصِقٌ بِطَبعِ الإنسانِ، وناهيك بها إذا كانت سَهلةَ المأخَذِ، قَريبةَ المَنالِ، وكان الرَّاغِبُ فيها مِن غَيرِ المُوقِنينَ بالآخِرةِ، وما فيها من الأجرِ العَظيمِ، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[٢]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ...﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الاحترازِ عن العَجَلةِ، ووجوبِ التثبُّتِ والتأنِّي، وتَركِ الاغترارِ بظواهِرِ الأمورِ، والمُبالغةِ في التفحُّصِ، حتى يُمكِنَه أن يعامِلَ كُلَّ فَريقٍ بما يستحِقُّه مِن التَّقريبِ أو الإبعادِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ استدَلَّ بها من أوجَبَ النَّفيرَ على كلِّ أحدٍ، عند الحاجةِ وهُجومِ الكُفَّارِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه كما يجِبُ الجِهادُ في النَّفسِ، يجِبُ الجهادُ في المال، حيث اقتضَتِ الحاجةُ ودَعَت لذلك[٥].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال أهلُ العِلمِ: هذا يدُلُّ على أنَّ المُوسِرَ يجِبُ عليه الجِهادُ بالمالِ، إذا عجَزَ عن الجهادِ ببَدَنِه؛ لِزَمانةٍ أو عِلَّةٍ، فوجوبُ الجِهادِ بالمالِ كوُجوبِ الجِهادِ بالبَدَنِ على الكفايةِ[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قد أمَرَ اللهُ بكِلَا الأمرَينِ، فمن استطاعَهما معًا وجَبَا عليه، ومن لم يستَطِعْ إلَّا واحدًا منهما، وجَبَ عليه الذي استطاعَه منهما[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اختيارُ فِعلِ (العلم) دون (الإيمان) مثلًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِن هذا الخَيرِ ما يَخفى، فيَحتاجُ مُتطلِّبُ تَعيينِ شُعَبِه إلى إعمالِ النَّظَرِ، والعِلمِ[3].

٦- الجهادُ بالنَّفسِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمَلُ جِهادَ اللِّسانِ وجِهادَ اليَدِ، بل قد يكونُ جهادُ اللِّسانِ أقوى منه، كما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((جاهِدُوا المُشرِكينَ بأيديكم وألسِنَتِكم وأموالِكم))[4].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦).

والحديث أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) واللفظ له، وأحمد (١٢٢٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال ابنُ حزمٍ في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧): في غايةِ الصحةِ، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٢٨٦): إسنادُه على رسمِ مسلمٍ، وقال الشوكانيُّ في

٧- قال الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ تعمُّدَ اليمينِ الفاجرةِ، يُفضي إلى الهَلاكِ[(١)].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أخبَرَ عنهم أنَّهم سيَحلِفونَ، وهذا إخبارٌ عن غيبٍ يقَعُ في المستقبَلِ، والأمرُ لَمَّا وقع كما أخبَرَ، كان هذا إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا[(٢)]، ودليلًا على نبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد جاؤُوا فحَلَفوا كما أخبَرَ أنَّه سيكونُ منهم[(٣)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ قَولَه: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ إنَّما يتناوَلُ مَن كان قادِرًا متمَكِّنًا؛ إذ لو لم تكُنِ الاستطاعةُ مُعتبَرةً في ذلك التَّكليفِ، لَمَا أمكَنَهم جعلُ عَدمِ الاستطاعةِ عُذرًا في التخَلُّفِ[(٤)].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ استدَلَّ به من قال بجَوازِ الاجتهادِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو أَذِنَ لهم عن وحيٍ، لم يُعاتَبْ، واستدَلَّ بها من قال: إنَّ اجتِهادَه قد يُخطِئُ، ولكِنْ يُنَبَّهُ عليه بسُرعةٍ[(٥)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي

((نيل الأوطار)) (٨/ ٢٧): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٩٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ فيه تَخصيصُ الأموالِ والأَنْفُسِ بالذِّكْرِ؛ إذ ذلك وَصْفٌ لأَكْمَلِ ما يكونُ مِنَ الجِهادِ وأَنْفعِهِ عِنْدَ اللهِ، فحَضَّ على كَمالِ الأوصافِ، وقُدِّمتِ الأموالُ على الأنفسِ؛ إذ هي أولُ مَصرفٍ وَقْتَ التَّجهيزِ[١]، ولأنَّ الجهادَ بالأموالِ أقلُّ حضورًا بالذهنِ عندَ سماعِ الأمرِ بالجهاد، فكان ذكرُه أهمَّ بعدَ ذكرِ الجهادِ مجملًا[٢]، ولأنَّ الناسَ يُقاتلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهدَ بالمالِ قد أخرَج مالَه حقيقةً لله، والمجاهدُ بنفسِه لله يرجو النجاةَ، لا يُوافِقُ أنَّه يُقتلُ في الجهادِ؛ ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يهونُ على أحدِهم أن يُقاتلَ، ولا يهونُ عليه إخراجُ مالِه[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه إبهامُ ﴿خَيۡرٞ﴾ وتَنْكيرُه؛ لقَصْدِ تَوقُّعِ خيرِ الدُّنيا والآخِرةِ مِنْ شُعَبٍ كثيرةٍ[٤].

- واسْمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنْزلتِه في الشَّرَفِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).

- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ اسْتئنافٌ لابْتِداءِ الكلامِ على حالِ المُنافِقينَ وغزوةِ تَبوكَ، حين تَخلَّفوا واستأذَنَ كثيرٌ مِنْهُم في التَّخلُّفِ، واعْتَلُّوا بِعَلَلٍ كاذِبةٍ، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ...﴾ فيه صَرْفٌ للخِطابِ عنهم، وتوجيهٌ له إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تعديدًا لِما صدَر عنهم مِنَ الهَناتِ قولًا وفعلًا على طريقِ المُباثَّةِ- أي: الإظهارِ-، وبيانًا لِدَناءةِ هِممِهم، وسائرِ رَذائلِهم[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ فيه تَعديةُ الفِعل ﴿بَعُدَتْ﴾ بحَرْفِ (عَلَى)؛ لتَضمُّنِه معنى (ثَقُلت)؛ ولذلك حَسُن الجمعُ بين فِعلِ بَعُدتْ وفاعِله (الشُّقَّة) مع تَقارُب معنييهما، فكأنَّه قيل: ولكن بَعُد منهم المكانُ؛ لأنَّه شُقَّةٌ، فثَقُل عليهم السَّفرُ؛ فجاءَ الكلامُ مُوجزًا[3].

- قولُه: ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ في تَقييدِ الخُروجِ بالمَعيَّةِ إشعارٌ بأنَّ أَمْرَ الغَزْوِ لا يُهِمُّهُم ابْتِداءً، وأنَّهم إنَّما يَخرجونَ- لو خَرَجوا إجابةً لاسْتِنفارِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- خُروجَ النَّاصِرِ لغيرِه[4].

٣- قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

- قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في إلْقاءِ العِتابِ إليه صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه وسلَّم بصِيغةِ الاسْتِفهامِ عَنِ العِلَّةِ: إيماءٌ إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلَّا لسببٍ تأوَّلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجا منه الصَّلاحَ على الجُمْلةِ، وهذا مِن صِيَغِ التَّلطُّفِ في اللَّومِ(١).

- وفي تَصديرِ فاتحةِ الخِطابِ بِبشارةِ العفوِ دونَ ما يُوهِمُ العِتابَ: مُراعاةٌ لجانبِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعهدٌ له بحُسْنِ المفاوضةِ، ولُطْفِ المُراجَعةِ(٢)، وأيضًا في افْتِتاحِ العِتابِ بالإعلامِ بالعفوِ إكرامٌ عظيمٌ، ولَطافةٌ شريفةٌ؛ حيثُ أخْبَرَه تعالى بالعَفوِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَ أنْ يُباشِرَه بالعِتابِ، وفي هذا الافْتِتاحِ كِنايةٌ عَنْ خِفَّةِ مُوجِبِ العِتابِ؛ لأنَّهُ بمَنْزلةِ أنْ يُقال: ما كان يَنْبغي(٣)، قال مُورِّق العجليُّ رضي الله عنه: سَمِعْتُم بمعاتبةٍ أحسَنَ من هذه، بدأ بالعَفوِ قبل المُعاتَبةِ، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾(٤).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في زِيادةِ ﴿لَكَ﴾ بعد قولِه: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: زِيادةُ مُلاطفةٍ بأنَّ العِتابَ ما كان إلَّا عَن تَفريطٍ في شيءٍ يَعودُ نفعُه إليه(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ في تَغييرِ الأسلوبِ، حيثُ عبَّر عن الفريقِ الأَوَّلِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلتُه فعلٌ دالٌّ على الحُدوثِ ﴿صَدَقُواْ﴾، وعبَّر عن الفريقِ الثَّاني باسم الفاعلِ ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ المفيدِ للدَّوامِ؛ وذلك للإيذانِ بأنَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١).

ما ظَهَر مِن الأوَّلين صِدقٌ حادِثٌ في أمرٍ خاصٍّ، غيرُ مُصحِّحٍ لدُخولِهم في زُمرةِ الصادِقين، وأنَّ ما صدَر مِن الآخَرين وإنْ كان كَذِبًا حادثًا مُتعلِّقًا بأمرٍ خاصٍّ، لكنَّه أمرٌ جارٍ على عادتِهم المستمرَّةِ، ناشئٌ عن رُسوخِهم في الكذِب[1].

- وفيه أيضًا إسْنادُ التَّبيُّنِ إلى الأوَّلينَ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ وتَعليقُ العِلْمِ بالآخِرينَ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ -مع أنَّ مَدارَ الإسنادِ والتَّعلُّقِ أولًا وبالذَّاتِ هو وَصْفُ الصِّدْقِ والكَذِبِ-؛ لأنَّ المَقْصِدَ هو العِلْمُ بكِلَا الفريقينِ باعْتِبارِ اتِّصافِهما بوَصْفَيْهما المَذكورينِ، ومُعامَلتِهما بحَسَبِ اسْتِحقاقِهما، لا العِلْمُ بوَصْفيهِما بِذاتَيْهِما، أو باعْتِبارِ قيامِهما بمَوْصوفَيْهِما[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨- ٦٩).

الآيات (٤٤-٤٧)

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞
وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱرْتَابَتْ﴾: أي: وشكَّت، والرَّيب: الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء[1].

﴿عُدَّةً﴾: أي: أُهبةَ السَّفرِ، وما يُعَدُّ مِن مالٍ وسِلاحٍ؛ من الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ[2].

﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: أي: نُهوضَهم لِلْخُرُوجِ ومُضِيِّهم، وأصل (بعث): يدلُّ على إثارةِ الشَّيءِ، وتَوجيهه[3].

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحبَسَهم عنه؛ يُقالُ: ثبَّطَه المرضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢-١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

وأثبَطَه: إذا حبَسَه ومنَعَه، ولم يكَدْ يُفارِقُه[١].

﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا وشرًّا، وأصلُ (خبل): يدلُّ على فَسادٍ[٢].

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: أي: سَعَوا، وأسرَعوا السَّيرَ وسْطَكم بالنَّميمةِ والفَسادِ؛ مِن الوَضعِ: وهو سُرعةُ السَّيرِ، والخِلالُ جَمعُ خَللٍ، وهو: الفُرجةُ بين الشَّيئينِ[٣].

﴿يَبْغُونَكُمُ﴾: أي: يَطْلبونَ لكم ما تُفتَنون به، وأصلُ (بغى): يدلُّ على طلبِ الشيءِ[٤].

﴿الْفِتْنَةَ﴾: أي: الشِّرْكَ، والكفرَ، وتُطلَق أيضًا على الشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رداءتِه[٥].

﴿سَمَّاعُونَ﴾: أي: مُطيعونَ، قابِلونَ لكَلامِهم، أو عُيونٌ يتجَسَّسونَ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

الأخبارَ، ويَنقِلونها إليهم، وأصل (سمع): يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: لا يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- الذين يُؤمِنونَ بالله وباليومِ الآخِرِ، في تَركِ جهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، واللهُ عليمٌ بالمتَّقينَ. إنَّما يستأذِنُك في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جِهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله ولا باليَومِ الآخِرِ، وقد امتلأتْ قُلوبُهم شَكًّا، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ ويتذبذَبونَ، ولو أرادوا الخُروجَ لاستعَدُّوا له بتَجهيزِ ما يلزَمُ ذلك، لكِنَّ اللهَ كَرِهَ انطِلاقَهم مع المؤمِنينَ، فكَسَّلَهم عنه، وقيل لهم: اقعُدُوا مع القاعدينَ.

لو خرَجوا فيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- فلن يزيدُوكم بخُروجِهم إلَّا شرًّا وفَسادًا، وإيقاعَ الاضطرابِ بينكم، ولأَسْرَعوا المشيَ بينَكم بالنَّميمةِ والبَغضاءِ، وفيكم- أيُّها المؤمنونَ- مَن يسمَعُ كَلامَهم، فيقبَلُه ويستجيبُ له ويطيعُه، واللهُ عليمٌ بالظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستأذِنُك- يا محمَّدُ- أصحابُك المؤمنونَ بالله، وبالبَعثِ، والجزاءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٨٢).

في الآخرةِ، في تَركِ جهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، ولا يَطلُبونَ منك أن تأذَنَ لهم في الجِهادِ، بل يُبادِرونَ إليه؛ لشِدَّةِ رَغبَتِهم في الخَيرِ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: واللهُ ذو علمٍ بهؤلاءِ المتَّقينَ، وبكُلِّ مَن يتَّقيه بامتثالِ أوامِره، واجتنابِ نَواهيه، ومن ذلك المسارعةُ إلى جهادِ أعدائِه، وعَدمُ الاستئذانِ في تَرْكِه، وسيُجازيهم على تَقواهم له أعظَمَ الثَّوابِ[2].

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ هنا أنَّ هذا الاستِئذانَ لا يَصدُرُ إلَّا عند عدَمِ الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، ثمَّ لَمَّا كان عدَمُ الإيمانِ قد يكونُ بسبَبِ الشَّكِّ فيه، وقد يكونُ بسبَبِ الجَزمِ والقَطعِ بِعَدَمِه- بيَّن تعالى أنَّ عدَمَ إيمانِ هؤلاءِ إنَّما كان بسبَبِ الشَّكِّ والرَّيبِ، فقال تعالى[3]:

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: إنَّما يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله تعالى، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).

فلا يَرغَبونَ فيما عندَ الله تعالى، ولا يَخافونَ عَذابَه[(١)].

﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

أي: وقد شكَّت قلوبُهم في صِحَّةِ الدِّينِ، وظُهورِ أمْرِه، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ، ويتَذَبذبونَ بين الإيمانِ والكُفرِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، قال: ((مَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ الشَّاة العائرةِ[(٣)] بين الغَنَمينِ؛ تَعيرُ[(٤)] إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً))[(٥)].

﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾.

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾.

أي: ولو أراد المُنافِقونَ الخُروجَ معك- يا مُحمَّدُ- في غزوةِ تَبُوكَ، لتأهَّبُوا للخُروجِ، بإعدادِ ما يَحتاجُونَه مِن لوازِمِ السَّفَرِ والقِتالِ، لكِنَّهم تَركوا الاستعدادَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠).
قال الواحدي: (أجمَعوا على أنَّ هذا الاستئذانَ في القُعودِ عن الجِهادِ، وإخبارٌ أنَّ مَن فعَلَ ذلك غَيرُ مؤمِنٍ بالله). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠، ٥٤١).

(٣) الشَّاةُ العائِرةُ: أي: المتَرَدِّدةُ بين قَطيعَينِ، لا تدري أيَّهما تَتْبَعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٤) تَعيرُ (بفتح التاء): أي: تتردَّدُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (١/ ١٣٠).

(٥) رواه مسلم (٢٧٨٤).

لِرَغبتِهم في التخَلُّفِ عن الجِهادِ[1].

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾.

أي: ولكِنْ لم يُحِبَّ اللهُ تعالى انطلاقَ المُنافِقينَ معك- يا محمَّدُ- في تلك الغَزوةِ؛ لعِلْمِه أنَّ في خُروجِهم شرًّا وضررًا على المُؤمِنينَ[2].

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾.

أي: فثقَّله عليهم، وكسَّلهم عنه[3].

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

أي: وقيل[4]: اقعُدُوا عن الجِهادِ مع الذينَ ليس من شَأنِهم النُّهوضُ والخُروجُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٧٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال السعدي: (﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ قَدَرًا وقَضاءً، وإن كان قد أمَرَهم وحَثَّهم على الخُروجِ، وجعَلَهم مُقتَدرينَ عليه، ولكِنْ بحِكمَتِه ما أراد إعانَتَهم، بل خَذَلَهم وثَبَّطَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

(٤) وهذا القولُ قولٌ قدريٌّ كونيٌّ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

قال الشنقيطي: (﴿قِيلَ﴾ هنا: مَبنيٌّ للمَفعولِ حُذِفَ فاعِلُه، واختلَفَ العُلَماءُ في فاعِلِه

للقِتالِ، كالضُّعَفاءِ والمَرضى، والصِّبيانِ وغَيرِهم[١].

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه كرِه خروجَهم، وثبَّطهم؛ أخبَر سبحانَه عن الحكمةِ التي تتعلَّقُ بالمؤمنين في تثبيطِ هؤلاءِ عنهم، وبيَّن لِمَ كره خروجَهم، فقال[٢]:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

أي: لو خرَجَ هؤلاءِ المُنافِقونَ في جُملَتِكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لِغَزوِ الرُّومِ، فلن يَزيدُوكم بخُروجِهم شيئًا سِوى الشرِّ والفَسادِ، وإيقاعِ الاضطرابِ بَينكم[٣].

المَحذوفِ، فقال بعضُ العلماءِ: قال بعضُهم لبعضٍ في سِرِّهم وباطِنِ أمْرِهم: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ واستأذِنُوه لِتَقعُدوا. وقال بعضُهم: أذِنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وعلى هذا القَولِ فـ﴿ٱقْعُدُوا۟﴾ هو الإذنُ. وبعضُهم يقولُ: قَولُه: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أَذِنَ لهم إذنًا صاحِبُه لا يرضى عنهم. والمرادُ بالقاعدينَ: الذين ليس مِن شَأنِهم الحُضور، كالصِّبيان والزَّمنَى والنِّساءِ، ونحوِ ذلك ممَّن ليس من شأنِه الخُروجُ للقِتالِ. وقال بعضُ العلماءِ: هو كونيٌّ قَدَريٌّ، اللهُ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ، فيكونُ» فقال: ﴿ٱقْعُدُوا۟﴾ فكان قُعودُهم، واختار هذا بعضُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال الشَّوكاني: (قيل: هذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، أي: ما زادوكم قُوَّةً، ولكِنْ طَلَبوا الخَبالَ. وقيل:

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

أي: ولأسْرَعوا سَيْرَهم في الدُّخولِ والمَشيِ بينكم بالنَّميمةِ، وإفسادِ ذاتِ بَينِكم؛ لِتَفريقِ كَلِمتِكم، وإلقاءِ الأراجيفِ، وبَثِّ الإشاعاتِ لِتَثبيطِكم[(١)].

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

أي: وفيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- مَن يَسمَعُ كَلامَ المُنافِقينَ، فيقبَلُه، ويستجيبُ لهم، ويُطيعُهم[(٢)].

المعنى: لا يزيدونَكم فيما تَردَّدونَ فيه من الرأيِ إلَّا خَبالًا، فيكون متَّصلًا. وقيل: هو استثناءٌ مِن أعَمِّ العامِّ، أي: ما زادوكم شيئًا إلَّا خبالًا، فيكون الاستثناءُ مِن قِسمِ المتَّصِل). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٨).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالخَبالِ هاهنا: الاضطرابُ في الرأيِ، وذلك بتَزيينِ أمْرٍ لفَريقٍ، وتَقبيحِه عند فريقٍ؛ ليَختَلِفوا، فتفترِقَ كَلِمَتُهم ولا تنتَظِمَ، يقول: لو خَرَجوا لأفسَدُوا عليكم أمْرَكم). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣- ٤٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥) (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٤).

(٢) وهو قولُ جُمهورِ المفَسِّرين، كما نسَبَه إليهم ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال الرازي: (لا يمتَنِعُ فيمَن قَرُبَ عَهدُه بالإسلامِ أن يُؤَثِّرَ قَولُ المنافقينَ فيهم، ولا يمتَنِعُ كَونُ بَعضِ النَّاسِ مَجبولينَ على الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ؛ فيُؤَثِّرُ قولُهم فيهم، ولا يمتنِعُ أن يكونَ بعضُ المُسلِمينَ مِن أقارِبِ رُؤساءِ المُنافِقينَ، فيَنظرونَ إليهم بعَينِ الإجلالِ والتَّعظيمِ؛ فلهذا السَّبَبِ يُؤَثِّرُ قَولُ هؤلاءِ الأكابِرِ من المنافقينَ فيهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بأولئك المُنافِقينَ الظَّالِمينَ، وبمَن يقبَلُ كَلامَهم ويُطيعُهم، وبكُلِّ من يَظلِمُ نَفسَه ويَظلِمُ غَيرَه، بفِعْلِ ما ليس له فِعْلُه، لا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ من ظواهِرِهم وبواطِنِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن ليس لهم إيمانٌ تامٌّ، ولا يقينٌ صادِقٌ؛ تقِلُّ رغبَتُهم في الخَيرِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ لذا جبَنوا عن القتالِ، واحْتاجوا أن يَسْتأذِنوا في تَركِ القتالِ[(٢)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ الخَبالُ: هو

وقيل: أي: وفيكم -أيُّها المؤمنونَ- جواسيسُ للمُنافقينَ، يَسْمعونَ لهم الأخبارَ، وينقلونَ إليهم أخبارَكم وأسرارَكم. وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: زيدُ بنُ أسلمَ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (﴿وَفِيكُمۡ سَمَّـٰعُونَ لَهُمۡ﴾ أي: في جماعةِ المُسلِمينَ، أي: مِن بينِ المُسلِمينَ سَمَّاعون لهم، فيجوزُ أن يكونَ هؤلاءِ السمَّاعونَ مُسلِمينَ يُصَدِّقونَ ما يسمعونَه مِن المنافقينَ، ويجوزُ أن يكونَ السمَّاعونَ مُنافِقينَ مَبثوثينَ بين المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو حيَّان: (﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعُمُّ كُلَّ ظالم. ومعنى ذلك: أنَّه يُجازيه على ظُلمِه. واندرَجَ فيه من يقبَلُ كَلامَ المُنافِقينَ، ومن يؤدِّي إليهم أخبارَ المُؤمِنينَ، ومن تخلَّفَ عن هذه الغَزاةِ مِن المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

الإفسادُ الذي يُوجِبُ اختلافَ الرَّأيِ، وهو من أعظمِ الأمورِ التي يجِبُ الاحترازُ عنها في الحُروبِ؛ لأنَّه عند حُصولِ الاختلافِ في الرَّأي يحصُلُ الانهزامُ والانكسارُ على أسهَلِ الوُجوه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ وحُبٍّ لله ورَسولِه وتعظيمٍ؛ لا بدَّ أنْ يظهرَ على الجوارِحِ- وكذلك بالعكسِ-؛ ولهذا يُستدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، فإنَّ الإرادةَ التي في القَلبِ- مع القُدرةِ- تُوجبُ فِعْلَ المرادِ؛ فالسفرُ في غزوةٍ بعيدةٍ لا يكون إلَّا بِعُدَّةٍ(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فشَهِدَ اللهُ على المنافِقينَ في هذه الآيةِ بأنَّهم لَيسُوا مؤمنينَ، مع أنَّهم يُقِرُّونَ ظاهرًا بالإيمانِ، ففيه ردٌّ على الكَرَّاميَّةِ في قَولِهم: الإيمانُ هو مُجرَّدُ الإقرارِ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الشَّاكَّ المُرتابَ، غيرُ مُؤمِنٍ بالله تعالى(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ إخبارٌ مِن الله تعالى بأنَّ المؤمنَ لا يستأذِنُ الرسولَ في تَركِ الجهادِ، وإنَّما يستأذِنُه الذي لا يؤمِنُ، والتاركُ مِن غيرِ استئذانٍ أَوْلى بهذا الوَصفِ[١].

٤- طبيعةُ الكافرينَ بالله واليومِ الآخِرِ تقتضي كراهَتَهم للجِهادِ؛ لأنَّهم يَرَونَ بذْلَ المالِ للجِهادِ مَغْرمًا، يُفَوِّتُ عليهم بعضَ منافِعِهم به، ولا يرجُونَ عليه ثوابًا، كما يرجو المُؤمِنون، ويَرَونَ الجهادَ بالنَّفسِ آلامًا ومتاعِبَ وتعَرُّضًا للقَتلِ، الذي ليس بعده حياةٌ عندهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[٢].

٥- عُدِّيَ التردُّدُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ بأداةِ (في)؛ للدَّلالةِ على انغماسِ صاحِبِه في هذا الرَّيبِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾، إنَّما أضاف الشَّكَّ والارتيابَ إلى القَلبِ؛ لأنَّه محَلُّ المعرفةِ والإيمانِ، فإذا داخَلَه الشَّكُّ كان ذلك نِفاقًا[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ ختَمَ الآيةَ بِقَولِه: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ للتَّنبيه على ذَمِّهم، وإلحاقِهم بالنِّساءِ والصِّبيانِ والعاجِزينَ، الذينَ شأنُهم القُعودُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ ثبَّطَ سُبحانه أعداءَه عن مُتابعةِ رَسولِه، واللَّحاقِ به؛ غَيرةً، فغار سُبحانَه على نَبيِّه وأصحابِه أن يَخرُجَ بينهم المُنافِقونَ فيَسعَوْا بينهم بالفِتنةِ، فثبَّطَهم وأقعَدَهم عنهم[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ إن قيل: عَلِمَ اللهُ أنَّ المُنافِقينَ لو خرَجُوا مع المؤمنينَ للجِهادِ، ما زادُوهم إلَّا خَبالًا وفَسادًا، ولأَوضَعوا خِلالَهم، وأسْرَعوا في السَّعيِ بينهم بالنَّميمةِ، فكيف أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؟! فالجوابُ: أنَّه إنَّما أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؛ لإلزامِهم الحجَّةَ، ولإظهارِ نِفاقِهم[2].

١٠- عُدِّيَ السَّماعُ باللَّامِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾؛ لأنه مُضَمَّنٌ معنى القَبولِ والطَّاعةِ، كما في قَولِ المصلِّي: (سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه) أي: استجابَ لِمَن حمِدَه، وكذلك ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ أي: مُطيعونَ لهم[3] وهذا على أحدِ أوجُهِ التأويلِ للآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ ...﴾ فيه وَجْهٌ لَطيفٌ من البَلاغةِ، وإيضاحُه: أنَّ الاسْتِئذانَ يَسْتلزِمُ شَيئَينِ

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩).

مُتضادَّينِ، ويجوزُ أنْ يُقالَ: اسْتأذَنتُ في كذا، واسْتأذنتُ في تَرْكِ كذا؛ فلمَّا كان شأنُ المؤمنينَ الرَّغبةَ في الجِهادِ كان المذكورُ مع اسْتئذانِ المؤمنِينَ في الآيةِ ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ دونَ (ألَّا يُجاهدوا)؛ إذ لا يَليقُ بالمؤمنينَ الاسْتِئذانُ في تَرْكِ الجِهادِ؛ فإذا انتَفَى أنْ يَسْتأذنوا في أن يُجاهِدوا ثبَت أنهم يُجاهِدونَ دونَ اسْتِئذانٍ(١).

- وفي قولِهِ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ ...﴾ تَنبيهٌ على أنَّه كان يَنبغي أن يُستَدلَّ باسْتِئذانِهم على حالِهم، ولا يُؤذَنَ لهم؛ فالخُلَّصُ من المؤمنينَ يُبادِرونَ إلى الجِهادِ مِن غَيرِ تَوقُّفٍ على الإذنِ، فضلًا عن أنْ يَسْتأذِنوكَ في التَّخلُّفِ، وحيثُ اسْتأذَنَكَ هؤلاءِ في التخلُّف كان ذلك علامةً للتَّأني في أمْرِهم، بل دليلًا على نِفاقِهم(٢).

- وجُمْلَةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مُعترِضةٌ؛ لفائدةِ التَّنبيهِ على أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أسرارِ المؤمنينَ؛ إذْ هُمُ المرادُ بالمُتَّقينَ(٣)، وفيه أيضًا شهادةٌ لهم بالانْتِظامِ في زُمرةِ المتَّقينَ، وعِدَةٌ لهم بأَجْزلِ الثَّوابِ، وتَقريرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ، كأنَّهُ قيل: واللهُ عليمٌ بأنَّهُمْ كَذَلِكَ، وإشعارٌ بأنَّ ما صَدرَ عنهم مُعلَّلٌ بالتَّقوى(٤).

- وفي هذه الآيةِ تَعييرٌ للمُنافِقينَ، وطَعْنٌ عليهم بيِّنٌ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١- ٢١٢). وقال: (وهذا مِن لطائفِ بلاغةِ هذه الآيةِ التي لم يُعرِّجْ عليها المفسِّرون، وتكلَّفوا في إقامةِ نَظْمِ الآيةِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩).

- قولُه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ... ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا نَشَأ عن تَبرئةِ المؤمنينَ مِن أنْ يَسْتأذنوا في الجِهادِ، ببيانِ الذين شأنُهم الاسْتِئذانُ في هذا الشَّأنِ، وأنَّهم الذين لا يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ في باطِنِ أمْرِهم؛ لأنَّ انْتِفاءَ إيمانِهم يَنْفي رَجاءَهم في ثوابِ الجِهادِ؛ فلذلك لا يُعرِّضونَ أَنْفُسَهم له[١].

- وأفادتْ ﴿ إِنَّمَا ﴾ القَصْرَ، وصِيغةُ القَصْرِ هنا دَالَّةٌ باعْتِبارِ أحَدِ مَفادَيْها على تأكيدِ جُمْلةِ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾[٢]، وقد كانتْ مُغْنيةً عَنِ الجملةِ المؤكَّدةِ، لولا أنَّ المُرادَ مِن تقديم تلك الجُمْلةِ التَّنويهُ بفَضيلةِ المؤمنينَ؛ فالكلامُ إطنابٌ لقَصْدِ التَّنويهِ، والتنويهُ مِن مَقاماتِ الإطنابِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ حَذْفُ مُتعلِّقَ ﴿يَسْتَـْذِنُكَ ﴾؛ لِظُهورِه ممَّا قَبْلَه ممَّا يُؤذِنُ به فِعْلُ الاسْتئذانِ في قولِهِ: ﴿ لَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾، والتَّقديرُ: (إنَّما يَسْتَأذِنُكَ الذين لا يُؤمنونَ في ألَّا يُجاهِدوا)[٤].

- وفي قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ تَخصيصُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ بالذِّكْرِ في المَوْضِعينِ؛ للإيذانِ بأنَّ الباعِثَ على الجِهادِ ببَذْلِ النَّفْسِ والمالِ إنَّما هو الإيمانُ بِهِما[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٢) وذلك لأنَّ القصرَ يُفيدُ مفادَ خَبرينِ بإثباتِ شيءٍ ونفي ضدِّه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).

- قولُه: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الرَّيبِ وتقرُّرِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾

- والأمرُ في قولِه: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أمرُ توبيخٍ، كقولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، بقَرينةِ قولِه: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾[2].

- وزيادةُ قولِه: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ذمٌّ لهم وتعجيزٌ، وإلحاقٌ بالنِّساءِ والصِّبيانِ والزَّمْنَى الذين شأنُهم القُعودُ والجُثومُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ والخوالِفُ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ...﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجُمْلةِ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾؛ لبَيانِ الحِكْمةِ مِنْ كراهيةِ اللهِ انْبعاثَهم، وهي إرادةُ اللهِ سَلامةَ المُسلِمينَ مِن أضرارِ وُجودِ هؤلاءِ بينهم؛ لأنَّهم كانوا يُضمِرونَ المَكرَ للمُسلِمينَ فيَخرجون مُرْغَمِين[4].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦).

- قولُه: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ فيه حذف المفعول، والتقدير: لأَوْضَعُوا رَكائِبَهم، والمُرادُ به المُبالغةُ في الإسراعِ بالنَّمائمِ؛ لأنَّ الرَّاكِبَ أسرعُ مِنَ الماشي[١]. وقيل: المعنى: أَوْقَعوا الإيضاعَ، وحُذِفَ المفعولُ إشارةً إلى أنَّ مُرادَهم الإيضاعُ نَفْسُه لا بَقيدِ دَابَّةٍ، وعبَّر بالإيضاعِ؛ لأنَّه للرَّاكبِ، وهو أَسْرعُ مِن الماشِي[٢].

- وهو تمثيلٌ لحالةِ المُنافِقين حِينَ يَبذُلون جُهدَهم لإيقاعِ التَّخاذُلِ والخوفِ بَينَ جَيشِ المُؤمنين، وإلقاءِ الأخبارِ الكاذِبةِ عن قُوَّةِ العدوِّ، بحالِ مَن يُجهِد بَعيرَه بالسَّيرِ لإبلاغِ خَبرٍ مهمٍّ، واختير هنا ذِكرُ الإيضاعِ لعِزَّةِ هذا المعنى، ولِمَا فيه مِن الصَّلاحيةِ لتَفكيكِ الهيئةِ بأنْ يُشبَّه الفاتِنون بالرَّكبِ، ووسائلِ الفِتنةِ بالرَّواحلِ، وفي ذكر ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ ما يَصلُح لتشبيهِ استقرائِهم الجماعاتِ والأفرادَ بتَغلْغُلِ الرَّواحلِ في خِلالِ الطُّرُقِ والشِّعابِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ اعتِراضٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بَغْيَهُمُ الفِتْنةَ أشدُّ خَطَرًا على المسلِمينَ؛ لأنَّ في المُسلمينَ فَريقًا تَنْطلي عليهم حِيلُهُم، وهؤلاءِ هم سُذَّجُ المُسلِمينَ الذين يَعْجبونَ مِنْ أخبارِهم ويَتأثَّرونَ، ولا يَبْلغونَ إلى تَمييزِ التَّمويهاتِ والمَكائِدِ عَنِ الصِّدْقِ والحَقِّ[٤].

- وجاءَ قولُه: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بصِيغةِ المُبالَغةِ (فعَّالونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اسْتِماعَهم تامٌّ، وهو الاسْتِماعُ الذي يُقارِنُه اعْتِقادُ ما يُسْمَعُ[٥].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ قُصِدَ منْه إعلامُ المسلمينَ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦ - ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ يَعْلَمُ أحوالَ المُنافِقين الظَّالمينَ؛ ليَكونوا مِنْهُمْ على حَذَرٍ، وليَتوسَّموا فيهم ما وَسَمَهُمُ القرآنُ به، ولِيَعْلموا أنَّ الاسْتِماعَ لَهُمْ هو ضَرْبٌ مِنَ الظُّلْمِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَضَعَ المُظْهَرَ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (واللهُ عليمٌ بهم)-؛ للتَّسجيلِ عليهِمْ بالظُّلْمِ، والتَّشديدِ في الوَعيدِ، والإشعارِ بتَرتُّبِه على الظُّلْمِ، ولَعلَّه شامِلٌ للفَريقينِ: السَّمَّاعِينَ والقاعِدينَ[(٢)].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ
وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا
تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ
أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا
مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ
هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾: أي: دَبَّروا لك الحِيَلَ والمكايِدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطالِ أمْرِك، وتَقليبُ الأمورِ: تَدبيرُها والنَّظرُ فيها، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[1].

﴿تَرَبَّصُونَ﴾: أي: تَنتَظِرونَ، وأصل التَّربُّص: الانتِظارُ والتمَكُّثُ[2].

﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: أي: العاقِبَتينِ اللَّتَينِ كلٌّ منهما حسَنٌ: النُّصرةُ أو الشَّهادةُ، وأصل (حسن) ضِدُّ القُبحِ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١، ٦٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ طَلَبوا فِتنةَ المُسلِمينَ من قبلُ، وطَلَبوا الشَّرَّ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصرَّفوا آراءَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ؛ ليُحَقِّقوا ذلك، إلى أن جاء نصرُ الله، وغلَبَ دينُه، وهم كارِهونَ حُصولَ ذلك.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن يقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دعاهم لِغَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في التخَلُّفِ عن الخُروجِ، ولا تفتِنِّي برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛ فإنِّي لا أصبِرُ عنهُنَّ إن رأيتُهنَّ.

ويُبَيِّنُ تعالى أنَّهم قد وقعوا في الفِتنةِ العظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثمِ تَخلُّفِهم عن الجِهادِ، وبمَعصيَتِهم لرَسولِ الله، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرينَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه إن غزا المؤمنون ونَصَرهم اللَّهُ على أعدائِهم، وغَنِموا، ونالهم خِصْبٌ في مَعايِشِهم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ وحَزِنوا من أجلِه، وإن تصِبْهم مصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ يَقولوا: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا من قَبلُ، فسَلِمْنا؛ لِعَدمِ خُروجِنا معكم، وينصَرِفوا وهم فَرِحونَ، وأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: لن يُصيبَنا إلَّا ما كتَبَ اللهُ لنا، هو سيِّدُنا وناصِرُنا، وعلى الله وَحدَه فلْيَعتَمِدِ المُؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه.

كما أمَرَه تعالى أن يقولَ لهم: هل تَنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الحُسنَيَينِ: النَّصرُ أو الشَّهادةُ، ونحن ننتظِرُ أن يُصيبَكم اللهُ بِعقوبةٍ مِن عِندِه أو بأيدينا، فانتَظِروا ونحنُ معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمسلمينَ أنَّه ثَبَّطَ المُنافقينَ عن الخُروجِ للجِهادِ، وبيَّن أنَّهم لو خَرَجوا فيهم ما زادُوهم إلَّا خَبالًا- بَيَّنَ أنَّ هذا الذي ينطوي عليه المُنافقونَ مِن الشرِّ، كان موجودًا فيهم قبلَ ذلك؛ قبل أن يَنزِلَ القرآنُ في شأنِهم، وأن تَطَّلِعُوا عليهم، فقال تعالى[1]:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: لقد طلَبَ المُنافِقونَ فِتنةَ المُسلِمينَ، بصَدِّهم عن الدِّينِ، وإفسادِ ما بينهم مِن قَبلِ غَزوةِ تبوكَ، كما فعَلُوا في غزوةِ أُحُدٍ وغَيرِها[2].

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾.

أي: وطلَبَ المُنافِقونَ الشَّرَّ لك- يا مُحَمَّدُ- فصرَّفوا آراءَهم، وأجالُوا أفكارَهم، وأدارُوا عُقولَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ، ساعِينَ بذلك لإفسادِ أمْرِك، وإنكارِ دِينِك، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِك، وتخذيلِ أصحابِك عنك[3].

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

أي: سعى المُنافقونَ في ابتغاءِ الفِتنةِ، وتقليبِ الأمورِ، إلى أن جاء نَصرُ الله تعالى[١].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: وغلَبَ دينُ الله الذي أمَرَ بالدُّخولِ فيه- وهو الإسلامُ- وعلا وظهَرَ وانتصَرَ، والحالُ أنَّ المُنافِقينَ كارِهونَ لِظُهورِه، ويَسوؤُهم انتصارُه وعُلُوُّه[٢].

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابنُ كثير: (لقد أعمَلوا فِكرَهم وأجالوا آراءَهم في كيدِك وكَيدِ أصحابِك، وخِذلانِ دِينِك وإخمالِه مُدَّةً طويلةً، وذلك أولَّ مَقدَمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ، رَمَتْه العربُ عن قَوسٍ واحدةٍ، وحارَبَتْه يهودُ المدينة ومُنافِقوها، فلمَّا نصَرَه اللهُ يومَ بدرٍ وأعلى كَلِمَتَه، قال عبدُ الله بنُ أُبيٍّ وأصحابُه: هذا أمرٌ قد توجَّهَ. فدَخَلوا في الإسلامِ ظاهرًا، ثمَّ كُلَّما أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه، غاظَهم ذلك وساءَهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠- ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بظُهورِ أمرِ اللهِ نصرُ المُسلِمينَ بفَتحِ مَكَّةَ، ودُخول النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وذلك يكرَهُه المُنافِقونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠).

سبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ، هل لك في جِلادِ بني الأصفرِ؟ قال جَدٌّ: أوَ تأذَنُ لي يا رسولَ اللهِ؛ فإنِّي رجُلٌ أحِبُّ النِّساءَ، وإنِّي أخشى إنْ أنا رأيتُ نِساءَ بَني الأصفَرِ أنْ أفتَتِنَ؟! فقال رَسولُ اللهِ- وهو مُعرِضٌ عنه-: قد أذِنْتُ لك، فعند ذلك أنزَلَ اللهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾))[1].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا أراد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَخرُجَ إلى غزوةِ تَبوكَ، قال للجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ بنَ قَيسٍ، ما تقولُ في مُجاهَدةِ بني الأصفَرِ؟ قال: يا رسولَ الله، إنِّي امرُؤٌ صاحِبُ نِساءٍ، ومتى أرى نِساءَ بني الأصفَرِ أفتَتِنُ؛ فائذَنْ لي في الجُلوسِ، ولا تفتِنِّي! فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾))[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾.

أي: ومِنَ المُنافِقينَ مَن يَقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دَعاهم إلى غَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في القُعودِ عن الخُروجِ معك، ولا تَبتَلِني برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٠٩).
وحسَّن إسنادَه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٦/ ١٢٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٢٧٥) (٢١٥٤)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٧٢٠).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٣): فيه يحيى الحمَّاني وهو ضعيفٌ، وقال الألباني في ((النصيحة)) (٢٥٨): له شاهدٌ مِن حديث جابرٍ، وآخرُ مِن مرسلِ مجاهدٍ بسندٍ صحيحٍ عنه.
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرون كلُّهم: نزلتْ في جدِّ بنِ قيسٍ المنافقِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٧٦).

فإنِّي إن رأيتُهنَّ لا أصبِرُ عَنهنَّ، فأقَعُ في الإثمِ بسبَبِ الخُروجِ معكم[١]!!

﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾.

أي: ألَا إنَّ المُنافِقينَ الذين اعتَذَروا عن الجِهادِ بسبَبِ خَوفِهم مِن الفِتنةِ بنِساءِ الرُّومِ، قد وقَعُوا في الفِتنةِ العَظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثْمِهم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، ومَعصيةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وإنَّ نارَ جَهنَّمَ ستُحيطُ بالكافِرينَ يومَ القيامةِ، وتُحدِقُ بهم مِن كُلِّ جانبٍ، فليس لهم عنها مفَرٌّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ * يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٤-٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ * بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن كَيدِ المُنافِقينَ، ومن خُبْثِ بَواطِنِهم[(١)].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إن غَزَوْتُم وَنَصَرَكم اللَّهُ على أعدائِكم، وظَهَرْتُم عليهم وغَنِمْتُم، وتتابَعَ النَّاسُ في دُخولِ دينِكم، ونالكم خِصْبٌ فِي مَعايشِكم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ، وحَزِنوا من أجلِه[(٢)].

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾.

أي: وإن تُصِبْكم مُصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ، يقُلِ المُنافِقونَ: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا مِن قَبلِ أن يُصيبَكم هذا المَكروهُ، فسَلِمْنا لأنَّا لم نَخرُجْ معكم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١، ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).
قال محمد رشيد رضا: (المتبادِرُ أنَّ هذا إخبارٌ عن شأنِهم في ماضِيهم وحاضِرِهم ومُستَقبلِهم، والحَسنةُ كلُّ ما يَحسُنُ وقعُه ويَسُرُّ، مِن غنيمةٍ ونُصرةٍ ونِعمةٍ، أي: أنَّه يَسوؤُهم كلُّ ما يَسُرُّك، كما ساءَهم النَّصرُ في بَدرٍ وغيرِ بَدرٍ مِن الغَزواتِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢١)،

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾.

أي: وينصَرِفِ المُنافقونَ- إن أصابَتْكم مصيبةٌ-[(١)] وهم مَسرُورونَ بما أصابَكم، ومَسرُورونَ بسَلامَتِهم بتخلُّفِهم عنكم[(٢)].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ متضَمِّنًا لِتوهُّم القدرةِ على الاحتراسِ مِن القَدَرِ؛ ومبينًا أنَّهم يَفرَحونَ بمُصيبةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وبِعَدمِ مُشاركَتِهم لهم فيها، فقال تعالى رادًّا عليهم في ذلك[(٣)]، بعَدمِ اكتراثِ المُسلِمينَ بالمُصيبةِ، وانتفاءِ حُزْنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ ما أصابَهم ما كان إلَّا بتقديرِ الله لِمَصلحةِ المُسلِمين في ذلك، فهو نَفعٌ مَحضٌ[(٤)].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية، أخبَرَ تعالى عن مُعتقَدِهم وما هم عليه، و«الحسَنةُ» هنا بحسَبِ الغَزوةِ هي: الغنيمةُ والظَّفَر، و«المُصيبة» الهَزمُ والخَيبةُ، واللَّفظُ عامٌّ بعد ذلك في كلِّ محبوبٍ ومَكروهٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢).

(١) قال الشنقيطي: (﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن دينِ الإسلامِ، ونُصرةِ رَسولِ الله، أو يتولَّى بعضُهم راجعًا إلى بعضٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٦٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مَكروهٍ: لن يُصيبَنا إلَّا ما قدَّرَه اللهُ وكتَبَه لنا في اللَّوحِ المَحفوظِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ * لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ، فكان خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خَيرًا له))(٢).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بِخَمسينَ ألفَ سنةٍ))(٣).

﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَا﴾.

أي: اللهُ هو سَيِّدُنا وناصِرُنا(٤).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

أي: وعلى الله وَحْدَه فلْيعتَمِدِ المؤمنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه[(١)].

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما أجابَ تعالى عن فَرَحِ المُنافِقينَ بمصائِبِ المُؤمِنينَ؛ أجاب بجوابٍ ثانٍ، وذلك لأنَّ المُسلِمَ إذا ذهَبَ إلى الغَزوِ، فإن صار مَغلوبًا مقتولًا، فاز بالاسمِ الحَسَنِ في الدُّنيا، والثَّوابِ العظيمِ الذي أعَدَّه اللهُ للشُّهَداءِ في الآخرةِ، وإن صار غالبًا فاز في الدُّنيا بالمالِ الحلالِ والاسمِ الجَميلِ، وهي الرُّجوليَّةُ والشَّوكة والقُوَّة، وفي الآخرة: بالثَّوابِ العَظيمِ. وأمَّا المنافِقُ إذا قعد في بَيتِه، قعَد مذمومًا، مَنسوبًا إلى الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ، والقَناعةِ بالأمورِ الخَسيسةِ من الدُّنيا على وجهٍ يُشارِكُه فيها النِّسوانُ والصِّبيانُ، والعاجِزونَ مِن النِّساء، ثم يكونونَ أبدًا خائِفينَ على أنفُسِهم وأولادِهم وأموالِهم، وفي الآخِرةِ إن ماتوا فقد انتَقَلوا إلى العذابِ الدَّائم في القِيامةِ، وإن أَذِنَ اللهُ في قَتْلِهم وَقَعوا في القَتلِ والأسْرِ والنَّهبِ، وانتَقَلوا من الدُّنيا إلى عذابِ النَّارِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ ما سبقَ أنَّ سَرَّاءَ المؤمنينَ وضَرَّاءَهم لهم خَيرٌ؛ من حيثُ إنَّ الرِّضا بـمُرِّ القَضاءِ، مُوجِبٌ لإقبالِ القاضي على المقضِيِّ عليه بالرَّأفةِ والرَّحمةِ- صرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي: وهي أن نُصيبَ أعداءَنا، فنظفَرَ ونغنَمَ ونُؤجَرَ، أو يُصيبُونا بقَتلٍ أو غيرِه، فنؤجَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧-٦٨).

وكِلَا الأمرينِ حَسَنٌ(١).

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مكروهٍ: ما تنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الخَلَّتينِ اللَّتين هما أحسَنُ مِن غَيرِهما: النَّصرُ أو الشَّهادةُ(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تضمَّنَ اللهُ لِمَن خرَجَ في سبيلِه، لا يُخرِجُه إلَّا جِهادًا(٣) في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أُدخِلَه الجنَّةَ، أو أَرجِعَه إلى مَسكَنِه الذي خرَجَ منه، نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَده، ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ(٤) في سبيلِ الله، إلَّا جاء يومَ القِيامةِ كَهَيئَتِه حين كُلِمَ؛ لَونُه لَونُ دَمٍ، ورِيحُه مِسكٌ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لولا أن يَشُقَّ على المُسلِمينَ ما قعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سبيلِ الله أبدًا، ولكِنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلَهم، ولا يَجِدونَ سَعةً، ويشُقُّ عليهم أن يتخَلَّفوا عني، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَوَدِدْتُ أنِّي أغزو في سَبيلِ الله فأُقتَلُ، ثم أغزو فأُقتَلُ، ثمَّ أغزو فأُقتَلُ))(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٣، ٥٦٤).

ونسب الواحدي إلى ابنِ عبَّاسٍ وجميعِ المفَسِّرينَ في: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أنَّ الأُولى منهما تعني الغنيمةَ والفَتحَ، والثانيةَ تعني الشَّهادةَ والمغفرةَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٠/ ٤٨٣).

(٣) قال النَّووي: (هكذا هو في جميعِ النُّسَخِ (جِهادًا) بالنَّصبِ، وكذا قال بعده: (وَإيمانًا بي وتصديقًا) وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ له، وتقديرُه: لا يُخرِجُه المُخرِجُ ويُحَرِّكُه المحَرِّكُ إلا للجهادِ والإيمانِ. والتصديق). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢٠).

(٤) الكَلْمُ: الجُرحُ. ويُكْلَمُ: أي: يُجرَحُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢١).

(٥) رواه مسلم (١٨٧٦).

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

أي: ونحن ننتَظِرُ بكم - أيُّها المُنافِقونَ - أن يُصيبَكم اللهُ في الدُّنيا بعقوبةٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، فيُسَلِّطَنا عليكم، فنَقتُلَكم، إن أظهَرْتم نِفاقَكم(١).

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

أي: وإذا كان الأمرُ كذلك إذن فانتَظِروا، ونحن مَعكم مُنتَظِرونَ ما اللهُ فاعِلٌ بنا وبكم؛ فكلٌّ منا سيَصيرُ إلى ما يتربَّصُ به الآخَرُ إليه(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من عصى اللهَ لِغَرَضٍ ما، فإنَّه تعالى يُبطِلُ عليه ذلك الغَرَضَ، ألا ترى أنَّ القَومَ إنَّما اختاروا القُعودَ؛ لِئلَّا يقَعُوا في الفتنةِ، فالله تعالى بيَّنَ أنهَّم في عَينِ الفِتنةِ واقعونَ ساقِطونَ(٣)؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تعليمٌ للمُسلِمينَ التخَلُّقَ بألَّا يَحزَنوا لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥).

يُصيبُهم؛ لِئلَّا يَهنوا وتذهَبَ قُوَّتُهم، وأن يَرضَوْا بما قَدَّرَ اللهُ لهم، ويَرجُوا رِضا رَبِّهم؛ لأنَّهم واثِقونَ بأنَّ اللهَ يُريدُ نَصرَ دِينِه(١).

٣- أخبَرَ اللهُ تعالى عن نَفسِه في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أنَّه هو سُبحانه وليُّ المؤمنينَ، فلا يقضي قضاءً لهم إلَّا كان خيرًا لهم، ومَن تولَّاه اللهُ لم يَخذُلْه، وإنَّما يتولَّى مَصالِحَه(٢).

٤- إذا ترَكَ العِبادُ الذي أُمِرُوا به من الجهادِ في سَبيلِ الله، واشتَغَلوا عنه بما يصُدُّهم عنه مِن عمارةِ الدُّنيا، هلَكوا في دُنياهم بالذُّلِّ، وقَهرِ العَدُوِّ لهم، واستيلائِه على نُفوسِهم وذراريِّهم وأموالِهم، ورَدِّه لهم عن دِينِهم، وعَجْزِهم حينئذٍ عن العمَلِ بالدِّينِ، بل وعن عمارةِ الدُّنيا، وفُتورِ همَمِهم عن الدِّينِ، بل وفسادِ عَقائِدِهم فيه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] وتَركُ الجهادِ يُوجِبُ الهلاكَ في الدُّنيا- كما يُشاهِدُه النَّاسُ- وأمَّا في الآخرةِ فلَهم عذابُ النَّارِ. وأمَّا المؤمِنُ المجاهِدُ، فهو كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فأخبَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنَ لا ينتَظِرُ إلَّا إحدى الحُسنَيَينِ: إمَّا النَّصرَ والظَّفَرَ، وإمَّا الشَّهادةَ والجنَّةَ، فالمؤمِنُ المجاهِدُ إن حَيِيَ حَيِيَ حياةً طيِّبةً، وإن قُتِلَ فما عند الله خَيرٌ للأبرارِ(٣).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ هذه الآيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٧- ٣٢٨).

الكريمةُ مِن أعظَمِ الآياتِ التي تجعَلُ المُسلِمَ يَشتاقُ إلى الجهادِ غايةَ الاشتياقِ؛ لأنَّك لا تجِدُ في الدُّنيا رجلًا مآلُه إلى خيرٍ عَظيمٍ على كلِّ التَّقديراتِ إلَّا المجاهدَ في سبيلِ الله؛ لأنَّه إن مات نال أمنيَّةَ الدُّنيا والآخِرةِ، ونال الفوزَ والحياةَ الأبديَّةَ، والكرامةَ التي لا نظيرَ لها، وإنْ نصرَه اللهُ على عدُوِّه، فرجَعَ ظافِرًا غانِمًا فائِزًا؛ فهذا أيضًا حسَنٌ، وهذا لا يكونُ لأحَدٍ إلَّا للمجاهدِ في سبيلِ الله، فمن تأمَّلَ معنى هذه الآيةِ الكريمةِ اشتاقَ لا محالةَ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله تعالى(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ وُصِفَ أمرُ الله بالظُّهورِ؛ لأنَّه كان كالمَستورِ، أي: غلَبَ وعلا دينُ الله(٢).

٢- وقولُه: ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فيه تَنْبيهٌ على أنَّهُ لا تأثيرَ لِمَكْرِهم وكَيدِهم، ومُبالغتِهم في إثارةِ الشَّرِّ؛ فإنَّهم مُذْ رَامُوا ذلك رَدَّه اللهُ في نَحْرِهم، وقَلَبَ مُرادَهُم، وأتى بِضِدِّ مَقصودِهم؛ فكما كان ذَلِكَ في الماضي كذا يَكونُ في المُستقبَلِ(٣).

٣- قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ استُدِلَّ به على جوازِ قَتلِ الزِّنديقِ والمُنافقِ مِن غيرِ استتابةٍ، وجهُ ذلك أنَّ معنى قَولِه: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ -أي: بالقَتلِ- إن أظهَرْتُم ما في قُلوبِكم قتَلْناكم؛ وذلك لأنَّ العَذابَ على ما يُبطِنونَه مِن النِّفاقِ بأيدينا لا يكونُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا القَتلَ لِكُفرِهم، ولو كان المنافِقُ يَجِبُ قَبولُ ما يُظهِرُه من التوبةِ بعدما ظَهَرَ نفاقُه وزَندقَتُه، لم يمكِنْ أن نتربَّصَ بهم أن يُصيبَهم اللهُ تعالى بعذابٍ مِن عِندِه أو بأيدينا؛ لأنَّا كُلَّما أرَدْنا أن نعَذِّبَهم على ما أظهَروه أظهَرُوا التَّوبةَ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هذا وعيدٌ لهم على الفِتنةِ التي ترَدَّوْا فيها، وُضِعَ فيه المُظهَرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للنَّصِّ على أنَّ عِقابَهم بإحاطةِ جَهنَّمَ بهم عقابٌ على الكُفرِ الذي حمَلَهم على ذلك الاعتذارِ، الذي هو ذنبٌ في نفسه كان أقصى عِقابِه مسَّ النَّارِ دونَ إحاطَتِها لو لم يكُن سَبَبُه الكفرَ، بتكذيبِ الرَّسولِ فيما جاء به مِن حُكمِ الجِهادِ وثَوابِه، والعِقابِ على تَرْكِه، أو الشَّكِّ في ذلك(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ما يُصيبُ العبدَ في دُنياه- ممَّا يضُرُّه أو ينفَعُه- فكلُّه مُقَدَّرٌ عليه، ولا يصيبُ العبدَ إلَّا ما كُتِبَ له مِن مقاديرِ ذلك في الكتابِ السَّابِقِ، ولو اجتهَدَ على ذلك الخلقُ كلُّهم جميعًا(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيدُ الحصرَ، وهذا كالتَّنبيه على أنَّ حالَ المُنافِقينَ بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلونَ إلَّا على الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، واللَّذَّاتِ العاجلةِ الفانيةِ(٤).

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾. ولم تُذكَرْ هاتانِ العاقبَتانِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧).

للمُنافقينَ بِصيغةِ الحَصرِ كعاقِبَتي المؤمنينَ؛ لجوازِ أن يَتوبوا عن نِفاقِهم، ويَصِحَّ إيمانُهم، وقد تاب بعضُهم، واعترَفوا بما كانوا عليه بعد ظُهورِ أمْرِهم[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث بيَّن اللهُ تعالى أنَّ العذابَ قد يقَعُ بأيدي العِبادِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ تَحقيرٌ لشَأنِهم؛ وذلك أنَّه أخْبَرَ أنَّهم لَمَّا سَعَوا على الإسلامِ، أبْطَل اللهُ سَعْيَهم[3].

- وجُملةُ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ تَعْليلٌ لقولِه: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾؛ لأنَّها دَليلٌ على أنَّ ذلك دَيدنٌ لهم مِنْ قَبْلُ[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ عبَّر عن قولِه بالفعلِ المضارِعِ؛ لاستحضارِ تلك الحالِ لِغَرابَتِها، فإنَّ مِثْلَه في نفاقِه لا يخشَى على نَفْسِه إثمَ الافتتانِ بالنِّساءِ؛ إذ لا يجِدُ مِن دِينِه مانعًا مِن التمتُّعِ بهنَّ وهو يحِبُّهنَّ، بل شأنُ ذلك أن يكونَ مُرَغِّبًا له في هذه الغَزوةِ[5].

- قولُه: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ في الإتيانِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ ﴿أَلَآ﴾:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).

تَنبيهٌ على ما بَعْدَها من عَجيبِ حالِهم؛ إذْ عامَلَهم اللهُ بنَقيضِ مَقْصودِهم؛ فهم احْتَرَزوا عن فِتْنةٍ فوَقَعوا في الفِتْنةِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ المؤذِنُ بكَمالِ المُعرَّفِ في جِنْسِه، أي: في الفِتْنةِ العَظيمةِ سَقَطوا[٢].

- وقَدَّمَ الظَّرفَ: ﴿فِي ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ على عامِلِه: ﴿سَقَطُواْ﴾ للدَّلالةِ على الحَصرِ، يقولُ: ألَا فلْيَعْلموا أنَّهم سَقَطوا وتَرَدَّوا بهذا القَولِ في هاويةِ الفِتنةِ بأوسَعِ مَعناها، لا في شَيءٍ آخَرَ مِن شُبُهاتِها أو مُشابهاتِها[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والاسْتِمرارِ[٤].

- في قولِه: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إيثارُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ -حيثُ لم يَقُلْ: مُحيطةٌ بِهم-؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بأنَّهُ مُعظمُ أسبابِ الإحاطةِ المذكورةِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ...﴾ فيه إسنادُ المُساءةِ إلى الحَسَنةِ والمَسرَّةِ إلى أَنْفُسِهِمْ، دونَ المصيبةِ بأنْ يُقالَ: (وإنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ تَسْرُرْهُمْ)؛ للإيذانِ باخْتِلافِ حالَيْهم حالَتَي عُروضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَساءةِ والمَسرَّةِ بأنَّهُمْ في الأُوْلى مُضطرُّونَ، وفي الثَّانيةِ مُخْتارونَ[١].

- قولُه: ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ فيه تَمْثِيلٌ لِحالِهِم في تَخلُّصِهم مِنَ المُصيبةِ، التي قَدْ كانتْ تَحِلُّ بهم لو خَرَجوا مع المُسْلِمينَ، بحالِ مَن أَشْرَفوا على خَطَرٍ ثُمَّ سَلِموا منه، ورَجَعوا فَرِحينَ مَسْرورينَ بسَلامتِهم، وبإصابةِ أعدائهم[٢].

- قولُه: ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ السُّرورِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فيه تَعدِيةُ فِعْلِ ﴿كَتَبَ﴾ باللَّامِ ﴿لَنَا﴾؛ للإيذانِ بأنَّهُ كَتَبَ ذلك لنَفْعِهم؛ لأنَّهم يَعْلَمونَ أنَّ ما أَصابَهم ما كان إلَّا بتَقديرِ الله لِمَصْلحةِ المُسلِمينَ في ذلك؛ فهو نَفْعٌ مَحْضٌ[٤]. فقال: ﴿لَنَا﴾ دون (علينا)؛ تنبيهًا على أنَّ الذي يُصيبُنا، نَعُدُّه نِعمةً لا نِقمةً، كما دلَّ لذلك الآيةُ التي تليها: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾[٥]. وهذه اللَّامُ في قولِه ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أيضًا مفيدةٌ مَعْنى الاخْتِصاصِ، كأنَّه قيل: لنْ يُصيبَنا إلَّا ما اخْتَصَّنا اللهُ به مِنَ النُّصْرةِ عليكم أو الشَّهادةِ[٦].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٨).

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإظْهارِ التبرُّكِ والتَّلذُّذِ به(١).

- وفي قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قدَّم الظَّرْفَ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفِعْلِ ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وأَصْلُ الكلامِ في غَيرِ القُرآنِ: (ليتوكَّلِ المؤمنونَ على الله)(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ...﴾ الاسْتِفهامُ مُستعمَلٌ في النَّفي بقَرينةِ الاسْتِثناءِ، ومَعْنى الكلامِ تَوبيخٌ لهم، وتَخطئةٌ لتَربُّصِهم؛ لأنَّهُمْ يَتربَّصونَ بالمُسلِمينَ أنْ يُقْتلوا، ويَغْفُلونَ عن احْتِمالِ أنْ يُنْصروا؛ فكان المَعْنى: لا تَتربَّصونَ بِنا إلَّا أنْ نُقْتَلَ أو نَغلِبَ، وذلك إحْدى الحُسْنيَيْنِ(٣).

- وجاءتْ جُملةُ: ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسْميَّةً -حيثُ لَمْ يَقُلْ (ونَترَبَّصُ بِكُمْ)- بخِلافِ الجُمْلةِ الفِعليَّةِ المعطوفِ عليها ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقويةِ التَّربُّصِ، وكِنايةً عن تَقويةِ حُصولِ المُتربِّصِ؛ لأنَّ تَقويةَ التَّربُّصِ تُفيدُ قوَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).
وهذا الوَجْهُ على أنَّ جُملةَ ﴿وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ تمامِ الكلامِ المأمورِ به في قولِه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا...﴾، وأمَّا على القولِ بأنَّ الجُملةَ مَسوقةٌ مِن قِبلِه تعالى أمرًا للمُؤمنينَ بالتَّوكُّلِ إثرَ أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما ذُكِرَ؛ فليس فيها هذا الوَجْهُ.
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤).

الرَّجاءِ في حُصولِ المُتربِّصِ، فتُفيدُ قُوَّةَ حُصولِه، وهو المُكْنَى عنه[١].

- قولُه: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ أَمْرٌ يتضَّمنُ التَّهديدَ والوعيدَ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تَهديدٌ للمُخاطبينَ، وفُصِلَتْ هذه الجُمْلةُ عَنِ التي قَبْلَها- أي: لَمْ تُعْطَفْ عليها-؛ لأنَّها كالعِلَّةِ للحَضِّ[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٥).

الآيتان (٥٣-٥٤)

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُنافِقينَ إنَّهم سواءٌ أنفَقوا أموالَهم بِرِضًا منهم أو بغيرِ رِضًا، فلن يُقبَلَ منهم إنفاقُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا قَومًا فاسِقينَ.

وما منَعَ قَبولَ نَفقاتِهم إلَّا كُفرُهم باللهِ وبِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكَونُهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم مُتثاقِلونَ، ولا يُنفِقونَ شَيئًا في أوجُهِ الخَيرِ إلَّا وهم كارِهونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولَى أنَّ عاقِبةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ، هي العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ بيَّنَ أنَّهم، وإن أتَوْا بِشَيءٍ مِن أعمالِ البِرِّ، فإنَّهم لا ينتَفِعونَ به في الآخرةِ، والمقصودُ بيانُ أنَّ أسبابَ العَذابِ في الدُّنيا والآخرةِ مُجتَمِعةٌ في حَقِّهم، وأنَّ أسبابَ الرَّاحةِ والخَيرِ زائلةٌ عنهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[1].

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: سواءٌ عليكم أنفَقْتُم أموالَكم باختيارِكم أم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٨).

بِغَيرِ رِضًا منكم؛ فإنَّ الله تعالى لن يتقَبَّلَ منكم نفَقاتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: لا يتقبَّلُ اللهُ تعالى نفَقاتِكم- أيُّها المُنافِقونَ- لأنَّكم كُنتم قومًا كافرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ ربِّ العالَمينَ[٢].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جملةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ فهي بيانٌ للتَّعليلِ لِعَدمِ قَبولِ نَفَقاتِهم، بزيادةِ ذِكرِ سَبَبينِ آخَرينِ مانِعَينِ مِن قَبولِ أعمالِهم، هما مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ. وهما: أنَّهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم كُسالى، وأنَّهم لا يُنفِقونَ إلَّا وهم كارِهونَ[٣].

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).

أي: وما منَعَ قَبولَ نَفَقاتِ المُنافِقينَ إلَّا كُفْرُهم باللهِ عزَّ وجلَّ، وبِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾.

أي: ولا يأتي المُنافِقونَ الصَّلواتِ المفروضةَ إلَّا وهم مُتَثاقِلونَ عنها، يُراؤونَ النَّاسَ بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ المُنافِقونَ شَيئًا مِن أموالِهم في أوجُهِ الخَيرِ- رعايةً لِمَصالِحِهم الخاصَّةِ- إلَّا وهم كارِهونَ لهذا الإنفاقِ، ويَعُدُّونَه مَغرمًا لا مَغْنمًا[3].

الفَوائِد التربويَّة:

١- رُوحُ الطَّاعاتِ الإتيانُ بها لِغَرضِ العبوديَّةِ، والانقيادِ في الطَّاعةِ، فإن لم يُؤتَ بها لهذا الغَرَضِ، فلا فائدةَ فيها، بل ربَّما صارت وَبالًا على صاحِبِها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥).

وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾(١).

٢- ينبغي للعَبدِ ألَّا يأتيَ الصَّلاةَ إلَّا وهو نشيطُ البدَنِ والقَلبِ إليها، ولا يُنفِقَ إلَّا وهو مُنشَرِحُ الصَّدرِ ثابتُ القَلبِ، يرجو ذُخْرَها وثوابَها مِن اللهِ وَحْدَه، ولا يتشبَّهُ بالمُنافِقينَ الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ هذا يُوجِبُ أن تكون النَّفسُ طيِّبةً عند أداءِ الزَّكاةِ والإنفاقِ في سبيلِ الله؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ المُنافِقينَ بِكَراهَتِهم الإنفاقَ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ سمَّى الإلزامَ إكراهًا؛ لأنهم مُنافِقونَ، فكان إلزامُ الله ورسولِه إيَّاهم الإنفاقَ شاقًّا عليهم كالإكراهِ(٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ اختِيرَ وَصفُ (الفاسقين) دونَ (الكافرينَ)؛ لأنَّهم يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، فكانوا كالمائِلينَ عن الإسلامِ إلى الكُفرِ(٥).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ الكُفرُ وإن كان وَحدَه كافيًا في عدمِ القَبولِ، إلَّا أنَّ ذِكرَ هَذينِ السَّبَبينِ إشارةٌ إلى تمكُّنِ الكُفرِ مِن قُلوبِهم، وإلى مَذَمَّتِهم بالنِّفاقِ الدَّالِّ على الجُبنِ والتردُّدِ، فذِكرُ الكُفرِ بيانٌ لذِكرِ الفُسوقِ، وذِكرُ التَّكاسُلِ عن الصَّلاةِ؛ لإظهارِ أنَّهم مُتهاوِنونَ بأعظَمِ عبادةٍ، فكيف يكونُ إنفاقُهم عن إخلاصٍ ورَغبةٍ؟ وذِكرُ الكراهيةِ في الإنفاقِ؛ لإظهارِ عَدَمِ الإخلاصِ في هذه الخَصلةِ المُتحَدَّثِ عنها[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ لا يَصْعَدُ له عملٌ؛ ولا يُقْبَلُ منه خيرٌ يُثَابُ عليه في الآخرةِ[٢].

٥- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ على أنَّ الزكاةَ المأخوذةَ قهرًا من صاحِبِها لا تُجْزِئُه في الباطِنِ؛ لِعَدمِ النيَّةِ مع القُدرةِ عليها، ولأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يأخُذُها من المنافِقينَ بإعطائِهم إيَّاها؛ وقد صرَّح القرآنُ بنَفيِ قَبولِها؛ لأنَّهم يُنفِقونَ وهم كارِهونَ، فعُلِمَ أنَّ النَّفَقةَ- مع كراهةِ الإنفاقِ- لا تُقبلُ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ استدلَّ به على أنَّ المرتدَ لو أَخْرَجَ زكاةَ مالِه في

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠).

الرِّدَّةِ، ثم راجع الإسلامَ؛ لوجبتْ عليه الإعادةُ، واستئنافُ ما دَفَعَ مرةً أخرى؛ لأنَّه دَفَعَه في حينٍ لم يُقْبَلْ منه، والزكاةُ أعظمُ النفقات(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا ﴾ فيه نَظْمُ الكلامِ في سِلْكِ الأَمْرِ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ تَساوي الأَمْرينِ في عَدِمِ القَبولِ(٢).

- وقولُه: ﴿أَنفِقُواْ﴾ أمْرٌ في مَعْنى الخَبَرِ، ومَعْناهُ: لَنْ يُتَقبَّلَ مِنْكُم، أَنْفقتُم طَوعًا أو كَرْهًا، وفيه تَهديدٌ وتوبيخٌ لَهم(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لنَفْيِ التَّقبُّلِ، أي: تَعليلٌ لَرَدِّ إنفاقِهم(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ في هذه الآيةِ تَرْتيبٌ حَسَنٌ بَديعٌ، حيثُ ذَكَر السَّببَ الذي هو بمُفْردِه مانعٌ مِنْ قَبولِ نَفَقاتِهم، وهو الكفرُ، وأتْبَعَه بما هو ناشِئٌ عَنِ الكُفْرِ، ومُسْتلزِمٌ له وهو دَليلٌ عليه، وذلك هو إتيانُ الصَّلاةِ وهم كُسالَى، وإيتاءُ النَّفَقةِ وهم كارِهونَ؛

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

فالكَسَلُ في الصَّلاةِ، وتَرْكُ النَّشاطِ إليها، وأخذِها بالإقبالِ- مِنْ ثَمراتِ الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فيه تَخصيصُ هَذينِ العَمَلينِ الجَليلينِ- وهُما الصَّلاةُ والنَّفَقةُ- بالذِّكْرِ مِنْ أعمالِ البِرِّ، والاكْتِفاءُ بهما، وإنْ كانوا أَفْسَدَ حالًا في سائرِ أعمالِ البِرِّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أَشْرَفُ الأعمالِ البَدنيَّةِ، والنَّفَقةَ في سَبيلِ اللهِ أَشْرفُ الأعمالِ الماليَّةِ، وهما الوصْفانِ المطلوبُ إظهارُهُما في الإسلامِ، ويُسْتدلُّ بهما على الإيمانِ، وتَعدادُ القَبائحِ يَزيدُ الموصوفَ بها ذَمًّا وتقبيحًا[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَزْهَقَ﴾: أي: تخرُجَ وتهْلِكَ، وزَهَقَتْ نفسُه: خرَجَت مِن الأسَفِ على الشَّيءِ، وأصلُ (زهق): يدلُّ على تقدُّمٍ ومُضِيٍّ وتَجاوُزٍ[١].

﴿يَفْرَقُونَ﴾: أي: يَخافونَ، والفَرَقُ: تَفرُّقُ القَلبِ مِن الخَوفِ والفَزَعِ، وأصلُ (فرق): يدلُّ على تمييزٍ، وتزييلٍ بين شَيئَينِ[٢].

﴿مَلْجَـًٔا﴾: أي: مَعقِلًا، وحِصنًا، واللَّجَأُ والملْجَأُ: المكانُ يُلتجَأُ إليه[٣].

﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾: المغاراتُ: السَّراديبُ، وغِيرانُ الجِبالِ، واحِدُها مَغارةٌ: وهي الموضِعُ الذي يَغورُ فيه الإنسانُ، أي: يغيبُ ويَستَتِرُ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفُوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتطامُنٍ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)،

﴿ مُدَّخَلًا ﴾: أي: سَرَبًا في الأرضِ يدخُلونَ فيه؛ مِن ادَّخَل يَدَّخِل: إذا اجتَهَدَ في دُخولِه، وأصلُ (دخل): يَدلُّ على وُلُوجٍ[1].

﴿ يَجْمَحُونَ ﴾: أي: يُسرِعونَ، ومنه قَولُهم: فَرَسٌ جَموحٌ: إذا ذهبَ في عَدْوِه، لم يَثْنِه شَيءٌ. وأصلُ (جمح): يدلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ قُدُمًا بغلَبةٍ وقُوَّةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعجَبَ بأموالِ المُنافِقينَ وأولادِهم؛ فإنَّه تعالى إنَّما يريدُ أن يُعذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا، وأن تخرُجَ أرواحُهم، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم.

ويخبِرُ تعالى عن كذبِهم وجبنِهم، وأنَّهم يحلِفونَ باللهِ لِلمؤمنينَ إنَّهم منهم، وهم لَيسوا في الحقيقةِ منهم، ولكِنَّهم قَومٌ يخافونَ مِن المؤمنينَ، فيَحلِفونَ لهم؛ لِيَأمَنوهم. ويخبرُ أنَّهم لو يَجِدونَ مكانًا يتحَصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجِبالِ، أو نَفَقًا في الأرضِ؛ لَهَربوا إليها، وهم يُسرِعونَ في مَشيِهم؛ لشِدَّةِ كراهَتِهم للمؤمنينَ، ونُفورِهم منهم، وخوفًا مِن الخروجِ للجِهادِ معهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥)﴾.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قطَعَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى رجاءَ المُنافِقينَ عن جميع منافِعِ الآخرةِ؛ بيَّنَ هنا أنَّ الأشياءَ التي يظنُّونَها من بابِ المنافِعِ في الدُّنيا، فإنَّه تعالى جعَلَها أسبابَ تَعذيبِهم في الدُّنيا، وأسبابَ اجتماعِ المِحَنِ والآفاتِ عليهم في الآخِرةِ(١).

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾.

أي: فلا تَستحسِنْ- يا مُحمَّدُ- أموالَ المُنافِقينَ ولا أولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن(٣) يعذِّبَ المُنافِقينَ بأموالِهم وأولادِهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).
(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥، ٥٧٦).
قال الرازي: (هذا الخِطابُ وإن كان في الظَّاهر مختصًّا بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، إلَّا أنَّ المرادَ منه كلُّ المؤمنين، أي: لا ينبغي أن تعجَبوا بأموالِ هؤلاء المنافِقينَ والكافرين، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ الله عليهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).
(٣) قال الشنقيطي: (هذه اللامُ التي تأتي في القرآنِ وفي كلام العربِ بعد فعلِ الإرادة، اختلف العلماءُ في معناها، وأظهَرُ أقوالهم فيها قولان:
أحدهما: أنها لامٌ نادرةُ المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنَّها لامٌ مصدريةٌ، وإن لم يكن علماءُ العربيَّةِ عدُّوا حرفَ اللامِ من الموصولاتِ الحرفيَّةِ المصدريَّةِ، قالوا: فهذه اللامُ بمعنى (أن)، والدليلُ

حياتِهم الدُّنيا(١).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من كانتِ الآخِرةُ هَمَّه، جعَلَ اللهُ غناه في قَلْبِه، وجمَعَ له شَمْلَه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّه، جعل اللهُ فَقْرَه بين عَينَيه(٢)، وفرَّق عليه شَمْلَه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ له))(٣).

﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، فيتَّصِلَ لهم عذابُ الآخرةِ الدَّائِمُ، بعذابِهم في الدُّنيا(٤).

على هذا القَولِ تعاقُبُ هذه اللامِ و (أنْ) في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ [التوبة: ٥٥] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القَولِ، فاللامُ المصدريَّةُ بمعنى (أن)، وهو قولٌ يقِلُّ مَن يقولُه مِن علماء العربيَّة.

القول الثاني: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، واللامُ لامُ تَعليلٍ لِمَحذوفٍ، والمعنى على هذا القَولِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهم ومتاعَهم بها؛ لأجلِ أن يعَذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا. ((العذب النمير)) (٥/ ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٧).

قال الواحدي: (المعنى: ليُعَذِّبَهم بها، بأخْذِ الزكاةِ، والنَّفقةِ في سبيلِ الله، والمصايبِ فيها، والتَّعَبِ في جمْعِها، والوَجَل في حِفْظِها). ((الوسيط)) (٢/ ٥٠٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

(٢) كنايةٌ عن كَونِه يَصيرُ مُستَحضِرًا له أبدًا، ومُشفِقًا من الوقوعِ فيه سرمدًا. يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (١/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠). جوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٦٣)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي))

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى كَونَ المُنافِقينَ مُستَجمِعينَ لكُلِّ مَضارِّ الدُّنيا والآخرةِ، خالِينَ عن جميعِ منافِعِ الآخرةِ والدُّنيا- عاد إلى ذِكرِ فضائِحِهم وقبائِحِهم، ومنها إقدامُهم على الأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

أي: ويَحلِفُ المنافِقونَ باللهِ يمينًا مُؤكَّدةً لكم- أيُّها المؤمنونَ- كَذِبًا: إنَّهم مُؤمِنونَ مِثلُكم، وليسوا- في الحقيقةِ- مِن أهلِ دِينِكم، بل هم كفَّارٌ، وأعداءٌ لكم[2].

كما قال تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المنافِقينَ يخافونَ منكم -أيُّها المؤمِنونَ- فيَحلِفونَ لكم إنَّهم

(٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ يحتملُ أن يريدَ: ويموتونَ على الكُفرِ، ويحتملُ أن يريدُ ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ من شدَّةِ التعذيبِ الذي ينالُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

مُؤمِنونَ؛ لِيَأمَنوكم[١].

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَرَقَ المُنافِقينَ مِن المؤمنينَ، أخبَرَ بما هم عليه معهم، ممَّا يُوجِبُه الفَرَقُ، وهو: أنَّهم لو أمكَنَهم الهروبُ منهم لَهَربوا، ولكِنَّ صُحبَتَهم لهم، صُحبةُ اضطرارٍ لا اختيارٍ[٢].

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾.

أي: لو يجِدُ المُنافِقونَ مَكانًا يتحصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجبالِ، أو نَفَقًا في الأرضِ، يُتكَلَّفُ الدُّخولُ إليه بمشقَّةٍ- لذَهَبوا إليه[٣]؛ هربًا منكم أيُّها المؤمِنونَ[٤].

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

أي: لو يَجِدُ المُنافِقونَ مكانًا يَلجؤونَ إليه، لَهُرِعوا إليه وهم يُسرِعونَ في مَشْيِهم؛ لِشِدَّةِ كراهَتِهم لكم، ونُفورِهم منكم، وخوفًا من الخُروجِ للجِهادِ معكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٧).

(٣) قال الرازي: (المعنى: أنَّهم لو وَجَدوا مكانًا على أحدِ هذه الوجوه الثلاثةِ- مع أنها شَرُّ الأمكنةِ- لولَّوا إليه، أي: رَجَعوا إليه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور))

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- النَّظرُ إلى متاعِ الدُّنيا على وجهِ المحبَّةِ والتعظيمِ لها ولأهْلِها؛ منهِيٌّ عنه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾، وأما النَّظرُ إلى المخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ على وجهِ التفكُّرِ والاعتبارِ؛ فمأمورٌ به، مندوبٌ إليه[1].

٢- لا ينبغي العَجَبُ بأموالِ المُنافقينَ والكافرينَ، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ اللهِ عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[2].

٣- ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ اختلافَ الخُلُقِ مانِعٌ من المُواصلةِ والمُوافَقةِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النِّفاقُ جالِبٌ لجميعِ الآفاتِ في الدِّينِ والدُّنيا، ومُبْطِلٌ لجَميعِ الخَيراتِ في الدِّينِ والدُّنيا؛ فإنَّ الله تَعالى لَمَّا بيَّن قَبائحَ أفعالِهم، وفَضائحَ أعْمالِهم؛ بيَّن ما لهم في الآخرةِ مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما لهم في الدُّنيا مِنْ وُجوهِ المِحْنةِ والبَليَّةِ، ثُمَّ بيَّن بَعْدَ ذلك أنَّ ما يَفْعلونَه مِنْ أعمالِ البرِّ لا يَنْتفِعونَ بِهِ يومَ القِيامةِ البتَّةَ، ثم بيَّن أنَّ ما يَظنُّونَ أنَّهُ مِنْ مَنافِعِ الدُّنيا فهو في الحَقيقةِ سببٌ لعَذابِهم وبَلائِهم، وتَشديدِ المِحْنةِ عليهم، وجاء بيان ذلك مُرتَّبًا على أَحْسَنِ الوُجوهِ، ولا يُمْكِنُ تَرتيبُ الكلامِ على وَجْهٍ أَحْسَنَ مِن هذا[4].

(١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَـٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ أي: كالفَرَسِ الجَموحِ، لا يردُّهم شَيءٌ، وهذا الوصفُ من أبلغِ مُبالغةِ القرآنِ في تصويرِ الحقائِقِ التي لا تتجَلَّى للفَهمِ والعِبرةِ بِدونِها، فتُصَوِّرُ شُخوصَهم وهم يَعْدُونَ بغيرِ نظامٍ، يَلهثونَ كما تلهَثُ الكِلابُ، يتسابَقونَ إلى تلك الملاجِئِ مِن مغاراتٍ ومُدَّخَلاتٍ، فيتسَلَّقونَ إليها، أو يندَسُّون فيها، فكذلك كان تصَوُّرُهم عندما سَمِعوا الآيةَ في وَصْفِهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ فيه تقديمُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّها كانتْ أَعْلَقَ بقُلوبِهم، ونُفوسُهم أميلُ إليها؛ فإنَّهم كانوا يَقْتلون أولادَهم خَشيةَ ذَهابِ أموالِهم[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ معطوف على ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ والمعنى: ليعذِّبَهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبَّه على عَذابِ الآخِرةِ بعِلَّتِهِ، وهو زُهوقُ أَنْفُسِهم على الكُفْرِ؛ لأنَّ مَنْ مات كافرًا عُذِّبَ في الآخِرةِ لا محالةَ، وزُهوقُ النَّفْسِ هُنا كنايةٌ عَنِ الموتِ[٣].

- وبناءُ قولِه: ﴿مُدَّخَلٗا﴾ بِناءُ تأكيدٍ ومُبالَغةٍ؛ إذ أَصْلُه (مُدْتَخَل)، مُفْتَعَلٌ مِنِ (ادَّخَلَ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٨).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ وقولِه: ﴿يَفْرَقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، وأنَّ ذلك دَأْبُهُم(١).

٢- قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ مِنْ أنَّهم ليسوا مِنَ المُسلِمينَ، وأنَّ التِجاءَهم إلى الانْتِماءِ إليهم إنَّما هو للتَّقيَّةِ اضْطرارًا(٢).

- قولُه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الاسْتِقبالِ في الشَّرْطِ، وإنْ كان المعنى على المُضيِّ؛ لإفادةِ اسْتِمرارِ عَدَمِ الوِجدانِ؛ فإنَّ المُضارِعَ المَنفيَّ الواقِعَ مَوقِعَ الماضي ليس نَصًّا في إفادةِ انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ، كما هو الظَّاهِرُ، بل قَدْ يُفيدُ اسْتِمرارَ انْتِفائهِ أيضًا حَسَبما يَقْتضيهِ المَقامُ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ
إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾
۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى
ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلْمِزُكَ﴾: أي: يَعيبُك، ويطعَنُ عليك، وأصلُ (لمز): يدلُّ على العَيْبِ[١].

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: قومٌ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتألَّفُهم على الإسلامِ بما يُعطيهم، وأصلُ (ألف): يدلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[٢].

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: أي: الذينَ لَزِمَهم الدَّينُ، فلا يَجِدونَ القَضاءَ، والغُرْمُ: ما ينوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَررٍ، لِغَيرِ جِنايةٍ منه، أو خِيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدلُّ على المُلازَمةِ[٣].

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِع بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، وأصلُ (سبل): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

على امتدادِ شَيءٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك- يا مُحمَّدُ- في قِسمَتِك لأموالِ الزَّكاةِ لِمُستَحقِّيها، فإنْ أُعطُوا منها مِقدارَ ما يُريدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك، وإنْ لم يُعطَوا ما يُرضِيهم، غَضِبوا عليك وعابُوك، ولو أنَّهم رَضُوا بما أعطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسُولُه، وقالوا: حَسْبُنا اللهُ، سيُعطينا اللهُ مِن فَضْلِه، وسيَقْسِمُ لنا رسولُه، إنَّا نرغَبُ إلى اللهَ وَحدَه في أن يُوسِّعَ علينا، ويُغنِيَنا من فَضْلِه- لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم.

إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقراءِ، والمساكينِ، والعاملينَ عليها- الذين يَجمَعونَها ويُوزِّعونَها على مُستَحقِّيها- ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ، وفي عِتقِ الرَّقيقِ، والمدِينينَ، وفي الإنفاقِ لِنُصرةِ دِينِ اللهِ تعالى، وللمُسافِرِ المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فريضةً مِن اللهِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن قبائِحِ المُنافِقينَ وفَضائِحِهم، وهو طَعْنُهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بسبَبِ أخْذِ الصَّدَقاتِ مِن الأغنياءِ، ويقولونَ: إنَّه يُؤثِرُ بها مَن يَشاءُ مِن أقارِبِه وأهلِ مَودَّتِه، ويَنسُبونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا يُراعي العَدلَ[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك ويتَّهِمُك وينتقِدُكَ- يا محمَّدُ- طاعِنًا على قِسمَتِك، وتَوزيعِك أموالَ الزَّكاةِ على مُستحِقِّيها[١].

عن أبي سعيد الخُدريِّ رَضيَ الله عنه، قال: ((بَيْنا نحن عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقسِمُ قَسمًا، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ، وهو رجلٌ مِن بني تميم، فقال: يا رسولَ اللهِ، اعدِلْ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَيلَك! ومَن يَعدِلُ إنْ لم أعدِلْ؟! قد خِبْتَ وخسِرْتَ إنْ لم أعدِلْ، فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لي فيه أضرِبْ عُنُقَه، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه؛ فإنَّ له أصحابًا يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَه مع صَلاتِهم، وصِيامَه مع صيامهم، يَقرَؤونَ القُرآنَ، لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم[٢]؛ يَمرُقونَ مِن الإسلامِ كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة[٣]، يُنظَرُ إلى نَصْلِه[٤]، فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظَرُ إلى رِصافِه[٥] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظَرُ إلى نَضِيِّه[٦] فلا يوجَدُ فيه شيءٌ- وهو القِدْحُ- ثم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) التَّراقي: جمع تَرْقُوَة: وهي عظمٌ واصِلٌ ما بين ثغرةِ النَّحرِ والعاتِق. قيل المراد: لا يُرفَعُ إلى الله منه شيءٌ؛ لعِلمِه باعتقادِهم. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

وقيل: معناه أنَّ قومًا ليس حظُّهم مِن القرآنِ إلا مرورُه على اللسانِ فلا يجاوزُ تراقيَهم ليصلَ قلوبَهم، وليس ذلك هو المطلوبَ، بل المطلوب تعقلُه وتدبرُه بوقوعِه في القلبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٠٥).

وقيل: لا يعملونَ بالقُرآنِ فلا يُثابونَ على قِراءته فلا يحصلُ لهم إلَّا سَرْدُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٢٩٣). ويُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٩/ ٣٧٩٧).

(٣) الرميَّة: ما يُرمى مِن الصَّيدِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٤) النَّصلُ: حديدةُ السَّهم. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٨).

(٥) الرِّصافُ: هي العَقِبُ التي تكونُ فوقَ مَدخَلِ النَّصلِ في السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٦) النَّضِيُّ: عودُ السَّهمِ قبل أن يُرَيَّش ويُنَصَّل، سُمِّيَ به لكثرة البَرْيِ والنَّحتِ، كأنَّه جُعل نِضْوًا، أي:

يُنظَرُ إلى قُذَذِه[١] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ[٢]، آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ، إحدى عَضُدَيه مثلُ ثَدْيِ المرأة، أو مثلُ البَضعة تَدَردَرُ[٣]، يَخرجونَ على حينِ فُرقةٍ مِن النَّاسِ. قال أبو سعيدٍ: فأشهَدُ أنِّي سمِعْتُ هذا مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشهَدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه قاتَلَهم وأنا معه، فأمر بذلك الرَّجُلِ، فالتُمِسَ فوُجِدَ، فأُتيَ به حتى نَظَرْتُ إليه، على نَعْتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي نَعَتَ!)[٤].

هَزيلًا. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(١) قُذَذِه: جَمعُ قُذَّةٍ، وهي الرِّيشُ الذي على السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٢) الفَرْثُ: ما يَجتَمِعُ في الكَرِش، أي: مرَّ سريعًا في الرَّمِيَّة وخرَجَ منها، لم يتعلَّقْ منها بشيءٍ مِن فَرْثِها ودَمِها؛ لِسُرعتِه، شَبَّه بذلك خُروجَهم من الدِّينِ، ولم يحصلوا منه على شَيءٍ ألْبَتَّةَ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٣) تَدَردَرُ: أي: تتحَرَّكُ وتجيءُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

وفي رواية البخاري زيادة: (قال: فنزَلَت فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾).

قال ابن تيمية: (رواه البخاري وغيرُه من حديث مَعمَر عن الزهري، وأخرجاه في الصحيحين من وجوهٍ أخرى عن الزهري عن أبي سَلَمة والضحاك الهمداني عن أبي سعيد.. وذكَرَ حديثَ الخوارج المشهورَ، ولم يذكرْ نزول الآية .. الذي في رواية معمر- أنَّ آية الصدقات نزلت في قصَّة ذي الخويصرة- ليس بجيدٍ، بل هو مُدْرَجٌ في الحديث من كلام الزُّهري أو كلام مَعمَر؛ لأن ذا الخويصرة إنما أنكرَ عليه قَسمَ الغنائمِ، وليست هي الصَّدَقات التي جعلها الله لثمانيةِ أصنافٍ، ولا الْتفاتَ إلى ما ذكَره بعضُ المفسِّرين من أنَّ الآية نزلت في قَسمِ غنائمِ حُنَين، وإمَّا أن يكونَ المعترضُ في ذُهَيبةِ عليٍّ رضي الله عنه هو ذو الخويصرة أيضًا، وعلى هذا فتكونُ أحاديثُ أبي سعيد كلُّها في هذه القصَّة، لا في قَسمِ الغنائم، وتكونُ الآية قد نزلت في ذلك، أو يكون قد شهد القصَّتين معًا، والآيةُ نزلت في إحداهما). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢٧، ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨١، ٥٨٢).

وقال ابنُ حجر: (لم أقِفْ على الزيادة إلَّا في رواية مَعمَر... وله شاهدٌ من حديث ابن مسعود قال: ((لَمَّا قَسَم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غنائم حُنَين، سَمِعْتُ رجلًا يقول: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُريدَ بها وجهُ الله! قال: فنزَلَت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾)). أخرجه ابن مردويه، وقد تقدَّم في غزوة حُنين بدون هذه الزيادة، ووقع في رواية عتبة بن وساج عن عبد الله بن عمر ما يؤيِّد هذه الزيادة: ((فجعل يقسِمُ بين أصحابه، ورجلٌ جالِسٌ فلم يُعطِه شيئًا، فقال: يا محمَّدُ، ما أراك تَعدِلُ!)) وفي رواية أبي الوَضِيِ عن أبي بَرْزةَ نحوُه، فدلَّ على أنَّ الحامِلَ للقائل

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾.

أي: فإنْ أعْطَيتَ المُنافِقينَ- يا مُحمَّدُ- من الصَّدَقاتِ قَدْرَ ما يرُيدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك[1].

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

أي: وإنْ لم تُعطِ المُنافِقينَ- يا مُحمَّدُ- ما يُرضيهم مِن الصَّدَقاتِ، غَضِبوا عليك، وعابُوك[2]!

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾.

على ما قال من الكلامِ الجافي، وأقدَمَ عليه من الخطاب السيئ؛ كونُه لم يُعطَ من تلك العطيَّةِ، وأنَّه لو أعطِيَ لم يقُلْ شيئًا من ذلك). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٩٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الآيةُ نصٌّ في قِسمةِ الصَّدَقاتِ، فجَعلُ الغنائِمِ سَببًا لِنُزولِها، من جملةِ تساهُلِهم فيما يُسمُّونَه أسبابَ النُّزولِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

وقال الشنقيطي: (ذكرَ كثيرٌ من أهل العلم أنَّ هذه الآيةَ نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخُوَيصرة التميميِّ، رأسِ المنافقين. قالوا: وجَدَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا، فقال: يا نبيَّ اللهِ، اعدِلْ؛ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه الله- وقِصةُ ذي الخويصرة معروفةٌ ثابتة في الصَّحيح، ولكنَّ الذي يظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ مِن كُبَراء المفسِّرين أنَّها نازلة في ذي الخُوَيصرة، وإنَّما قلنا: إنَّ الأظهَرَ أنَّها نازلةٌ في غيره؛ لأنَّ المعروف أنَّ القِسمةَ التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخُوَيصرة؛ أصلُ الخَوارجِ- قبَّحَه وقبَّحَهم اللهُ- أنَّ ذلك في قَسمِ النبيِّ لِغَنائمِ حُنَينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يصرِّحُ الله فيها بأنَّهم لَمَزوه في قَسمِ الصَّدَقات- وهي الزَّكواتُ- والصَّدقاتُ غيرُ الغَنائم، فالأظهَرُ أنَّ الأصوبَ فيها هو ما قالَه ابنُ جُرَيج (رحمه الله) وغيرُه: أنَّها نزلت في رجلٍ مِن الأنصارِ مِن المنافقينَ حضر النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا من الصَّدقاتِ، فقال: يا نبيَّ الله، اعدِلْ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه الله- فنَزَلت هذه الآيةُ فيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨١-٥٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى عن حالِ المُنافِقينَ السَّيئِ الدَّنيءِ، الذي لا يُجدِيهم في الدُّنيا، ويُهلِكُهم في الأُخرى- نَبَّهَهم على ما هو الأصلَحُ لهم؛ مِن الحالِ الشَّريفِ السَّنِيِّ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المُنافِقينَ قَنَعوا بما أعْطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسولُه[(٢)].

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾.

أي: ولو أن المُنافِقين قالوا: كافِينا اللهُ وَحدَه[(٣)].

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾.

أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه العَظيمِ، وسيَقسِمُ لنا رسولُه الكريمُ[(٤)].

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

أي: وقالوا: إنَّا نرغَبُ إلى اللهِ تعالى وَحدَه، ونتضَرَّعُ إليه دونَ مَن سِواه، أن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

قال محمد رشيد رضا: (﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه في المستقبَلِ مِن الغنائِمِ والكَسبِ؛ لأنَّ فَضلَه دائِمٌ لا ينقطِعُ، ويُعطينا رسولُه ممَّا يَرِدُ عليه من الغنائِمِ والصَّدَقات زيادةً ممَّا أعطانا من قبلُ، لا يَبخَسُ أحدًا منَّا حقًّا يستحِقُّه في شَرعِ الله تعالى). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

يُغنِيَنا مِن فَضْلِه، ويَرزُقَنا في الدُّنيا والآخرةِ، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم[(١)].

عن أبي وائلٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ مُكاتَبًا جاءه، فقال: ((إنِّي قد عَجَزتُ عن مُكاتَبَتي فأعِنِّي، قال: ألَا أُعَلِّمُك كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو كان عليك مِثلُ جَبلِ صِيرٍ دَينًا، أدَّاه اللهُ عنك؟! قل: اللهُمَّ اكفِنِي بحلالِك عن حَرامِك، وأغنِني بفَضلِك عمَّن سِواك))[(٢)].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ تَعالَى اعْتِراضَ المنافِقينَ الجهلَةِ على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، ولَمْزَهم إيَّاه في قَسْمِ الصَّدقاتِ، بَيَّنَ تعالَى أنَّه هو الَّذي قَسَمها وبَيَّنَ حُكْمَها، وتَوَلَّى أمرَها بنَفْسِه، ولم يَكِلْ قَسْمَها إلى أحدٍ غيرِه، فجَزَّأَها لهؤلاء المذكورينَ[(٣)].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقَراءِ وللمساكينِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٦٣)، وأحمد (١٣١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (١٠٤٢)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٩٧٣).
قال الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢٩): حسنٌ غريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٩، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ليس المِسكينُ الذي يطوفُ على النَّاسِ تَرُدُّه اللُّقمةُ واللُّقمَتانِ، والتَّمرةُ والتَّمرتانِ، ولكِنِ المِسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ به فيُتصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيَسألُ النَّاسَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لا تَحِلُّ الصَّدَقةُ لغَنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ(٢)))(٣).

ابن عطية)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

قال الرازي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا حَقَّ في الصَّدَقاتِ لأحَدٍ إلَّا لهذه الأصنافِ الثَّمانيةِ، وذلك مُجمَعٌ عليه، وأيضًا فلفظةُ ﴿إِنَّمَا﴾ تفيدُ الحَصرَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٧).

قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا؟ فذَهَبَ جماعةٌ من فقهاءِ الأمصارِ وأهلِ اللغةِ إلى أن الفقيرَ أسوأُ حالًا من المسكينِ، وهذا مذهبُ الشافعيِّ رحمه الله، وروايةٌ قويةٌ عن أحمدَ رحمه الله، وبه قال جماعةٌ من السلفِ، أنَّ الفقيرَ أحوجُ من المسكينِ. وقالت طائفةٌ: إنَّ المسكينَ أحوجُ من الفقيرِ، وهو مذهبُ مالكٍ وأصحابِه، ومذهبُ أبي حنيفةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٨). ويُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٣/ ١١٣٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

(١) رواه البخاري (١٤٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ: هو القَويُّ صحيحُ الأعضاءِ، تامُّ الخِلقةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١١).

(٣) أخرجه النسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وأحمد (٩٠٦١)، وابن حبان (٣٢٩٠). صحَّحه ابنُ كثير ((تفسير القرآن)) (٧/ ٤١٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦٢)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥٠١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((التلخيص الحبير))

وعن عُبيد الله بن عَديِّ بن الخيار، ((أنَّ رَجُلَينِ أخبَراه أنَّهما أتيَا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يسألانِه مِن الصَّدقةِ، فقلَّبَ فيهما البَصَرَ، ورآهما جَلْدَينِ، فقال: إن شِئتُما أعطيتُكما، ولا حظَّ فيها لغَنيٍّ، ولا لِقَويٍّ مُكتَسِبٍ))[1].

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

أي: ولِلعامِلينَ على الزَّكاةِ، الذين يَجمَعونَها ممَن وجَبَت عليهم، ويُوزِّعونَها على مُستحِقِّيها[2].

(٣/ ١١٠٦).

(١) أخرجه أبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨)، وأحمد (١٧٩٧٢)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٧٢٢).

قال الإمامُ أحمدُ كما في ((التلخيص الحبير)) لابن حجر (٣/ ١١٠٥): ما أجوَدَه مِن حديثٍ، وصحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ١٨٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٣٣).

وقال ابنُ جرير: (المُكتَسِبُ المتعَذِّرُ عليه الكَسبُ: حَلالٌ له الصَّدَقةُ إذا تعذَّر عليه الكَسبُ، وإن كان مِن صِفتِه أنَّه قادِرٌ على الكَسبِ إذا وَجَده). ((تهذيب الآثار)) (ص: ٤١٨).

وقال الخطابي: (فيه أنَّه لم يُعتبَرْ في منعِ الزَّكاةِ ظاهِرُ القوَّةِ والجَلَد، دون أن يُضمَّ إليه الكَسبُ؛ فقد يكون من النَّاسِ مَن يَرجِعُ إلى قُوَّةِ بَدَنِه، ويكون مع ذلك أخرَقَ اليَدِ لا يعتَمِل، فمن كان هذا سبيلَه لم يُمنَع من الصَّدَقةِ بدلالةِ الحَديثِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٦، ٥١٨)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن تيمية: (العامِلُ على الصَّدَقةِ الغَنيُّ؛ له أن يأخُذَ بعِمالَتِه، باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٥١).

وقال ابن عاشور: (﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ معناه: العامِلونَ لأجلِها، أي: لأجْلِ الصَّدَقاتِ، فحَرفُ (على) للتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: لأجْلِ هِدايَتِه إيَّاكم. ومعنى العَمَل: السَّعيُ والخِدمةُ)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال السعدي: (العامِلونَ على الزكاة: وهم كلُّ مَن له عَمَلٌ وشُغُلٌ فيها: مِن حافظٍ لها، أو جابٍ لها مِن أهلِها، أو راعٍ، أو حامِلٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحوِ ذلك، فيُعطَونَ لأجلِ عِمالَتِهم، وهي أجرةٌ

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ[1].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعث عليٌّ رَضِيَ الله عنه وهو

لأعمالِهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: يُعطَى العامِلُ عليها- على قَدرِ عِمالَتِه- أجرَ مِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٨).

وقال ابنُ العربي: (اختلفَ النَّاسُ في المقدارِ الذي يأخُذُه العامِلونَ مِن الصدقةِ... والصَّحيحُ الاجتهادُ في قَدْرِه؛ لأنَّ البيانَ في تعديدِ الأصنافِ إنَّما كان للمَحَلِّ لا للمُستَحَقِّ). ((أحكام القرآن)) (٢/ ٥٢٥).

وقال الشنقيطي: (وأظهرُ الأقوالِ: أنَّه لا يتقدَّرُ فيه شيءٌ مُعَيَّنٌ، إلَّا بِقَدرِ أُجرتِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن كثير: (وأمَّا المؤلَّفةُ قُلوبُهم فأقسامٌ: منهم من يُعطى ليُسلِمَ، كما أعطى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صفوانَ بنَ أميَّةَ من غنائم حُنَين، وقد كان شَهِدَها مُشرِكًا. قال: فلم يزَلْ يُعطيني حتى صار أحبَّ النَّاسِ إليَّ بعد أن كان أبغَضَ النَّاسِ إليَّ... ومنهم من يُعطى لِيَحسُنَ إسلامُه، ويَثبُتَ قَلبُه، كما أعطى يومَ حنينٍ أيضًا جماعةً من صناديدِ الطُّلَقاء وأشرافِهم: مائةً مِن الإبل، مائةً مِن الإبل... ومنهم من يُعطى لِما يُرجى من إسلامِ نُظَرائه، ومنهم من يُعطى لِيَجبيَ الصَّدَقاتِ ممَّن يليه، أو لِيَدفَعَ عن حَوزةِ المُسلِمين الضَّررَ مِن أطرافِ البلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (قال كثيرٌ مِن العُلَماءِ: هم باقون إذا وُجِدوا؛ فإنَّ الإمام ربَّما احتاج إلى أن يستألِفَ على الإسلامِ، وبه قال الزُّهري، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، واختاره عبدُ الوهابِ، وابنُ العربي، مِن المالكية. قال ابنُ العربي: الصَّحيحُ عندي أنَّه إن قَوِيَ الإسلامُ زالوا، وإن احتيجَ إليهم أُعطُوا. أي: فهو يرى بقاءَ هذا المَصرِف، ويرى أنَّ عدمَ إعطائِهم في زمَنِ عُمَرَ؛ لأجلِ عِزَّةِ الإسلامِ، وهذا هو الذي صحَّحه المتأخِّرونَ، قال ابنُ الحاجبِ في «المختصر»: والصَّحيحُ بقاءُ حُكمِهم إن احتِيجَ إليهم. وهذا الذي لا ينبغي تقَلُّدُ غيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٦).

باليمَنِ بذَهَبةٍ في تُربَتِها إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَسَمَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أربعةِ نَفَرٍ: الأقرَعِ بنِ حابسٍ الحَنظليِّ، وعُيَينةَ بنِ بَدرٍ الفَزاريِّ، وعَلقمةَ بنِ عُلاثةَ العامريِّ، وزيدِ الخيرِ الطَّائيِّ، فغَضِبَت قريشٌ، فقالوا: أتُعطي صناديدَ نَجدٍ وتَدَعُنا؟! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي إنَّما فعَلْتُ ذلك؛ لِأتَألَّفَهم))[1].

وعن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي أُعطِي قُريشًا أتألَّفُهم؛ لأنَّهم حديثُ عَهدٍ بجاهليَّةٍ))[2].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

أي: وفي عِتقِ الرَّقيقِ، فيُشترى العبيدُ والإماءُ مِن الزكاةِ ويُحرَّرونَ، ويُعانُ المُكاتَبونَ على أداءِ مالِ المُكاتَبةِ، ويُفتَدى الأَسرى[3].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣١٤٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

ذهَب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أقوى الأقوالِ، أي أنَّ سَهمَ ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يدخُلُ فيه إعانةُ المُكاتَبينَ، وافتداءُ الأسرى وعِتقُ الرِّقابِ. واختاره السَّعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦-٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالرِّقابِ هنا: المُكاتَبون، ونسَبَ ذلك إلى الجُمهورِ، وممَّن اختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مقاتلٌ، والحسنُ، والزُّهري، وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وسعيدُ ابنُ جُبيرٍ، والنخعيُّ، وابنُ زيدٍ، ورُوي عن أبي موسَى الأشعريِّ نحوُه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((من أعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً، أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِن النَّارِ، حتى فَرْجَه بِفَرْجِه))[1].

وعن البَراء بن عازب رَضيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني عمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ، فقال: لَئِن كنتَ أقصَرْتَ الخُطبةَ، لقد أعرَضْتَ المسألةَ! أعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقبةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أوليَستا بواحدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفَرَّدَ بعِتقِها، وفكَّ الرَّقبةِ أن تُعينَ في عِتقِها))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَونُهم: المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الذي يريدُ العَفافَ))[3].

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾.

قال الشوكاني: (والأَوْلى حملُ ما في الآيةِ على القَولينِ جَميعًا؛ لِصِدقِ الرِّقابِ على شِراءِ العَبدِ وإعتاقِه، وعلى إعانةِ المُكاتَبِ على مالِ الكِتابةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٦).

(١) رواه البخاري (٦٧١٥) واللفظ له، ومسلم (١٥٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٦٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والدارقطني (٢٠٥٥).

صححه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألباني في ((صحيح الموارد)) (١٠١٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، والنَّسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦)، وابن حبان (٤٠٣٠).

حسَّنه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥).

أي: والمَدِينينَ الذين استَدانُوا في غيرِ مَعصيةٍ، وليس لديهم ما يُوَفُّونَ به دينَهم، أو تحمَّلوا مالًا للإصلاحِ بين النَّاس، فيُعطَونَ مِن الزَّكاةِ[1].

عن قَبيصةَ بنِ مُخارِقٍ الهلاليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((تحمَّلْتُ حَمالةً[2]، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسألُه فيها، فقال: أقِمْ حتى تأتِيَنا الصَّدَقةُ، فنأمُرَ لك بها، قال: يا قَبيصةُ، إنَّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحدِ ثَلاثةٍ: رَجُلٍ تحمَّلَ حَمالةً، فحَلَّت له المسألةُ حتى يُصيبَها، ثم يُمسِك، ورجلٍ أصابَتْه جائِحةٌ[3] اجتاحَتْ مالَه، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عَيشٍ[4]-، ورجُلٍ أصابَتْه فاقةٌ حتى يقومَ ثلاثةٌ مِن ذَوي الحِجَا مِن قَومِه: لقد أصابَتْ فلانًا فاقةٌ، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا من عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عيشٍ- فما سواهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ، سُحتًا يأكُلُها صاحِبُها، سُحتًا))[5].

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧).

قال الطحاوي: (﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ فهم المَدِينونَ، لا اختلافَ في ذلك بين أهلِ العِلمِ عَلِمْناه). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٦٧).

وقال القرطبي: (﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ هم الذين رَكِبَهم الدَّينُ، ولا وفاءَ عِندَهم به، ولا خلافَ فيه. اللهمَّ إلَّا مَن ادَّان في سفاهةٍ، فإنَّه لا يُعطَى منها، ولا مِن غيرها، إلَّا أن يتوبَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤).

(٢) الحمالةُ: أن يُصلِحَ الرجلُ بَين قومٍ قد اقتَتَلوا، وسُفِكَت بينهم دِمَاءٌ، وَيحْتَمِلُ دِيَاتِ المقتولينَ؛ رغبةً في سكونِ الفِتنةِ. يُنظر: ((كشف المُشكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٤/ ٢٣٩).

(٣) آفةٌ وحادِثةٌ أهلَكَت مالَه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١٢).

(٤) القِوامُ والسِّدادُ: بمعنًى واحدٍ، وهو ما يُغني مِن الشَّيءِ، وما تُسَدُّ به الحاجةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٣).

(٥) رواه مسلم (١٠٤٤).

أي: وفي النَّفَقةِ لنُصرةِ دِينِ اللهِ، فيُعطَى المُجاهِدونَ مِن الزَّكاةِ ما يُعينُهم على قِتالِ الكُفَّارِ(١).

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللمُسافِرِ، المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فيُعطَى مِن الزَّكاةِ ما يَستعينُ به على سَفَرِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).
قال الواحدي: (﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الغُزاةَ والمُرابِطينَ، عند عامَّةِ المفسِّرين). ((البسيط)) (١٠/ ٥١٥).
وقال ابن عاشور: (وسبيلُ اللهِ: الجِهادُ، أي: يُصرَفُ من أموال الصَّدَقاتِ ما تُقامُ به وسائِلُ الجِهادِ؛ من آلاتٍ وحراسة في الثغور، كل ذلك برًّا وبحرًا... الحقُّ أنَّ سبيل الله يشمَلُ شراءَ العُدَّةِ للجهاد من سلاحٍ، وخيلٍ، ومراكِبَ بحريةٍ، ونوتيةٍ، ومجانيقَ، وللحملانِ، ولبناءِ الحصون، وحَفْرِ الخنادق، وللجواسيسِ الذين يأتونَ بأخبارِ العدُوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).
وذهب ابن تيمية وابن كثير إلى أنَّ الحَجَّ مِن سبيلِ اللهِ، فيدخُلُ في هذا السَّهمِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩).
ومِن الفُقَهاءِ مَن أدخَلَ التفرُّغَ لِطَلَبِ العِلمِ في سبيلِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).
قال الطحاوي: (هم الغائِبونَ عن أموالِهم، الذين لا يَصِلون إليها؛ لبُعدِ المسافة بينهم وبينها، حتى تلحَقَهم الحاجةُ إلى الصَّدَقةِ، فالصَّدَقةُ لهم حينئذٍ مُباحة، وهم في حكمِ الفُقَراء الذين لا أموالَ لهم، حتى يَصِلوا إلى أموالهم، وهذا ممَّا لا اختلافَ فيه بين أهلِ العِلمِ). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٧١).
وقال ابن عاشور: (وأمَّا ابنُ السبيلِ، فلم يُختَلَف في الغريبِ المحتاجِ في بلدِ غُربَتِه: أنَّه مُرادٌ، ولو وجَدَ مَن يُسلِفُه؛ إذ ليس يلزَمُه أن يُدخِلَ نَفسَه تحت مِنَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).
وقال الشنقيطي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ ابنَ السَّبيلِ إذا كان مُسافِرًا في معصيةٍ، لا يجوزُ أن يُعطى مِن الزكاةِ شَيئًا؛ لأنَّه إعانةٌ له على مَعصيتِه، واللهُ يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وإن كان سَفَرُه في قُربةٍ، فلا خلافَ في أنَّه يُعطى. وإن كان في مُباحٍ فقد اختلف

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فرَضَ اللهُ هذه الصَّدَقاتِ فريضةً على الأغنياءِ في أموالِهم، وقَسَمَها بنَفسِه لأهلِ تلك الأصنافِ، المُستَحِقِّينَ لها دونَ غيرِهم(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بمصالحِ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ من ظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، حكيمٌ في قَولِه وفِعْلِه، وفي خَلْقِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ولا يَدخُلُ في تدبيرِه خَلَلٌ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن طلَبَ الدُّنيا وحدَها، آلَ أمْرُه في الدِّينِ إلى النِّفاقِ، وأمَّا من طلَبَ الدُّنيا بقَدرِ ما أَذِنَ اللهُ فيه، وكان غَرَضُه من الدُّنيا أن يتوسَّلَ إلى مصالحِ الدِّينِ، فهذا هو الطَّريقُ الحَقُّ،

العُلَماءُ في ذلك، فقالوا: لا يُعطى؛ لأنَّ المُباحَ لا يَلزَم. وقال بعضُ العلماء: يُعطى؛ لأنَّ السَّفَرَ المباحَ فيه جميعُ التَّسهيلاتِ التي في السَّفَرِ الواجِب، فالسَّفَرُ المباحُ تَقصُرُ فيه الصلاةُ، ويُفطِرُ فيه المُسافِر، ويُفعَلُ فيه كلُّ الترخُّصاتِ، فكذلك يعانُ صاحِبُه عليه. ((العذب النمير)) (٥/ ٥٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

والأصلُ في هذا البابِ أن يكونَ راضيًا بقَضاءِ اللهِ[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ الآيتانِ تَهديانِ المؤمِنَ إلى القناعةِ بكَسْبِه، وما ينالُه بحَقٍّ مِن صدَقةٍ ونَحوِها، ثمَّ بأنْ يُوَجِّهَ قلبَه إلى ربِّه، ولا يرغَبَ إلَّا إليه في شَيءٍ مِن رغائبِه التي وراءَ كَسْبِه وحُقوقِه الشَّرعيَّةِ، لا إلى الرَّسولِ، ولا إلى مَن دُونَه فضلًا وعَدلًا وقُربًا مِن اللهِ تعالى بالأَوْلى[(٢)]!

٣- لا ينبغي للعَبدِ أن يكونَ رضاه وغَضَبُه، تابعًا لِهَوى نفسِه الدُّنيويِّ وغَرَضِه الفاسِدِ، بل الذي ينبغي أن يكونَ هواه تَبعًا لِمرضاةِ رَبِّه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ فَرِضاهم لِغَيرِ اللهِ، وسَخَطُهم لغيرِ اللهِ، وهكذا حالُ مَن كان مُتعلِّقًا برئاسةٍ أو بصورةٍ ونحوِ ذلك مِن أهواءِ نَفسِه؛ إن حصَلَ له رَضِيَ، وإن لم يحصُلْ له سَخِطَ، فهذا عبدُ ما يَهواه مِن ذلك، وهو رقيقٌ له؛ إذِ الرِّقُّ والعُبوديَّةُ في الحقيقةِ، هو رِقُّ القَلبِ وعبوديَّتُه، فما استَرَقَّ القَلبَ واستعبَدَه، فهو عَبدُه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ يتضمَّنُ الأمرَ بالرِّضا والتوكُّلِ، والرِّضا والتوكُّلُ يكتَنِفانِ المَقدورَ، فالتوكُّلُ قبل وقوعِه، والرِّضا بعد وُقوعِه(٥).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ بيَّنَ الله تعالى أنَّ سخطَهم ورِضاهم مَنُوطانِ بمَصلَحتِهم الخاصَّةِ؛ إذا أُعطُوا شيئًا رَضُوا وفَرِحوا، وإذا لم يُعطَوْا شيئًا غَضِبوا وسَخِطوا، وهذه ليست حالةَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ، ولا المصلحةَ العامَّةَ(٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ قال أهل المعاني: إنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على رَكاكةِ أخلاقِ المُنافقينَ ودَناءةِ طِباعِهم؛ وذلك لأنَّه لشدَّةِ شَرَهِهم إلى أخذِ الصَّدَقاتِ عابُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَسَبوه إلى الجَورِ في القِسمةِ، مع أنَّه كان أبعَدَ خَلقِ اللهِ تعالى عن المَيلِ إلى الدُّنيا(٧).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ عبَّرَ عن رضاهم بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان يكونُ لأجلِ العطاءِ في وَقتِه وينقضي، فلا يَعُدُّونَه نعمةً، يتمنَّونَ دوامَ الإسلامِ لِدَوامِها(٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).
(٦) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٣).
(٨) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١).

مَن لَمَزَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان من المُنافِقينَ؛ لأنَّ (مَنْ) اسمٌ مَوصولٌ، وهو من صِيَغِ العُمومِ، والآيةُ وإنْ كانت نزَلَت بسببِ لَمْزِ قومٍ؛ فحكمُها عامٌّ كسائرِ الآياتِ اللَّواتي نزلْنَ على أسبابٍ، فهي تعُمُّ الشَّخصَ الذي نزَلَت بسبَبِه، وتعُمُّ مَن كان حالُه كحالِه، وإذا كان اللَّفظُ أعمَّ مِن السبَّبِ، فالجمهورُ على أنَّه يجبُ الأخذُ بعمومِ القَولِ، ما لم يقُمْ دليلٌ يُوجِبُ القصرَ على السببِ، ويُقال ذلك أيضًا في قولِه تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ... ﴾ فـ (الَّذِينَ) اسمٌ موصولٌ، وهو مِن صيغِ العمومِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ دلَّت (إذا) الفُجائيَّةُ على أنَّ سَخطَهم أمرٌ يفاجِئُ العاقِلَ حين يَشهَدُه؛ لأنَّه يكونُ في غيرِ مَظِنَّةِ سَخَطٍ، وشأنُ الأمورِ المُفاجئةِ أن تكونَ غريبةً في بابِها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ وحدَه هو الكافي؛ حيث جعل اللهُ تعالى الإيتاءَ لله ولِرَسولِه؛ وأمَّا الحَسْبُ فله وَحْدَه، فلم يقُلْ: (وقالوا حسبُنا اللهُ ورسولُه) بل جعلَه خالصَ حقِّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ ولم يقُلْ: (إلى اللهِ راغبونَ وإلى رَسولِه)، بل جعَلَ الرَّغبةَ إليه وحدَه[3].

٦- جعَلَ اللهُ تعالى في الآيةِ الكريمةِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الإيتاءَ أيضًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الواسِطةُ بيننا وبينَ اللهِ في تبليغِ أمْرِه ونَهْيِه، وتحليلِه وتَحريمِه، ووعدِه ووعيدِه؛ فالحلالُ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨).

ما حلَّله اللهُ ورسولُه، والحرامُ ما حرَّمه اللهُ ورسولُه، والدِّينُ ما شرعَه اللهُ ورسولُه(١).

٧- كان سُفيانُ بنُ عُيَينةَ يَقولُ في قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]: (نسَبَ المغنَمَ إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّه أشرَفُ الكَسْبِ، ولم يَقُلْ ذلك في الصَّدَقةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾، ولم يَقُل: لِلَّه وللفقراءِ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، واكتسابُها مَكروهٌ إلَّا للمُضطَرِّ إليها)(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لعلَّ السَّبَبَ في وقوعِ هذه الآيةِ في تضاعيفِ ذِكرِ المُنافِقينَ ومَكائِدِهم؛ أنَّه دلَّ بِكَونِ هذه الأوصافِ مَصارِفَ الصَّدَقاتِ خاصَّةً دونَ غَيرِهم، على أنَّهم لَيسُوا منهم؛ حَسْمًا لأطماعِهم، وأنَّهم بُعَداءُ عنها وعن مصارِفِها، فما لهم ولها، وما سَلَّطَهم على الكلامِ لها ولِمَن قاسَمَها(٣)؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ التَّرتيبُ في هذه الأصنافِ؛ لبيانِ الأحَقِّ فالأحَقِّ للصَّدَقاتِ، على القاعدةِ الغالبةِ عند فُصَحاءِ العَرَبِ في تقديمِ الأهَمِّ فالأهَمِّ، على ما دُونَه في الموضوعِ، وإن كانَت الواوُ لا تفيدُ التَّرتيبَ في معطوفاتِها؛ فالفُقَراءُ والمساكينُ أحَقُّ مِن غَيرِهم بهذه الصَّدَقاتِ؛ لأنَّهم المقصودونَ بها أوَّلًا وبالذَّاتِ، بدليلِ:

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((شرح السنة)) للبغوي (٦/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥-٤٤٦).

((تُؤخَذُ من أغنيائِهم فتُرَدُّ في فُقَرائِهم))(١)، ويليهم العامِلونَ عليها؛ لأنَّهم هم الذين يقومونَ بِجَمعِها وحِفْظِها، ويَليهم المؤلَّفةُ قُلوبُهم عند الحاجةِ إليهم، وهم يُعطَونَ مِن الغنائِمِ أيضًا، فالحاجةُ إليهم عارِضةٌ، لا كالعاملينَ على الصَّدَقاتِ، ويليهم مصلحةُ فَكِّ الرِّقابِ والعِتقِ، وهي مِن المصالِحِ الاجتماعيَّةِ الكماليَّةِ لا الضَّروريَّةِ؛ فإنَّ تأخيرَها لا يُرهِقُ مُعْوِزًا كالفَقيرِ، ولا يُضَيِّعُ مصلحةً تشتَدُّ الحاجةُ إليها، كتأليفِ القُلوبِ، ويليها مُساعَدةُ الغارمِ على الخُروجِ مِن غُرمِه؛ فهو دونَ مُساعَدةِ الرَّقيقِ على الخُروجِ مِن رِقِّه، ويليهم المصلحةُ العامَّةُ المعَبَّرُ عنها بسبيلِ اللهِ(٢)، فهي من قبيلِ العامِّ الذي يُرادُ به ما وراءَ ذلك الخاصِّ ممَّا قَبلَها، الذي تكثُرُ الحاجةُ إليه، وأمَّا ابنُ السَّبيلِ فهو دونَ جَميعِ ما قَبلَه؛ لِنُدرةِ وُجودِه(٣).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إنَّما قَدَّمَ الفُقَراءَ هاهنا؛ لأنَّهم أحوَجُ مِن البقيَّةِ على المشهورِ، لِشدَّةِ فاقَتِهم وحاجَتِهم(٤).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه بيانُ مَصرِفِ الزَّكاةِ، وأنَّها لهذه الثَّمانيةِ، لا يستحِقُّها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم (١٩) واللفظ له، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) وذلك بناءً على رأيه في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقد قال: (والتحقيقُ: أنَّ (سبيل الله) هنا: مصالحُ المسلمينَ العامةُ، التي بها قوامُ أمرِ الدينِ والدولةِ دونَ الأفرادِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٣٥). وقد تقدَّمت الإشارةُ إلى الخلافِ في معناها.

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥).

غَيرُهم[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن جَوَّزَ نقْلَ الصَّدَقةِ[٢].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دلَّ على أنَّ هذه الزكاةَ يتولَّى أخْذَها وتَفرِقَتَها الإمامُ، ومَن يلي مِن قِبَلِه، والدَّليلُ عليه أنَّ الله تعالى جعَلَ للعامِلينَ سَهمًا فيها، وذلك يدلُّ على أنَّه لا بدَّ في أداء هذه الزَّكواتِ مِن عامِلٍ، والعامِلُ هو الذي نصَبَه الإمامُ لأخذِ الزَّكواتِ، فدلَّ هذا النصُّ على أنَّ الإمامَ هو الذي يأخُذُ هذه الزَّكواتِ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ يدلُّ على مسألةٍ بَديعةٍ، وهي أنَّ ما كان مِن فُروضِ الكفاياتِ، فالقائِمُ به يجوزُ له أخذُ الأُجرةِ عليه[٤]، فيجوزُ أخذُ الأجرةِ لكُلِّ مَن اشتغَلَ بشيءٍ مِن أعمالِ المُسلِمينَ، وأيضًا جوازُ أخذِ القُضاةِ الرِّزقَ[٥].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن قال: يُعطَون مع الغِنى، ومَن قال: يُصرَفُ منه في كلِّ ما يتعلَّقُ بالجهادِ؛ مِن مُصالحةِ عَدُوٍّ، وبناءِ حِصنٍ، وحَفرِ خَندقٍ، واتِّخاذِ سلاحٍ وعُدَدٍ، وإعطاءِ جواسيسَ لنا، ولو كانوا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٤).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٢).

نَصارى[(١)].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بعُمومِه من قال: يُعطى، وإن كان له مالٌ ببَلَدِه[(٢)].

١٧- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على أنَّ هذه الأصنافَ مواضعُ للصدقاتِ؛ لا أنَّهم مشتركونَ فيها؛ حتى يكونَ توزيعُها على جميعِهم فرضًا لا يُجْزِئُ غيرُه، أَلَا تراه سبحانه يقولُ: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فغَيَّرَ لفظَ النسقِ والعطفِ على لامِ (الفقراء)؛ وليس يُعْرَفُ في معنى الاشتراكِ أنْ يقالَ: (هذا لفلانٍ وفلانٍ، وفي كذا). ومما يزيدُه تأكيدًا قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ * وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فأخبر أنَّ هؤلاء اللَّامِزينَ ليسوا موضعًا للصدقةِ؛ ولكنَّ مواضعَها كذا وكذا- واللهُ أعلم- فقال: إنَّما الصدقاتُ هذه مواضعُها[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٤٣).

فيه مَجيءُ جوابِ هَذينِ الشَّرطينِ على أَحْسَنِ الوُجوهِ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَلْزَمُ أنْ يُقارِنَه ولا أنْ يَعْتَقِبَه، بَل قد يُجوزُ أنْ يتأخَّر، نَحْوَ: إنْ أَسْلَمتَ دَخْلتَ الجَنَّةَ، فإنَّما يَقْتَضِي مُطْلَقَ التَّرتُّبِ، وأمَّا جوابُ الشَّرطِ الثَّاني فجاء بـ(إذا) الفُجَائيَّةِ، وأنَّه إذا لم يُعْطَوا فاجأَ سَخَطُهم، ولم يُمْكِنْ تَأخُّرُه؛ لِما جُبِلوا عليه من مَحبَّةِ الدُّنيا، والشَّرَهِ في تَحْصيلِها[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

- في قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ تَرْتيبٌ حَسَنٌ، حيثُ أَتَى أوَّلًا بمَقامِ الرِّضا بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، والرِّضا فِعْلٌ قلبيٌّ يَصْدُرُ عَمَّنْ عَلِمَ أنَّه تعالى مُنزَّهٌ عَنِ العَتبِ والخَطأِ، عليمٌ بالعواقبِ؛ فكلُّ قضائِهِ صوابٌ وحقٌّ، لا اعْتِراضَ عليهِ، ثُمَّ ثنَّى بإظهارِ آثارِ الوَصْفِ القَلْبيِّ، وهو الإقرارُ باللِّسانِ، بقولِهِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فحَسْبُنا ما رَضِيَ به، ثُمَّ أتَى ثالثًا بأنَّه تعالى - ما داموا في الحياةِ الدُّنيا- مادٌّ لهم بنِعَمِه وإحسانِه، بقولِه: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فهو إخبارٌ حَسَنٌ؛ إذْ ما مِنْ مؤمنٍ إلَّا ونِعَمُ اللهِ مُترادِفةٌ عليه حالًا ومآلًا، إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرةِ، ثُمَّ أتى رَابِعًا بالجُمْلةِ المُقتضيةِ الالتِجاءَ إلى اللهِ لا إلى غيرِه، والرَّغبةَ إليهِ، بقولِهِ: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فلا يُطْلَبُ بالإيمانِ أَخْذُ الأموالِ، والرِّئاسةُ في الدُّنيا، ولَمَّا كانتِ الجُملتانِ مُتغايرتَينِ- وهما ما تَضمَّنَ الرِّضا بالقلبِ، وما تَضمَّن الإقرارَ باللِّسانِ- تَعاطَفتَا، ولَمَّا كانتِ الجُمْلتانِ الأخيرتانِ مِنْ آثارِ قَولِهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، لَمْ تَتعاطَفا؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩).

إذْ هُما كالشَّرحِ لقولِهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، فلا تَغايُرَ بينهما[١].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ تعليليَّةٌ لِما قَبْلَها، أي: لأنَّنا راغبونَ فَضْلَه، وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: إلى اللهِ راغِبونَ لا إلى غيرِه[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ...﴾ اعْتِراضٌ بين جُمْلةِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وجُمْلَةِ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾، وهو اسْتِطرادٌ نَشَأ عَنْ ذِكْرِ اللَّمْزِ في الصَّدقاتِ أُدْمِجَ فيه تَبيينُ مَصارِفِ الصَّدقاتِ[٣].

- والمقصودُ مِنْ أداةِ الحَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ أنْ ليس شيءٌ مِنَ الصَّدقاتِ بمُسْتَحَقٍّ للذين لَمَزوا في الصَّدقاتِ، وحَصْرُ الصَّدقاتِ في كونِها مُسْتحقَّةً للأصنافِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: الصَّدقاتُ لهؤلاء لا لكم[٤].

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ أضاف فيها الصَّدقاتِ إلى الأصنافِ الأربعةِ الأُولى بلامِ المِلْكِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وأضافَها إلى الأربعةِ الأخيرةِ بـ «في»

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

الظَّرفيةِ، فقال: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ لأنَّ الأصنافَ الأربعةَ الأوائلَ يَأخُذونَ ما يُدفَعُ إليهم مِلكًا، فكان دُخولُ اللَّامِ لائقًا بهم، وأمَّا الأربعةُ الأواخرُ فلا يَمْلِكونَ ما يُصْرَفُ نَحوَهم، بلْ ولا يُصْرَفُ إليهم، ولكِنْ في مصالِحَ تتعلَّقُ بهم؛ فالمالُ الذي يُصْرَفُ في الرِّقابِ إنَّما يَتناوَلُه السَّادةُ المُكاتَبونَ والبائعونَ، فليس نَصيبُهم مصروفًا إلى أيديهم حتَّى يُعبَّرَ عَنْ ذلك باللَّامِ المُشْعِرةِ بتَملُّكِهم لِما يُصْرَفُ نَحْوهم، وإنَّما هم مَحالُّ لهذا الصَّرْفِ والمَصْلحةِ المُتعلِّقةِ به، وكذلك الغارِمونَ إنَّما يُصْرَفُ نَصيبُهم لأربابِ دُيونِهم؛ تَخليصًا لذِمَمِهم لا لَهم، وأمَّا سبيلُ اللهِ فواضِحٌ فيه ذلك، وأمَّا ابنُ السبيلِ فكأنَّه كان مُنْدرِجًا في سبيلِ اللهِ؛ وإنَّما أُفْرِدَ بالذِّكْرِ تنبيهًا على خُصوصيَّتِه، مَعَ أنَّه مُجرَّدٌ مِنَ الحَرْفينِ جَميعًا، وعَطْفُه على المَجْرورِ باللَّامِ مُمْكِنٌ، ولكِنَّهُ على القريبِ منه أَقْرَبُ[(١)].

وقيل: عُدِلَ عنِ اللَّامِ إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؛ للإيذانِ بأنَّهُمْ أَرْسَخُ في اسْتِحقاقِ التَّصدُّقِ عليهم ممَّنْ سَبَقَ ذِكْرُه؛ لأنَّ (في) للوِعاءِ، فنبَّهَ على أنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بأنْ تُوضَعَ فيهم الصَّدقاتُ، ويُجْعلوا مَظِنَّةً لها ومَصبًّا؛ وذلك لِما في فَكِّ الرِّقابِ مِنَ الكتابةِ أو الرِّقِّ أو الأَسْرِ، وفي فَكِّ الغارِمينَ مِنَ الغُرْمِ مِنَ التَّخليصِ والإنقاذِ، وتَكريرُ (في) في قولِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه فَضْلُ تَرجيحٍ لهذَينِ على الرِّقابِ والغارمينَ، وللإيذانِ بزيادةِ فَضْلِهما في الاسْتِحقاقِ[(٢)].

- واختيارُ حَرفِ (على) في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ لِما يُشعِرُ به أصلُ معناه مِن التمكُّنِ، أي: العاملينَ لأجْلِها عملًا قويًّا؛ لأنَّ السُّعاةَ

(١) يُنظر: ((حاشية تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٥٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

يتجَشَّمونَ مَشقَّةً وعمَلًا عظيمًا، ولعلَّ الإشعارَ بذلك لِقَصدِ الإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استحقاقِهم مُركَّبةٌ من أمرينِ: كَونِ عَمَلِهم لفائدةِ الصَّدقةِ، وكونِه شاقًّا[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

الآيات (٦١-٦٣)

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي: يقبَلُ كُلَّ ما قيلَ له، ويسمعُ مِن كل أحدٍ[(١)].

﴿يُحَادِدِ﴾: أي: يُخالِفْ ويحارِبْ ويُعادِ؛ يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غيرِ حَدِّه، وأصلُ (حدد): يدلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكون فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ طائفةً يُؤذونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامِعةٌ لكل ما يُقال له ويُصدِّقه، فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

قال السمين الحلبي في قولِه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: (فيه تأويلان أحدُهما: أنه سُمِّي بالجارحةِ؛ لأنَّها آلةُ السماعِ، وهي معظمُ ما يُقصد منه. وقيل: المرادُ بالأُذنِ هنا الجارحةُ، وحينئذٍ تكونُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذُو أُذُنٍ. والثاني: أنَّ الأُذنَ وصفٌ على فُعُل كأُنُف، يقال: أَذِنَ يَأْذَنُ فهو أُذُن).

((الدر المصون)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّه أذنُ خَيرٍ لهم؛ يؤمِنُ باللهِ تعالى وَحْدَه، ويصَدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبرونَه به، لا أهلَ النِّفاقِ والكُفرِ، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةٌ للمُؤمِنينَ الصَّادقينَ منهم، وأمَّا الذينَ يُؤذونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلهم عذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ للذينَ آمنوا، يبتغونَ رِضاهم، وبيَّنَ أنَّ اللهَ ورَسولَه أحَقُّ بالإرضاءِ مِن المؤمنينَ، إن كانوا حقًّا مُؤمنينَ كما يدَّعونَ.

ألم يعلَمْ هؤلاء المُنافِقونَ أنَّه مَن يخالِفِ اللهَ ورسولَه ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ ماكثًا فيها أبدًا، ذلك هو الهوانُ والذلُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن جَهالاتِ المُنافِقينَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ في رسولِ اللهِ: إنَّه أُذُنٌ، على وجهِ الطَّعنِ والذَّمِّ(١).

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ جماعةٌ يؤذونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَعيبونَه ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامعةٌ؛ فمن قال له شيئًا صَدَّقَه، ومن حدَّثَه فينا صدَّقَه، فإذا جِئْنا وحَلَفْنا له بالكَذِبِ مُعتَذرينَ عمَّا بلَغَه منا، صَدَّقَنا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢١)،

﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ: النبيُّ مُصغٍ للخَيرِ، لا مستمِعٌ للشَّرِّ، وإن سَمِعَ ما يبلُغُه عنكم لم يؤاخِذْكم به؛ لِسَعةِ صَدرِه، ويسمَعُ مَعاذيرَكم، ويقبَلُها منكم؛ لِحُسنِ خُلُقِه[1].

﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: والنبيُّ يؤمِنُ بالله تعالى وَحْدَه وبما أوحى إليه- ومِن ذلك ما أمَرَه به من العَفوِ عن النَّاسِ، وأمرِهم بالمعروفِ، والإعراضِ عن الجاهِلينَ مِنهم- وهو

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

ذهب بعض المفسِّرينَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾ تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾. وممَّن اختار هذا القولَ: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ ﴿يُؤۡذُونَ﴾ لفظٌ يعمُّ جميعَ ما كانوا يفعلونَه ويقولونَه في جهةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الأذى، وخصَّ بعد ذلك مِن أذاهم: قَولَهم ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

قال ابن عطية: (رُوِيَ عن الحسن البصري ومجاهدٍ: أنَّهما تأوَّلَا أنَّهم أرادوا بقولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾ أي: يسمَعُ منا معاذيرَنا وتنَصُّلَنا، ويقبَلُه، أي: فنحن لا نبالي مِن أذاه، ولا الوقوعِ فيه؛ إذ هو سمَّاعٌ لكُلِّ ما يقال من اعتذارٍ ونحوه، فهذا تنقُّصٌ بقلَّةِ الحَزامةِ، والانخداعِ، وروي عن ابن عبَّاسٍ وجماعةٍ معه: أنَّهم أرادوا بقولهم ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾ أي: يسمَعُ كُلَّ ما يُنقَل إليه عنا، ويُصغِي إليه ويَقبَلُه، فهذا تشَكٍّ منه، ووصْفٌ بأنَّه يَسوغُ عنده الأباطيلُ والنَّمائِمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

وممن اختار قولَ الحسنِ ومجاهدٍ: القرطبيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

وممن اختار قول ابن عبَّاسٍ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

يُصدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهْلَ النِّفاقِ والكُفرِ باللهِ تعالى[(١)].

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾.

أي: والنَّبيُّ رحمةٌ للمُؤمِنينَ منكم، الصَّادقينَ في إيمانِهم؛ لأنَّه سبَبُ إيمانِهم وهِدايَتِهم إلى ما فيه سَعادتُهم في دنياهم وآخِرتِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيف رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأتي ضُعَفاءَ المُسلِمينَ، ويَزورُهم، ويعودُ مَرضاهم، ويَشهَدُ جَنائِزَهم))[(٣)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١١٩٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٦/ ٨٤) (٥٥٨٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٣٥)، ورواه الطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) بنحوه مختصرًا.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٤٩٥)، والعيني في ((نخب الأفكار)) (٧/ ٣٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٨٧٧).

((اللهمَّ إنَّما أنا بشَرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِن المُسلِمينَ سَبَبتُه، أو لَعَنْتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعَلْها له زكاةً ورَحمةً))[1].

وفي رواية ((اللهُمَّ إنَّما محمَّدٌ بَشَرٌ، يغضَبُ كما يغضَبُ البشَرُ، وإنِّي قد اتَّخَذتُ عندك عهدًا لن تُخلِفَنيه؛ فأيُّما مُؤمِنٍ آذيتُه، أو سبَبتُه، أو جَلَدتُه، فاجعَلْها له كفَّارةً، وقُربةً تُقَرِّبُه بها إليك يومَ القيامةِ))[2].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: والذين يُؤذونَ رَسولَ اللهِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالِهم أو أفعالِهم؛ لهم عذابٌ مُوجِعٌ في الدُّنيا والآخرةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن قبائحِ أفعالِ المُنافِقينَ، وهو: إقدامُهم على اليَمينِ الكاذبةِ، فهم يؤذونَ النبيَّ، ويُسيئونَ القَولَ فيه، ثمَّ يَحلِفونَ لكم[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

قال السعدي: (ومِن العَذابِ الأليمِ: أنَّه يتحتَّمُ قتلُ مُؤذِيه وشاتمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

أي: يحلِفُ المُنافِقونَ باللهِ لكم كَذِبًا -أيُّها المؤمِنونَ- فيتبَرَّؤونَ مِن أذاهم لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويؤكِّدونَ لكم أنَّهم على دِينِكم؛ يبتغونَ بذلك رِضاكم(١).

عن سعيد بنِ جُبَير، أنَّ ابنَ عبَّاس رَضيَ اللهُ عنهما حدَّثَه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه، وعنده نَفَرٌ من المُسلِمينَ، قد كاد يَقلِصُ(٢) عنهم الظِّلُّ، قال: فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تُكَلِّموه، قال: فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمه، قال: علامَ تَشتِمُني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دَعاهم بأسمائِهم؟ قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم، فحَلَفوا باللهِ واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ ...﴾ الآية))(٣).

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: واللهُ ورسولُه أحقُّ بالإرضاءِ منكم- أيُّها المؤمِنونَ- إن كان هؤلاءِ المُنافِقونَ مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه حقًّا كما يدَّعونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يَقلِصُ: أي: ينقَبِضُ. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٢/ ١٨١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٩٥)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٨٣).

صحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في ((التعليق على المسند)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسناده الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابن كثير في ((التفسير)) (٨/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي))

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّ حَلِفَ المُنافِقينَ إنَّما هو لِكَراهةِ الخِزيِ عند المُؤمِنينَ، وبَيَّنَ مَن هو الأحَقُّ بأن يُرضُوه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك في استفهامِ إنكارٍ وتوبيخٍ، مُبَيِّنًا أنَّهم فَرُّوا من خزيٍ مُنقَضٍ، فسَقَطوا في خِزيٍ دائِمٍ، فقال تعالى[١]:

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافقونَ أنَّه مَن يُخالِفِ اللهَ ورَسولَه، ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ في الآخرةِ، ماكِثًا فيها أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ[٢]؟!

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أي: دخولُ نارِ جَهنَّمَ والخلودُ فيها، هو الهوانُ والذُّلُّ الكَبيرُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:

(ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٦، ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٧).

٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

المؤمِنُ لا يُقدِّمُ شَيئًا على رِضا ربِّه، ورِضا رَسولِه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جَرَت العادةُ باستقراءِ القُرآنِ أنَّه إذا كان الإيمانُ باللهِ عدَّاه بالباءِ، كأن يَقولَ: ﴿ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٢]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٤]؛ لأنَّه من باب الإقرارِ به تعالى، وإذا كان الإيمانُ معناه تصديقُ مَخلوقٍ، فإنَّه يُعَدِّيه باللامِ دائِمًا؛ ولذا قال تعالى هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويُصَدِّقُ المُؤمنينَ. ولا يكادُ هذا التَّصديقُ المتعَلِّقُ بالآدميِّينَ يُوجَدُ في القرآنِ إلَّا مَجرورًا باللَّامِ، كقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾(٢) [يوسف: ١٧].

٢- قد يُشكِلُ على بعضِهم قَولُ الله تعالى هنا: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فقيَّد كَونَه رَحمةً للذين آمنوا، وفي سورةِ الأنبياءِ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلم يقَيِّدْ كونَه رحمةً بالإيمان، بل قال لجميعِ العالَمينَ، والجوابُ عن ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا أرسَلَه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ رحمةً لجميعِ الخلائِقِ، إلَّا أنَّ بَعضَهم قَبِلَ مِن الله التفَضُّلَ بتلك الرَّحمةِ فحازها، فخصَّ في قَولِه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضُهم لم يقبَلْها ولم يَحُزْها، ولا ينافي ذلك أنَّ الله أعطاه تلك الرَّحمةَ، إلَّا أنَّه لم يقبَلْها ولم يَحُزْها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠-٦٠١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ قَبولَ يَمينِ الحالِفِ، وإن لم يَلزَمِ المحلوفَ له الرِّضا، واليمينُ حقٌّ للمُدَّعي[1].

٤- مِن عادةِ المُنافِقينَ، والكاذبينَ مِن عُصاةِ المُؤمنينَ وغَيرِهم، أن يُكثِروا الحَلِفَ لِيُصَدَّقوا؛ لأنَّهم لعِلْمِهم بكَذِبِهم يظنُّونَ أو يَعلَمونَ أنَّهم مُتَّهَمونَ في أقوالِهم وأعمالِهم، فيَحلِفونَ لإزالةِ التُّهمةِ، وهذا معلومٌ في كلِّ زمانٍ؛ قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ أن يكونَ اليمينُ باللهِ عزَّ وجلَّ[3].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ رضا اللهِ لا يحصُلُ بإظهارِ الإيمانِ، ما لم يقترِنْ به التَّصديقُ بالقَلبِ والأعمال، فيَبطُلُ بذلك قولُ الكرَّاميَّةِ الذين يزعُمونَ أنَّ الإيمانَ ليس إلَّا القَولَ باللِّسانِ[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حسُنَ قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ لأنَّه طال مُكثُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معهم، وكثُرَت نهاياتُه للتَّحذيرِ عن معصيةِ الله والتَّرغيبِ في طاعتِه، وقد قال أهلُ المعاني: قول: (ألم تعلَمْ) خطابٌ لِمَن حاول الإنسانُ تعليمَه مُدَّةً، وبالغَ في ذلك التعليمِ، ثمَّ إنَّه لم يعلَمْ،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

فيقالُ له: ألم تعلَمْ بعد هذه السَّاعاتِ الطويلةِ والمدَّةِ المَديدةِ(١)؟!

٨- أذى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادَّةٌ لله ولِرَسولِه؛ لأنَّه قال هذه الآيةَ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فلو لم يكونوا بهذا الأذى مُحادِّين، لم يَحسُنْ أن يُوعَدوا بأنَّ للمُحادِّ نارَ جهنَّمَ(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ وكذا قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بيانُ تلازُمِ الحَقَّيْن: حقِّ اللهِ وحقِّ رسولِه؛ وأنَّ جهةَ حُرمةِ اللهِ تعالى وحُرمةِ رسولِه جهةٌ واحدةٌ، فمَن آذى الرسولَ فقد آذى اللهَ، ومَن أطاعَه فقد أطاعَ اللهَ؛ لأنَّ الأمَّةَ لا يَصِلونَ ما بينهم وبين ربِّهم إلَّا بواسطةِ الرَّسولِ، ليس لأحدٍ منهم طريقٌ غيرُه، ولا سبَبٌ سواه، وقد أقامه اللهُ مقامَ نفسِه في أمْرِه ونهيِه، وإخبارِه وبيانِه، فلا يجوزُ أنْ يُفرَّقَ بين الله ورسولِه في شيءٍ من هذه الأمورِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ التَّعبيرُ بالنبيِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ قَبْلَه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾، فكان مُقْتضى الظاهِرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١).

أنْ يُقالَ: (ومِنْهُمْ الذين يُؤذونَكَ)، فعُدِلَ عَنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وَصْفِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيذانِ بشَناعةِ قولِهِمْ، ولزِيادةِ تَنْزيهِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالثَّناءِ عليه بوَصْفِ النُّبوةِ، بحيثُ لا تُحْكَى مَقالتُهم فيه إلَّا بَعْدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تَنْزيهِه، والتَّعريضِ بجُرْمِهم فيما قالوه[١].

- قولُه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ مِنْ صِيغِ التَّشبيهِ البَليغِ، يَعْنونَ: أنَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالأُذُنِ في تلقِّي المسموعاتِ لا يَرُدُّ مِنْها شيئًا، وهو كِنايةٌ عَنْ تصديقِهِ بكُلِّ ما يَسْمَعُ مِنْ دونِ تَمييزٍ بين المقبولِ والمردودِ[٢].

- وفي تَسمِيَتِهم إيَّاه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالجارِحةِ ﴿أُذُنٌ﴾: مُبالغةٌ، كأنَّه مِن فَرطِ استماعِه، صار جُملَتُه آلةً للسَّماعِ،كما يُسمَّى الجاسوسُ عَينًا[٣].

- قولُه: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ فيه دَلالةٌ على المُبالَغةِ في الجَودةِ والصَّلاحِ، كأنَّهُ قيل: نَعَمْ هو أُذُنٌ، ولكِنْ نِعْمَ الأذُنُ، وهو مِن قَبيلِ قَولِهم: رَجُلُ صِدْقٍ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ مِن بابِ أُسلوبِ الحَكيمِ[٥]؛ فهو في أوَّلِه يُوافِقُهم على قَولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، ثمَّ يُتبِعُه ما يَنقُضُه عليهم حتَّى يُنقَضَ على رؤوسِهم، مِن قَبيلِ القَولِ بِموجَبِ العِلَّةِ[٦]، فلا شيءَ أبلَغُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).

(٥) أسلوب الحكيم: هو تَلقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يَترقَّبُ؛ بحمْلِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأولَى بالقَصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مُقتضَى الظَّاهِر.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢ - ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ١٣٢).

(٦) القول بمُوجَب -بفتح الجيم- العلة: هو تسليمُ مقتضَى الدليلِ، مع بقاءِ النزاعِ، بأن يظهرَ

الرَّدِّ عليهم بهذا الوَجهِ؛ لأنَّه في الأوَّلِ إطماعٌ لهم بالموافَقةِ، ثمَّ كَرَّ على طَمَعِهم بالحَسمِ، وأعقَبَهم في تنقُّصِه باليأسِ منه[(١)].

- قولُه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عُدِّي فِعْلُ الإيمانِ إلى اللهِ تعالى بالباءِ، وإلى المؤمنينَ باللَّامِ؛ وذلك لأنَّهُ قُصِدَ التَّصديقُ والإقرارُ باللهِ الذي هو نَقيضُ الكُفْرِ فعُدِّي بالباءِ ﴿بِٱللَّهِ﴾، وقُصِدَ الاسْتِماعُ للمؤمنينَ، وأنْ يُسَلِّمَ لهم ما يقولونَ ويُصدِّقَه؛ لكونِهم صادقينَ عِنده، فعُدِّي باللَّامِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

- وقولُه: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكْرِ - وإنْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَحْمةً للعالَمينَ -؛ لأنَّ ما حَصَل لهم بالإيمانِ بسَبَبِ الرَّسولِ لم يَحْصُلْ لغيرِهم، وخُصُّوا هنا بالذِّكْرِ وإنْ كانوا قد دَخَلوا في العالَمِينَ؛ لحصولِ مَزيَّتِهم[(٣)].

- قولُه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ عَطْفٌ على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، أي: وهو رَحْمةٌ، بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعِلِ؛ للمُبالَغةِ[(٤)].

عدمُ استلزامِه الدليلَ لمحلِّ النزاعِ، أو: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجبًا لعلتِه، مع استبقاءِ الخلافِ، أو: هو تسليمُ كونِ الوصفِ علةً، وبيانُ أنَّ معلولها غير ما ادعاه المعلل.

يُنظر: ((أصول الشاشي)) (ص: ٣٤٦)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٥)، ((الفروق)) للقرافي (٤/ ٨٨)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي الغرناطي (ص: ١٨٩)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري الحنفي (٤/ ١٠٣ - ١٠٤)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اعْتِراضٌ مسوقٌ مِنْ قِبَلِه عزَّ وجلَّ على نَهْجِ الوعيدِ غيرُ داخلٍ تَحْتَ الخِطابِ، وفي تَكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لهم، ثُمَّ جَعْلِ الجُملةِ خبرًا للموصولِ، ما لا يَخفَى مِنَ المُبالَغةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ الرِّسالةِ مُضافًا إلى الاسْمِ الجليلِ؛ لغايةِ التَّعظيمِ، والتَّنبيهِ على أنْ أَذِيَّتَهُ راجعةٌ إلى جَنابِه عزَّ وجلَّ، مُوجِبةٌ لِكَمالِ السَّخَطِ والغَضَبِ[2]، وأيضًا أبْرَز اسْمَ الرَّسولِ ولم يأتِ به ضميرًا على نَسَقِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بلَفْظِ الرَّسولِ؛ تَعظيمًا لشَأنِهِ، وجَمْعًا له في الآيةِ بينَ الرُّتبتَينِ العَظيمتينِ مِنَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ، وإضافتُه إليه زيادةٌ في تشريفِهِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ فيه عدولٌ عن أسلوبِ الحِكايةِ عنهم، بكَلِمةِ ﴿وَمِنۡهُمُ﴾؛ لأنَّ ما حُكِيَ هنا حالٌ مِن أحوالِ جَميعِهم[4].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ فيه إفرادُ الضَّميرِ في ﴿يُرۡضُوهُ﴾ مَعَ أنَّ المذكورَ رِضا اللهِ تعالى ورِضا رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لا تَفاوُتَ بين رِضا اللهِ ورِضا رسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكانَا في حُكْمِ مُرْضًى واحدٍ، فإرضاءُ الله إرضاءٌ للرسولِ، وإرضاءُ الرسولِ إرضاءٌ لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، فلمَّا تلازما صارا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

كأنهما شيءٌ واحدٌ، أو للإيذانِ بأنَّ رِضاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْدرِجٌ تَحتَ رِضاهُ سُبْحانَه، وذَهَب غيرُ واحدٍ من علماءِ العربيةِ وعلماءِ التفسيرِ إلى أن رجوعَ الضميرِ على أحدِ المتعاطفينِ اكتفاءً به؛ لأَنَّ الآخَرَ مفهومٌ منه، أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ، كثيرٌ في القرآنِ العظيمِ، وفي كلامِ العربِ[١].

- قولُه: ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فيه حَذْفُ الجوابِ؛ تعويلًا على دَلالةِ ما سَبَقَ عليه، والتَّقديرُ: إنْ كانوا مُؤمنينَ فلْيُرْضوا اللهَ ورسولَه بما ذُكِرَ؛ فإنَّهما أَحَقُّ بالإرضاءِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مِنْ جُملةِ ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مَنْزلةَ التَّعليلِ؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَرْضَى لنَفْسِه عملًا يؤولُ به إلى مِثْلِ هذا العذابِ، فلا يُقدِمُ على ذلك إلَّا مَنْ لا يَعْلَمُ أنَّ مَنْ يُحادِدِ اللهَ ورَسولَه يَصِرْ إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ[٣].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَلَمْ ...﴾ مُسْتَعْمَلٌ في الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ؛ لأنَّ عَدَمَ عِلْمِهم بذلك مُحقَّقٌ بضَرورةِ أنَّهم كافِرونَ بالرَّسولِ، وبأنَّ رِضا اللهِ عِنْدَ رِضاه، ولكِنْ لَمَّا كان عَدَمُ عِلْمِهم بذلك غريبًا- لوجودِ الدَّلائلِ المُقْتضيةِ أنَّه ممَّا يَحِقُّ أنْ يَعْلموهُ- كان حالُ عَدَمِ العِلْمِ به حالًا مُنْكرًا[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور))

- وقولُه: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ... ﴾ ﴿... فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ فيه تكريرٌ لـ (أنَّ)؛ للتَّأكيدِ، حيثُ أُعيدتْ (أنَّ) في الجوابِ لتَوكيدِ (أنَّ) المذكورةِ قَبْلَ الشَّرطِ تَوكيدًا لفظيًّا، فإنَّها لَمَّا دَخَلتْ على ضَميرِ الشَّأنِ وكانت جُمْلةُ الشَّرطِ وجوابِهِ تفسيرًا لضميرِ الشَّأنِ، كان حُكْمُ (أنَّ) ساريًا في الجُمْلتينِ، بحيثُ لو لَمْ تُذْكَرْ في الجوابِ لعُلِمَ أنَّ فيه مَعْناها، فلَمَّا ذُكِرتْ كان ذِكْرُها توكيدًا لها[1].

- والهاء في (أنَّه) ضميرُ الأمرِ والشَّأنِ، والمعنى: أنَّ الأمرَ والشَّأنَ كذا وكذا. والفائدةُ في هذا الضَّميرِ هو أنَّه لو ذُكِرَ بعد كلمة (أنَّ) ذلك المبتدأ والخبَر، لم يكن له كثيرُ وَقْعٍ، فأمَّا إذا قلتَ: الأمرُ والشأنُ كذا وكذا، أوجبَ مَزيدِ تَعظيمٍ وتهويلٍ لذلك الكلامِ[2]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه لَمَّا كان ذِكرُ الشَّيءِ مُبهمًا ثمَّ مُفَسَّرًا أضخَمَ، أضمَرَ للشَّأنِ، فقال: ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشَّأن العَظيم ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾[3].

- وجُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ لِما سَبَقَ؛ فالخزيُ: الذُّلُّ والهوانُ المُقارِنُ للفَضيحةِ والنَّدامةِ، وهي ثَمراتُ نِفاقِهم حيثُ يُفْتَضَحونَ على رُؤوسِ الأشهادِ بظُهورِها ولُحوقِ العذابِ الخالدِ بهم، والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ الخالدِ بذلك؛ إيذانًا ببُعدِ دَرجتِه في الهولِ والفَظاعةِ[4].

(١٠/ ٢٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿نَخُوضُ﴾: أي: نَلهُو بالحديثِ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، وتخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا، وتداخَلَ كلامُهم، ويُستعملُ الخوضُ في كلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وأذًى، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[(١)].

﴿مُجْرِمِينَ﴾: أي: مُذنبين أو كافِرينَ، والجُرمُ بِالضَّمِّ: لا يُطلقُ إلَّا على الذَّنبِ الغليظِ، وأصل الجَرْم: القطعُ، والجَرْم: قطع الثَّمرةِ عن الشَّجرِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: يَخشَى المُنافِقونَ أن يُنَزِّلَ اللهُ في شَأنِهم سورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم من الكُفرِ والنِّفاقِ، ثم يأمرُ نبيَّه أن يقولَ لهم: استَمِرُّوا على ما أنتم عليه منَ الاستهزاءِ؛ إنَّ اللهَ مُظهِرٌ ما تَخشَونَ ظُهورَه.

ولَئِن سألتَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- عمَّا قالوا من الطَّعنِ في أصحابِك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

ودينِك، ليقولُنَّ: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في الإسلامِ والمُسلِمينَ، قل لهم- يا مُحمَّدُ-: أباللهِ سُبحانه وآياتِه ورَسولِه كُنتُم تستخِفُّون وتَسخَرونَ؟! لا تعتَذِروا- أيُّها المُنافِقونَ- قد كَفَرتُم بعد أنْ كُنتُم مُؤمِنينَ، إنْ نَعْفُ عن جماعةٍ منكم لِحُسنِ تَوبتِهم، نُعَذِّبْ جماعةً أُخرَى منهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: يَخشى المُنافِقونَ أن يُنزِّلَ الله عزَّ وجلَّ في شأنِهم سُورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم، مِن الكُفرِ والنِّفاقِ[١] فيَعلَم المؤمنونَ أسرارَهم[٢].

﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: استمِرُّوا على ما أنتم عليه مِن الاستهزاءِ؛ إنَّ

---

(١) قال القرطبي: (كان مِن المنافقينَ من يتردَّدُ، ولا يقطَعُ بتكذيبِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا بِصِدقِه. وكان فيهم من يَعرِفُ صِدقَه، ويُعانِدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٢، ٦١٣).
قال الزمخشري: (الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُم﴾ للمؤمنينَ. وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: للمُنافقين، وصحَّ ذلك؛ لأنَّ المعنى يقودُ إليه. ويجوز أن تكونَ الضَّمائِرُ للمُنافقينَ؛ لأنَّ السورةَ إذا نزلت في معناهم، فهي نازلة عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٨)، والثاني أولَى؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أن يتحدَ مرجعُها. يُنظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٠٤) .

اللهَ مُظهِرٌ للمُؤمِنينَ- بما يُنَزِّلُ من القُرآنِ- ما تَخشَونَ ظُهورَه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قال رجلٌ في غزوةِ تَبوكَ في مجلسٍ يومًا: ما رأيتُ مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاء، لا أرغَبَ بُطونًا، ولا أكذَبَ ألسِنةً، ولا أجبَنَ عند اللِّقاءِ! فقال رجلٌ في المجلِسِ: كذَبْتَ، ولكنَّك مُنافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونزل القرآنُ، قال عبدُ الله: فأنا رأيتُه مُتعلِّقًا بِحَقَبِ ناقةِ[2] رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنكُبُه الحِجارةُ[3]، وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما كنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٣).
قال أبو حيان: (وفعَلَ ذلك تعالى في هذه السُّورةِ، فهي تُسمَّى الفاضحةَ؛ لأنَّها فضحَت المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) الحَقَبُ: حَبلٌ يُشَدُّ به رحْلُ البَعيرِ إلى بطنِه؛ كي لا يتقَدَّمَ إلى كاهِلِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٤٣).

(٣) تَنكُبُه الحِجارةُ: أي: تُمِيلُه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٩).

تَسْتَهْزِءُونَ ﴾))[١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾.

أي: ولَئِن سألتَ المُنافقينَ - يا مُحمَّدُ - عمَّا قالوه في خَلَواتِهم من الطَّعنِ في أصحابِك ودينِك، ليَقولُنَّ لك: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في المسلمينَ والإسلامِ[٢].

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: قُل - يا مُحمَّدُ - للمُنافقين: أباللهِ سُبحانه وآياتِ كِتابِه ورَسولِه مُحمَّدٍ، كنتُم تستخِفُّونَ وتَسخَرونَ؟! كيف تُقدِمونَ على إيقاعِ ذلك[٣]؟!

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كشَفَ اللهُ أمْرَ استهزائِهم، أردَفَه بإظهارِ قِلَّةِ جدوى اعتذارِهم؛ إذ قد تلبَّسوا بما هو أشنَعُ وأكبَرُ ممَّا اعتَذَروا عنه، وهو الْتباسُهم بالكُفرِ بعد إظهارِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٣٠)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١١/ ٥٤٤).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (١٢٢): رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد؛ فلم يُخرج له مسلمٌ إلَّا في الشَّواهد، وله شاهد بسندٍ حسَنٍ.
وقال الشنقيطي: (نزلَتْ هذه الآيةُ في غزوةِ تَبوكَ، بإطباقِ المفسِّرينَ، في قومٍ استهزَؤوا باللهِ وآياتِه ورَسولِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٦١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٥).

الإيمانِ، فإنَّ الله لَمَّا أظهر نِفاقَهم، كان ما يصدُرُ عنهم من الاستهزاءِ أهوَنَ(١).

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقينَ: لا تَذكُروا أعذارًا؛ فإنَّها لن تنفَعَكم(٢).

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾.

أي: قد أظهرتُم الكفرَ باستهزائِكم بدينِ الله بعدَ أن كنتُم تُظهرونَ الإيمانَ(٣).

وقيل: المعنى: قد كفَرْتُم باستهزائِكم باللهِ وآياتِه ورسولِه، بعد أنْ كنتُم مُؤمنينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٨).

(٣) وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والسمعانيُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بإسنادِ الإيمانِ إليهم: إظهارُ الإيمانِ، وإلَّا فهم لم يُؤمِنوا إيمانًا صادقًا. والمرادُ بإيمانهم: إظهارُهم الإيمانَ، لا وقوعُ حقيقتِه، وقد أنبأ عن ذلك إضافةُ الإيمانِ إلى ضَميرِهم دونَ تَعريفِ الإيمانِ باللام المفيدةِ للحَقيقةِ، أي بعد إيمانٍ هو مِن شَأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإيمانُ الصُّوريُّ غيرُ الحَقِّ، ونظيرُه قَولُه تعالى الآتي: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائفِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

(٤) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٠، ٢٧٢، ٢٧٣).

قال ابن تيمية: (وقَولُ من يقول عن مِثل هذه الآياتِ: إنَّهم كفَروا بعد إيمانِهم بلسانِهم مع كُفرِهم أوَّلًا بقُلوبهم، لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإيمانَ باللِّسانِ مع كُفرِ القلبِ، قد قارَنَه الكفرُ، فلا يقالُ: قد كفرْتُم بعد إيمانِكم؛ فإنَّهم لم يزالوا كافرينَ في نفسِ الأمرِ، وإن أُريدَ أنَّكم أظهَرْتم الكُفرَ بعد إظهارِكم الإيمانَ، فهم لم يُظهِروا للنَّاسِ إلَّا لخواصِّهم، وهم مع خواصِّهم ما زالوا هكذا؛ بل لَمَّا نافَقوا وحَذِروا أن تُنزَّلَ سورةٌ تُبيِّنُ ما في قلوبهم من النِّفاقِ وتكلَّموا بالاستهزاءِ، صاروا كافرينَ بعد إيمانِهم، ولا يدلُّ اللفظُ على أنَّهم ما زالوا مُنافقينَ... فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بالله وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

أي: إن نعفُ عن جماعةٍ منكم لِتَوبتِهم الصَّادقةِ، نُعذِّبْ جماعةً أخرى منهم؛ بسببِ أنَّهم كانوا مُقيمين على كفرِهم، مُصِرِّينَ على نفاقِهم، وطَعْنِهم في رَسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسَلَّم مِن غيرِ توبةٍ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَن أسَرَّ سريرةً- خُصوصًا السَّريرةَ التي يَمكُرُ فيها بدينِ اللهِ تعالى، ويَستهزئُ به وبآياتِه ورسولِه- فإنَّ الله تعالى يُظهِرُها ويفضَحُ صاحِبَها، ويُعاقِبُه أشَدَّ العقوبةِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ الاستهزاءَ بالدِّينِ -كيف كان- كُفرٌ باللهِ؛ وذلك لأنَّ الاستهزاءَ يدُلُّ على الاستخفافِ، والعُمدةُ الكُبرى في الإيمانِ تَعظيمُ اللهِ تعالى بأقصى الإمكانِ، والجمعُ بينهما مُحالٌ[3].

٣- التوبةُ مَقبولةٌ مِن كلِّ ذَنبٍ، وإن كان عظيمًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٧، ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إن قيل: المُنافِقُ كافِرٌ، فكيف يَحذَرُ نُزولَ الوَحيِ على الرَّسولِ؟ فالجوابُ أنَّ في ذلك وجوهًا:

الأول: أنَّ القَومَ وإن كانوا كافرينَ بِدينِ الرَّسولِ، إلَّا أنَّهم شاهَدُوا أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُخبِرُهم بما يُضمِرونَه ويَكتمونَه؛ فلهذه التَّجربةِ وقَعَ الحَذَرُ والخَوفُ في قلوبِهم.

الثاني: أنَّهم كانوا يَعرفونَ كَونَه رَسولًا صادقًا مِن عند الله تعالى، إلَّا أنَّهم كفَروا به؛ حسَدًا وعِنادًا.

الثالث: أنَّهم كانوا شاكِّينَ في صِحَّةِ نبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما كانوا قاطعينَ بفَسادِها. والشاكُّ خائِفٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خافوا أن يُنزَّلَ عليه في أمْرِهم ما يفضَحُهم.

الرابع: هذا حذَرٌ أظهَرَه المُنافِقونَ على وجهِ الاستهزاءِ، حين رأَوُا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يذكُرُ كُلَّ شَيءٍ، ويُخبِرُ أنَّه عن الوَحيِ، وكان المُنافِقونَ يُكَذِّبونَ بذلك فيما بينهم، فأخبَرَ اللهُ رسولَه بذلك، وأمَرَه أن يُعلِمَهم أنَّه يُظهِرُ سِرَّهم الذي حَذِروا ظُهورَه، وفي قوله: ﴿اسْتَهْزِءُوا﴾ دَلالةٌ عليه.

الخامس: معنى الحَذَرِ الأمرُ بالحَذَرِ، أي: لِيحذَرِ المُنافِقونَ ذلك[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿عَلَيْهِمْ﴾، مع أنَّ إنزالَ السُّورةِ إنَّما هو على النبيِّ، لا عليهم؟ فالجوابُ: أنَّ (على) هنا بمعنى (في)، كما في قَولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أو أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى القراءةِ عليهم(١).

٣- إن قيل في قَولِه تعالى: ﴿نُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: إنَّ هذا تحصيلُ الحاصِلِ؛ لأنهم عالِمون به. قيل: تنبِّئُهم بأسرارِهم وما كَتَموه، شائعةً ذائعةً، وتفضَحُهم بظهورِ ما اعتَقَدوا أنَّه لا يَعرِفُه غيرُهم(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اللَّاعِبَ والجادَّ سواءٌ في إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ، وأنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ كَلِمةَ (إنما) تفيدُ الحَصرَ؛ إذ لو لم يكُنْ ذلك، لم يلزَمْ مِن كونِهم لاعبينَ ألَّا يكونوا مُستَهزِئينَ، فحينئذٍ لا يتِمُّ هذا العُذرُ(٤).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ مَن يَقولُ: الكُفرُ لا يدخُلُ إلَّا في أفعالِ القُلوبِ(٥).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٩٥)، وينظر أيضًا: ((التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد)) لعلوي السقاف (ص: ١٢).

يدلُّ على أنَّ قولَهم الذي صدَر منهم، كُفرٌ في الحقيقةِ، وإن كانوا مُنافِقينَ مِن قَبلُ، وأنَّ الكُفرَ يُمكِنُ أن يتجَدَّدَ مِن الكافرِ حالًا فحالًا[(١)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لا يخلو أن يكونَ ما قالوه من ذلك جِدًّا أو هَزْلًا، وهو كيفما كان، كُفرٌ؛ فإنَّ الهَزْلَ بالكُفرِ كُفرٌ، لا خُلفَ فيه بين الأمَّةِ؛ لأنَّ أصلَ الدِّينِ مبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ دينِه ورُسُلِه، والاستهزاءُ بِشَيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ، ومُناقِضٌ له أشَدَّ المناقَضةِ[(٢)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ كُفرٌ، وبالرَّسولِ أيضًا كُفرٌ؛ وذلك من جهةِ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وَحدَه كُفرٌ بالضَّرورةِ، فلم يكُن ذِكرُ الآياتِ والرَّسولِ شَرطًا، فعُلِمَ أنَّ الاستهزاءَ بالرَّسولِ كُفرٌ، وإلَّا لم يكُن لذِكْرِه فائِدةٌ، وكذلك الآياتُ، وأيضًا مِن جِهةِ أنَّ الاستهزاءَ بهذه الأمورِ مُتلازِمٌ[(٣)].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ إن قيل: ظاهِرُ هذا أنَّهم كانوا مُؤمِنينَ فكفروا بهذا الاستهزاءِ الذي سَمَّوه خوضًا ولَعِبًا، وظاهِرُ السياقِ أنَّ الكُفرَ الذي يُسِرُّونَه، هو سبَبُ الاستهزاءِ الذي يُعلِنونَه. قيل: كِلاهما حقٌّ، ولكُلٍّ منهما وجهٌ؛ فالأولُ: بيانٌ لحُكمِ الشَّرعِ، وهو أنَّهم كانوا مؤمنينَ حُكمًا، فإنَّهم ادَّعَوا الإيمانَ، فجَرَت عليهم أحكامُ الإسلامِ، وهي إنَّما تُبنى على الظَّواهِرِ، والاستهزاءُ بما ذُكِرَ عمَلٌ ظاهِرٌ، يقطَعُ الإسلامَ ويَقتضي الكُفرَ، فبه صارُوا كافرينَ حُكمًا، بعد أن كانوا مُؤمِنينَ حُكمًا. والثاني: وهو ما دلَّ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٨).

السِّياقُ، هو الواقِعُ بالفِعلِ[(١)] وذلك على أحدِ وجْهَي التأويلِ للآيةِ.

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ في حقِّ المُستَهزئينَ: أنَّهم كفَّارٌ بالقَولِ، مع أنَّهم لم يعتَقِدوا صِحَّتَه، وهذا بابٌ واسعٌ، وفِقهُه: أنَّ التَّصديقَ بالقَلبِ يَمنعُ إرادةَ التكلُّمِ، وإرادةَ فِعْلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ بالله سُبحانه وتعالى، كما أنَّه يُوجِبُ المحبَّةَ والتَّعظيمَ[(٢)].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الخَوضَ في كتابِ اللهِ وفي رسولِه، وفي صفاتِ اللهِ تعالى ووَعْدِه ووَعيدِه، وجَعْلَها موضوعًا للَّعِبِ والهُزُؤِ؛ كلُّ ذلك مِن الكُفرِ الحقيقيِّ الذي يَخرُجُ به المُسلِمُ مِن المِلَّة، وتَجري عليه به أحكامُ الرِّدَّةِ، إلَّا أن يتوبَ ويُجدِّدَ إسلامَه[(٣)].

١٣- إذا تكلَّمَ المَرءُ بكَلِمةِ الكُفرِ طَوعًا، فقد شرَحَ بها صدرًا وهي كُفرٌ، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فقد أخبَرَ أنَّهم كفروا بعد إيمانِهم مع قولِهم: إنَّا تكلَّمْنا بالكفرِ مِن غَيرِ اعتقادٍ له، بل كنَّا نَخوضُ ونَلعَبُ، وبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ، ولا يكون هذا إلَّا ممَّن شرَحَ صَدرَه بهذا الكلامِ، ولو كان

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

الإيمانُ في قَلبِه، منَعَه أن يتكَلَّمَ بهذا الكلامِ[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فكيف حكَمَ عليهم بالكُفرِ، ومع ذلك لم يُقِم عليهم الحَدَّ؟!

والجوابُ: لأنَّه كان في تَرْكِ قَتلِهم في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصلحةٌ تتضَمَّنُ تأليفَ القلوبِ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعَ كلمةِ النَّاسِ عليه، وكان في قَتْلِهم تنفيرٌ، والإسلامُ بعدُ في غُربةٍ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحرَصُ شَيءٍ على تأليفِ النَّاسِ، وأترَكُ شَيءٍ لِما يُنفِّرُهم عن الدُّخولِ في طاعَتِه، وهذا أمرٌ كان يختَصُّ بحالِ حياتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

١٥- قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعترَفوا واعتَذَروا؛ ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فدلَّ على أنَّهم لم يكونوا عند أنفُسِهم قد أتَوْا كُفرًا، بل ظَنُّوا أنَّ ذلك ليس بكُفرٍ، فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحِبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضَعيفٌ، ففعلوا هذا المحرَّمَ الذي عَرَفوا أنَّه مُحرَّمٌ، ولكِنْ لم يظنُّوه كُفرًا، وكان كُفرًا كفروا به، فإنَّهم لم يعتَقِدوا جوازَه[٤]، وذلك على أحدِ وجهي التأويلِ للآيةِ.

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ على أنَّ الكافرَ بعد إيمانِه قد يُعفَى عنه وقد يُعذَّبُ، وإنَّما يُعفى عنه إذا تاب، فعُلِمَ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (١٢/ ١٣٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣، ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣).

توبتَه مَقبولةٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَحْذَرُ﴾؛ لِمَا تُشْعِرُ به مِنِ اسْتِحضارِ الحالةِ[٢].

- وقولُه: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ التَّعبيرُ بالتَّنبئةِ فيه مُبالَغةٌ في كونِ السُّورةِ مُشْتَمِلةً على أسرارِهم، كأنَّها تَعْلَمُ مِنْ أحوالِهم الباطنةِ ما لا يَعْلمونَه، فتُنبِّئُهم بها، وتَنْعَى عليهم قبائحَهم[٣].

- قولُه: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ الأمرُ بالاسْتِهزاءِ أمْرُ تَهديدٍ ووعيدٍ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ فيه العُدولُ إلى التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ مَثلًا: (إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ سُورةً تُنبِّئُكُمْ بما في قلوبِكُمْ)؛ لأنَّ الأهمَّ مِنْ تَهديدِهم هو إظهارُ سَرائِرِهم لا إنزالُ السُّورةِ؛ فذِكْرُ الصِّلَةِ وافٍ بالأمرينِ: إظهارُ سرائِرِهم، وكونُه في سُورةٍ تَنْزِلُ، وهو أنْكَى لهم، ففيه إيجازٌ بديعٌ[٥]. مَعَ ما فيه مِنَ التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسْميَّةِ الجُملةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه قَصْرٌ بـ﴿إِنَّمَا﴾، وهو هنا للتَّعيينِ، أي: ما تَحدَّثْنا إلَّا في خَوضٍ ولَعِبٍ دونَ ما ظَنَنتَهُ بنا مِنَ الطَّعْنِ والأذى[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الاسْتِفهامُ فيه إنكاريٌّ توبيخيٌّ، وهو تَقريرٌ على اسْتِهزائِهم، وضَمَّنَه الوَعيدَ، ولم يَعْبأْ باعْتِذارِهم؛ لأنَّهم كانوا كاذبينَ فيه، فجُعِلوا كأنَّهم مُعْترِفونَ باسْتِهزائهم، وبأنَّه مَوجودٌ مِنهم، حتَّى وُبِّخوا بإخطائِهم مَوضِعَ الاسْتِهزاءِ، حيثُ جُعِلَ المُستَهزَأُ به يلي حَرْفَ التَّقريرِ، وذلك إنَّما يَستقيمُ بَعْدَ وقوعِ الاسْتِهزاءِ[٢].

- وتقديمُ المعمولِ ﴿أَبِاللَّهِ﴾ على فِعْلِه العاملِ فيه ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لقَصْدِ قَصْرِ التَّعيينِ؛ لأنَّهم لَمَّا أتوا في اعْتِذارِهِمْ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بصيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ، جِيءَ في الرَّدِّ عليهم بصِيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ؛ لإبطالِ مُغالَطتِهِمْ في الجوابِ، فأَعلَمَهم بأنَّ لَعِبَهم الذي اعْتَرَفوا به ما كان إلَّا اسْتِهزاءً باللهِ وآياتِهِ ورَسولِهِ، لا بغيرِ أولئك[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

- وقولُه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ فيه توكيدٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مع زيادةِ ارْتِقاءٍ في التَّوبيخِ، وارْتِقاءٍ في مَثالِبِهم بأنَّهم تَلبَّسوا بما هو أشدُّ، وهو الكُفْرُ؛ فلذلك فُصِلتِ الجُمْلةُ عن التي قَبْلَها، أي:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

لم تُعْطَفْ عليها[١].

- قولُه: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ وهو نهيٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّسويةِ وعدمِ الجَدْوى[٢].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٢).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: يُمسِكونَها عن الصَّدَقةِ والخَيرِ، وأصلُ (قبض): يدلُّ على شيءٍ مأخوذٍ، وتجمُّعٍ في شَيءٍ[1].

﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾: أي: بنَصيبِهم في الدُّنيا، والخَلاقُ: النَّصيبُ والحظُّ من الخَيرِ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩،١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

﴿وَخُضْتُمْ﴾: أي: دَخَلْتُم في الباطِلِ[١].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: أي: مَدائِنِ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ هم صِنفٌ واحِدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم؛ يأمرونَ بالمُنكَرِ، وينهَوْنَ عن المعروفِ، ويُمسِكونَ أيديَهم عن إخراجِ ما يجِبُ عليهم من النَّفَقات، نَسُوا ذِكرَ اللهِ، فتَرَك هدايتَهم ورَحمتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدِينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ، إنَّ المُنافقينَ هم الفاسِقونَ.

وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا، هي كافيةٌ لِعقابِهم، وأبعَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، ولهم عذابٌ دائِمٌ غيرُ مُنقطِعٍ.

ثمَّ وجَّه تعالى الخِطابَ للمُنافِقينَ والكُفَّارِ، فقال لهم: أنتم تعمَلونَ مثلَ أعمالِ مَن قَبلَكم مِن الأمَمِ، الذين كانوا أقوَى مِنكم، وأكثَرَ أموالًا وأولادًا منكم، فتمتَّعوا بنَصيبِهم المقدَّرِ من الدُّنيا، مُؤْثِرينَ له على نعيمِ الآخرةِ، فتمَتَّعتُم أنتم بنَصيبِكم من الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخرةِ، كما فعَلَ الذين كَفَروا من قَبلِكم، وخُضتُم في الذي خاضُوا فيه، أولئك بطَلَت أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الخاسِرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

ألَمْ يأتِ هؤلاءِ المُنافِقينَ والكُفَّارَ خَبَرُ إهلاكِ اللهِ الأُمَمَ الماضيةَ؛ قومِ نوحٍ وعادٍ، وثمودَ، وقَومِ صالحٍ، وأهلِ مَدينَ، وقَومِ لوطٍ الذين انقلبت بهم أرضُهم، فصار أعلاها أسفلَها، جاءتهم رسُلُهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ، فكَذَّبوا الرُّسُلَ فأهلَكَهم اللهُ، فما كان اللهُ ليَظلِمَهم، ولكِنَّهم كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والعِصيانِ وتكذيبِ الرُّسُلِ، فاستحقُّوا العُقوبةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن أنواعِ فضائحِ المنافقين وقبائِحِهم، والمقصودُ بيانُ أنَّ إناثَهم كذُكورِهم في تلك الأعمالِ المُنكَرةِ والأفعالِ الخَبيثةِ[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ احتراسٌ عن أن يظُنَّ المنافِقونَ أنَّ العَفوَ المفروضَ لطائفةٍ منهم، هو عفوٌ يَنالُ فريقًا منهم باقينَ على نفاقِهم؛ فعَقَّبَ ذلك ببيانِ أنَّ النِّفاقَ حالةٌ واحدةٌ، وأنَّ أصحابَه سواءٌ؛ ليُعلَمَ بذلك أنَّ افتراقَ أحوالِهم بين عَفوٍ وعذابٍ، لا يكونُ إلَّا إذا اختلَفَت أحوالُهم بالإيمانِ، والبقاءِ على النِّفاقِ[٢].

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقات، الذين يُظهِرونَ للمُسلِمينَ الإيمانَ بألسِنَتِهم، ويُبطِنونَ الكُفرَ في قلوبِهم؛ هم صِنفٌ واحدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣).

وأخلاقِهم وأغراضِهم، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ[١].

﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يأمرونَ بما يُبغِضُه اللهُ ويُنكِرُه؛ من الكُفرِ والمعاصي، ويَنهونَ عن المعروفِ الذي يحِبُّه الله ويأمُرُ به؛ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[٢].

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾.

أي: ويُمسِكُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ أيديَهم عن إخراجِ زكاةِ أموالِهم، وعن كلِّ ما وجَبَ عليهم من النَّفَقاتِ، ومن ذلك الإنفاقُ في الجِهادِ[٣].

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾.

أي: نَسِيَ المُنافِقونَ ذِكرَ اللهِ وتَرَكوا طاعَتَه، فتَرَكَ اللهُ هدايتَهم ورَحمَتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدِينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦ - ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

قال ابنُ تيمية: (﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ قال مجاهد: «يقبِضُونَها عن الإنفاقِ في سبيلِ الله». وقال قتادة: «يقبضون أيديَهم عن كلِّ خيرٍ» فمجاهدٌ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ، وقتادةُ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ والبَدَن). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، والإيمانِ به سُبحانَه(١).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في المُنافِقين والمُنافِقاتِ أنَّه نَسِيَهم، أي: جازاهم على تَرْكِهم التمسُّكَ بطاعةِ الله؛ أكَّدَ هذا الوعيدَ، وضَمَّ المُنافِقين إلى الكُفَّارِ فيه، فقال تعالى(٢):

(٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢، ١٧٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

قال ابن القيم: (أي: تَركوا طاعةَ الله والإيمانَ بما جاء به رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فترَكهم اللهُ مِن رحمَتِه، وهذا لا خلافَ فيه، ولا يجهَلُه من له أقَلُّ علمٍ بتأويلِ القُرآنِ). ((الصلاة)) (ص: ٧٧).

وقال القرطبي: (قال قتادة: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: من الخَيرِ، فأمَّا مِن الشَّرِّ، فلم ينْسَهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ وجميعَ الكُفَّارِ أنْ يُدخِلَهم نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا[(١)].

﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡ﴾.

أي: نارُ جهنَّمَ كافيةٌ لعقابِ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارِ؛ جزاءً على نفاقِهم وكُفرِهم[(٢)].

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: وأبعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والكُفَّارَ، وطَرَدَهم مِن رَحمتِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

قال الزجاج: (أي كفايةُ ذُنُوبِهم، كما تقول: عذَّبْتُك حسبَ فِعْلِك، وحَسْبُ فُلانٍ ما نَزَل به، أي: ذلك على قَدْرِ فِعلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

أي: ولأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقطِعُ[١].

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حالُ المُنافِقينَ في الإقبالِ على العاجلةِ؛ لِكَونِها حاصلةً، والإعراضِ عن العاقِبةِ؛ لأنَّها غائبةٌ- مُشابِهًا لحالِ من كان قَبْلَهم من الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضيةِ؛ بيَّنَ لهم ذلك، وختَمَ ببيانِ سُوءِ أحوالِهم وقُبحِ مآلِهم، بتلاشي أعمالِهم، فقال تعالى[٢]:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾.

أي: فعَلْتُم - أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- كفعلِ الذين مِنْ قبلِكم، فسَينزِلُ بكم مِن العُقوباتِ مثلُ ما نَزَلَ بهم، وقد كانُوا أقوى منكم، وأكثرَ منكم أموالًا وأولادًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٦).

قال ابن تيمية: (قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى ما هو لازِمٌ لهم في الدُّنيا والآخرة من الآلامِ النَّفسية: غَمًّا وحُزنًا، وقسوةً وظُلمةَ قلبٍ، وجَهلًا؛ فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجِلةِ الدَّائمة ما اللهُ به عليمٌ؛ ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطَيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهِي القَلبَ؛ من تناوُلِ مُسكِرٍ، أو رؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٠).

وقال الألوسي: (قيل: إنَّ الأوَّلَ عذابُ الآخرةِ، وهذا عذابُ ما يقاسونَه في الدُّنيا؛ مِن التَّعَبِ، والخَوفِ من الفضيحةِ والقَتلِ، ونَحوِه). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧).

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾.

أي: فتمتَّع كُفَّارُ الأمَمِ الماضيةِ بنَصيبِهم المقدَّرِ لهم من الدُّنيا وشَهَواتِها، مُؤثِرينَ

وفي الآيةِ أوجهٌ أخرى. قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في محلِّ هذه الكافِ وما يتعلَّقُ بها، فقيل: هو رفعٌ، خبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أنتم كالذين مِن قَبْلِكم. وقيل: نصبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: فعَلْتُم كفِعلِ الذين مِن قَبْلِكم، والتشبيهُ على هذينِ القَولينِ في أعمالِ الذين مِن قَبلُ. وقيل: إنَّ التَّشبيهَ في العذابِ، ثم قيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: لعَنَهم وعذَّبَهم كما لعنَ الذينَ مِن قَبلُ، وقيل: بل العامِلُ ما تقدَّمَ، أي: وعدَ الله المُنافِقينَ كوَعدِ الذين مِن قَبلِكم، ولعَنَهم كلَعْنِهم، ولهم عذابٌ مُقيمٌ كالعذابِ الذي لهم). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٤، ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٢، ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وإذا عرَفْتَ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يجعَلُ التَّشبيهَ في العمل، ومنهم من يجعَلُ التَّشبيهَ في العذابِ، فالقولان متلازِمانِ؛ إذ المُشابهةُ في الموجِبِ تقتضي المُشابهةَ في الموجَبِ، وبالعكسِ، فلا خلاف معنويٌّ بين القولينِ. وكذلك ما ذكرناه من اختلافِ النَّحويينَ في وجوبٍ في الحذفِ وعَدَمِه، إنما هو اختلافٌ في تعليلاتٍ ومآخِذَ، لا تقتضي اختلافًا لا في إعرابٍ، ولا في معنًى؛ فإذن: الأحسَنُ أن تتعَلَّق الكافُ بمجموعِ ما تقدَّمَ: مِن العَمَلِ والجزاءِ، فيكونُ التَّشبيهُ فيهما لفظًا. وعلى القولينِ الأوَّلَينِ: يكون قد دلَّ على أحَدِهما لفظًا، وعلى الآخَرِ لُزومًا). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٣).

وقيل: المعنى: أباللهِ وآياتِ كِتابِه ورَسولِه كنتُم تستَهزِئونَ كالذينَ مِن قَبْلِكم، من الأمَمِ الذين فَعَلوا فِعْلَكم، فأهلَكَهم اللهُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠).

له على نَعيمِ الآخرةِ، فتمتَّعتُم -أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- بنَصيبِكم من شَهَواتِ الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخِرةِ كذلك، كما تمتَّعَ الكُفَّارُ الذين مِن قَبلِكم بنَصِيبِهم[١].

﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى مُشابهةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ لأولئك المتقَدِّمينَ في طلَبِ الدُّنيا، وفي الإعراضِ عن طلَبِ الآخرةِ؛ بَيَّنَ حُصولَ المُشابَهةِ بين الفَريقَينِ، في تكذيبِ الأنبياءِ، وفي المَكرِ والخديعةِ والغَدرِ بهم، فقال تعالى[٢]:

﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾.

أي: وخضتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكُفَّارُ- في الكُفرِ والكَذِبِ، والباطِلِ والشُّبُهاتِ، والاستهزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه؛ مثلَ الخَوضِ الذي خاضَتْه الأمَمُ قَبلَكم[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: أولئك الذين تمتَّعوا بشَهَواتِ الدُّنيا، وخاضوا في الباطِلِ؛ بطَلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٨، ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (فأنتم وهم سَواءٌ، فيُوشِكُ أن يحيقَ بكم ما حاق بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقبَلُها اللهُ تعالى منهم، ولا يُثيبُهم عليها[1].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: وأولئك هم المَغبونونَ بحِرمانِ الخَيرِ العاجِلِ والآجِلِ، وحُصولِ العِقابِ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَبَّه اللهُ تعالى المُنافِقينَ بالكُفَّارِ المتقَدِّمينَ، في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وتكذيبِ الأنبياءِ، وكان لفظُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فيه إبهامٌ- نَصَّ على طوائِفَ بأعيانِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٢).
وحبوطُ الأعمالِ معناه: ذهابُها، وعدمُ الاستفادةِ منها، فأمَّا في الآخرةِ فظاهِرٌ، وأمَّا في الدنيا فحبوطُها ألَّا تُقبلَ منهم، فهم لا ينتفعونَ بها، ولا يستفيدون منها، فصاروا كأنَّهم لم يعملوها. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٢٤) ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).
وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٢).
وقال ابنُ عطية: (قَولُه ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ معناه: إذا كان في المُنافِقينَ ما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن المَقْتِ مِن المؤمنينَ، وفسادِ أعمالِهم عليهم، وفي الآخرةِ بألَّا تنفَعَ، ولا يقَعَ عليها جزاءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧).
وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأعمالهم: ما كانوا يَعمَلونَه، ويَكدَحونَ فيه: مِن معالجةِ الأموالِ والعِيالِ، والانكبابِ عليهما، ومعنى حَبَطِها في الدُّنيا: استئصالُها، وإتلافُها بحلولِ مُختَلِفِ العذابِ بأولئك الأمَمِ، وفي الآخرةِ: بعَدَمِ تعويضِها لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٣).

سِتَّةٍ؛ لأنَّهم كان عندهم شَيءٌ مِن أنبائِهم، وكانت بلادُهم قريبةً مِن بلادِ العَربِ، وكانوا أكثَرَ الأمَمِ عَددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ الأنبياءِ(١).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: أَلَمْ يَسمَعِ المُنافِقونَ والكُفَّارُ خَبَرَ إهلاكِنا الأمَمَ الكافِرةَ الماضيةَ(٢)؟!

ثمَّ بيَّن جلَّ ثناؤه مَنْ أولئك الأممُ(٣)، فقال:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾.

أي: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ- قَومِ هُودٍ- وثمودَ- قَومِ صالحٍ- وقَومِ إبراهيمَ، وأهلِ مَدينَ- قَومِ شُعيبٍ- وأهلِ قُرى قَومِ لوطٍ، التي انقلَبَت بهم فصار أعلاها أسفَلَها(٤)؟!

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: جاءَت تلك الأمَمَ رسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ الواضِحاتِ، فكذَّبوا الرُّسُلَ، فأهلكَهم اللهُ(٥).

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: فما كان اللهُ ليظلِمَ تلك الأممَ المكَذِّبةَ، بإهلاكِهم قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِن كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم، بالكُفرِ باللهِ وعِصيانِه، وتكذيبِ رُسُلِه، فاستحَقُّوا عِقابَه(١).

كما قال سُبحانه: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنَّهم اشترَكوا في النِّفاق، فاشترَكوا في تولِّي بَعضِهم بعضًا، وفي هذا قَطعٌ للمُؤمنينَ مِن وَلايتِهم(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ و﴿وَخُضْتُمْ﴾ خبرٌ عن وقوعِ ذلك في الماضي، وهو ذَمٌّ لِمن يفعَلُه، إلى يومِ القيامةِ، كسائِرِ ما أخبَرَ اللهُ به عن الكفَّارِ والمُنافِقين، عند مبعَثِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّه ذَمٌّ لِمَن حالُه كحالِهم، إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ كُلُّ مَن حصل منه هذا الاستمتاعُ والخَوضُ مُخاطَبًا بِقَولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).

فَٱسْتَمْتَعْتُم ﴾ و﴿وَخُضْتُمْ﴾[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ فَسادُ الدِّينِ إمَّا أن يقَعَ بالاعتقادِ الباطِلِ والتكَلُّمِ به، وهو (الخَوض)، أو يقَعَ في العمَلِ بخلافِ الحَقِّ والصَّوابِ، وهو (الاستمتاعُ بالخَلاقِ). فالأوَّلُ البِدَعُ، والثاني اتِّباعُ الهوى، وهذان هما أصلُ كُلِّ شَرٍّ وفِتنةٍ وبلاءٍ، وبهما كُذِّبَت الرُّسُلُ، وعُصِيَ الرَّبُّ، ودُخِلَت النَّارُ، وحَلَّت العُقوباتُ، فالأوَّلُ مِن جهةِ الشُّبُهات، والثاني من جهةِ الشَّهواتِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يقولونَ: احذَروا من النَّاسِ صِنفَينِ: صاحِبَ هَوًى، فِتنَتُه هَواه، وصاحِبَ دُنيا، أعجَبَتْه دُنياه، وكانوا يقولونَ: احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ، والعابِدِ الجاهِلِ؛ فإنَّ فِتنَتَهما فتنةٌ لكُلِّ مفتونٍ، فهذا يُشبِهُ المغضوبَ عليهم، الذين يعلمونَ الحَقَّ ويَعملونَ بخلافِه، وهذا يُشبِهُ الضَّالِّينَ الذين يعملونَ بغيرِ عِلمٍ، فقولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى اتِّباعِ الشَّهواتِ، وهو داءُ العُصاةِ، وقَولُه: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى الشُّبُهاتِ، وهو داءُ الْمُبتَدِعةِ، وأهلِ الأهواءِ والخُصُوماتِ، وكثيرًا ما يجتمعانِ، فقَلَّ مَن تجِدُه فاسِدَ الاعتقادِ، إلَّا وفَسادُ اعتقادِه يظهَرُ في عَمَلِه، والمقصودُ أنَّ الله أخبَرَ أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن يستمتِعُ بخَلاقِه، كما استمتَعَ الذين مِن قَبلِه بخَلاقِهم، ويخوضُ كَخَوضِهم، وأنَّهم لهم من الذَّمِّ والوعيدِ كما للَّذين مِن قَبلِهم[(٢)].

٤- عاقب اللهُ سبحانه مَن نَسِيَه عُقوبَتينِ: إحداهما: أنَّه سُبحانه يَنساه، كما

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨، ١١٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٦).

في قولِه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، والثَّانية: أنَّه يُنسيه نفسَه، كما في قولِه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ونسيانُه سبحانَه للعبدِ: إهمالُه، وتركُه، وتخلِّيه عنه، وأمَّا إنساؤُه نفسَه، فهو: إنساؤُه لِحُظوظِها العاليةِ، وأسبابِ سعادتِها وفلاحِها وما تَكْمُلُ به؛ فلا يسعَى إليها، وكذا نسيانُ عُيوبِ نَفسِه ونَقصِها وآفاتِها، فلا يخطُرُ ببالِه إزالتُها، وأيضًا يُنسيه أمراضَ نفسِه وقلبِه وآلامَها، فلا يخطُرُ بِقَلبِه مُداواتُها، ولا السعيُ في إزالةِ عِلَلِها وأمراضِها التي تَؤُولُ بها إلى الفَسادِ والهلاكِ، فهو مريضٌ مُثخَنٌ بالمَرَض، ومَرَضُه مُتَرامٍ به إلى التَّلَفِ، ولا يشعرُ بمَرضِه، ولا يخطرُ ببالِه مُداواتُه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ وصَفَ اللهُ سُبحانَه المُنافِقينَ بأنَّ بَعضَهم مِن بَعضٍ، وقال في المؤمنينَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]؛ وذلك لأنَّ المُنافِقينَ تشابهَت قلوبُهم وأعمالُهم، وهم مع ذلك ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] فليست قلوبُهم مُتوادَّةً مُتوالِيةً، إلَّا ما دام الغَرَضُ الذي يَؤُمُّونَه مُشترِكًا بينهم، ثم يتخَلَّى بعضُهم عن بعضٍ، بخلافِ المؤمِن، فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ وينصُرُه بظَهرِ الغيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعَدَ الزَّمانُ(٢)، ودلَّ قولُه: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ على أنَّ نِفاقَ الأتباعِ كالأمرِ المتفرِّعِ على نفاقِ الأسلافِ، والأمرُ في نفسِه كذلك؛ لأنَّ نِفاقَ الأتباعِ وكُفرَهم حصَلَ بسبَبِ التَّقليدِ لأولئك الأكابِرِ، وبسببِ مُقتضى الهَوى والطَّبيعةِ والعادةِ، أمَّا المُوافَقةُ الحاصِلةُ بين المؤمنينَ، فإنَّما حصَلَت لا بسبَبِ المَيلِ والعادةِ، بل بسبَبِ المُشاركةِ في الاستدلالِ والتَّوفيقِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

والهِدايةِ، اللُّحمةُ الجامعةُ بينهم هي ولايةُ الإسلامِ، فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ منهم مقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بَصيرةٍ؛ لِما في معنى الولايةِ مِن الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخلافِ المُنافِقينَ، فكأنَّ بَعضَهم ناشئٌ مِن بعضٍ في مَذامِّهم؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى في المُنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ اقتصَرَ مِن مُنكَراتِ المُنافِقينَ الفعليَّةِ على هذا؛ لأنَّه شَرُّها وأضَرُّها، وأقواها دَلالةً على النِّفاقِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أخَّرَ ذِكرَ الكُفَّارِ في مقامِ الوعيدِ؛ للإيذانِ بأنَّ الْمُنافِقينَ- وإن أظهَروا الإيمانَ وعَمِلوا أعمالَ الإسلامِ- شَرٌّ مِن الكفَّارِ الصُّرَحاءِ، ولا سيَّما المتديِّنونَ منهم بأديانٍ باطلةٍ مِن الأصلِ، أو مُحرَّفةٍ ومَنسوخةٍ كأهلِ الكِتابِ[٣].

٤- في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ توبيخٌ مِن اللهِ لِمَن تشبَّه بأهلِ الشَّرِّ- مِثل أهلِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ- في شيءٍ مِن قبائِحهم[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لعلَّه خَصَّ هؤلاءِ بالذِّكرِ مِن بينِ بقيَّةِ الأمَمِ؛ لِمَا عند العَرَبِ مِن أخبارِهم، وقُربِ ديارِهم مِن ديارِهم، مع أنَّهم كانوا أكثَرَ الأُمَمِ عددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦١).
(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٤٩).

الأنبياءِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ زِيدَ في هذه الآيةِ ذِكْرُ المُنافقاتِ؛ وذلك للتَّنصيصِ على تَسويةِ الأحكامِ لجَميعِ المُتَّصفينَ بالنِّفاقِ ذُكورِهم وإناثِهم؛ كيلا يَخْطُرَ بالبالِ أنَّ العفوَ يُصادِفُ نِساءَهم، وأنَّ المؤاخذةَ خاصَّةٌ بذُكرانِهم؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّ لنِساءِ المُنافِقينَ حَظًّا مِنْ مُشاركةِ رِجالِهنَّ في النِّفاقِ فيَحذَروهنَّ[٢]، والتَّعرضُ لأحوالِ الإناثِ أيضًا؛ للإيذانِ بكمالِ عراقتِهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ[٣].

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ على القَولِ بأنَّه اسْتِئنافٌ، فهو مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما سَبَق، ومُفْصِحٌ عن مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قَبْضُ اليدِ كِنايةٌ عَنِ البُخْلِ والشُّحِّ، والأصْلُ في هذه الكِنايةِ أنَّ المُعطي يَمُدُّ يدَهُ، ويَبْسُطُها بالعَطاءِ، فقيل لِمَنْ مَنَعَ وبَخِلَ: قد قَبَضَ يَدَه[٥].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).

- قولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾، أي: تَركُوهُ حين تَركوا نبيَّهُ وشِرْعتَه، فترَكَهم حين لم يَهْدِهم، ولا كَفاهم عذابَ النَّارِ؛ ففيهِ التَّعبيرُ عَنِ التَّرْكِ بالنِّسيانِ؛ وإنَّما يُعبَّرُ بالنِّسيانِ عَنِ التَّركِ مُبالغةً؛ إذ أبلَغُ وجوهِ التَّرْكِ الوَجْهُ الذي يَقْتَرِنُ به نِسيانٌ، أو مُبالَغةً في أنَّه لا يَخْطُرُ ذلك ببالٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيثُ لم يَقُلْ: (إنَّهم)-؛ لِزيادةِ تَقريرِهم في الذِّهْنِ لهذا الحُكْمِ، ولِتكونَ الجُمْلةُ مُسْتَقِلَّةً حتَّى تكونَ كالمَثَلِ[٢].

- وقولُه: ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، أي: هم الكامِلونَ في الفِسْقِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لأنَّهُمْ لَمَّا بَلَغوا النِّهايةَ في الفُسوقِ جُعِلَ غيرُهم كمَنْ ليس بفاسِقٍ[٣]، فحَصَرَ الفِسقَ فيهم؛ لأنَّ فِسقَهم أعظَمُ مِن فِسقِ غَيرِهم؛ بدليلِ أنَّ عَذابَهم أشَدُّ مِن عذابِ غَيرِهم، وأنَّ المُؤمنينَ قد ابتُلُوا بهم؛ إذ كانوا بين أظهُرِهم، والاحترازُ منهم شديدٌ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾

- جُمْلةُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾؛ لأنَّ الخُلودَ في جَهنَّمَ واللَّعنَ بَيانٌ للمرادِ مِنْ نِسيانِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).

إيَّاهم(١).

- وفي قولِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -حيثُ لم يَقُلْ: (وَعَدَهُمُ اللهُ)-؛ لتقريرِ المحكومِ عليه في ذِهْنِ السَّامِعِ حتَّى يتمكَّنَ اتِّصافُهم بالحُكْمِ. وزيادةُ ذِكْرِ الكُفَّارِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنافِقين ليسوا بأهونَ حالًا مِنَ المشركينَ؛ إذْ قَدْ جَمَعَ الكُفْرُ الفريقينِ(٢).

- وعبَّر بصيغةِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾؛ للإخبارِ عَنْ وعيدٍ تَقدَّمَ، وَعَدَهُ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ تذكيرًا بِهِ؛ لزيادةِ تَحقيقِهِ، أو لصَوغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنشأُ بِها العُقودُ، مِثْلَ: (بِعْتُ ووَهَبْتُ)؛ إشعارًا بأنَّهُ وعيدٌ لا يتخلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ والالْتِزامِ(٣).

- قوله: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عِظَمِ عذابِها، وأنَّهُ لا شيءَ أَبْلَغَ مِنه، وأنَّهُ بحيثُ لا يُزادُ عليه(٤).

- قولُه: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ (الله)؛ للإيذانِ بشِدَّةِ السَّخَطِ عليهم(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبةِ الرَّاجِعةِ إلى المُنافِقينَ، إلى خِطابِهم؛ لقَصْدِ التَّقريعِ والتَّهديدِ بالمَوعظةِ، والتَّذكيرِ عَنِ الغُرورِ بما هم فيه مِنْ نِعْمةِ الإمهالِ بأنَّ آخِرَ ذلك حَبطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنْ يَحِقَّ عليهم الخُسرانُ[1].

- وقولُه: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾ تَفْسيرٌ وبيانٌ لِشَبَهِهم بهم، وتمثيلٌ لحالِهم بحالِهم[2].

- قولُه: ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ ﴾ فيه مِنْ محاسِنِ البلاغةِ: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ تَشبيهَهم بمَنْ قَبْلَهم، وذَكَر ما كانوا فيه مِنَ شِدَّةِ القُوَّةِ، وكَثْرةِ الأولادِ، واسْتِمتاعِهم بما قُدِّرَ لهم مِنَ الأنصباءِ، أي: الحُظوظِ، شَبَّهَ اسْتِمتاعَ المُنافِقينَ باسْتِمتاعِ الذين مِنْ قَبْلِهم، وأبْرَزَهم بالاسمِ الظَّاهِرِ فقال: ﴿ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ ﴾، ولَمْ يَكُنِ التَّركيبُ (كما اسْتَمْتَعوا بخلاقِهِمْ)، فأوْقَع الظَّاهِرَ مَوقِعَ المُضْمَرِ؛ ليَدُلَّ بذلك على التَّحقيرِ لهم؛ لأنَّهُ كما يَدُلُّ بإعادةِ الظاهِرِ مَكانَ المُضْمَرِ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كذلك يَدلُّ بإعادتِهِ على التَّحقيرِ والتَّصغيرِ لشأنِ المذكورِ؛ كما في قولِهِ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾[3] [مريم: ٤٤].

- قولُه: ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ ﴾ في صِيغةِ الاسْتِفعالِ ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعُواْ ﴾ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).

ليس في صِيغةِ التَّفعُّلِ (تَمتَّعوا) مِنَ الاسْتِزادةِ والاسْتِدامةِ في التَّمتُّعِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في قُوَّةِ التَّمتُّعِ[١].

- وقولُه: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ فيه التَّكريرُ في تَرديدِ فِعْلِ الاسْتِمتاعِ؛ ذلك أنَّهُ شَبَّهَ حالَهم بحالِ الأوَّلينَ؛ ففي التَّكريرِ تأكيدٌ ومُبالَغةٌ في ذَمِّ المُخاطَبينَ، وتَقبيحُ حالِهم، واسْتِهجانُ أَمْرِهم[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فيه إعادةُ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بتَمييزِ المُتحَدَّثِ عنهم؛ لزِيادةِ تَقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السَّامِعِ[٣]، وللإشعارِ بعِلِّيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ والخُسْرانِ[٤].

- وفي الالتفاتِ إلى مَقامِ الخِطابِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى تحذيرِ كُلِّ سامِعٍ عَن مِثلِ هذه المقالةِ[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ اسْتِفهامٌ للتَّقريرِ والتَّحذيرِ[٦].

- قولُه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ نَشَأ عَنْ قولِه: ﴿نَبَأُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، أي: أتتْهُم رُسُلُهم بدَلائلِ الصِّدقِ والحَقِّ(١).

– قولُه: ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ فيه حذْفٌ بَيْنَ قولِه: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ وقولِه: ﴿ فَمَا كَانَ ﴾، والتَّقديرُ: فكذَّبوا فأهْلَكَهمُ اللهُ ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾(٢)؛ فتَفريعُ ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ على قوله: ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ إيجازُ حذْفٍ بديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقتضي تصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ جازاهم على هذا بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرمٍ لشابَهَ الظُّلمَ؛ فجُعِلَ مِن مجموعِ نفْيِ ظُلمِ الله إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلمِهم أنفُسَهم، مَعرفةُ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ وعانَدوهم، وحَلَّ بهم ما هو معلومٌ مِن مُشاهدةِ دِيارِهم، وتَناقُلِ أخبارِهم(٣).

– والتعبيرُ بقولِه: ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تَنزيهِ اللهِ سُبْحانَه عن الظُّلْمِ، أي: ما صَحَّ وما اسْتقامَ له أنْ يَظْلِمَهم، ولكِنَّهم ظَلَموا أَنْفُسَهم(٤).

– قولُه: ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فيه الجَمعُ بينَ صِيغَتِي الماضي والمُسْتقبلِ؛ للدَّلالةِ على اسْتِمرارِ ظُلْمِهم، حيثُ لم يَزالوا يُعرِّضونَها للعقابِ بالكُفْرِ والتَّكذيبِ(٥).

– وفيه تقديمُ المفعولِ ﴿ أَنفُسَهُمۡ ﴾ على الفِعْلِ ﴿ يَظۡلِمُونَ ﴾؛ للاهْتِمامِ به،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مع مُراعاةِ الفاصِلةِ[١].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٧١-٧٢)

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَنَ بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يبرَح منه، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ والمؤمناتِ بَعضُهم أنصارُ بَعضٍ؛ يأمرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المُنكَرِ، ويؤدُّونَ الصَّلاةَ المفروضةَ كما يجِبُ، ويُعطونَ الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، ويُطيعونَ اللهَ ورسولَه، أولئك سيرحَمُهم اللهُ تعالى؛ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه وَعَدَهم جناتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ووَعَدَهم أن يُسكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عيبَ فيها، في جناتِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرجونَ منها، ورِضوانٌ منه تعالى عن المؤمنينِ والمؤمناتِ أعظَمُ مِن نعيمِ الجنَّةِ، ذلك الذي وعَدَ اللهُ به المؤمنينَ والمؤمناتِ هو الفَوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وصَف الله تعالى المُنافقين بالأعمالِ الفاسِدة، والأفعالِ الخَبيثةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أنواعَ الوَعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ذكَرَ بعدَه- في هذه الآيةِ- كَونَ المُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البرِّ، على ضِدِّ صِفاتِ المُنافِقينَ[١].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ سبحانَه أنَّ المُنافِقينَ بَعضُهم من بعضٍ، وما توعَّدَهم به وما استَتبَعَه مِن تهديدِهم بإهلاكِ مَن شابَهوه، وختَمَ بما سبَّبَ هلاكَهم من إصرارِهم وعدَمِ اعتبارِهم- عطَفَ ببيانِ حالِ المؤمنينَ؛ ترغيبًا في التوبةِ، طَمَعًا في مِثلِ حالِهم[٢]، فقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

أي: وأمَّا المؤمِنونَ والمؤمناتُ فبَعضُهم أنصارُ بعضٍ، متحابُّونَ في اللهِ، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفرِّقينَ[٣].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يشُدُّ بعضُه بعضًا))[٤].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[١].

ثمَّ بيَّن أوصافَهم الحميدةَ، كما بيَّن أوصافَ مَن قبلَهم مِن المنافقينَ، فقال[٢]:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: المؤمنونَ والمؤمِناتُ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحبُّه اللهُ، مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهونَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ، مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المفروضةَ بِشُروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُعطونَ زكاةَ أموالِهم لِمُستحِقِّيها[٤].

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٢) و (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٨).

اختيارُ ابنِ جرير أنَّ المرادَ الصَّلاةُ المفروضةُ والزكاةُ المفروضةُ. ونقَل عن ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنَّها الصلواتُ الخمسُ. ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧).

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: ويُلازِمونَ طاعةَ اللهِ تعالى فيما أمَرَهم به أو نهاهم عنه، ويُلازِمونَ طاعةَ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أمَرَهم به، أو نهاهم عنه(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ هذه صفتُهم سيرحَمُهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عزَّةٍ، فمن أطاعه أعَزَّه، ومن عَصاه وكفَرَ به فإنَّه ينتقِمُ منه، لا يمنَعُه منه مانِعٌ، ولا ينصُرُه منه ناصِرٌ، فهو قَوِيٌّ قاهِرٌ، حكيمٌ في انتقامِه منهم، وفي جميعِ ما يفعَلُه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به(٣).

قال القرطبيُّ - بعدَ ذكرِ قولِ ابنِ عبَّاسٍ السابقِ - قال: (وبحسبِ هذا تكونُ الزكاةُ هنا المفروضةَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ المدحَ بالنوافل أبلغُ، قال: (إذ مَن يقيمُ النَّوافِلَ أحرى بإقامةِ الفَرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨).

واختار محمد رشيد رضا أنَّ المرادَ الفرائضُ والنوافلُ، فقال: (﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ، وما شاؤوا من التطوُّعِ، على أقومِ وجهٍ وأكمَلِه في شروطِها وأركانِها وآدابِها، ولا سيَّما الخشوعُ لله تعالى، وكثرةُ ذِكرِه فيها، وما يُوجِبُه الإيمانُ مِن حضورِ القَلبِ في مُناجاتِه، ويُعطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم لِمَن فُرِضَت لهم في الآيةِ الستين من هذه السورة، وما وُفِّقُوا له من التطوُّعِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوَعدَ في الآيةِ الأُولَى على سبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَه في هذه الآيةِ على سبيلِ التَّفصيلِ؛ وذلك لأنَّه تعالى وعَدَ بالرَّحمةِ، ثمَّ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ تلك الرحمةَ هي هذه الأشياءُ(١).

وأيضًا لَمَّا أعقَبَ المُنافِقينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نارِ جهنَّمَ، أعقَبَ المؤمنينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نعيمِ الجِنانِ(٢).

وأيضًا لما ذكَرَ الله تعالى كَونَ المُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ؛ ذكَرَ بَعدَه أنواعَ ما أعَدَّ الله لهم من الثَّوابِ الدَّائمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ(٣).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ بَساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها أنهارُ الجنَّةِ، ماكثينَ فيها أبدًا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
قال الرازي: (قولُه: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والأقرَبُ أن يقال: إنه تعالى أراد بها البساتينَ التي يتناولُها المناظِرُ؛ لأنه تعالى قال بعده: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ والمعطوفُ يجب أن يكون مُغايرًا للمعطوفِ عليه، فتكون مساكِنُهم في جنَّاتِ

كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾.

أي: ووعَد اللهُ المؤمنينَ والمؤمِناتِ أن يُسْكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عَيبَ فيها[١]، مبنيَّةً في بساتينِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرَجونَ منها[٢].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القَومِ وبين أن ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرِ على وَجهِه، في جنَّةِ عَدْنٍ))[٣].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

عَدْنٍ، ومناظِرُهم الجنَّاتِ التي هي البَساتينُ، فتكون فائدةُ وصفِها بأنَّها عَدنٌ، أنَّها تجري مجرى الدَّارِ التي يسكُنُها الإنسانُ، وأمَّا الجنَّات الآخِرةُ فهي جاريةٌ مجرى البساتينِ التي قد يذهبُ الإنسانُ إليها؛ لأجل التنزُّه، وملاقاةِ الأحبابِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(١) قال ابن كثير: (حَسَنةُ البِناءِ، طَيِّبةُ القَرارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥).
وقال السعدي: (قد زُخرِفت وحُسِّنَت وأُعِدَّت لعبادِ الله المتَّقين، قد طاب مرآها، وطاب مَنزِلُها ومَقيلُها، وجَمَعَت من آلاتِ المساكِنِ العالية ما لا يتمنَّى فَوقَه المتمَنُّون، حتى إنَّ الله تعالى قد أعدَّ لهم غُرفًا في غايةِ الصَّفاءِ والحُسنِ، يُرى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
وقال ابن عاشور: (﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، أي: ليس فيها شيءٌ مِن خَبَثِ المساكِنِ، مِن الأوساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونَحوِه، نظيرُ قَولِه: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠).

قال: ((إنَّ للمُؤمِنِ في الجنَّةِ لَخَيمةً مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طُولها سِتُّون مِيلًا، للمُؤمِنِ فيها أهلُونَ، يطوفُ عليهم المؤمِنُ، فلا يرى بعضُهم بعضًا))[١].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي: ورضا الله تعالى عن المؤمِنينَ والمؤمناتِ أعظمُ وأفضَلُ ممَّا هم فيه مِن نَعيمِ الجنَّةِ[٢].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربنا وسَعدَيك، والخَيرُ في يَدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ من ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[٣].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: هل تَشتَهونَ شَيئًا فأزيدَكم؟ فيقولونَ: ربَّنا، وما فوقَ ما أعطيتَنا؟! يقول: رِضواني أكبَرُ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٤٣٩)، والطبراني في ((الأوسط)) (٩٠٢٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦).

قال ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٩٨): على شرطِ البخاري، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٢٤).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ما وعدَ اللهُ تعالى به المؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن النَّعيم والرِّضوانِ في الآخرةِ، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَر الكبيرُ الذي لا أكبَرَ ولا أعظَمَ منه[١].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أنَّ المؤمنَ يحبُّ المؤمنَ، وينصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإنْ تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذه الأمورُ الخَمسةُ بها يتميَّزُ المؤمنُ مِن المنافِقِ، فالمنافِقُ- على ما وصَفَه اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمة- يأمرُ بالمنكَرِ، وينهى عن المعروفِ، والمؤمنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ لا يقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا مع نوعٍ مِن الكسَلِ، والمؤمنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

يبخَلُ بالزكاة وسائِرِ الواجباتِ، والمؤمنونَ يُؤتونَ الزَّكاةَ. والمنافِقُ إذا أمَرَه الله ورسولُه بالمسارعةِ إلى الجهادِ، فإنَّه يتخلَّفُ بنَفسِه، ويثبِّطُ غَيرَه، والمؤمنونَ بالضدِّ منهم(١).

٣- في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ دخولَ المؤمنين الجنةَ إنَّما هو برحمتِه سبحانه لا بأعمالِهم؛ لأنَّه- تبارك وتعالى- بعدَ ما وصفَهم به مِن كثرةِ الأعمالِ، وَعَدَهم الرحمةَ قبلَ الجنةِ، حتى يكونَ دخولُهم إيَّاها برحمتِه لا بأعمالِهم؛ إذْ أعمالُهم لو قِيْسَتْ ببعضِ النِّعَمِ لاستفرغَتْها؛ فلا يحصلُ لهم إلَّا رحمتُه، فلمَّا تغمدتْهم وأدخلَتْهم دارَ كرامتِه؛ عَطَفَ عليهم بفضلٍ جديدٍ، ونعمةٍ مثناةٍ(٢).

٤- اللهُ تعالى جعلَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرْقَ ما بين المؤمِنينَ والمُنافِقينَ؛ لأنَّه قال: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فثبَت بذلك أنَّ أخَصَّ أوصافِ المُؤمِنينَ وأقواها دَلالةً على صِحَّةِ عَقْدِهم، وسلامةِ سَريرتِهم، هو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، وهاتان الصِّفتانِ هما سِياجُ حِفظِ الفَضائِلِ، ومَنعِ فشُوِّ الرذائلِ، وقد فضَّلَ الله تعالى بهما أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سائرِ الأمَمِ في قَولِه تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٣) [آل عمران: ١١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١٠/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٧).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هؤلاء الآمِرونَ بالمَعروفِ، والنَّاهونَ عن المُنكَرِ أطبَّاءُ الأديانِ، الذين تشفَى بهم القلوبُ المريضةُ، وتهتدي بهم القُلوبُ الضالَّةُ، وتَرشُدُ بهم القلوبُ الغاويةُ، وتستقيمُ بهم القُلوبُ الزائغةُ، وهم أعلامُ الهدى ومصابيحُ الدُّجى(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ مَنْ كان مُؤْمِنًا وجَبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَنْ كان كافِرًا وَجَبَتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فجورٌ، أُعطِيَ مِن المُوالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ وظيفةَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ ليست خاصةً بالرِّجالِ، بل حتى النِّساءُ عليهنَّ أن يأمُرنَ بالمعروفِ، وينهَينَ عن المُنكَر، ليس في مجامعِ الرِّجالِ، وفي أسواقِ الرِّجالِ، لكنْ في حقولِ النِّساءِ، ومُجتَمَعاتِ النِّساءِ(٣).

٢- قَولُه تبارك وتعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في سائِرِ الأمورِ، في مُقابلةِ وَصْفِ المنافقينَ بكَمالِ الفِسقِ، والخُروجِ عن الطَّاعةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

٣- لا يُشرَعُ اجتماعُ طائفةٍ وتحزُّبُهم على التَّناصُرِ المُطلَق، بحيث ينصُرُ بعضُهم بعضًا في الحقِّ والباطلِ، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ اتِّباعُ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنونَ إخوةٌ يجِبُ موالاةُ بعضِهم بعضًا وتناصرُهم، وتعاونُهم على البرِّ والتَّقوى، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[١].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ الآيةُ نَصٌّ في مساواةِ النِّساءِ للرِّجالِ في نعيمِ الآخرةِ كُلِّه حتى أعلاه، بالتَّبَع؛ لِمُساهَمتِهنَّ لهم في التَّكليفِ ووَلايةِ الإيمان، إلَّا ما خَصَّهنَّ الشَّرعُ به لِضَعفِهنَّ، وانفِرادِهنَّ بوظائفِهنَّ الخاصَّةِ بهنَّ؛ إذ حَطَّ عنهنَّ وُجوبَ القتالِ، والصَّلاةَ والصِّيامَ في بعضِ الأحوالِ، وهذا من المعلومِ بالضَّرورةِ مِن أحكامِ الإسلام، وإنْ جَهِلَه أو تجاهَلَه أعداؤُه الطَّغام[٢].

٥- رِضا اللهِ عن العبدِ أكبَرُ مِن الجنَّةِ وما فيها؛ لأنَّ الرِّضا صفةُ اللهِ، والجنَّةُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذا الرِّضا جزاءٌ على رِضاهم عنه في الدُّنيا، ولَمَّا كان هذا الجزاءُ أفضَلَ الجزاءِ، كان سببُه أفضَلَ الأعمالِ[٣].

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٠٨).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قولُه: ﴿أَكْبَرُ﴾ تفضيلٌ لم يُذكَرْ معه المفضَّلُ عليه؛ لظهورِه مِن المقام، أي: أكبَرُ مِن الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضوانَ الله أصلٌ لجميعِ الخَيراتِ، وفيه دليلٌ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أعلى وأشرَفُ مِن الجُثمانيَّة[1].

بلاغةُ الآيتَين:

١- قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عَبَّرَ عَنْ نِسبةِ المؤمنينَ بعْضِهم إلى بعضٍ بالوَلايةِ، وعن نِسْبةِ المُنافِقينَ بـ ﴿مِنْ﴾ الاتِّصاليَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ نِسْبةَ هؤلاءِ -أي: المُؤمنِينَ- بطَريقِ القَرابةِ الدِّينيَّةِ، المبنيَّةِ على المُعاقَدةِ، المُسْتتبِعَةِ للآثارِ مِنَ المعونةِ والنُّصْرةِ وغيرِ ذلك، وأنَّ نِسْبةَ أولئكَ -أي: المُنافِقينَ- بمُقْتضَى الطَّبيعةِ والعادةِ[2]؛ فقولُه في المُؤمِنينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مُقابِلُ قولِه في الْمُنافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، وعَبَّرَ في جانِبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بأنَّهُمْ أولياءُ بَعْضٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللُّحْمةَ الجامعةَ بَيْنَهُمْ هي وَلايةُ الإسلامِ؛ فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ مِنْهم مُقلِّدًا للآخَرِ، ولا تابعًا له على غيرِ بصيرةٍ؛ لِما في مَعْنى الوَلايةِ مِنَ الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخِلافِ المنافقينَ، فكأنَّ بَعْضَهم ناشئٌ مِنْ بَعْضٍ في مَذامِّهِم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لَمَّا وَصفَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ بَعْدَه ما يجرِي كالتَّفسيرِ والشَّرْحِ له، وهي الخَمسةُ التي يُميِّزُ بها المؤمِنُ على المنافِقِ؛ فالمُنافِقُ يَأْمُرُ بالمُنْكَرِ، ويَنْهَى عَنِ المعروفِ، ولا يَقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا وهو كَسْلانُ، ويَبْخَلُ بالزَّكاةِ، ويَتخلَّفُ بنَفْسِهِ عَنِ الجِهادِ، وإذا أمَرَه اللهُ تَثبَّطَ وثَبَّطَ غيرَه، والمؤمنُ بضِدِّ ذلك كُلِّه[١].

- وزِيدَ في وَصْفِ المؤمنينَ هُنا: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ تَنويهًا بأنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ المعروفِ[٢]، ومُقابلةً لِمَا سَبَقَ مِنْ قولِهِ تَعالى: ﴿نَسُوا۟ اللَّهَ﴾[٣].

- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ خصَّصَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ بالذِّكرِ مِن جملةِ العباداتِ؛ لِكَونِهما الرُّكنَينِ العَظيمَينِ فيما يتعلَّقُ بالأبدانِ والأموالِ[٤].

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالسِّينِ التي تَدُلُّ على اسْتِقبالِ الفِعْلِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ هنا عِبارةٌ عمَّا يَترتَّبُ على تِلْكَ الأعمالِ الصَّالِحةِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ في الآخِرةِ[٥]، وهذه السِّينُ تفيدُ تَأكيدَ حُصولِ الرَّحمةِ في المُسْتَقْبَلِ؛ فحَرْفُ الاسْتِقبالِ يُفيدُ مَعَ المُضارِعِ ما تُفيدُ (قَدْ) مَعَ الماضي[٦].

- واسْمُ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ما سَيَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).

صاروا أَحْرياءَ به مِنْ أجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: إنَّهُ تعالى لِعزَّتِهِ يَنْفَعُ أولياءَه، وإنَّهُ لِحكْمتِه يَضَعُ الجزاءَ لِمُسْتَحِقِّه[٢]. وقيل: هي تَعليلٌ للوَعْدِ اللَّاحِقِ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ ...﴾[٣].

وقيل: لأنَّه لا يرحمُ إلا مَن ليس فوقَه أحدُ يردُّ عليه حُكمَه، وهو العزيزُ؛ لأنَّ العزيزَ في صفاتِ الله هو الغالبُ، ووصف بالحكيم أيضًا؛ لأنَّ الحكيمَ مَن يضعُ الشيءَ في محلِّه، فالله تعالى كذلك، إلَّا أنَّه قد يُخفي وجهَ الحكمةِ في بعضِ أفعالِه، فيتوهمُ الضعفاءُ أنَّه خارجٌ عن الحكمةِ، فكان في الوصفِ بالحكيمِ احتراسٌ حسنٌ[٤].

وقيل: ختَم الآيةَ بوصفِ العزةِ والحكمةِ؛ ليناسبَ افتتاحَها بالموالاةِ، وتعقيبَها بآيةِ الجهادِ[٥].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يوجبُ المبالغةَ في الترغيبِ والترهيبِ؛ لأنَّه عزيزٌ لا يمنعُ مِن مرادِه في عبادِه مِن رحمةٍ أو عقوبةٍ، وحكيمٌ يدبرُ أمرَ عبادِه على ما يقتضيه العدلُ والصوابُ[٦].

ولولا أنَّ الوعدَ هنا للمُقابلةِ بالوعيدِ الَّذي قبلَه، لكانَ المناسِبُ أنْ يُقالَ: (إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٩ - ٩٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تَفصيلٌ لآثارِ رَحمتِه الأخرويَّةِ إثْرَ ذِكْرِ رَحمتِه الدُّنيويَّةِ، وفيه إظهارٌ في مَوقِعِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: وَعَدَهم اللهُ-؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بعِلِّيَّةِ وَصْفِ الإيمانِ لحُصولِ ما تَعلَّقَ به الوَعْدُ، وعَدَمُ التَّعرُّضِ لذِكْرِ ما مَرَّ مِن الأمرِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك؛ للإيذانِ بأنَّهُ مِنْ لوازِمِه ومُسْتَتْبعاتِه[٢].

- قولُه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه تفصيلٌ للوعدِ الإجماليِّ الذي في قولِه: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ تِلْكَ الرَّحْمةَ هي هذه الأشياءُ[٣].

- قولُه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مُنكَّرٌ للتَّنويعِ، يَدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوانِ، وإنَّما لَمْ يُقْرَنْ بلامِ تَعريفِ الجِنْسِ؛ ليُتوسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيمِ؛ فإنَّ رِضوانَ اللهِ تعالى عظيمٌ[٤]، وتأمَّلْ كيف جاء بالرِّضوانِ مُبتدأً مُنكَّرًا في سِياقِ الإثباتِ، مُخبَرًا عنه بأنَّه أكبَرُ مِن كُلِّ ما وُعِدوا به فأيُّ شَيءٍ كان مِن رضاه عن عَبدِه، وأيسَرُ شَيءٍ مِن رضوانِه؛ أكبَرُ مِن الجنَّاتِ وما فيها مِن المساكِنِ الطَّيِّبةِ وما حَوَتْه[٥]، وعَدَمُ نَظْمِه في سِلكِ الوَعْدِ مع عِزَّتِه في نَفْسِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)،

لأنَّه مُتحقِّقٌ في ضِمْنِ كُلِّ موعودٍ، ولأنَّه مُسْتَمِرٌّ في الدَّارينِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فيه التعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ دَرَجتِهِ في العِظَمِ والفخامةِ[٢].

- وفيه التأكيدُ بضميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ وبالجملةِ الاسميَّةِ، والوصفِ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهميَّة، وكذلك أُتِي بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتخصيصِ الفوزِ بالفضلِ المشارِ إليه، وهو قصرٌ لإفادةِ معنى الكمالِ، كأنَّه لا فوزَ غَيرُه[٣]، ودخولُ ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ أيضًا فيه تَنْبيهٌ على عِظَمِ شَأنِ الْمَذْكُورِ[٤].



((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠) و(٢٥/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣).

الآيتان (٧٣-٧٤)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَاغْلُظْ﴾: أي: اشْدُدْ، وأصلُ (غلظ): يدلُّ على ضِدِّ الرِّقَّةِ(١).

﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾: أي: ومصيرُهم، ومثواهم ومقامُهم، ومسكنُهم ومكثُهم، أو مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّع(٢).

﴿نَقَمُوا﴾: أي: كَرِهوا وأنكَروا، وأصلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيبه(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يجاهِدَ الكفَّارَ والمُنافِقينَ، وأن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩، ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ٤٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢، ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢، ٩١٦).

يَشدُدَ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّم، وبِئس المكانُ الذي صاروا إليه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكلمةِ الكُفرِ، ولم يَقولوها، ولقد قالوها، وكَفَروا بعد إسلامِهم، وهمُّوا بما لم يستطيعوا الوصولَ إليه، وما عابُوا وما أنكَروا إلَّا أنْ أغناهم اللهُ ورسولُه مِن فَضلِه، فإن يتوبوا من نفاقِهم وكُفرِهم، يكُن ذلك خيرًا لهم، وإن يُعرِضوا عن الإيمانِ والتَّوبةِ يُعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ، وما لهم من وليٍّ يُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا نصيرٍ يدفَعُ عنهم الشرَّ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَت مُوالاةُ المُؤمِنينَ ومُقاطَعتُهم للمُنافِقينَ والكافرينَ، وكان ما مضى من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ كافيًا في الإنابةِ، وكان مَن لم يرجِعْ بذلك عظيمَ الطُّغيانِ، غَريقًا في الكُفرانِ- أتبَعَ ذلك الأمرَ بجِهادِهم بما يليقُ بعِنادِهم[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ المُحاربينَ، بالسِّلاحِ، وجاهِدْ غيرَ المحاربينَ منهم بالحُجَّةِ، وجاهِدِ المنافقينَ بالسِّلاحِ إنْ أظهَروا نفاقَهم، وبالحُجَّةِ لِرَدِّ شُبُهاتِهم، وبإقامةِ الحُدودِ على من يقَعُ فيها منهم[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٦، ٥٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي))

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نبيٍّ بعثَه اللهُ في أمَّةٍ قبلي إلاَّ كان له من أمَّتِه حواريُّونَ[1]

(١٦/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٢).

قال القرطبي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتدخُلُ فيه أمَّتُه مِن بَعدِه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤).

وقال محمد رشيد رضا: (اتَّفَق علماءُ الملَّةِ على أنَّ المُنافقين يُعامَلونَ بأحكامِ الشَّريعةِ كالمُسلمين الصَّادقين، فلا يُقاتَلون إلَّا إذا أظهروا الكُفرَ البَواحَ بالرِّدَّةِ، أو بَغَوا على جماعةِ المُسلِمين بالقوَّةِ، أو امتنَعَ بعضُ طوائِفِهم من إقامةِ شَعائِرِ الإسلامِ وأركانِه). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٣، ٤٧٤).

وقال الرازي: (الجهادُ عبارةٌ عن بذلِ الجُهد، وليس في اللَّفظِ ما يدلُّ على أنَّ ذلك الجهادَ بالسَّيف أو باللِّسانِ أو بطريقٍ آخَرَ، فنقول: إنَّ الآيةَ تدُلُّ على وجوبِ الجهادِ مع الفريقينِ، فأمَّا كيفيَّةُ تلك المجاهدةِ فلفظُ الآيةِ لا يدلُّ عليها، بل إنما يُعرَفُ من دليلٍ آخَرَ، وإذا ثبت هذا فنقولُ: دلَّت الدَّلائلُ المنفصلةُ على أنَّ المجاهدةَ مع الكفَّارِ يجب أن تكونَ بالسَّيفِ، ومع المنافقينَ بإظهارِ الحجَّةِ تارةً، وبِترَكِ الرِّفقِ ثانيًا، وبالانتهارِ ثالثًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٣).

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفِياءُ. وَقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث

وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّته، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ من بعدِهم خُلوفٌ[1]، يقولونَ ما لا يَفعلونَ، ويَفعلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمن جاهَدَهم بيَدِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بلسانِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بقَلبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[2].

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: واشدُدْ- يا محمَّدُ- بالقَولِ والفِعلِ على الكفَّارِ والمُنافِقينَ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[4] رأسَ جاريةٍ بين حَجَرينِ، فقيل لها: مَن فعلَ بك هذا؟ أفلانٌ أو فلانٌ، حتى سُمِّيَ اليهوديُّ، فأُتيَ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يزَلْ به حتى أقَرَّ به، فرَضَّ رأسَه بالحِجارةِ))[5].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(١) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعد السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» باسكانِ اللام، وهو الخالفُ بشرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللام فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٦).

قال محمد رشيد رضا: (الغِلظةُ في اللغة: الخُشونةُ والشدَّةُ، ومعاملةُ العدُوِّ المحارِب بهما، مِن وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه، ومعامَلَتُه باللِّينِ والرَّحمةِ وضعٌ لهما في غيرِ مَوضِعِهما). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٤).

(٤) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٥) رواه البخاري (٦٨٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

وسلَّم نفرٌ من عُكْلٍ، فأسلَموا، فاجتَوَوُا المدينةَ[١]، فأمَرَهم أن يأتوا إبِلَ الصَّدَقةِ، فيَشرَبوا مِن أبوالِها وألبانِها، ففَعَلوا فصَحُّوا، فارتَدُّوا وقَتَلوا رُعاتَها، واسْتاقُوا الإبلَ، فبعَثَ في آثارِهم، فأُتيَ بهم، فقطَعَ أيديَهم وأرجُلَهم، وسَمَلَ أعيُنَهم[٢]، ثمَّ لم يَحسِمْهم[٣] حتى ماتوا))[٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عذابَهم في الدُّنيا بالجهادِ والغِلظةِ؛ ذكَرَ عذابَهم في الآخرةِ، فقال[٥]:

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَقَرُّ الكفَّارِ والمُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ لا يَخرُجونَ منها، وبِئسَ المكانُ الذي صاروا إليه[٦].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

(١) اجتَوَوا المَدينةَ: كَرِهوا المُقامَ بها؛ لِضَجَرٍ ونَوعٍ مِن سَقَمٍ. وأصلُه مِن الجَوى، وهو داءٌ يُصيبُ الجَوفَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٣١).

(٢) سَمَلَ أَعيُنَهم: أي: فقَأَها وأذهَبَ ما فيها. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) ولم يَحسِمْهم: أي: ولم يَكْوِهم. والحسم: كيُّ العِرقِ بالنَّارِ؛ لينقَطِعَ الدَّمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٥٦).

(٤) رواه البخاري (٦٨٠٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ بيانٌ للسَّببِ المقتَضي لجهادِ المُنافِقينَ كالكُفَّار، وهو أنَّهم أظهَروا الكُفرَ بالقَولِ، وهمُّوا بشَرٍّ ما يُغري به مِن الفِعلِ، وهو الفَتكُ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

وأيضًا لَمَّا كان معظَمُ ما أُخِذَ على المُنافِقينَ هو كَلِماتٍ دالَّةً على الطَّعنِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحو ذلك من دلائِلِ الكُفرِ، وكانوا إذا نُقِلَ ذلك عنهم تنصَّلوا منه بالأيمانِ الكاذبةِ- عُقِّبَت آيةُ الأمرِ بجِهادِهم بالتَّنبيهِ على أنَّ ما يتنَصَّلونَ به تَنصُّلٌ كاذِبٌ، وأنْ لا ثِقةَ بحَلِفِهم، وعلى إثباتِ أنَّهم قالوا ما هو صريحٌ في كُفرِهم(٢).

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.

أي: يحلِفُ المنافِقونَ بالله كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكَلِمةِ الكُفرِ، كسَبِّ النبيِّ، والطَّعنِ في الدِّينِ، ولقَدْ نطَقوا بكلمةِ الكُفرِ التي يُنكِرونَ قَولَها(٣).

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).

في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه وعنده نفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقلِصُ عنهم الظِّلُّ، فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بِعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تكَلِّموه، فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمَه، قال: علامَ تَشتِمني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دعاهم بأسمائِهم- قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم فحَلَفوا بالله واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]))[(١)].

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

أي: وأظهَرَ المُنافِقونَ كُفرَهم بما قالوه من الكُفرِ، بعد أن كانوا يُظهِرونَ الإسلامَ[(٢)].

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

أي: وهمَّ المُنافِقونَ أن يفعلوا من الشَّرِّ والفَتْكِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين رجَعَ مِن غزوةِ تَبوكَ، ما لم يستطيعوا الوصولَ إليه؛ إذ عصَمَه اللهُ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٩).

قال ابن تيمية: (هذا الإسلامُ قد يكونُ مِن جِنسِ إسلامِ الأعرابِ، فيكونُ قَولُه: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ و﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ سواءً، وقد يكونون ما زالوا مُنافِقينَ، فلم يكنْ لهم حالٌ كان معهم فيها من الإيمانِ شَيءٌ؛ لِكَونِهم أظهَروا الكُفرَ والرِّدَّةَ؛ ولهذا دعاهم إلى التوبةِ، فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

وقيل: والمرادُ بإسنادِ الإسلامِ إليهم: إظهارُ الإسلام، لا وقوعُ حَقيقَتِه، فهم لم يُسلموا إسلامًا صادِقًا. وقد أنبأ عَن ذلك إضافةُ الْإِسلامِ إلى ضميرِهم دونَ تعريفِ الإسلامِ باللَّامِ المفيدةِ للحقيقةِ، أي بعدَ إسلامٍ هو مِن شأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإسلام الصُّوريُّ غيرُ الحقِّ ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وهذا مِن لطائفِ القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

تعالى منهم[1].

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

أي: والحالُ أنَّ المُنافِقينَ ما عابُوا وما أنكَرُوا إلَّا ما هو جديرٌ حقًّا بالمَدحِ والشُّكرِ والثَّناءِ، وهو إغناءُ اللهِ لهم مِن فَضلِه بسبَبِ رَسولِه، وبركةِ رسالَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد أن كانوا فُقَراءَ[2]!

عن عبد الله بن زَيد بن عاصم رَضيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، قسَمَ في النَّاسِ؛ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شَيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاس، فخَطَبَهم فقال: يا معشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكُنتُم متفرِّقينَ فألَّفَكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟!))[3].

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).
قال ابن تيمية: (﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ وهو يدلُّ على أنَّهم سَعَوا في ذلك فلم يَصِلوا إلى مَقصودِهم؛ فإنَّه لم يقُل: هَمُّوا بما لم يفعَلوا، لكِنْ ﴿بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ فصدَرَ منهم قولٌ وفِعلٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
قال ابن عاشور: (إنَّما أغناهم اللهُ ورسولُه بما جلَبَه حلولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينهم من أسبابِ الرِّزقِ، بكثرةِ عَمَلِ المهاجرينَ، وبوَفرةِ الغنائِمِ في الغَزَواتِ، وبالأمنِ الذي أدخَلَه الإسلامُ فيهم؛ إذ جعل المؤمنينَ إخوةً، فانتفَتِ الضَّغائِنُ بينهم والثَّاراتُ، وقد كان الأوسُ والخزرجُ قبل الإسلام أعداءً، وكانت بينهم حروبٌ تفانوا فيها قُبَيلَ الهجرةِ، وهي حُروبُ بُعاثٍ. والفَضلُ: الزِّيادةُ في البَذلِ والسَّخاء). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٦١).

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: فإن يتُبِ المُنافِقونَ مِن نِفاقِهم وكُفرِهم، يكُنْ رُجوعُهم إلى الحَقِّ خَيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١].

﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: وإن يُعرِضِ المُنافِقونَ عن الإيمانِ والتَّوبةِ، ويستَمِرُّوا على النِّفاقِ؛ يعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُؤلِمًا في الدُّنيا- بالهَمِّ والحُزنِ والخِزيِ، وبالقَتلِ إن أظهَروا نِفاقَهم- ويُعَذِّبْهم في الآخرةِ بعذابِ النَّارِ[2].

﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وما للمُنافِقينَ في الأرضِ كُلِّها أيُّ ولِيٍّ يتولَّاهم، ويُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا أيُّ نَصيرٍ ينصُرُهم ويدفَعُ عنهم الشَّرَّ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- كلُّ من وُقِفَ منه على فسادٍ في العقائدِ، فحُكمُه أن يُجاهَدَ بالحُجَّةِ، ويُستعمَلَ معه الغِلَظُ ما أمكَنَ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾(١) [التوبة: ٧٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فالحجَّةُ على المنافِقِ جِهادٌ لهم، وعلى هذا، فالاحتجاجُ على المُنافِقينَ والمُلحِدينَ، والرَّادِّينَ للكِتابِ والسنَّةِ، والمُخالفينَ لهما؛ من الجِهادِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جِهادُ المنافقينَ أصعَبُ مِن جهادِ الكفَّارِ، وهو جهادُ خواصِّ الأمَّةِ، ووَرَثةِ الرُّسُلِ، والقائِمونَ به أفرادٌ في العالَم، والمُشارِكونَ فيه والمُعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلِّينَ عددًا، فهم الأعظَمونَ عند اللهِ قَدْرًا(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الغِلْظةُ الإراديَّةُ (أي غيرُ الطَّبيعيَّةِ) تربيةٌ للمُنافِقينَ وعقوبةٌ، يُرجى أن تكونَ سببًا لهدايةِ مَن لم يُطبَعِ الكُفرُ على قَلبِه، وتُحِطْ به خطايا نفاقِه(٤).

٥- التوبةُ أصلٌ لسَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٥).

٦- مَن خذَلَه اللهُ تعالى وآذَنَه بحَربٍ منه، لا يَقدِر أحَدٌ أن يُجيرَه منه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قرَنَ المُنافقينَ هنا بالكُفَّار؛ تنبيهًا على أنَّ سبَبَ الأمرِ بجِهادِ الكُفَّارِ قد تحقَّقَ في المُنافِقينَ، فجِهادُهم كجِهادِ الكفَّارِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ استدَلَّ به من قال بقَتلِ المُنافِقينَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي: ما وقَعَ منهم قَولٌ، فقصَرَ الفِعلَ تَعميمًا للمَفعولِ؛ إعلامًا بأنَّهم مهما عُنِّفُوا على قولٍ كائنًا ما كان، بادَرُوا إلى الحَلِف على نَفيه كذِبًا؛ لأنَّهم مَرَدوا على النِّفاقِ، فتطَبَّعوا بأعلى الكَذِبِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ فيه أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ التكفيرَ يقَعُ بما يدُلُّ على الكُفرِ مِن قائِلِه أو فاعِلِه، دَلالةً بيِّنةً، وإنْ لم يكُن أعلَنَ الكُفرَ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ فقال: ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ ولم يقُل: (بعد إيمانهم) لأنَّ ذلك لم يتجاوَزْ ألسِنَتَهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠).

٧- قيل للبَجليِّ[١]: أتجِدُ في كتابِ اللهِ تعالى (اتَّقِ شَرَّ مَن أحسَنْتَ إليه؟) قال نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ عُطِفَ الرَّسولُ على اسمِ الجلالةِ في فِعلِ الإغناءِ؛ لأنَّه السَّببُ الظَّاهِرُ المُباشِرُ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ توبةِ الزِّنديقِ المُسِرِّ للكُفرِ المُظهِرِ للإيمانِ[٤]، وقَبولِ توبةِ مَن كفَرَ بعد إسلامِه[٥].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ جُمْلةٌ مُسْتأنَفةٌ لبيانِ آجِلِ أَمْرِهم إِثْرَ بيانِ عاجِلِه[٦].

- وقولُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه[٧].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ

---

(١) هو الحسينُ بنُ الفضلِ بن عميرٍ، أبو عليٍّ البجلي النيسابوري، إمامٌ لغويٌّ، مفسِّر محدِّثٌ، تُوفِّي سنة (٢٨٢هـ). يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٣/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ اسْتِئنافٌ لبيانِ ما صَدَرَ عنهم مِنَ الجرائمِ المُوجبةِ لِمَّا مَرَّ مِنَ الأمرِ بالجِهادِ والغِلْظةِ عليهم، ودُخولِ جهنَّمَ(١).

- وإيثارُ صيغةِ الاسْتِقبالِ ﴿ يَحۡلِفُونَ ﴾؛ لاسْتِحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على تكريرِ الحَلِفِ، وإيثارُ صِيغةِ الجَمْعِ في ﴿قَالُواْ ﴾ مَعَ أنَّ القائلَ هو بعضُهم؛ للإيذانِ بأنَّ بَقِيَّتَهم بِرِضاهُم صَارُوا بمَنْزِلةِ القائلِ(٢).

- وأكَّدَ صُدورَ كَلِمةِ الكُفْرِ منهم بصِيغةِ القَسَمِ ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ ﴾ في مُقابَلةِ تأكيدِهم نَفْيَ صُدورِها؛ ليكونَ تَكذيبُ قولِهم مُساويًا لقولِهم في التَّأكيدِ(٣).

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ اسْتِثناءٌ تَهكُّميٌّ، وهو مِنْ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ، ونُكْتَتُه أنَّ المُتكلِّمَ يَظْهَرُ كأنَّه يَبْحَثُ عَنْ شيءٍ يَنْقُضُ حُكْمَه الخَبَريَّ ونَحْوَه، فيَذْكُرُ شيئًا هو مِنْ مؤكِّدات الحُكْمِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه اسْتَقصى فلم يَجِدْ ما يَنْقُضُه(٤).

- قولُه: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ...﴾ فيه مجيءُ الفِعْلِ ﴿يَكُ ﴾ في جوابِ الشَّرطِ دونَ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَتوبوا فهو خَيرٌ لَهُمْ)؛ لتأكيدِ وقوعِ الخيرِ عِنْدَ التَّوبةِ، والإيماءِ إلى أنَّه لا يَحْصُلُ الخيرُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ؛ لأنَّ فِعْلَ التَّكوينِ مُؤذِنٌ بذلك(٥).

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧١).

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ خصَّصَ الأرضَ بالذِّكرِ، مع أنَّهم لا وليَّ لهم في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يعتَقِدونَ الوحدانيَّةَ، ولا يصَدِّقونَ بالآخرةِ، كان اعتقادُهم وجودَ الوَليِّ والنَّصيرِ مقصورًا على الدُّنيا، فعبَّرَ عنها بـ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أو أراد بالأرضِ أرضَ الدُّنيا والآخرةِ[1].



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٦-٢٣٧).

الآيات (٧٥-٧٨)

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: أي: أورَثَهم، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[(١)].

﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: أي: حَديثَهم بينهم، وأصلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن عاهد اللهَ لَئِن رزَقَهم مِن فَضلِه لَيُخرِجَنَّ الصَّدقةَ، ولَيكونَنَّ من الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عِبادِه، فلمَّا رزَقَهم اللهُ مِن فَضلِه بَخِلوا به، وتوَلَّوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرِفينَ عن ذلك، فجعل اللهُ عاقبةَ ذلك نِفاقًا في قلوبِهم، يستمِرُّ معهم إلى يومِ يُتوَفَّونَ ويَلقَونَ اللهَ؛ بسبَبِ إخلافِهم اللهَ ما وَعَدوه، وبسببِ كَذِبِهم في كلامِهم.

ألم يعلَمْ هؤلاءِ المُنافِقونَ أنَّ الله يعلمُ ما يُخفونَه وما يتَناجَونَ به، وأنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٦، ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

علَّامٌ لِجَميعِ ما غابَ عن حواسِّ خَلْقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ختم الله تعالى الآية السابقة بأنَّه أغناهم من فضلِه؛ أتبَعَها بإقامةِ الدَّليلِ عليها، وعلى أنَّهم يَقبِضونَ أيديَهم، وعلى اجترائِهم على أقبَحِ الكَذِبِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ من أعطى اللهَ عَهدًا بقَولِه: واللهِ لَئِن رَزَقَنا اللهُ مِن فَضلِه، لنُخرِجَنَّ الصَّدَقةَ ممَّا أعطانا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

قال الشوكاني: (ومعنى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لَنُخرِجُ الصَّدقةَ، وهي أعَمُّ من المفروضةِ وغيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).

ما ورد في أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ هو سببُ نزولِ هذه الآياتِ، لا يصحُّ؛ ضعَّفه ابنُ حزم في ((المحلى)) (١١/ ٢٠٧)، والقرطبي في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٠٦)، والذهبي في ((تجريد أسماء الصحابة)) (١/ ٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((تفسير الطبري)) (١٤/ ٣٧١)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (١٦٠٧)، وضعَّف إسنادَه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٩٠)، والزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ٨٥)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٣٤)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٤)، وابن حجر في ((الكافي الشاف)) (١٣٢)، والسيوطي في ((لباب النقول)) (١٥٧).

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ولَنكونَنَّ- إن بسَطَ اللهُ علينا الرِّزقَ- من جملةِ الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عبادِه[1].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهم اللهُ وأعطاهم مِن فَضلِه بَخِلوا بما آتاهم، فلم يُنْفِقوا منه في حقِّ الله، ولم يتصدَّقوا بشيءٍ منه، كما حلَفوا[2].

﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

أي: وأدبَرُوا عن طاعةِ اللهِ تعالى والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

وقال القرطبي: (﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: عن الإسلامِ، أي: مُظهِرونَ للإعراضِ عنه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).

وقال النسفي: (﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ مُصِرُّونَ على الإعراض). ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٩٦).

وقال الشوكاني: (﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أي: أعرَضوا عن طاعةِ الله، وإخراجِ صَدَقاتِ ما أعطاهم اللهُ مِن فَضلِه، والحالُ أنَّهم مُعرِضونَ في جميعِ الأوقات، قبل أن يُعطيَهم اللهُ ما أعطاهم من الرِّزقِ وبعدَه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).

وقال محمد رشيد رضا: (ولم يكُن تولِّيهم هذا أمرًا عارضًا شَغَلَهم عنه شاغِلٌ يزولُ بزوالِه، بل تولَّوا وهم مُعرِضونَ بكُلِّ قواهم، عن الصَّدقةِ والعمَلِ الصَّالح، فكان الإعراضُ صِفةً

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾.

أي: فجعل اللهُ عاقبةَ أمرِهم نِفاقًا كائنًا في قلوبِهم، متمكِّنًا منها، مستمرًّا فيها إلى يومِ يلقون الله تعالى، بموتِهم، وخروجِهم مِن الدُّنيا[1].

﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾.

أي: فجعل اللهُ في قلوبِهم النِّفاقَ، وحَرَمَهم التوبةَ منه؛ بسبَبِ إخلافِهم ما عاهدوا اللهَ عليه، مِن الصَّدَقةِ والصَّلاحِ؛ ولأنَّهم كانوا يَكذِبونَ في كلامِهم وعهدهم[2].

راسخةً فيهم، حاكمةً عليهم، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجِبُ عليهم، لا يذكُرونَ، وإذا دُعُوا إليه لا يستجيبونَ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

وقيل: الضميرُ في قولِه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ يرجعُ إلى البخلِ، فالمعنى: أعقبهم بخلُهم بما نذروا نفاقًا. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٨٣).

قال ابن عاشور: (مَعنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ إلى يومِ الحَشرِ؛ لأنَّه يومُ لِقاءِ اللهِ للحِسابِ، أو إلى يومِ الموتِ؛ لأنَّ الموتَ لِقاءُ الله، كما في الحديث: «من أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحَبَّ اللهُ لقاءَه»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

وقيل: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي: يلقون عملَهم، أي جزاءَه، وهو يوم القيامةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهَد غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر))[٢].

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاهَدةُ سَببًا للإغناءِ في الظَّاهِرِ، وكان ذلك ربَّما كان مَظِنَّةً لأنْ يتوهَّمَ مَن لا عِلمَ له أنَّ ذلك لخفاءِ أمرِ البَواطِنِ عليه سُبحانه، وكان الحُكمُ هنا واردًا على القَلبِ بالنِّفاقِ الذي هو أقبَحُ الأخلاقِ، مع عدمِ القُدرةِ لِصاحِبِه على التخلُّصِ منه، كان ذلك أدَلَّ دَليلٍ على أنَّه تعالى أعلَمُ بما في كلِّ قَلبٍ مِن صاحِبِ ذلك القَلبِ، فعَقَّبَ ذلك بالإنكارِ على مَن لا يعلَمُ ذلك، والتَّوبيخِ له والتَّقريعِ، فقال تعالى[٣]:

﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفونَه مِن الكُفرِ والنِّفاقِ، ويَعلَمُ ما يتناجَونَ به فيما بينهم مِن الطَّعنِ

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٤).

في الإسلامِ والمُسلِمينَ، وسيُجازيهم على أعمالِهم[١]؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يعلَمُ جَميعَ ما غاب عن حواسِّ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن المغيَّباتِ[٢]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ يدُلُّ على أن نَقضَ العَهدِ، وخُلفَ الوَعدِ يُورِثانِ النِّفاقَ، فيجِبُ على المُسلمِ أن يُبالِغَ في الاحترازِ عنهما، فإذا عاهدَ اللهَ في أمرٍ، فليجتَهِدْ في الوَفاءِ به[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على وُجوبِ الحَذَرِ مِن إحداثِ الأفعالِ الذَّميمةِ؛ فإنَّها تُفسِدُ الأخلاقَ الصَّالحةَ، ويزدادُ الفَسادُ تمكُّنًا مِنَ النَّفسِ بطبيعةِ التولُّدِ الذي هو ناموسُ الوُجودِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ هذا بيانٌ عما يُوجِبُه الكَذِبُ مع إخلافِ الوعدِ مِن النِّفاقِ، فمن أخلَفَ في المواثيقِ مع اللهِ، فقد تعرَّضَ للنِّفاقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

وكان جزاؤُه مِن اللهِ إفسادَ قلْبِه بما يُكسِبُه النِّفاقَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أعاد اللَّامَ الواقعةَ في جوابِ القَسَمِ في (لنكُونَنَّ)؛ لتأكيدِ العَزمِ على الاستعانةِ، والتوسُّلِ بفَضلِ المالِ إلى الاستقامةِ على منهجِ الصَّلاحِ، بما هو وراءَ الصَّدَقاتِ، التي عقَدُوا العَهدَ والقَسَمَ عليها[٢].

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على صِحَّةِ تَعليقِ النَّذرِ بالمِلْكِ، مِثلُ قَولِ القائل: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا فلِلَّه عليَّ أنْ أتصدَّقَ به أو بشيءٍ منه، فهذا يصِحُّ اتِّفاقًا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فيه أنَّ إخلافَ الوَعدِ والكَذِبَ، مِن خِصالِ النِّفاقِ، فيكونُ الوفاءُ والصِّدقُ مِن شُعَبِ الإيمانِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فيه المعاقبةُ على الذَّنبِ بما هو أشَدُّ منه[٥].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ استدلَّ به قومٌ على أنَّ مَن حلَفَ إن فعَلَ كذا، فللَّهِ عليَّ كذا، أنَّه يلزَمُه[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ النِّفاقُ إذا كان في القَلبِ، فهو الكُفرُ، فأمَّا إذا كان في الأعمالِ فهو معصيةٌ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسَلَّم: ((أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّى يَدَعها إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهدَ غَدَرَ، وإذا خاصَم فَجَرَ))[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ عُطِفَت النَّجوى على السِّرِّ مع أنَّه أعَمُّ منها؛ لينبِّهَهم باطِّلاعِه على ما يتناجَونَ به من الكيدِ والطَّعنِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ عبَّرَ عَنْ كَذِبِهم بصيغةِ ﴿كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ لدَلالةِ ﴿كَانَ﴾ على أنَّ الكَذِبَ كائنٌ فيهم، ومُتمكِّنٌ منهم،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).

والحديثُ أخرجه البخاري (٣٤)، واللفظ له، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).

ودَلالةِ المُضارِعِ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ على تكرُّرِهِ وتَجدُّدِه[١]، واستمرارِه؛ لأنَّ ذلك شأنُهم الدَّائِمُ، الذي هو أخَصُّ لوازمِ النِّفاقِ، بينما عبَّرَ عن إخلافِهم الوعدَ بالفِعلِ الماضي، فقال: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾؛ لأنَّه في حادثةٍ وَقَعَت[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ اسْتِفهامٌ تضمَّنَ التَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ[٣].

- وإظهارُ اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في الموقِعينِ؛ لإلقاءِ الرَّوعةِ، وتَربيةِ المهابةِ[٤].

- وفي إيرادِ العِلْمِ المُتعلِّقِ بسِرِّهِم ونجواهُم بصِيغةِ الفِعْلِ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ الدَّالِ على الحُدوثِ والتَّجدُّدِ، والعِلْمِ المُتعلِّقِ بالغُيوبِ الكثيرةِ الدَّائمةِ بصِيغةِ الاسْمِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ الدَّالِ على الدَّوامِ والمُبالَغةِ: فخامةٌ وجَزالةٌ لا تَخْفى[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على النَّجوى؛ لأنَّ العِلمَ به أعظَمُ في الشَّاهِدِ مِنَ العِلمِ بها، مع ما في تَقديمِه وتعليقِ العِلمِ به مِن تعجيلِ إدخالِ الرَّوعةِ[٦].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٣٤).

الآيتان (٧٩-٨٠)

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٨٠ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُهۡدَهُمۡ﴾: أي: طاقَتَهم ووُسعَهم، وأصلُ (جهد): يدلُّ على مَشقَّةٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اسمُ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ، ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ ﴿يَلۡمِزُونَ ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ﴾ في محلِّ نصبٍ عطفًا على ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾[٢]، أي: يلمِزونَ المطَّوِّعينَ، ويَلمِزونَ الذين لا يَجِدونَ، وجملةُ ﴿ فَيَسۡخَرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَلۡمِزُونَ ﴾، وجُملة: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ في محلِّ رفْعٍ خبرُ المُبتدأِ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾، وقيلَ غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) وليس في محلِّ جرٍّ عطفًا على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كما يُتوهَّمُ؛ لأنه يُفهِمُ أنَّ الذين لا يَجِدونَ ليسُوا مُؤمِنينَ؛ لأنَّ أصلَ العطفِ الدَّلالةُ على المغايرةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٨-٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (١٠/ ٤٠١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ الذين يَعيبونَ المُتطَوِّعينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ، ويَعيبونَ الفُقَراءَ الذين لا يجِدونَ إلَّا شيئًا يسيرًا بحسَبِ طاقَتِهم يتصَدَّقونَ به، فيَسخَرونَ منهم- أنَّه سُبحانه سَخِرَ منهم مقابِلَ ذلك، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ في نارِ جَهنَّمَ.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: استغفِرْ لهم- يا مُحمَّدُ- أوْ لا تستغفِرْ لهم، فلن يَغفِرَ اللهُ لهم، حتى وإن استغَفَرْتَ لهم سبعينَ مرَّةً، فلن يغفِرَ اللهُ لهم؛ ذلك بسبَبِ كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّه لم يكْفِ المُنافقينَ كُفرانُ نِعمةِ الغنى من غيرِ مُعاهدةٍ، حتى ارتكَبوا الكُفرانَ بمَنعِ الواجِبِ مع المعاهَدةِ؛ أخبَرَ أنَّه لم يَكفِهم أيضًا ذلك، حتى تعَدَّوه إلى عيبِ الكُرَماءِ الباذِلينَ بصِفةِ حُبِّهم لرَبِّهم ما لم يُوجِبْه عليهم[1]، فقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

عن أبي مَسعودٍ رَضيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كنَّا نتحامَلُ، فجاء

(١) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٥).

أبو عَقيلٍ بنِصفِ صاعٍ، وجاء إنسانٌ بأكثَرَ منه، فقال المُنافِقونَ: إنَّ اللهَ لَغنِيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فعَلَ هذا الآخَرُ إلَّا رِئاءً، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ... ﴾ الآية))[1].

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه- في حديثِ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا- قال: ((بينما رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك، رأى رجلاً مُبَيِّضًا[2]، يزولُ به السَّرابُ[3]، فقال: كنْ أبا خيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصَدَّقَ بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزه المُنافِقونَ))[4].

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

أي: المُنافِقونَ الذين يَعيبونَ المُتطوِّعينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ في صَدَقاتِهم الكبيرةِ، فيَزعُمونَ أنَّهم يُراؤونَ بها[5].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: ويَعيبونَ أيضًا المتطَوِّعينَ مِن المُؤمِنينَ الفُقَراءِ، الذين لا يجِدونَ ما يتصدَّقونَ به إلَّا شيئًا يَسيرًا بِقَدرِ طاقَتِهم، فيَستَهزِئُون بهم[6].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٨) واللفظ له، ومسلم (١٠١٨).

(٢) مُبَيِّضًا: أي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨، ٥٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).

﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: سَخِرَ اللهُ مِن هؤلاء المُنافِقينَ، في مُقابِلِ سُخرِيَتِهم من المؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى عن المُنافقينَ: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: ولِلمُنافِقينَ يومَ القِيامةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ في نارِ جهنَّمَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٧).
قال ابن تيمية: (وكذلك ما ادَّعوا أنَّه مجازٌ في القرآنِ كلَفظِ «المكر» و«الاستهزاء» و«السُّخرية» المضافِ إلى الله، وزَعَموا أنَّه مُسمًّى باسمِ ما يقابِلُه على طريقِ المجازِ، وليس كذلك، بل مُسمَّياتُ هذه الأسماءِ إذا فُعِلَت بمن لا يستحِقُّ العقوبةَ كانت ظُلمًا له، وأمَّا إذا فُعِلَت بمن فعَلَها بالمجنيِّ عليه عقوبةً له بمِثلِ فِعلِه، كانت عدلًا، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوتُه، لَمَّا قال له أبوه: ﴿ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرًا وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ ﴾ [النمل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾؛ ولهذا كان الاستهزاءُ بهم فِعلًا يستحِقُّ هذا الاسمَ.. وعن مقاتلٍ: إذا ضُرِبَ بينهم وبين المؤمنينَ بسُورٍ له بابٌ، باطِنُه فيه الرَّحمةُ، وظاهِرُه مِن قِبَلِه العذابُ، فيَبقَونَ في الظُّلمةِ، فيُقال لهم: ارجِعوا وراءَكم فالتمِسوا نورًا. وقال بعضُهم: استهزاؤُه: استدراجُه لهم. وقيل: إيقاعُ استهزائِهم وردُّ خداعِهم ومكرِهم عليهم. وقيل: إنَّه يُظهِرُ لهم في الدُّنيا خلافَ ما أبطنَ في الآخرةِ. وقيل: هو تجهيلُهم وتخطِئَتُهم فيما فعلوه؛ وهذا كلُّه حَقٌّ، وهو استهزاءٌ بهم حقيقةً). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١١، ١١٢). ويُنظر: ((صفاتُ الله عزَّ وجلَّ الواردةُ في الكتابِ والسنَّة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

أي: سواءٌ طلَبْتَ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ المغفِرةَ، أو لم تطلُبْها لهم، فلَن يغفِرَ اللهُ لهم[١].

عن ابنِ عبَّاس، عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، دُعِيَ له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أتصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أُعدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عني يا عُمَرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرْتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زِدتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له، لَزِدْتُ عليها، قال: فصلَّى عليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ انصَرَف،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

قال ابن جرير: (هذا كلامٌ خرج مخرَجَ الأمرِ وتأويلُه الخبَرُ، ومعناه: إنِ استَغفَرْتَ لهم- يا محمَّدُ- أو لم تستغفِرْ لهم؛ فلن يغفِرَ اللهُ لهم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨).

وقال ابن عاشور: (الذي يظهرُ لي أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أُوحِيَ إليه بآيةِ سُورةِ المُنافقين، وفيها أنَّ استغفارَه وعَدَمَه سواءٌ في حَقِّهم؛ تأوَّلَ ذلك على الاستغفارِ غيرِ المؤكَّدِ، وبعَثَتْه رحمَتُه بالنَّاسِ، وحِرصُه على هداهم، وتكَدُّرُه من اعتراضِهم عن الإيمانِ، أن يستغفِرَ للمُنافقينَ استغفارًا مُكَرَّرًا مُؤكَّدًا؛ عسى أن يغفِرَ اللهُ لهم، ويزولَ عنهم غضبُه تعالى، فيَهديَهم إلى الإيمانِ الحَقِّ، بما أنَّ مُخالَطتَهم لأحوالِ الإيمانِ- ولو في ظاهِرِ الحالِ- قد تجرُّ إلى تعلُّقِ هَدْيِه بقلوبِهم بأقلِّ سَببٍ، فيكونُ نزولُ هذه الآيةِ تأييسًا مِن رضا اللهِ عنهم، أي: عن البقيَّةِ الباقيةِ منهم، تأييسًا لهم ولِمَن كان على شاكِلَتِهم ممَّن اطَّلَعَ على دخائِلِهم، فاغتبَطَ بحالِهم؛ بأنَّهم انتَفَعوا بصحبةِ المُسلِمينَ والكُفَّار، فالآيةُ تأييسٌ مِن غَيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٧).

فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))(١).

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

أي: إنْ تسألِ اللهَ المَغفِرةَ- يا مُحمَّدُ- لذنوبِ هؤلاءِ المُنافِقينَ سَبعينَ مَرَّةً، فلَن يستُرَها اللهُ عليهم، ولن يتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: عدمُ مَغفرةِ اللهِ ذنوبَ المُنافِقينَ، بسبَبِ كُفرِهم باللهِ سُبحانه وتعالى وبرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).
قال الرازي: (العلَّةُ التي لأجْلِها لا ينفَعُهم استغفارُ الرَّسولِ وإن بلغ سبعينَ مَرَّةً؛ كُفرُهم وفِسقُهم، وهذا المعنى قائمٌ في الزيادةِ على السَّبعينَ، فصار هذا التَّعليلُ شاهدًا بأنَّ المرادَ إزالةُ الطَّمعِ في أن ينفَعَهم استغفارُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، مع إصرارِهم على الكُفرِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

أي: واللهُ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤْثِرينَ للكُفرِ به، المصرِّينَ على فِسْقِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَن أطاعَ اللهَ وتطَوَّعَ بخَصلةٍ مِن خِصالِ الخَيرِ؛ فإنَّ الذي ينبغي هو إعانَتُه، وتنشيطُه على عَمَلِه، وهؤلاء قصَدوا تثبيطَهم بما قالوا فيهم، وعابُوهم عليه[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ لَمْزَ المؤمِنِ والسُّخريةَ منه، مِن الكبائِرِ؛ لِما يَعقُبُهما من الوَعيدِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النكتةُ في عَطْفِ الخاصِّ، وهو قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ على العامِّ، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي: التَّنويهُ بهذا الخاصِّ؛ لأنَّ السُّخريةَ مِن المُقِلِّ أشدُّ مِن المُكْثِرِ غالبًا[4].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ جاحِدَ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُطلَقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٣٢).

عليه كافرٌ[١].

٣- الكافِرُ لا ينفَعُه الاستغفارُ ولا العمَلُ ما دام كافرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ غيرُ مُرادٍ به المقدارُ من العَدَدِ، بل هذا الاسمُ مِن أسماءِ العَدَدِ التي تُستعمَلُ في معنى الكَثرةِ[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاستغفارَ للناس نافعُهم ولاحِقٌ بهم؛ لأنَّ الذي حالَ بينَ أهلِ هذه الآيةِ وبينَ استغفارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لهم هو كُفْرُهم لا غيرُه[٤].

٦- جَرَت سنَّةُ الله تعالى في الرَّاسِخينَ في فُسوقِهم وتمرُّدِهم- المُصِرِّينَ على نِفاقِهم، الذين أحاطت بهم خطاياهم- أن يَفقِدوا الاستعدادَ للتَّوبةِ والإيمانِ، فلا يَهتَدونَ إليهما سبيلًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٥].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩).

- اخْتيرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يَلْمِزُونَ﴾، وقولِه: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّر هذا منهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيرادُ الجُمْلةِ اسْميَّةً؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ، وتَنوينُ العذابِ وصِفتِه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للتَّهويلِ والتَّفخيمِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الأَمْرُ فيه مُبالَغةٌ في الإياسِ[٣]، وتصويرُهُ بصورةِ الأَمْرِ للمُبالَغةِ في بيانِ اسْتِوائهِما، كأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمِرَ بامْتِحانِ الحالِ بأنْ يَسْتغفِرَ تارةً، ويَتْرُكَ أُخْرى؛ ليَظْهَرَ له جليةُ الأَمْرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾[٤] [التوبة: ٥٣].

- وقولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ بيانٌ للعِلَّةِ التي لأجْلِها لا يَنْفَعُهم اسْتِغفارُ الرَّسولِ لهم، وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً، وهي كُفْرُهم وفِسْقُهم[٥].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ تذييلٌ مُؤكِّدٌ لِما قَبْلَهُ مِنَ الحُكْمِ؛ فإنَّ مَغْفرةَ الكافِرِ إنَّما هي بالإقلاعِ عَنِ الكُفْرِ، والإقبالِ إلى الحَقِّ، والمُنْهمِكُ فيه المطبوعُ عليه بمَعْزِلٍ مِن ذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).

الآيتان (٨١-٨٢)

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلٗا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: أي: الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه [1].

﴿خِلَٰفَ﴾: أي: بعدَ، أو مُخالِفينَ [2].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المنافقينَ الذين ترَكَهم اللهُ، ولم يوفِّقْهم للجهادِ، فَرِحوا بقُعودِهم بعد خروجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، مُخالفينَ أمْرَه بالنُّهوضِ للجهادِ، وكَرِهوا أن يُجاهِدوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لنُصرةِ دينِ اللهِ، وإعلاءِ كَلِمتِه، وقال بعضُهم لبعضٍ: لا تخرُجوا مع المُسلمينَ إلى تَبوكَ لِغَزوِ الرُّوم في شدَّةِ الحَرِّ، فأمر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ نارَ جهنَّمَ أَشَدُّ حرًّا، لو كان يفهمونَ عن اللهِ، ويعقلونَ كَلامَه.

فلْيَضحكِ المُنافقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كثيرًا في نار جهنَّمَ؛ جزاءً من اللهِ بسبَبِ ما كانوا يعملونَه في الدُّنيا، من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما ظهَرَ مِن النِّفاقِ والهُزءِ من الذين خَرَجوا معه إلى غزوةِ تَبوكَ مِن المُنافقين؛ ذكَرَ حالَ المُنافِقينَ الذين لم يَخرُجوا معه، وتخلَّفوا عن الجهادِ، واعتَذَروا بأعذارٍ وعِلَلٍ كاذبةٍ، حتى أذِنَ لهم، فكشفَ اللهُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أحوالِهم، وأعلَمَه بسوءِ فِعالِهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا علَّلَ سُبحانَه عدَمَ المَغفِرةِ للمُنافِقينَ بفِسقِه؛ علَّلَ رُسوخَهم في الفِسقِ[(٢)].

وأيضًا مُناسبةُ وُقوعِها في هذا الموضِعِ أنَّ فَرَحَ المنافقينَ بتخَلُّفِهم قد قويَ لَمَّا استغفَرَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظنُّوا أنَّهم استغفَلوه فقَضَوا مَآرِبَهم، ثمَّ حَصَّلوا الاستغفارَ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُعاملةَ اللهِ إيَّاهم تجري على ظواهِرِ الأمورِ[(٣)].

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فَرِحَ المُنافِقونَ- الذين تَرَكَهم اللهُ، ولم يُوفِّقْهم للجهادِ- بقُعودِهم بعد خروجِ رَسولِ اللهِ إلى تَبوكَ؛ مخالفةً منهم لأمْرِه بالنُّهوضِ للجِهادِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٤ - ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي))

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وكَرِهَ هؤلاءِ المُنافِقونَ أن يجاهِدوا الكفَّارَ ببَذلِ أموالِهم، وغَزْوِهم بأنفُسِهم لنُصرةِ دِينِ اللهِ سبحانَه، وإعلاءِ كَلِمتِه تعالى[١].

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾.

أي: وقال المُنافِقونَ بعضُهم لبعضٍ: لا تَخرجُوا مع المسلمينَ إلى تبوكَ؛ لِغَزوِ الرُّومِ في وَقتِ شدَّةِ الحرِّ[٢].

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يتعلَّلونَ عن الجهادِ بسبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ: نارُ جهنَّمَ التي يدخُلُها في الآخرةِ مَن خالف أمْرَ اللهِ، وعَصى رسولَ اللهِ- أشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الذي لا تريدونَ النَّفرَ فيه، فاتَّقوها بالجِهادِ[٣].

(٢/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

قال القرطبي: (المخَلَّفُ: المَتروكُ، أي: خلَّفَهم اللهُ وثبَّطَهم، أو خلَّفهم رسولُ الله والمؤمنونَ لَمَّا عَلِموا تثاقُلَهم عن الجهادِ: قولان، وكان هذا في غزوةِ تَبوكَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).

قال ابنُ جرير: (كَرِه هؤلاءِ المخَلَّفونَ أن يغزُوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله...؛ ميلًا إلى الدَّعةِ والخَفضِ، وإيثارًا للرَّاحةِ على التعبِ والمشقَّة، وشُحًّا بالمالِ أن يُنفِقوه في طاعةِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

وقال الرازي: (كَرِهَ الخُروجَ إلى الغزوِ؛ لأنَّه تعريضٌ للمالِ والنَّفسِ للقَتلِ والإهدارِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١).

وقال ابن تيمية: (عاب اللهُ عزَّ وجلَّ المُنافقين الذين يتعلَّلون بالعوائِقِ، كالحرِّ والبرد. فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾.

أي: لو كان هؤلاء المُنافقون يفهمونَ عن اللهِ تعالى، ويعقِلونَ كَلامَه، لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ؛ لِيَتَّقوا به حَرَّ جهنَّمَ، الَّذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولما فرُّوا مِن المشقةِ الخفيفةِ المنقضيةِ، إلى المشقَّةِ الشديدةِ الدائمةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ- جُزءٌ مِن سبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ، قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بِتسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها))[2].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهونَ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ لَرَجلٌ تُوضَعُ في أخمَصِ[3] قَدَميه جَمرتانِ، يغلي مِنهما دماغُه))[4].

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ وهكذا الذين يقولونَ: لا تنفِروا في البَردِ، فيقال: نارُ جهنَّمَ أشَدُّ بردًا، كما أخرجاه في الصَّحيحينِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((اشتكَتِ النَّارُ إلى ربِّها، فقالت: ربِّي أكلَ بَعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنفَسَينِ: نفسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصَّيفِ؛ فأشَدُّ ما تجِدونَ مِن الحرِّ والبَردِ، فهو من زَمهريرِ جهنَّمَ))). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

قال ابن جرير: (ولكنَّهم لا يفقهونَ عن الله، فهم يحذَرونَ مِن الحرِّ أقَلَّه مَكروهًا وأخفَّه أذًى، ويوافِقونَ أشدَّه مَكروهًا وأعظَمَه على من يَصلاه بلاءً). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللفظ له.

(٣) الأَخمَصُ: باطِنُ القَدَمينِ الذي لا يَصِلُ إلى الأرضِ عند المَشيِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٩/ ٣٢٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٢١٣) واللفظ له.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أدنى أهلِ النَّارِ عذابًا، ينتعِلُ بنَعلَينِ مِن نارٍ، يغلي دماغُه من حرارةِ نَعلَيه))(١).

ثُمَّ قال اللَّهُ جلَّ جلالُه، مُتوَعِّدًا لهؤلاءِ المنافِقينَ على صَنيعِهم هذا(٢):

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾.

أي: فلْيضحَكِ المُنافِقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كَثيرًا، في نارِ جهنَّمَ(٣).

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فسَيبكي المُنافِقونَ كثيرًا في الآخرةِ؛ جزاءً مِن اللهِ لهم بسبَبِ ما كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي(٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لِمَن لا يصبِرُ على حرِّ الشَّمسِ في الدُّنيا أنْ يجتَنِبَ من الأعمالِ ما يَستوجِبُ به صاحبُه دُخولَ النَّارِ؛ فإنَّه لا قوَّةَ لأحدٍ عليها ولا صبْرَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

قال الرازي: (معنى الآية: أنَّهم وإن فَرِحوا وضَحِكوا في كلِّ عُمرِهم فهذا قليلٌ؛ لأنَّ الدُّنيا بأسرِها قليلةٌ، وأمَّا حَزَنُهم وبكاؤُهم في الآخرةِ فكثيرٌ؛ لأنَّه عقابٌ دائمٌ لا ينقطِعُ، والمنقطِعُ بالنسبةِ إلى الدائمِ قَليلٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢١).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ قولُه: ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ لفظٌ يقتضي تحقيرَهم، وأنَّهم الذين أبعَدَهم اللهُ مِن رِضاه، وهذا أمكَنُ في هذا مِن أن يُقالَ (المتخلِّفون)، ولم يفرَحْ إلَّا مُنافِقٌ، فخرج من ذلك الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، وتاب اللهُ عليهم، وأصحابُ العُذرِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ذِكرُ فَرَحِهم دَلالةٌ على نفاقِهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنينَ لكان التخلُّفُ نَكدًا عليهم ونَغصًا، كما وقعَ للثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا فتاب اللهُ عليهم[2].

٣- مِن نُكتةِ اختيارِ لَفْظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ دُونَ (خَلْفَ)- معَ أنَّ (خِلاف) لغةٌ في خَلْف- أنَّه يُشيرُ إلى أنَّ قُعودَهم كان مُخالفةً لإرادةِ رَسولِ اللهِ، حين استنفرَ النَّاسَ كُلَّهم للغَزوِ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾ المؤمِنُ يَدفَعُ- بِصَبرِه على الحرِّ والبَردِّ في سَبيلِ اللهِ- حرَّ جهنَّمَ وبَردَها؛ والمنافِقُ يفِرُّ مِن حرِّ الدُّنيا وبَرْدِها، حتى يقعَ في حرِّ جهنَّمَ وزَمهريرِها[4].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩).

- قولُه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ...﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي التَّوبيخَ والوعيدَ، ولَفْظةُ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تَقْتضي الذَّمَ والتَّحقيرَ[١]، وهذا فيه اسْتِجهالٌ لهم؛ لأنَّ مَنْ تَصوَّنَ مِنْ مَشقَّةِ ساعةٍ، فوَقَعَ بذَلِكَ التَّصونِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كان أَجْهَلَ مِنْ كُلِّ جاهلٍ[٢]، فأظهَرَ الوصفَ بالتخَلُّفِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ موضِعَ الضَّميرِ (فَرِحوا)؛ زيادةً في تهجينِ ما رَضُوا به لأنفُسِهم[٣].

- وقال: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾، ولم يَقُلْ: (وكَرِهوا أنْ يَخْرجوا إلى الغزوِ)؛ إيذانًا بأنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ- مَعْ كونِهِ مِنْ أَجَلِّ الرَّغائبِ، وأَشْرفِ المطالِبِ التي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المتنافِسونَ- قد كَرِهوهُ، كما فَرِحوا بأقبحِ القبائحِ، الذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي قولِه: (فَرِحَ وكَرِهوا) مُقابَلَةٌ مَعنويَّةٌ؛ لأنَّ الفَرَحَ مِن ثَمَراتِ المَحبَّةِ[٥].

- والفَرَحُ بالإقامةِ يدُلُّ على كراهةِ الذَّهابِ؛ إلَّا أنه تعالى أعاده للتأكيدِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تنويهٌ بالمؤمنينَ، وبتحمُّلِهم المشاقَّ العظيمةَ لوَجْهِ اللهِ تعالى، وبما فَعَلوا مِنْ بَذْلِ أموالِهم وأرواحِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، وإيثارِهم ذلك على الدَّعةِ والخَفْضِ[٧].

- قولُه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ خَبَرٌ مُسْتَعملٌ في التَّذكيرِ بما هو مَعْلومٌ- لأنَّ كونَ نارِ جَهنَّمَ أشدَّ حرًّا مِنْ حَرِّ القيظِ أَمْرٌ مَعلومٌ، لا يتعلَّقُ الغرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).

بالإخبارِ عنه-؛ تعريضًا بتجهيلِهم؛ لأنَّهم حَذِروا مِنْ حَرٍّ قليلٍ، وأَقْحَموا أَنْفُسَهم فيما يَصيرُ بِهم إلى حَرٍّ أَشَدَّ، فيكونُ هذا التَّذكيرُ كِنايةً عَنْ كونِهم واقعينَ في نارِ جَهنَّمَ؛ لأَجْلِ قُعودِهم عَنِ الغزوِ في الحَرِّ[١].

- وجُمْلةُ: ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ تَتميمٌ للتَّجهيلِ والتَّذكيرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك لو كانوا يَفْقهونَ الذِّكرى، ولكِنَّهُمْ لا يَفْقهونَ، فلا تُجْدي فيهم الذِّكرى والموعظةُ[٢]، وهذه الجملةُ أيضًا اعْتِراضٌ تذييليٌّ مِنْ جِهتِه سُبْحانَه وتعالى غيرُ داخلٍ تَحْتَ القولِ المأمورِ بِه، وهو مُؤكِّدٌ لِمَضمونِه[٣]، ولَفْتُ الكلامِ إلى الغَيبةِ يدُلُّ على أنَّ أعظَمَ المُرادِ بهذا الوَعظِ ضُعَفاءُ المُؤمِنينَ؛ لئلَّا يتشبَّهوا بهم طَمعًا في الحِلمِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ إخبارٌ عمَّا يؤولُ إليه حالُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أي: فسَيَضْحكونَ قليلًا، ويبكونَ كثيرًا؛ إلَّا أنَّه أَخْرَجَه على صِيغةِ الأَمْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه حَتْمٌ واجِبٌ، لا يكونُ غيرُه، وعلى تَحتُّمِ وقوعِ المُخبَرِ به؛ فإنَّ أَمْرَ الآمرِ المُطاعِ ممَّا لا يَكادُ يتخلَّفُ عنه المأمورُ[٥].

- ويَجوزُ أن يكونَ (الضَّحِك) كنايةً عَنِ الفَرَحِ، و(البُكاء) كِنايةً عَنِ الغَمِّ[٦].

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه الجَمْعُ بين صِيغتَي الماضي والمُسْتقبَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٢-٥٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ التَّجدُّدي ما داموا في الدُّنيا[١].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾: المتخلِّفين[١] بعدَ القومِ، أو المتخلِّفينَ لعذرٍ، كالنساءِ والأطفالِ والعَجزةِ وأهلِ الأعذارِ، والخالفُ: المتأخِّر لنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُف الرجلَ في مالِه وبيتِه، وقيل: الخالفُ: الفاسدُ، مِن: خَلَف، أي: فَسَد[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ ردَّك اللهُ تعالى مِن غَزوةِ تَبوكَ إلى جماعةٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ الذين تخَلَّفوا عنك في المدينةِ بلا عُذرٍ، فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أخرى؛ فقل لهم: لن تخرُجوا معيَ أبدًا، ولن تقاتِلوا معيَ عدُوًّا؛ وذلك لأنَّكم رَضِيتُم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مَرَّةٍ للخُروجِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، فاقعُدوا مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ.

---

(١) قال الألوسي: (وتفسيرُ الخالفِ بالمتخلِّفِ هو المأثورُ عن أكثرِ المفسِّرين السَّلفِ). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

ثم ينهَى اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يصلِّيَ على أيِّ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ إذا مات، أو يقِفَ على قَبرِه، لأنَّهم كَفَروا باللهِ ورَسولِه، وماتوا وهم فاسِقونَ.

وينهاه أيضًا عن أن يستحسِنَ أموالَهم وأولادَهم، فيغتَرَّ بها؛ فاللهُ تعالى إنَّما يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، وأن تَخرُجَ أرواحُهم وهم مستمِرُّون على كُفرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مَخازِيَ المُنافِقينَ، وسُوءَ طَريقَتِهم؛ بيَّنَ أنَّ الصَّلاحَ في ألَّا يستصحِبَهم في غزَواتِه؛ لأنَّ خُروجَهم معه يُوجِبُ أنواعًا من الفسادِ[1].

وأيضًا لما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا ...﴾ فُرِّع على الغضبِ عليهم وتهديدِهم عقابٌ آخرُ لهم، بإبعادِهم عن مشاركةِ المسلمين في غزواتِهم[2].

وأيضًا لَمَّا كان المسرورُ بشيءٍ، الكارِهُ لضِدِّه، النَّاهي عنه؛ لا يفعَلُ الضِّدَّ إلَّا تكلُّفًا، ولا قَلْبَ له إليه، وكان هذا الدِّينُ مَبنيًّا على العِزَّةِ والغِنى؛ أتبَعَ ذلك بقولِه مُسبِّبًا عن فَرَحِهم بالتخَلُّفِ[3]:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾.

أي: فإن أرجَعَك اللهُ وردَّك -يا مُحمَّدُ- من غزوةِ تَبوكَ، إلى جماعةٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٤).

هؤلاءِ المُنافِقينَ- الذين تخلَّفوا عنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك- فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى(١).

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- عقوبةً لهم: لن تَصحبوني أبدًا في أيِّ سَفرٍ؛ للجِهادِ، ولا لغَيرِه، كالنُّسُك، ولن تُقاتِلوا معيَ عدُوًّا من الأعداءِ أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).
قال ابن عاشور: (المرادُ بالطَّائفةِ هنا جماعةٌ من المخَلَّفينَ، دلَّ عليها قولُه: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: إلى طائفةٍ منهم يبتغونَ الخُروجَ للغَزوِ، فيجوزُ أن تكونَ هذه الطائفةُ من المُنافقين أرادوا الخروجَ للغَزوِ؛ طمعًا في الغنيمةِ أو نحو ذلك. ويجوز أن تكونَ طائفةٌ مِن المخلَّفينَ تابوا وأسلموا، فاستأذنوا للخُروجِ للغَزْوِ. وعلى الوجهينِ يحتملُ أنَّ مَنْعَهم مِن الخروجِ للخَوفِ مِن غَدرِهم إن كانوا مُنافقينَ، أو لمجَرَّد التأديبِ لهم إن كانوا قد تابُوا وآمنوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).
قال محمد رشيد رضا: (﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ مِنَ الأعداء بِصفةٍ ما، لا بالخروجِ والسَّفَرِ إليهم، ولا بغيرِ ذلك؛ كأن يُهاجِموا المؤمنينَ في عاصِمَتِهم، كما فعلوا يومَ الأحزابِ مَثلًا، فكلٌّ مِن الخروجِ المُطلَق الذي حُذِفَ مُتعَلِّقُه، والقتالِ الذي ذُكِرَ مُتعَلِّقُه، نكرةٌ منفيَّةٌ عامةٌ، فيَصْدُقَانِ بكلِّ خُروجٍ، وكلِّ قتالٍ لعدوٍّ في أي مكانٍ، وقد يكون كلٌّ منهما بدونِ الآخَرِ، فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلَق، وقد غفَل عن هذا مَن غفَل من المفسِّرين، فزعموا أنَّ الثانيَ تأكيدٌ للأوَّلِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٩٣).

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وذلك لأنَّكم رَضِيتُم -أيُّها المُنافِقونَ- بالتخلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مرَّةٍ للخروجِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

أي: فاقعُدوا- أيُّها المنافقونَ- مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ، من الأشرارِ الفاسدينَ الذين تخلَّفوا بغيرِ عُذرٍ، ومن المَعذُورينَ مِن المَرضى والضُّعفاءِ والنِّساءِ والصِّبيانِ[2].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى أمَرَ رَسولَه بأن يسعى في تخذيلِ المُنافِقينَ، وإهانَتِهم وإذلالِهم، فالذي سبق ذِكرُه في الآيةِ الأولى- وهو مَنْعُهم من الخروجِ معه إلى الغَزَواتِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨ - ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣).

قال ابنُ جريرٍ: (أُريدَ به: فاقعُدوا معَ مرضَى الرِّجالِ وأهلِ زَمانَتِهم والضُّعفاءِ مِنهم والنِّساءِ... ولو وُجِّه معنَى ذلك إلى: فاقعُدوا معَ أهلِ الفسادِ، من قولِهم: خَلَفَ الرِّجالَ عن أهلِه يَخْلُفُ خُلوفًا، إذا فَسَد، ومِن قولِهم: هو خَلَفُ سُوءٍ، كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩ - ٦١٠).

سببٌ قويٌّ من أسبابِ إذلالِهم وإهانتِهم، وهذا الذي ذكَرَه في هذه الآيةِ -وهو مَنعُ الرَّسولِ من أن يصلِّيَ على من مات منهم- سببٌ آخَرُ قويٌّ في إذلالِهم وتَخذيلِهم[١].

وأيضًا لَمَّا انقضى الكلامُ على الاستغفارِ للمُنافقينَ، النَّاشئِ عن الاعتذارِ والحَلِف الكاذِبَينِ، وكان الإعلامُ بأنَّ اللهَ لا يغفِرُ لهم، مَشُوبًا بصورةِ التَّخييرِ في الاستغفارِ لهم، وكان ذلك يُبقي شيئًا مِن طَمَعِهم في الانتفاعِ بالاستغفارِ؛ لأنَّهم يحسَبونَ المعامَلةَ الرَّبانيَّةَ تجري على ظواهِرِ الأعمالِ والألفاظِ- تهيَّأ الحالُ للتَّصريحِ بالنَّهيِ عن الاستغفارِ لهم، والصَّلاةِ على موتاهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاس، عن عُمرَ بنِ الخطَّاب رَضيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سلولَ، دُعِيَ له رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصَلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أتُصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أعَدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عنِّي يا عُمرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زدْتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له لَزِدْتُ عليها. قال: فصلَّى عليه رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم انصرَفَ، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾. قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))[(١)].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾.

أي: ولا تُصَلِّ - يا مُحمَّدُ - على أحدٍ من هؤلاءِ المُنافِقينَ إذا مات، أبدًا[(٢)].

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا دُعِيَ لِجنازةٍ سأل عنها، فإن أُثنِيَ عليها خيرًا، قام فصلَّى عليها، وإن أُثنِيَ عليها غيرَ ذلك، قال لأهلِها: شأنَكم بها، ولم يُصَلِّ عليها))[(٣)].

﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾.

أي: ولا تَقُم - يا مُحمَّدُ - على قبرِ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ؛ لِتَولِّي دَفنِه، والاستغفارِ والدُّعاءِ له[(٤)].

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولا تُصَلِّ - يا محمَّدُ - على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن الخُروجِ معك أبدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠).

وقال ابن كثير: (هذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه، وإن كان سببُ نزولِ الآيةِ في عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سلولَ؛ رأسِ المنافقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٥٥٥)، والطيالسي (٦٢٩)، وابن حبان (٣٠٥٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٣٤٨).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٦٥)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٦): رجالُه رجالُ الصحيح، وقال ابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢١٠): صحيحٌ غريبٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٥١٧)، والوادعي في ((الفتاوى الحديثية)) (١/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: لا تُصَلِّ على المُنافقينَ إذا ماتوا، ولا تقُمْ على قُبورِهم؛ لأنَّهم كَفروا باللهِ سُبحانه، وكَفَروا برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وماتوا وهم خارِجونَ عن الإيمانِ، وطاعةِ الرَّحمنِ(٢).

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يدلُّ على شَقاوةِ المُنافقين في الحياةِ الآخرةِ، كان ذلك قد يُثيرُ في نفوسِ النَّاسِ أنَّ المنافقين حصَّلوا سعادةَ الحياةِ الدُّنيا، بكثرةِ الأموالِ والأولادِ، وخَسِروا الآخرةَ. وربَّما كان في ذلك حَيرةٌ لبعضِ المُسلمين أن يقولوا: كيف منَّ الله عليهم بالأموالِ والأولادِ، وهم أعداؤه وبُغَضاءُ نبيِّه. وربَّما كان في ذلك أيضًا مَسلاةٌ لهم بين المُسلمين، فأعلمَ اللهُ المُسلِمينَ أنَّ تلك الأموالَ والأولادَ- وإن كانت في صورةِ النِّعمةِ- فهي لهم نِقمةٌ وعذابٌ، وأنَّ اللهَ عذَّبهم بها في الدُّنيا(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾.

(١٠/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

أي: ولا تَستحسِنْ - يا مُحمَّدُ - أموالَ المُنافِقينَ وأولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم(١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن يعذِّبَ المُنافقينَ بأموالِهم وأولادِهم في حياتِهم الدُّنيا، بالهُمومِ والغُمومِ، بأخذِ الزَّكاةِ منهم، وبما أُلزِموا بالإنفاقِ فيه، وبما يعتري أموالَهم وأولادَهم من مصائِبَ وتعبٍ في جمعِ الأموالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن كانت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ اللهُ عليه أمْرَه، وجعَلَ فَقرَه بين عينَيه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ له، ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جمَعَ اللهُ له أمْرَه، وجعَلَ غِناه في قَلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ))(٣).

---

(١) تقدم نظيرها في الآية (٥٥) من هذه السورة.
قال ابن عطية: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه؛ إذ هو - بإجماع - ممَّن لا تفتِنُه زخارِفُ الدُّنيا، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: ولا تُعجِبْك أيُّها الإنسانُ، والمرادُ الجِنسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠).

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِن أجسادِهم، وهم مُقيمونَ على كُفرِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لا خِزيَ أعظَمُ مِن أن يكونَ إنسانٌ قد رفَضَه الشَّرعُ وردَّه، كالجَمَلِ الأجرَبِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الرجُلَ إذا ظهَرَ له من بعضِ مُتعلِّقيه مَكرٌ وخِداعٌ وكيدٌ، ورآه مُشَدِّدًا فيه مُبالغًا في تقريرِ مُوجِباتِه، فإنَّه يجِبُ عليه أن يقطَعَ العُلقةَ بينه وبينه، وأن يحترِزَ عن مُصاحَبتِه[3].

٣- ينبغي الحذرُ مِن أمرينِ لهما عواقِبُ سُوءٍ:

أحدُهما: ردُّ الحَقِّ؛ لِمُخالفَتِه هواك؛ فإنَّك تُعاقَبُ بتَقليبِ القَلبِ، وردِّ ما يَرِدُ عليك مِن الحَقِّ رأسًا، ولا تَقبَلُه إلَّا إذا برَزَ في قالبِ هواك؛ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقَبهم على ردِّ

قال ابنُ عبدِ البرِّ في ((التمهيد)) (٢١/ ٢٧٦): ثابتٌ، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن كثير: (ليكونَ ذلك أنكى لهم وأشَدَّ لعذابِهم، عياذًا باللهِ من ذلك، وهذا يكونُ مِن باب الاستدراجِ لهم فيما هم فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).

الحَقِّ أوَّلَ مَرَّةٍ بأنْ قَلَّبَ أفئِدَتَهم وأبصارَهم بعد ذلك.

والثاني: التَّهاونُ بالأمرِ إذا حضر وَقتُه؛ فإنَّك إن تهاونْتَ به ثبَّطَك الله وأقعَدَك عن مراضيه وأوامرِه؛ عقوبةً لك، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ فمن سَلِمَ مِن هاتَينِ الآفتَينِ والبليَّتَينِ العظيمَتينِ، فلْيَهْنِه السَّلامةُ[1].

٤- المُتثاقِلُ المتخَلِّفُ عن المأمورِ به عند انتهازِ الفُرصةِ، لا يُوفَّقُ له بعدَ ذلك، ويُحالُ بينه وبينه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾[2].

٥- إنَّ مِن جزاءِ السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدَها، كما أنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها؛ لذا عَلَّلَ قولَه لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[3] [الأنعام: ١١٠].

٦- إنَّ طُلَّابَ الدُّنيا ومُحِبِّيها ومُؤثِريها على الآخرةِ، يُعَذَّبونَ بها، فهم مُعذَّبونَ بالحِرصِ على تحصيلِها، والتَّعَبِ العظيمِ في جَمعِها، ومُقاساةِ أنواعِ المَشاقِّ في ذلك، فلا تجِدُ أتعَبَ ممَّن الدُّنيا أكبَرُ هَمِّه، وهو حريصٌ بجُهدِه على تحصيلِها، وهذا هو معنى تعذيبِهم بها، ومِن أبلَغِ العذابِ في الدُّنيا: تَشتيتُ الشَّملِ، وتفَرُّقُ القُلوبِ، وكونُ الفَقرِ نُصبَ عَينَي العَبدِ لا يُفارِقُه، ولولا سَكرةُ عُشَّاقِ الدُّنيا بحُبِّها، لاستَغاثوا مِن هذا العذابِ! فمُحِبُّ الدُّنيا لا ينفَكُّ مِن ثلاثٍ: همٍّ لازمٍ،

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢).

وتعَبٍ دائمٍ، وحَسرةٍ لا تنقضي. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ مَن ظهَرَ منه نِفاقٌ وتَخذيلٌ، لا يجوزُ للإمام أن يستصحِبَه في الغَزوِ؛ اقتداءً برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أمَرَه اللهُ به، مِن مُباعَدتِهم عن الجَماعةِ التي تَصحَبُ في السَّفرِ، وتَنصُرُ على العَدُوِّ، مِن أهلِ الطَّاعةِ(٢).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فِعلُ: ﴿رَضِيتُم﴾ يدلُّ على أنَّ ما ارتكَبوه من القُعودِ عمَلٌ مِن شأنِه أن يأباه النَّاسُ حتى أُطلِقَ على ارتكابِه فِعلُ (رَضِيَ) المُشعِرُ بالمحاولة والمُراوضة؛ جُعِلوا كالذي يحاوِلُ نَفسَه على عمَلٍ، وتأبى حتى يُرضِيَها، كَقولِه تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾(٣) [التوبة: ٣٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ فيه تحريمُ الصَّلاةِ على الكافِرِ، والوقوفِ على قَبرِه، والدُّعاءِ له، والاستغفارِ(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ الصَّلاةِ على المؤمنينَ، والوقوفِ عند قُبورِهم للدُّعاءِ لهم؛ فإنَّ تَقييدَ النَّهيِ بالمنافقينَ يدُلُّ على أنَّه قد كان مُتقرِّرًا في المؤمِنينَ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ دليلٌ على انتفاعِ المقبورِ بوقوفِ مَن يقفُ عنده مِن الدَّاعينَ؛ إذْ كلُّ ما مُنِعَ منه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ هي عقوبةٌ للمقبورِ لا محالةَ(٢).

٦- مَن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّه تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الظَّاهرةُ: مِن المُناكَحة والمُوارَثةِ، وتغسيلِه والصَّلاةِ عليه، ودَفنِه في مقابرِ المُسلمين ونحوِ ذلك؛ لكِن مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّندقةُ، فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ. فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ فكُلُّ مَن لم يُعلَمْ منه النِّفاقُ وهو مُسلِمٌ، يجوزُ الاستغفارُ له والصَّلاةُ عليه، بل يُشرَعُ ذلك ويُؤمَرُ به، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ استدلَّ به على أنَّ الإمامَ إذا حضرَ جنازةً؛ فهو المُقَدَّمُ عليها في الصلاةِ دونَ الأولياءِ، كما تكونُ في سائرِ الصلاةِ؛ إذ لو كان الأولياءُ أحقَّ منه- كما يزعم مَن يقولُ: إنَّ الصلاةَ على الميتِ مِن الأمورِ الخاصةِ؛ فيتقدمُ الوليُّ عليه- كان النهيُ واقعًا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧).

على مَنْعِ وَلِيِّ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سلولَ، النازلِ فيه هذه الآيةُ، مِن الصلاةِ عليه، لا على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الذي هو الإمامُ[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ لَمَّا ذكَرَ في تعليلِ هذا النهيِ كَونَه كافرًا، وصَفَه بعد ذلك بكونِه فاسقًا- مع أنَّ الفِسقَ أدنى حالًا مِن الكُفرِ- لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ فاسقًا في دينِه خَبيثًا مَمقوتًا عند قَومِه، والكَذِبُ والنِّفاقُ والخِداعُ والمكرُ والكَيدُ، أمرٌ مُستقبَحٌ في جميعِ الأديان، فالمُنافِقونَ لَمَّا كانوا موصوفينَ بهذه الصِّفاتِ، وصَفَهم اللهُ تعالى بالفِسقِ بعد أن وصَفَهم بالكُفرِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ النِّفاقِ طَريقةٌ مَذمومةٌ عند كلِّ أهلِ العالَم[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ تقدَّمَ نظيرُه في السورةِ، وأعيدَ هنا؛ لأنَّ أشدَّ الأشياءِ جَذبًا للقلوبِ، وجَلبًا للخواطِرِ إلى الاشتغالِ بالدُّنيا، هو الاشتغالُ بالأموالِ والأولادِ، وما كان كذلك يجِبُ التحذيرُ عنه مرَّةً بعد أخرى[3].

وقيل: وجهُ تَكريرِها تأكيدُ هذا المعنى وإيضاحُه؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يُفتَنونَ بصلاحِ حالِ المُنافقينَ في دنياهم[4].

وقيل: أُعيدَ ذلك؛ لأنَّ تجدُّدَ النُّزولِ له شأنٌ في تقريرِ ما نزَلَ له وتأكيدِه، وإرادة أن يكونَ على بالٍ مِن المخاطَبِ لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقِدَ أنَّ العمَلَ به مهِمٌّ يفتقِرُ إلى فضلِ عنايةٍ به، لا سيَّما إذا تراخى ما بين النُّزولين. فأشبه

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨).

الشَّيءَ الذي أهَمَّ صاحِبَه، فهو يرجِعُ إليه في أثناءِ حَديثِه، ويتخلَّصُ إليه. وإنَّما أعيدَ هذا المعنى لِقوَّتِه فيما يجِبُ أن يَحذَر منه(١).

وقيل: ظاهِرُه أنَّه تكريرٌ، وليس بتكريرٍ؛ لأنَّ الآيتينِ في فَريقينِ مِن المنافقينَ، ولو كان تكريرًا لكان مع تباعُدِ الآيتينِ لِفائدةِ التَّأكيدِ والتَّذكيرِ(٢).

وقيل: أراد بالأُولى لا تُعَظِّمْهم في حالِ حياتهم بسبَبِ كَثرةِ المالِ والولَدِ، وبالثانيةِ لا تُعَظِّمهم بعد وفاتِهم لمانعِ الكُفرِ والنِّفاقِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ فيه دُخولُ (إنْ) هنا- وهي للمُمكِنِ وقوعُه غالبًا-؛ إشارةً إلى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يعلمُ بمُسْتقبلاتِ أَمْرِهِ مِنْ أَجَلٍ وغيرِهِ إلَّا أنْ يُعْلِمَه اللهُ(٤).

- قولُه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ فيه مِن مَحاسِنِ البَلاغةِ: الانْتِقالُ بالنَّفي مِنَ الشَّاقِّ عليهم- وهو الخروجُ إلى الغُزاةِ- إلى الأشقِّ، وهو قِتالُ العَدوِّ؛ لأنَّه عُظمُ الجِهادِ، وثمرةُ الخروجِ، ومَوضِعُ بارقةِ السُّيوفِ التي تحتها الجَنَّةُ، ثُمَّ عَلَّلَ انْتِفاءَ الخروجِ والقِتالِ بكونِهم رَضُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).

بالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ، ورِضاهم ناشئٌ عن نِفاقِهم وكُفرِهم وخِداعِهم، وعصيانِهم أمْرَ اللهِ في قولِه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقالوا هم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ فعلَّلَ بالمُسبَّبِ، وهو الرِّضا النَّاشئُ عَنِ السَّببِ، وهو النِّفاقُ[1].

- وقَولُ الله تعالى: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبارٌ بمعنى النَّهيِ؛ للمُبالغةِ[2].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مُستأنَفةٌ؛ للتَّعدادِ عليهم والتَّوبيخِ، أي: إنَّكُمْ تُحِبُّونَ القُعودَ، وتَرْضونَ به، فقد زِدْتُكم منه[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَّاتَ ...﴾ و﴿وَمَاتُواْ﴾ ماضٍ بمَعْنى المُسْتقبلِ؛ وإنَّما قيل: (مَاتَ)، و(ماتوا) بلَفْظِ الماضي- والمَعْنى على الاسْتِقبالِ- على تقديرِ الكونِ والوجودِ؛ لأنَّه كائنٌ موجودٌ لا محالةَ؛ فموتُهم غيرُ مَوجودٍ في حالِ التَّكلُّمِ ولا قَبْلَه، وإنَّما جِيءَ بصيغةِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وقوعِ الموتِ لا مَحالةَ[4].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليلٌ للمَنْعِ مِنَ الصَّلاةِ والاسْتِغفارِ لهم، والقيامِ بما يَقْتضي الامْتِناعَ مِنْ ذلك، وهو الكُفْرُ والموافاةُ عليهِ[5]؛ فهي تعليليَّةٌ للنَّهي ﴿وَلَا تُصَلِّ ...﴾؛ ولِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).

وقد أَغْنى وجودُ (إنَّ) في أوَّلِها عنْ فاءِ التَّفريع[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾ تكريرٌ لِما سَبَق، وتقريرٌ لِمَضْمونِه بالإخبارِ بوقوعِه[٢].

- وفيه تَقديمُ الأموالِ على الأولادِ، مَعَ كونِهِمْ أعزَّ مِنْها؛ إمَّا لعُمومِ مَسيسِ الحاجةِ إليها بحَسَبِ الذَّاتِ وبحَسَبِ الأفرادِ والأوقاتِ؛ فإنَّها ممَّا لا بُدَّ منه لكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ، حتَّى إنَّ مَنْ له أولادٌ ولا مالَ لَهُ، فهو وأولادُهُ في ضيقٍ ونَكالٍ، وأمَّا الأولادُ فإنَّما يَرْغَبُ فيهم مَنْ بَلَغَ مَبلَغَ الأُبوَّة[٣]، وقيل: لأنَّها أقدَمُ في الوجودِ منهم[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، وقال تعالى قَبْلَ ذلك في السُّورةِ نَفْسِها: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، فهناك تَشابُهٌ واخِتْلافٌ بين ألفاظِ الآيتينِ، وذلك على النحوِ الآتي:

١- بَدأتِ الآيةُ الأُوْلى بالفاءِ والثَّانيةِ بالواوِ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مَعطوفةٌ على ما قَبْلَها؛ فسِياقُ الآياتِ السَّابقةِ يَقْتضي العَطْفَ، فهو نَهْيٌ عُطِفَ على ﴿ وَلَا تُصَلِّ ﴾، ﴿ وَلَا تَقُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ فناسبتِ الواو، أمَّا الآيةُ الأُوْلى فالفاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٣).

للاسْتِئنافِ، وليس هناك عَطفٌ، وقيل: مُناسَبةُ الفاءِ أنَّهُ عَقِبَ قولِه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: للإنفاقِ، فهم مُعجَبونَ بَكْثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ فنَهاه عَنِ الإعجابِ بفاءِ التَّعقيبِ.

٢- الآيةُ الأولى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ...﴾ وردتْ في سِياقِ الإنفاقِ، أي: إنفاق الأموالِ، ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ فالكلامُ كلُّهُ -إذنْ- في الإنفاقِ في الآياتِ التي قَبْلها وبَعْدَها، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسِياقُ الآياتِ قَبْلَها وبَعْدَها في الجِهادِ، وليس الإنفاق، فلمَّا كان السِّياقُ في الأموالِ أَضافَ ﴿لَا﴾، وفَصَلَ الأولادَ والأموالَ للتَّوكيدِ، وقيل: ذِكْرُ ﴿لَا﴾ مُشْعِرٌ بالنَّهي عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ على انْفِرادٍ، ويتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ المجموعِ، ولم تذكرْ في الثانيةِ؛ فكان نهيًا عن إعجابِ المَجموعِ، ويَتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ، فدلَّتِ الآيتانِ بمَنْطوقِهما ومَفهومِهما على النَّهيِ عن الإعجابِ بالأموالِ والأولادِ مُجْتمعين ومُنْفرِدين.

٣- ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ زِيادةُ اللَّام في الآيةِ الأُوْلى زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ لأنَّ السِّياقَ في الأموالِ والإنفاقِ، وكما أكَّدَ بـ (لا) أكَّدَ باللَّام بمعنى (إنَّما يُريدُ اللهُ أنْ يُعَذِّبَهم)؛ فزِيادةُ اللَّامِ قِياسيَّةٌ للتَّوكيدِ (تؤكِّدُ معنى الإرادةِ)، فلمَّا كانوا مُتعلِّقينَ بالمالِ تعلُّقًا شديدًا أكَّدَ باللَّامِ ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾، فكان التَّعذيبُ أشدَّ، وقيل: أَتى باللَّامِ المُشْعِرةِ بالتَّعليلِ، ومفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ محذوفٌ، أي: إنَّما يُريدُ اللهُ ابْتِلاءَهم بالأموالِ والأولادِ لِتَعذيبِهم، وأتى بـ (أَنْ)؛ لأنَّ مَصَبَّ الإرادةِ هو التَّعذيبُ، أي: (إنَّما يُريدُ اللهُ تعذيبَهم)؛ فقَدِ اخْتَلفَ مُتعلِّقُ الفِعْلِ في الآيتينِ، هذا الظَّاهِرُ، وإنْ كان يَحْتَمِلُ زيادةَ اللَّامِ، والتَّعليل بـ(أَنْ).

٤- وذَكَرَ (الحياةَ الدُّنيا) في الآيةِ الأُولى و(الدُّنيا) في الآيةِ الثَّانيةِ: فأمَّا الآيةُ الأولى فهي في سياقِ الأموالِ، والأموالُ عِنْدَ النَّاسِ هي مَبْعثُ الرَّفاهيةِ والحياةِ والسَّعادةِ، والمالُ هو عَصَبُ الحياةِ، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فهي في الجِهادِ، وهو مَظِنَّةُ مُفارَقةِ الحياةِ في القِتالِ، فاقْتَضى السَّياقُ ذِكْرَ (الحياةِ) في الآيةِ الأُوْلى، وحَذْفَها في الآيةِ الثَّانيةِ ، وقيل: أَثْبَتَ (في الحياةِ) على الأصلِ، وحُذِفتْ هنا تنبيهًا على خِسَّةِ الدُّنيا، وأنَّها لا تَستحِقُّ أنْ تُسمَّى حياةً، ولا سيَّما حين تَقدَّمَها ذِكْرُ موتِ المنافقينَ، فنَاسَبَ ألَّا تُسمَّى حياةً(١).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ٥٠٩).

الآيات (٨٦-٨٩)

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ
مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾: أي: ذَوو الغِنى والسَّعةِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضْلٍ، وامْتِدادٍ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: أي: النِّساءِ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإذا أُنزِلَت سورةٌ مِن القُرآنِ فيها الأمرُ بالإيمانِ بالله، والجهادِ مع رَسولِه، استأذَنَك في التخلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الأموالِ مِن المُنافِقينَ، وقالوا: دَعْنا نكُنْ مع القاعدينَ، رَضُوا أن يكونوا في منازِلِهم مع النِّساءِ، وختم اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَفهَمونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

لكن إنْ تخلَّفَ هؤلاء المُنافِقونَ عن الجهادِ فلا ضيرَ؛ لأنَّه قد نهض إليه مَن هو خيرٌ منهم؛ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه، فقد جاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم، وأولئك لهم النِّعَمُ الكثيرةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الذين ظَفِروا بما طَلَبوا مِن النَّعيمِ، أعدَّ اللهُ لهم بساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ذلك الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ ﴾.

مَناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما بيَّنَ اللهَ تعالى في الآياتِ المتقدِّمةِ أنَّ المُنافِقينَ احتالوا في رُخصةِ التخَلُّفِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقعودِ عن الغَزوِ؛ زادَ في هذه الآيةِ دقيقةً أُخرَى، وهي أنَّه متى نزَلَت آيةٌ مُشتَمِلةٌ على الأمرِ بالإيمانِ، وعلى الأمرِ بالجهادِ مع الرَّسولِ، استأذَنَ أولو الثَّروةِ والقُدرةِ منهم في التخلُّفِ عن الغَزوِ، وقالوا لرَسولِ اللهِ: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي: مع الضُّعَفاءِ مِن النَّاسِ، والسَّاكِنينَ في البلَدِ[1].

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: وإذا أُنزِلَت عليك -يا محمَّدُ- سورةٌ من القرآنِ، فيها أمرُ النَّاسِ بالإيمانِ باللهِ، وجِهادِ الكُفَّارِ مع رسولِ اللهِ؛ استأذَنَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الغِنى والأموالِ مِن المُنافِقينَ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن

﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

أي: وقال لك المُنافِقونَ- يا مُحمَّدُ: اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعَفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجِهادِ[1].

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٨٧﴾.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافقونَ المُستأذِنونَ في التخَلُّفِ عن الجهادِ أن يكونوا في مَنازِلِهم مع النِّساءِ[2]!

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ بسبَبِ تَخلُّفِهم عن الجهادِ بلا عُذرٍ، فهم لا يَفهَمونَ مواعِظَ اللهِ، وأنَّ الجِهادَ خَيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ[3].

عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

قال القاسمي: (إنَّما خصَّ ذوي الطَّولِ؛ لأنَّهم المذمومونَ، وهم مَن له قدرةٌ ماليَّةٌ، ويُعلَمُ منه البدنيَّةُ أيضًا بالقياسِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤).

وقال محمد رشيد رضا: (المراد بهم هنا أولو المقدِرةِ على الجهادِ المفروضِ، بأموالِهم وأنفُسِهم). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الطَّولُ: السَّعةُ في المالِ... والاقتصارُ على الطَّولِ يدُلُّ على أنَّ أُولي الطَّولِ مُرادٌ بهم مَن له قدرةٌ على الجِهادِ بصِحَّةِ البَدَن، فبوجودِ الطَّولِ انتفى عُذرُهم؛ إذ مَن لم يكُنْ قادرًا ببَدَنِه، لا يُنظَرُ إلى كَونِه ذا طَولٍ، كما يدلُّ عليه قَولُه بعدُ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا شرحَ حالَ المُنافقينَ في الفِرارِ عن الجِهادِ؛ بيَّنَ أنَّ حالَ الرَّسولِ والذين آمَنوا معه بالضِّدِّ منه؛ حيث بذَلُوا المالَ والنَّفسَ في طلَبِ رِضوانِ اللهِ، والتقرُّبِ إليه[1].

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لكنْ الرَّسولُ محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابُه الذين آمَنوا معه، قد جاهَدوا الكُفَّارَ ببَذلِ أموالِهم وقاتَلوهم بأنفُسِهم، فهم ليسُوا كالمُنافِقينَ المتخَلِّفينَ، فلئن تخَلَّفَ هؤلاء المنافِقونَ عن الجهادِ، فلا ضَيرَ؛ لأنَّه قد نهضَ إليه مَن هو خيرٌ منهم[2].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

(٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (الأكثَرُ في (لكِنْ) أن تجيء بعد نفيٍ، وهو هاهنا في المعنى، وذلك أنَّ الآيةَ السَّالفةَ معناها أنَّ المُنافِقينَ لم يجاهِدوا، فحَسُنَ بَعدَها ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩).

وقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾.

أي: والرَّسولُ والذين آمَنوا معه، وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لهم النِّعَمُ الكثيرةُ الحَسَنةُ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، (تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

أي: وأولئكَ هم الذينَ ظَفِروا بما طَلَبوا منَ النَّعيمِ(١).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ معه بساتينَ تجري مِن تَحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: لابثينَ فيها، لا يَموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها أبدًا(٣).

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: دُخولُ الجنَّاتِ التي أعدَّها اللهُ للرَّسولِ وللمُؤمِنينَ معه، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).
قال القنوجي: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المرادُ بهم هنا الفائزونَ بالمطلوبِ. ((فتح البيان)) (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ قدَّمَ الأمرَ بالإيمانِ على الأمرِ بالجِهادِ؛ لأنَّ الجِهادَ بغيرِ الإيمانِ لا يُفيدُ شَيئًا[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ في تخصيصِ ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾ بالذكرِ وجهانِ: الأوَّل: أنَّ الذمَّ لهم ألزمُ؛ لأجلِ كونِهم قادرينَ على السَّفرِ والجِهادِ. والثَّاني: أنَّه تعالى ذكَرَ أولي الطَّولِ؛ لأنَّ مَن لا مالَ له ولا قُدرةَ على السَّفرِ، لا يحتاجُ إلى الاستئذانِ؛ لأنَّه مَعذورٌ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ عطفَ ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ على ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾ لِمَا بينَهما من المغايرةِ في الجملةِ، بزيادةٍ في المعطوفِ؛ لأنَّ الاستِئذانَ مُجمَلٌ، وقولَهم المحكيَّ فيه بيانُ ما استأذَنوا فيه، وهو القُعودُ، وفي نَظْمِه إيذانٌ بتَلفيقِ مَعذِرتِهم، وأنَّ الحقيقةَ هي رغبتُهم في القُعودِ؛ ولذلك حُكِيَ قولُهم بأن ابتُدِئَ بـ﴿ذَرۡنَا﴾ المقتضي الرَّغبةَ في تَرْكِهم بالمدينةِ، وبأن يكونوا تبَعًا للقاعِدينَ الذين فيهم العُجَّزُ والضُّعفاءُ والجُبَناءُ؛ لما تُؤذِنُ به كَلمةُ (مع) من الإلحاقِ والتَّبَعيَّةِ[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ اختيارُ فِعل ﴿رَضُواْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٤٠).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

إشعارٌ بأنَّ ما تلبَّسوا به من الحالِ، مِن شأنِه أن يتردَّدَ العاقِلُ في قَبولِه[1].

٥- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ دليلٌ على جُبنِ المُنافِقين وضُعَفاءِ الإيمانِ، ورضاهم لأنفُسِهم بالذُّلِّ والهَوانِ[2]، فلو فَقِه المنافِقونَ حَقيقةَ الفِقهِ، لم يَرضَوا لأنفُسِهم بالحالِ التي تحُطُّهم عن منازِلِ الرِّجالِ، ولم يَرضَوا أن يكونوا مع النِّساءِ المتخَلِّفاتِ عن الجهادِ[3].

٦- في قولِه تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ دليلٌ على أنَّ النساءَ لا جهادَ عليهنَّ، وإنْ أَطَقْنَه؛ لأنَّه سبحانه قد ذَكَرَ الخوالفَ مرَّتين في الآيةِ الأُولَى والثانية ولم يخرجهنَّ، إنَّما أَخرجَ مَن تَشَبَّه في التخلفِ عنه بمَن لا جهادَ عليه؛ ورضِي الكينونةَ معه عمَّا هو مندوبٌ إليه[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ في موضعِ الحالِ من (الذينَ) لتدُلَّ على أنَّهم أتباعٌ له في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ أمرٍ، فإيمانُهم معه؛ لأنَّهم آمنوا به عندَ دَعوتِه إيَّاهم، وجهادُهم بأموالِهم وأنفُسِهم معه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخَيراتِ المبثوثةَ لهم في الدُّنيا والآخرةِ تابعةٌ لِخَيراتِه ومَقاماتِه[5].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لبُخلِ المنافقينَ بالنَّفسِ والمالِ، ولِسَلبِ النَّفعِ مِن أموالِهم وأولادِهم، اقتصَرَ في مدحِ أوليائِه على الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، ولم يَذكُرِ السَّبيلَ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قَولُه: ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ تعريضٌ بذوي الأموالِ مِن المُنافِقينَ؛ لأنَّ الخيرَ يُطلَقُ على المالِ، وتَحليتُه بـ (أل) تدلُّ على استغراقِه لجَميعِ منافعِ الدَّارينِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الإعدادُ: التَّهيئةُ، وفيه إشعارٌ بالعِنايةِ[٣].

١١- في قولِه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ شاهدٌ لكل مَن حَضَرَ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم غزوةَ تبوك مِن أصحابِه بالجنةِ، فكلُّ مَن شَهِدَ غزوةَ تبوك مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فهو معه في الجنةِ على ما كان فيه بشهادةِ هذه الآيةِ له، وهي حقٌّ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ إذْ هو خُروجٌ مِنْ لَفْظ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٧).

الغَيبةِ -وهو قولُه: ﴿رَسُولِهِۦ﴾- إلى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾، فلو جاءَ على الأصلِ لقِيلَ: استأذَنَه(١).

- وقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ عَطفٌ تَفسيريٌّ لـ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾، وهو مُغْنٍ عَنْ ذِكْرِ ما اسْتأذَنوا فيه- يعني القُعودَ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ...﴾ اسْتِئنافٌ؛ لبيانِ سُوءِ صَنيعِهم، وعَدَمِ امْتِثالِهم لِكِلا الأمرينِ، وإنْ لم يَردُّوا الأوَّلَ صريحًا(٣).

- وفيه تَهجينٌ لهم، ومبالَغةٌ في الذَّمِّ؛ لأنَّ كونَهم رَضُوا بأنْ يَكونوا قاعِدينَ مَعَ النِّساءِ في المدينةِ أبْلغُ ذَمٍّ لهم وتَهجينٍ؛ لأنَّهم نَزَّلوا أنفُسَهم مَنْزِلةَ النِّساءِ العَجَزَةِ اللَّواتي لا مُدافعةَ عندَهنَّ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لَمْ يُجاهِدوا دونَ عُذْرٍ ليسوا بمُؤمنينَ(٥).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ عُطِفَت جملةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٠).

﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ على جملةِ ﴿جَٰهَدُواْ﴾ ولم تُفصَل- مع جوازِ الفَصلِ- ليدُلَّ بالعطفِ على أنَّها خبرٌ عن (الذين آمنوا)، أي: على أنَّها مِن أوصافِهم وأحوالِهم؛ لأنَّ تلك أدلُّ على تمكُّنِ مَضمونِها فيهم مِن أن يُؤتى بها مُستأنفةً، كأنَّها إخبارٌ مُستأنَفٌ[1].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ استحقاقَهم الخَيراتِ والفَلاحَ، كان لأجل جهادِهم[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في التعبيرِ بأداةِ البُعدِ إشارةٌ إلى عُلوِّ مَقامِ أوليائِه، وبُعدِ مَنالِه إلَّا بفَضلٍ منه تعالى[3].

- قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تكريرُ اسْمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ لشأنِهِمْ، ولِرَفعِ مَكانِهم[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ يَنشأُ عَنِ الإخبارِ بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

الآيات (٩٠-٩٣)

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾: أي: المُعتَذِرونَ الَّذين لَهُم عُذرٌ، وَقد يكون المعَذِّرُ غيرَ مُحِقٍّ، فالمعنى المقصِّرونَ بِغَيْرِ عُذرٍ. والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذُنوبَه[١].

﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾: أي: سُكَّانِ الباديةِ، وأصلُ (عرب): يدلُّ على الإبانةِ والإفصاحِ[٢].

﴿حَرَجٌ﴾: أي: إثمٌ، والحرَجُ كذلك: الشكُّ والضِّيقُ، وأصلُ الحَرَجِ: تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

﴿تَفِيضُ﴾: أي: تَسيلُ، وفَيضُ العَينِ مِن الدَّمعِ: امتلاؤُها منه، ثمَّ سَيلانُه منها كفَيضِ النَّهرِ من الماءِ، وفيضِ الإناءِ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ(١).

﴿ٱلسَّبِيلُ﴾: أي: العقوبةُ والمأثَمُ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ، خيرًا كان أو شرًّا، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُعتَذرينَ مِن الأعرابِ أتَوا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجهادِ، وقعدَ عن المجيءِ للاعتذارِ المُنافِقونَ الذين كَذَبُوا اللهَ ورَسولَه، وأخبَرَ أنَّه سيُصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

ثم ذكَر الله تعالى الأعذارَ المقبولةَ في التخلُّفِ عن الجهادِ، فقال: ليس هناك إثمٌ في التخلُّفِ عن الجهادِ مِن قِبَل الضُّعَفاءِ والمَرضى، والذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به، إذا كانوا ناصحينَ لله ورسولِه، ما على المُحسنينَ مِن طريقٍ لِمُؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم، واللهُ غفورٌ رحيم. ولا عقوبةَ أيضًا على الذين إذا أتَوْك -يا مُحمَّدُ- يطلبونَ منك ما يركبونَ عليه للغَزوِ معك، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تَركبونَ عليه، فانصَرَفوا مِن عِندِك، وهم يَبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ تَوفُّرِ ما يتجَهَّزونَ به للجِهادِ.

ثم بيَّن تعالى أحكامَ أصحابِ الأعذارِ الكاذبةِ، فقال: إنَّما العقوبةُ والمؤاخذةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠).

على المنافقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخلُّفِ عن الجهادِ وهم أغنياءُ، رضُوا بأن يكونُوا في بيوتِهم مع النِّساءِ، وختَمَ اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ المُنافِقينَ الذين كانوا في المدينةِ؛ ابتدأ في هذه الآيةِ بشَرحِ أحوالِ المنافقينَ مِن الأعرابِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ختمَ قَصصَ أهلِ المَدَرِ بذَمِّ أُولي الطَّولِ منهم بتخلُّفِهم، وكان ذمُّهم إنَّما هو لِكَونِهم قادرينَ على الخروجِ في ذلك الوَجهِ، وقدَّمَهم لِكَثرةِ سمَاعِهم للحِكمةِ، وكان أهلُ الوَبَرِ أقدَرَ النَّاسِ على السَّفَرِ؛ لأنَّ مبنى أمرِهم على الحَلِّ والارتحالِ، فهم أجدَرُ بالذمِّ؛ لأنَّهم في غايةِ الاستعدادِ لذلك- تلاهم بهم، فقال تعالى[(٢)]:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بسكونِ العينِ وتخفيفِ الذالِ، بمعنى: الذينَ جاؤوا بعُذرٍ صحيحٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٢).

(٣) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري

٢- قراءةُ ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بفتحِ العينِ وتشديدِ الذالِ، أي: المُعتذرونَ، قيل: بمعنى اعتذروا بحقٍّ، فتكونُ بمعنَى القراءةِ الأُولَى، وقيل: المعنى: المقصِّرون الذين أوْهَموا أنَّ لهم عذرًا، ولا عُذرَ لهم[1].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

أي: وأتى المُعتَذِرونَ مِن سكَّانِ البوادي التي حولَ المدينةِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجِهادِ[2].

(١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩ - ٥٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
قال محمد رشيد رضا: (والحكمةُ في القِراءَتين على اختلافِ معاني الصِّيغَتينِ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك الأعرابِ في أعذارِهم؛ فمنهم مَن له عُذرٌ صَحيحٌ هو موقِنٌ به، ومن له عُذرٌ صوريٌّ لا حقيقيٌّ، وهو يُوهِمُ أنَّه حقيقيٌّ، عالِمًا بأنَّه مخادعٌ، ومنهم من له عُذرٌ ضَعيفٌ هو في شَكٍّ منه، إن نُوقِشَ فيه عجَزَ عن إثباتِه، ومنهم مَن لا عُذرَ له في الواقِعِ، فهو كاذبٌ في انتحالِه، وهذا من إيجازِ القُرآنِ العَجيبِ، بالإتيانِ بلَفظٍ مُفرَدٍ يتناوَلُ هذه الأقسامَ كُلَّها، مبهمةً إلَّا عند أهلِها؛ للحِكمةِ الآتيةِ المُقتَضيةِ لإبهامِها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩، ٥٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).
قيل: المرادُ بالمعذِّرين هنا: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ صادقةٍ وصَحيحةٍ، وممَّن اختار ذلك: الرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠).
وقيل: المرادُ بهم: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وأبو إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وقعَدَ عن المجيءِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للاعتذارِ إليه عن الجهادِ معه، الأعرابُ المُنافِقونَ الذين كَذَبوا اللهَ ورَسولَه في دَعواهم الإيمانَ المُقتضيَ للخُروجِ للجِهادِ[1].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: سيصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ[2] عذابٌ مُؤلِمٌ[3].

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).

(٢) قال القاسمي: (الضميرُ في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ إمَّا للأعرابِ مطلقًا، فالذين كفروا منافِقوهم، أو أعَمُّ، وإمَّا للمُعَذِّرينَ؛ فإنَّ منهم من اعتذرَ لكسَلِه، لا لكُفرٍ، وجُوِّز أن يكون المعنيَّ بالذين كَفَروا منهم، المُصِرُّونَ على الكُفرِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٦).

وقال محمد رشيد رضا: (الظَّاهِرُ المختار أنَّ هذا الوعيدَ يعودُ على ما قبله من الفريقينِ، عامًّا في المكَذِّبين، وخاصًّا ببعض المعَذِّرينَ، كما هو المتبادِرُ مِن قوله تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي: الأعراب الذين اعتذر بعضُهم، وقعد بعضٌ؛ فإنَّ الذين كَذَّبوا اللهَ ورَسولَه كُلُّهم كفَّارٌ، وأمَّا المُعتَذِرونَ فمنهم الصَّادقُ في عُذرِه والكاذِبُ فيه؛ لِمَرَضٍ في قلبه، أو لتَكذيبِه لله ورَسولِه، وكلٌّ منهم يعرِفُ نَفسَه فيحاسِبُها إذا وجد الوعيدَ موضعًا للعِبرةِ منها، ولو جعل التبعيضَ لهم وحدَهم لظَلَّ القاعدونَ الكاذِبونَ بغَيرِ وعيدٍ، وهم شَرٌّ مِن شَرِّهم، فلا يصِحُّ التبعيضُ فيهم وَحدَهم، ومن ثَمَّ اقتضى التحقيقُ أن يُوجَّهَ الوعيدُ إلى الذين كَفَروا منهم؛ لكُفرِهم لا لاعتذارِهم، وإلى الذين قَعَدوا لكُفرِهم لا لقُعودِهم، بل للكَذِبِ الذي كان سبَبَه، وهو عينُ الكفرِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (توعَّدَ في آخِرِ الآيةِ الكافِرينَ بـ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ، ويحتمل أن يريدَ في الآخرةِ بالنَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠).

يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالَ مَن تخلَّفَ عن الجهادِ مع القُدرةِ عليه؛ ذكرَ حالَ مَن له عُذرٌ في تَركِه[1]، فقال تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾.

أي: ليس على ضُعَفاءِ الأبدانِ، العاجِزينَ عن الخُروجِ للقِتالِ، ولا على المرضى الذين لا يَقدِرونَ على الجهادِ، ولا على الفُقَراءِ الذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به- إثمٌ في تخلُّفِهم عن الجِهادِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٞ ﴾ [الفتح: ١٧].

﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

أي: إذا أخلَصوا إيمانَهم وأعمالَهم وقَصدَهم وحُبَّهم في حال قُعودِهم، وبذَلوا جُهدَهم في نُصرةِ الإسلامِ، ونَفْعِ المُسلِمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

عن تميم الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((الدِّينُ النَّصيحةُ. قلنا: لِمَن؟ قال: لِلَّهِ ولِكتابِه ولِرَسولِه ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم))[(١)].

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ليس على المُحسِنينَ الذين نصَحوا للَّه ورَسولِه من طريقٍ إلى مؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: والله ساترٌ ذُنوبَ المُحسِنينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعاقِبُهم عليها، بل يُثيبُهم ثوابَ القادِرينَ العامِلينَ[(٣)].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الضُّعَفاءَ والمرضى والفُقَراءَ، وبَيَّنَ أنَّه يجوزُ لهم التخلُّفُ عن الجِهادِ، بشَرطِ أن يكونوا ناصِحينَ لله ورسولِه، وبيَّنَ كَونَهم مُحسِنينَ، وأنَّه ليس لأحدٍ عليهم سبيلٌ- ذكَرَ قِسمًا آخرَ مِن المعذورينَ، فقال[(٤)]:

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).
قال ابن الجوزي: (لأنَّ المحسِنَ قد سدَّ بإحسانِه بابَ العِقابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٢).

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

أي: ولا عقوبةَ على الذين إذا أتَوْك- يا مُحمَّدُ- يسألونَك ما يَركَبونَ عليه في غزوةِ تَبوكَ، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تركبونَ عليه، فانصرفوا مِن عِندِك، وهم يبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ توفُّرِ ما يتجهَّزونَ به للجِهادِ(١).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ كُلَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ، بَقِيَ بيانُ مَن عليهم السَّبيلُ في تلك الحالِ، فذَكَرهم(٢)، فقال:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ- يا مُحمَّدُ- على المُنافِقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، وهم أغنياءُ قادِرونَ على الخُروجِ معك للقِتالِ(٣).

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافِقونَ الذين يستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، بالقُعودِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن تيمية: (هذه الآيةُ نزلت بالإجماعِ في غَزوةِ تَبوكَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

بيوتِهم مع النِّساءِ اللاتي لا يجِبُ عليهنَّ الجِهادُ[١].

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ عُقوبةً لهم، فهم لا يَعلمونَ سُوءَ عاقِبةِ تخلُّفِهم عن الجهادِ عاجلًا وآجلًا، ولا ما يفوتُهم بذلك مِن مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إذا أحسَنَ العَبدُ فيما يَقدِرُ عليه، سقَطَ عنه ما لا يقدِرُ عليه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: هذا -واللهِ- بُكاءُ الرِّجالِ؛ بكَوا على فَقْدِهم رواحِلَ يُحمَلونَ عليها إلى الموتِ، في مواطِنَ تُراقُ فيها الدِّماءُ في سبيلِ اللهِ، وتُنزَعُ فيها رؤوسُ الرِّجالِ عن كواهِلِها بالسُّيوفِ، فأمَّا من بكى على فَقْدِ حظِّه من الدُّنيا وشَهواتِه العاجلةِ، فذلك شبيهٌ ببُكاءِ الأطفالِ والنِّساءِ على فَقْدِ حُظوظِهم العاجلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).

وينبغي التنبيهُ هنا على أن مَن تبرَّع بالقيامِ بعملٍ فلا يحلُّ له أن يخلَّ به، ويفرطَ فيما أُسنِد إليه؛ بحجةِ أنَّه متبرعٌ، وأنَّه (ما على المحسنين من سبيل)، فهذا وضعٌ للآيةِ في غيرِ موضعِها؛ لأنَّ الواجبَ أن يلتزمَ بما التزمَ بالقيامِ به، وأن يقومَ به على وجهِ الكمالِ.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ فيه رفعُ الجِهادِ عن الضَّعيفِ والمريضِ، ومَن لا يجِدُ نَفَقةً ولا أُهبةً للجِهادِ، ولا مَحمَلًا[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ النُّصحَ في الدِّينِ واجبٌ، وأنَّه يدخُلُ في ذلك الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، والشَّهاداتُ والأحكامُ، والفَتاوى وبيانُ الأدلَّةِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سُقوطِ التَّكليفِ عن العاجزِ، فكُلُّ من عجَزَ عن شيءٍ سَقَط عنه، فتارةً إلى بدَلٍ هو فِعلٌ، وتارةً إلى بدَلٍ هو غُرمٌ، ولا فَرقَ بين العَجزِ من جهةِ القُوَّةِ، أو العَجزِ مِن جهةِ المالِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في رَفعِ العِقابِ عن كلِّ مُحسنٍ[٤].

٥- فائدةُ قَولِه: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعدما ذكَرَ عُذرَهم: أنَّ المَعذورَ يكونُ على قِسمينِ: أحدُهما فريقٌ منهم يغتَنِمونَ عُذرَهم، فهؤلاء ليسوا ممَّن نصحَ للَّهِ ورَسولِه، وفريقٌ يتمَنَّونَ أنْ لم يكُنْ لهم عذرٌ فيتمَكَّنوا من الجهادِ،

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٢٧).

فهؤلاء هم الذينَ نَصَحوا لله ورسولِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ مَن أحسَنَ على غيرِه، في نفسِه أو في مالِه، ونحو ذلك، ثمَّ ترتَّبَ على إحسانِه نَقصٌ أو تلَفٌ، أنَّه غيرُ ضامنٍ؛ لأنَّه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ على المُحسنينَ، كما أنَّه يدُلُّ على أنَّ غيرَ المُحسِنِ- وهو المُسيءُ- كالمُفرِّط، أنَّ عليه الضَّمانَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ عاجزٌ محتاجٌ للمغفرةِ والرَّحمةِ؛ إذ الإنسانُ لا يخلو من تفريطٍ ما، فلا يقالُ: إنَّه نفى عنهم الإثمَ أوَّلًا، فما الاحتياجُ إلى المغفرةِ المقتضيةِ للذَّنبِ؟ فإن أريدَ ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم دخلوا بذلك الاعتبارِ في المُسيءِ[٣].

٨- دلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ على أنَّ العادِمَ للنَّفَقةِ، الطَّالِبَ للإعانةِ، إذا لم تحصُلْ له، فلا حرَجَ عليه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المعونةَ إذا بُذِلَت له من الإمامِ، لَزِمَه الخروجُ[٤].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على أنَّ العاجزَ بمالِه لا يُعْذَرُ حتى يبذُلَ جُهدَه، ويتحقَّقَ عَجزُه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه إنَّما نفى الحرجَ عن هؤلاءِ العاجِزينَ بعد أنْ أتَوْا رسولَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣- ٥٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).

الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليحمِلَهم[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ هذه قصَّةُ البكَّائينَ صَرَّحَ بها -وإن كانوا داخلينَ في ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾- إظهارًا لِشَرفِهم وتقريرًا؛ لأنَّ النَّاصِحَ -وإن اجتهَدَ- لا غنى له عن العَفوِ؛ حيثُ بيَّنَ أنَّهم -مع اجتهادِهم في تحصيلِ الأسبابِ، وتحسُّرِهم عند فَواتِها بما أفاض أعيُنَهم- ممَّن لا سبيلَ عليه، أو ممَّن لا حرَجَ عليه، المَغفورِ له[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ دلَّت الآيةُ على جوازِ البُكاءِ، وإظهارِ الحُزنِ على فواتِ الطَّاعةِ، وإن كان معذورًا[٣].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ على قُوَّةِ رغبةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، في الأعمالِ الصَّالحةِ المُوجِبةِ للدَّرَجاتِ العُلا، والنَّعيمِ المُقيمِ؛ وأنَّهم كانوا يَحزَنونَ على العَجزِ عن شَيءٍ مِن الطَّاعاتِ ممَّا يَقْدِرُ عليه غيرُهم[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ لم يُمدَحوا على نَفسِ الحزنِ، وإنَّما مُدِحوا على ما دلَّ عليه الحزنُ مِن قُوَّةِ إيمانِهم؛ حيث تخلَّفوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِعَجزِهم عن النَّفَقةِ، ففيه تعريضٌ بالمُنافِقينَ الذين لم يَحزَنوا على تخلُّفِهم، بل غَبَطوا نفوسَهم به[٥].

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٤١).
(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠١).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ تمنِّي المالِ ليُطاعَ اللهُ فيه، والحزنَ على فواتِه طاعةٌ، وهو رَدٌّ على مَن يزعمُ مِن متنطعي المتصوفة أنَّ عَدَمَ المالِ أربحُ للمرء مِن وجودِه - وإنْ كان ناويًا طاعةَ اللهِ فيه- للمخاطرةِ دونَ القيامِ بالطاعةِ، وأداءِ حقِّ اللهِ فيه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ فيه مِن لَطائِفِ بَلاغةِ القرآنِ: اختيارُ صِيغةِ (المُعذِّرين)؛ لتشمَلَ الذين صَدَقوا في العُذرِ، والذين كَذَبوا فيه[٢].

- وجملةُ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مُستأنَفة لابتداءِ وعيدٍ، وتَنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتَّهويلِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ...﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ يَنْشأُ عَنْ تهويلِ القُعودِ عَنِ الغزوِ، وما تَوجَّهَ إلى المُخلَّفينَ مِنَ الوعيدِ[٤].

- قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ...﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٤).

النَّفْي ﴿لَا﴾ في عَطْفِ الضُّعفاءِ والمَرْضى؛ لتوكيدِ نَفْيِ المؤاخذةِ عَنْ كُلِّ فريقٍ بخُصوصِه[١].

- قولُه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَق، أي: ليس عليهم جُناحٌ، ولا إلى مُعاتَبتِهم سبيلٌ، وهذه الجُمْلةُ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لنَفْيِ الحَرَجِ عنهم، والمعنى: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على مَنْ عُطِفَ عليهم حَرَجٌ إذا نَصَحوا للهِ ورَسولِهِ؛ لأنَّهم مُحْسنونَ، غيرُ مُسيئينَ[٢].

- ووُضِعَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على انْتِظامِهم بنُصْحِهم للهِ ورسولِهِ في زُمرةِ المُحْسنينَ، أو ليكونَ تعليلًا لنَفْيِ الحَرَجِ عنهم، أي: ما على جِنْسِ المُحْسنينَ مِنْ سبيلٍ، وهم مِن جُمْلتِهم[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، وهي مؤكِّدةٌ لشُمولِ النَّفي لكُلِّ سبيلٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مؤيِّدٌ لِمَضمونِ ما ذُكِرَ، وهو يُشيرُ إلى أنَّ بهم حاجةً إلى المغفرةِ، وإنْ كان تَخلُّفُهم بعُذْرٍ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

قال محمد رشيد رضا: (الجملةُ تتضمَّنُ تعليلَ رفعِ الحَرَجِ عنهم بما ينتظِمونَ به في سِلك المُحسِنينَ، فيكونُ رفعُه عنهم مَقرونًا بالدَّليلِ، فكلُّ ناصحٍ لله ورسولِه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ إلى مُؤاخَذةِ المُحسِن، وإيقاعِه في الحَرَج، وهذه المبالغةُ في أعلى مكانةٍ مِن أساليبِ البلاغةِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

- قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ في إيثارِ التعبيرِ بـ ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على (لَيْسَ عِنْدي): تَلطيفٌ للكَلامِ، وتَطييبٌ لقُلوبِ السَّائلين؛ كأنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم يَطْلُبُ ما يَسألونَهُ على الاسْتِمرارِ فلا يَجِدُه[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ للبيانِ، وهي مَعَ المجرورِ في مَحلِّ النَّصْبِ على التَّمييزِ، والتَّقديرُ: تَفيضُ دَمْعًا، وهو أَبْلَغُ مِنْ (يَفيضُ دَمْعُها)؛ لأنَّ العينَ جُعِلتَ كأنَّ كُلَّها دَمْعٌ فائضٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ، والقَصْرُ فيه إضافيٌّ بالنِّسبةِ للأصنافِ الذين نُفِي أنْ يكونَ عليهم سَبيلٌ، وفي هذا الحَصْرِ تأكيدٌ للنَّفيِ السَّابقِ، أي: لا سَبيلَ عِقابٍ إلَّا على الذين يَسْتأذنونَكَ وهم أغنياءُ[٣].

- وقولُه: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ اسْتِئنافٌ تعليليٌّ لِما سَبَقَ، وهو اسْتِئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيبُ مِنْ دَناءةِ نُفوسِهم، وقِلَّةِ رُجْلَتِهم؛ بأنَّهم رَضُوا لأَنْفُسِهم بأنْ يَكونوا تَبَعًا للنِّساءِ، كأنَّهُ قيل: ما بالُهم اسْتأذَنوا وهم أغنياءُ؟! فقيل: رَضُوا بالدَّناءةِ والضَّعةِ، والانْتِظامِ في جُملةِ الخَوالفِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

الآيات (٩٤-٩٦)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿انقَلَبْتُمْ﴾: أي: رَجعْتُم، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ الشَّيءِ مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[1].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: نجسٌ، والرجسُ كذلك: القذرُ والمنتنُ، وأصلُ (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمِنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتَذِرونَ إليكم إذا رَجَعْتُم إليهم مِن سفَرِكم وجهادِكم، فقلُ لهم يا مُحمَّدُ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم؛ قد أعلَمَنا اللهُ بأسرارِكم، وعَرَفْنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللهُ عمَلَكم ورسولُه، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

وعلانِيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

سيَحلِفونَ لكم باللهِ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم؛ فلا توبِّخوهم على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كَسَبوا.

يحلِفُ لكم هؤلاءِ المُنافِقونَ لِتَرضَوا عنهم، فإنْ تَرضَوا عنهم، فلا ينفَعُهم رِضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يَرضى عن القَومِ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يَعتَذِرُ إليكم المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ عن الجِهادِ بلا عُذرٍ، إذا رَجَعْتُم- أيُّها المؤمِنونَ- إليهم من سَفَرِكم وجِهادِكم[1].

﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا تعتَذِروا إلينا؛ إذ لن نصَدِّقَكم في اعتذارِكم الكاذِبِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

أي: قد أخبَرَنا اللهُ بأسرارِكم - أيُّها المنافِقونَ - وعَلِمْنا كذِبَكم في اعتذارِكم[1].

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: وسيرى اللهُ ورَسولُه أعمالَكم - أيُّها المنافِقونَ - في الدُّنيا، ويَظهَرُ صِدقُكم أو كذِبُكم في التَّوبةِ مِن النِّفاقِ[2].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ تُرجَعونَ - أيُّها المُنافِقونَ - بعد مَوتِكم إلى اللهِ الذي يعلَمُ كُلَّ سِرٍّ وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم عليه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).
قال محمد رشيد رضا: (ولم يقُل: «نبَّأني» وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المنبَّأُ من اللهِ وَحدَه؛ لأنَّ المرادَ أنَّه أمَرَه أن ينبِّئَ بذلك أصحابَه، ولم يكن هذا النبأُ خاصًّا به، واعتذارُهم للجميع يقتضي أن يعلَموا أنَّ الجميعَ عالِمونَ بما فضَحَهم الله به، وإن كان المبَلِّغُ لهم هو الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بما له من الرِّياسة، وما لِخَبَره من الثقةِ التي لا يشُكُّ فيها أحَدٌ، والتأثيرِ الذي يُحسَبُ له كلُّ حِسابٍ. فهو من قَبيلِ التبليغاتِ الرَّسميةِ العُليا الصادرةِ عن الملوكِ والسَّلاطينِ، دَعْ كونَه أسمى وأعلى؛ لأنَّه نبأُ الرَّسولِ المعصومِ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).
قال ابنُ عاشور: (جملة: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾، أي: لا فائدةَ في اعتذارِكم، فإنْ خَشِيتُم المؤاخذةَ، فاعملوا الخيرَ للمُستقبَلِ، فسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسولُه إن أحسَنْتُم، فالمقصودُ فَتحُ بابِ التوبةِ لهم، والتنبيهُ إلى المَكِنة من استدراكِ أمرِهم. وفي ذلك تهديدٌ بالوعيدِ إن لم يتوبُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المنافِقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرونَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ[١]، فقال تعالى:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

أي: سيحلِفُ المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ، باللَّهِ لكم- أيُّها المؤمنونَ- إذا رجَعْتُم إليهم مِن غزوةِ تبوكَ: إنَّهم ما استطاعُوا الخروجَ مَعَكم للجهادِ؛ لِتَترُكوا تأنيبَهم ومعاتَبتَهم[٢].

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

أي: فاترُكوا- أيُّها المؤمنونَ- تأنيبَهم ولَومَهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لا مسامحةً وعفوًا، لأنَّهم نجَسٌ وقذَرٌ، خَبيثةٌ بَواطِنُهم، وقبيحةٌ أعمالُهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩، ١٠).

أي: ومصيرُ المُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ مجازاةً لهم بسببِ ذُنوبِهم التي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[(١)].

عن كعب بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ مِن نِعمةٍ قطُّ، بعد إذ هدَاني اللهُ للإسلام، أعظَمَ في نفسِي مِن صِدقِي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأَهلِكَ كما هلَكَ الذين كذَبوا، إنَّ الله قال للذين كَذَبوا -حين أنزَلَ الوَحيَ- شَرَّ ما قال لأحَدٍ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾))[(٢)].

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللهِ؛ لِيُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم- بَيَّنَ أيضًا هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم[(٣)]، فقال:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾.

أي: يحلِفُ هؤلاءِ المُنافِقونَ لكم- أيُّها المؤمِنونَ- بالكَذِبِ؛ مِن أجلِ أن ترضَوا عنهم، فتَستَديموا مُعاملَتَهم السَّابقةَ، كأنَّهم لم يُذنِبوا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: فإنْ تَرضَوا- أيُّها المؤمِنونَ- عن المُنافِقينَ، فَرِضاكم عنهم لا ينفَعُهم، ولا ينبغي لكم أن ترضَوا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضَى عن القومِ الخارجينَ عن طاعَتِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ مِن الفِقهِ في الآيةِ أنَّ مِن آدابِ الإسلامِ تحامِيَ كلِّ ذَنبٍ أو تقصيرٍ يحتاجُ فاعِلُه إلى الاعتذارِ[2].

٢- العمَلُ هو ميزانُ الصِّدقِ مِن الكَذِبِ، وأمَّا مجرَّدُ الأقوالِ، فلا دلالةَ فيها على شيءٍ مِن ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يزكِّيَ عملَه، وإنَّما يُفوِّضُه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[4].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ذكَرَ العِلَّةَ في وجوبِ الإعراضِ عنهم، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

وقال محمد رشيد رضا: (مُقتضاه أنَّه إذا فُرِضَ أنَّ بعضَ المؤمنينَ رَضِيَ عنهم وآمَنَ لهم باعتذارِهم بعد النَّهيِ عنه، كان فاسقًا مِثلَهم، محرومًا مِن رضائِه تعالى). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٠٤).

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ والمعنى: أنَّ خُبثَ باطِنِهم رِجسٌ رُوحانيٌّ، فكما يجِبُ الاحترازُ عن الأرجاسِ الجُسمانيَّة، فوجوبُ الاحترازِ عن الأرجاسِ الرُّوحانيَّةِ أَولى؛ خَوفًا من سَرَيانِها إلى الإنسانِ، وحَذرًا مِن أن يميلَ طَبعُ الإنسانِ إلى تلك الأعمالِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن رَضِيَ المسلِمونَ عنهم وأعرضوا عن لَوْمِهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضى عن المُنافِقينَ، وهذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ من الرِّضا عن المُنافِقينَ بطريقِ الكِنايةِ؛ إذ قد عَلِمَ المُسلِمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللهَ، لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يرضَوا به[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ حجةٌ في تَرْكِ قَبولِ الاعتذارِ ممَّن يُعْرَفُ كَذِبُهُ، بأيِّ وجهٍ عُرِفَ منه؛ بعد أنْ يكونَ يقينًا[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله، الواقعةِ بمشيئتِه تعالى وقُدرَتِه[٤].

٣- لم يُذكرِ المُؤمِنونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ لأنَّ هذا خِطابٌ للمُنافِقينَ؛ وهم لم يكونوا يُطْلِعونَ المؤمِنينَ على ما في بُطونِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٨٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فيه إثباتُ الرِّضا لله عن المُحسِنينَ، والغضَبِ والسَّخَطِ على الفاسقينَ[١].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لم يُقْبَلْ عُذْرُه مِن الكذَّابين بغيرِ يمينٍ؛ فحَلَفَ قُبِلَ منه؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى لم يأمرْ بردِّ اليمينِ عليهم، كما أَمَرَ بردِّ الاعتذارِ، حيث قال سبحانه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾، فإنَّما أخْبَرَ سبحانَه عن نفسِه بأنَّه لا يرضَى عنهم- وإنْ رضِي عنهم المحلوفُ له- ويؤيدُ هذا المعنَى حديثُ رسول الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((مَن حَلَفَ بالله فلْيَصْدُقْ، ومَن حُلِفَ له بالله فلْيَرْضَ، ومَن لم يَرْضَ بالله فليس مِن الله))[٢]، فالمُتعَذَّرُ إليه ينبغي له أنْ يَقْبَلَ يمينَ المعتذرِ على الظاهر؛ ويَكِلَ سريرتَه إلى الله تعالى[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ لم يُذكَرِ المحلوفُ عليه؛ للدَّلالةِ على شُمولِه لكُلِّ ما يُعتَذرُ عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، والبيهقي (٢١٢٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال البيهقي: له متابعةٌ، وجوَّد إسنادَه وقوَّاه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٣)، وصحَّح إسنادَه، ووثَّق رجالَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١/ ٣٦٠)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٢٤) أنَّ فيه محمدَ بنَ إسماعيل ثقةٌ، وبقيةُ إسنادِه رجالُ الصحيح، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠١).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهِرِ؛ فلم يَجعَلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقضِيَ عليهم في الدُّنيا بخلافِ ما أظهَروا، وقد جعلَ اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم، فأعلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّركِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجعَلَ حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانِيَتِهم، بإظهارِ التَّوبةِ وما قامَتْ عليه بيِّنةٌ من المسلِمينَ، وبما أقرُّوا بِقَولِه، وبما جَحَدوا به[1].

٨- المنافقونَ هم أخبثُ بني آدَمَ وأقذَرُهم وأرذَلُهم؛ فقد قال تعالى واصفًا لهم: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ والرِّجسُ مِن كُلِّ جنسٍ أخبَثُه وأقذرُه[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه الآيةُ وما قَبْلَها دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ تُحقَنُ دِماؤُهم؛ بسبَبِ الشَّهادَتينِ، ولا تجوزُ مُوالاتُهم والرِّضا عنهم[3].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ شرطٌ يتضَمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يستمِرُّ في كلِّ مَغموصٍ عليه ببدعةٍ ونَحوِها، فإنَّ المؤمِنَ ينبغي أن يُبغِضَه، ولا يرضَى عنه لسبَبٍ مِن أسبابِ الدُّنيا[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ رِضا المُسلِمينَ عن القَومِ الفاسِقينَ، ليس مِمَّا يُحبُّه اللهُ ويَرضاه، وهو سُبحانَه لا يرضَى عنهم[5].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ استِئْنافٌ لِبيانِ ما يتصدَّرون له عِندَ القُفولِ إليهم[١].

- قولُه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ تَخْصيصُ هذا الخِطابِ برسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ تَعميمِه فيما سبَق لأصحابِه أيضًا؛ لأنَّ الجوابَ وظيفتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا اعتِذارُهم فكان شامِلًا للمُسلمين شُمولَ الرُّجوعِ لهم[٢].

- قولُه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ استِئْنافٌ تعليليٌّ للنَّهي: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾، مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ مِن قِبَلِهم، مُتفرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتِذارِ، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا[٣]؛ فالجُملةُ علَّةٌ للنَّهي عَن الاعتِذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ به، فإذا علِم أنَّه لا يُصدَّقُ، ترَك الاعتذارَ[٤].

- قولُه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المتكلِّمِ في ﴿نُّؤْمِنَ- نَبَّأَنَا﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهم مِن التَّصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٩).

رأسًا؛ ببيانِ عدَمِ رَواجِ اعتِذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمنين أصلًا[١].

- قولُه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليلٌ لنفيِ تَصْديقِهم، أي: قد نبَّأنا اللهُ مِن أخبارِكم بما يَقْتَضي تَكذيبَكم[٢]، وهذه الجُملَةُ علَّةٌ لانتِفاءِ تَصْديقِهم؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم مِن الشَّرِّ والفسادِ، لم يَستقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[٣].

- قولُه: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ تقديمُ مفعولِ الرُّؤيةِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ على ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ المعطوفِ على الفاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للإيذانِ باختلافِ حالِ الرُّؤيتَينِ وتَفاوُتِهما، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ الوعيدِ هو عِلمُه عزَّ وجلَّ بأعمالِهم[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيه وَضْعُ المُظهَرِ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (إليه)- لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَه سُبحانَه وتَعالى بجَميعِ أعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامِنةِ ممَّا يوجِبُ الزَّجرَ العَظيمَ[٥]، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ[٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

- قولُه: ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ... ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ ابتِدائيَّةٌ، تَعْدادٌ لأحوالِهم، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلِمين(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) في أوَّلِها مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ(٢)؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ فيهم ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ(٣)، والمؤمنُ يُوبَّخُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ لِيُطهِّرَه التوبيخُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمَّا هؤلاء فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم(٤).

- والإعراضُ في قَوله تعالى: ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ﴾ إعراضُ إهانةٍ واحتقارٍ، لا إعراضُ صَفحٍ وإعذارٍ، وهذا التعبيرُ مِن أسلوبِ الحَكيم: وهو قَبولُ ما يَبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكِنْ على غيرِ الوَجهِ الذي يرجونَه منه، بل على ضِدِّه(٥).

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ رِضا المؤمنين يَقتضِي رِضَا الله عنهم(٦).

---

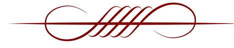
(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩).
(٣) أي: إنَّمَا يُعَاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُرَاجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديمِ: ظاهرُه الذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدباغ مِن الأديم ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/ ٦٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤٠)، ((المعجم الوسيط (١/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).

- قوله: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ به النهيُ؛ فيكون فيه نهيُ المُخاطَبينَ عن الرِّضا عنهم، والاغتِرارِ بمعاذيرِهم الكاذبةِ على أَبلغِ وجهٍ وآكدِه؛ فإنَّ الرِّضا عمَّن لا يَرضَى عنه الله تعالى ممَّا لا يَكادُ يصدُرُ عن المؤمنِ[١]؛ فأبرز النَّهيَ عن الرِّضا في صورةٍ شَرطيَّةٍ، لأنَّ الرِّضا مِن الأمورِ القَلبيَّةِ التي تَخفَى، وخرَج مخرجَ المتردِّدِ فيه، وجُعِلَ جوابُه انتفاءَ رضا الله عنهم؛ فصار رضا المؤمنين عنهم أبعدَ شيءٍ في الوقوعِ؛ لأنَّه معلومٌ منهم أنَّهم لا يَرْضَونَ عمَّن لا يَرضَى اللهُ عنهم[٢]، وهو أيضًا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن الرِّضا عن المُنافِقين بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علم المسلمون أنَّ ما لا يُرضِي اللهَ لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يَرْضَوْا به[٣].

- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عنهم)؛ فعدَل عن الإتيانِ بضَميرِ (هم) إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطاعةِ، المُستوجِبِ لِمَا حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلك الفسق؛ ففيه دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم؛ فاشتملَ الكلامُ على خبَرٍ وعلى دَليلِه؛ فأفاد مَفادَ كلامَينِ؛ إذ التقديرُ: (فإنْ تَرْضَوا عنهم فإنَّ الله لا يَرضَى عنهم؛ لأنَّ الله لا يَرضَى عن القومِ الفاسِقين)[٤]، وأيضًا ليدُلَّ ذلك على أنَّ بابَ التوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما تابوا هم أو غيرُهم، فإنَّ الله يتوبُ عليهم، ويرضَى عنهم، وأمَّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمَّا رَضِيَه اللهُ لهم من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤- ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

الإيمانِ والطَّاعةِ، إلى ما يُغضِبُه من الشِّرك، والنِّفاقِ، والمعاصي[١].



(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٨).

الآيتان (٩٧-٩٨)

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ
بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَغۡرَمٗا﴾: أي: غُرمًا وخُسرانًا، وأصلُ (غرم): يدلُّ على مُلازمةٍ[١].

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: أي: ينتَظِرُ، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمَكُّثُ[٢].

﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: أي: دوائِرَ الزَّمانِ بالمَكروهِ. ودوائِرُ الزَّمانِ: صُروفُه التي تأتي مرَّةً بخيرٍ ومرَّةً بشَرٍّ. والدائرةُ تكونُ في المَكروهِ، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حواليه[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الأعرابَ أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا مِن كُفَّارِ ومُنافِقي أهلِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥).
قال الواحدي: (معنى الغُرمِ: لُزومُ نائبةٍ في المالِ، مِن غيرِ جِنايةٍ، فيثقُلُ ذلك على الإنسانِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥).
وقال ابن عطية: (أصلُ «المَغرَم» الدَّيْنُ، ومنه تعوَّذَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المَغرَمِ والمَأثَم، ولكنْ كثُرَ استعمالُ المَغرَمِ فيما يؤدِّيه الإنسانُ، ممَّا لا يلزَمُه بحَقٍّ، وفي اللَّفظِ معنى اللُّزومِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

الحضَرِ، وأَولى وأحرى ألَّا يَعلَموا الحلالَ والحَرامَ، والشَّرائِعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

ويُخبِرُ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ الله تعالى، ويتربَّصُ بالمُسلِمينَ المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللهُ عليهم وَحْدَهم المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ عَزَّ وجَلَّ أحوالَ المُنافِقينَ بالمدينةِ؛ ذكَرَ مَن كان خارجًا منها، ونائيًا عنها مِن الأعرابِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا رتَّبَ اللهُ سُبحانه الاستئذانَ في القُعودِ، والرِّضا بما فيه من الدَّناءةِ، على عدَمِ الفِقهِ تارةً، والعِلمِ أُخرَى، وختَمَ بصِنفِ الأعرابِ؛ بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أوْلَى بذلك؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ؛ لبُعدِهم عن مَعدِنِ العِلم، وصَرفِهم أفكارَهم في غير ذلك مِن أنواع المَخازي لتحصيلِ المال، الذي كلَّما داروا عليه طار عنهم فأبعَدَ، فهم لا يزالونَ في همِّه، قد شغَلَهم ذلك عن كُلِّ هَمٍّ، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[(٢)].

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

أي: سُكَّانُ البوادي[1] أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا، مِن كفَّارِ ومُنافقي أهلِ الحضَرِ في المُدنِ والقُرى[2].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

أي: والأعرابُ أَوْلى وأحرَى بألَّا يَعلَموا الحلالَ والحرامَ، والشَّرائعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) قال ابن تيمية: (لفظُ: (الأعرابِ) هو في الأصلِ: اسمٌ لِبَاديةِ العَربِ؛ فإنَّ كُلَّ أمَّةٍ لها حاضرةٌ وباديةٌ، فبادِيةُ العَربِ: الأعرابُ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

قال ابن جرير: (وإنَّما وصَفَهم جلَّ ثناؤه بذلك؛ لِجَفائِهم، وقسوةِ قُلوبِهم، وقلَّةِ مُشاهَدتِهم لأهلِ الخَيرِ؛ فهم لذلك أقسَى قلوبًا، وأقَلُّ عِلمًا بحقوقِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢).

وقال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ: كُفرُهم أشَدُّ؛ لأنَّهم أقسَى وأجفَى مِن أهلِ المَدَر، وهم أيضًا أبعَدُ عن سَماعِ التَّنزيلِ، وإنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: أشدُّ كفرًا مِن أهلِ الحَضَر؛ لجَفاءِ صُدورِهم ونبُوِّ طِباعِهم). ((البسيط)) (١١/ ١٣).

وقال ابنُ عطيةَ: (هذه الآيةُ إنَّما نزَلَت في مُنافِقينَ كانوا في البوادي، ولا محالةَ أنَّ خَوفَهم هناك أقلُّ مِن خوفِ مُنافقي المدينةِ، فألسِنَتُهم لذلك مُطلَقةٌ، ونِفاقُهم أنجَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

وقال ابن عاشور: (﴿أَشَدُّ﴾ و﴿أَجْدَرُ﴾ اسمَا تفضيلٍ، ولم يُذكَرْ معهما ما يدُلُّ على مُفضَّلٍ عليه، فيجوزُ أن يكونَا على ظاهِرِهما، فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضَرِ، أي: كفَّار ومُنافِقي المدينةِ. وهذا هو الذي تواطأَ عليه جميعُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٣)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١، ١٢).

قال ابن عاشور: (إنَّما كانوا أجدَرَ بعَدمِ العِلمِ بالشَّريعةِ؛ لأنَّهم يَبعُدونَ عن مجالِسِ التَّذكيرِ ومنازِلِ الوَحيِ، ولقلَّةِ مُخالَطتِهم أهلَ العِلمِ، مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بخَلقِه، لا يخفى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيعلَمُ مُنافِقَهم وكافِرَهم، ويَعلَمُ مَن يستحِقُّ أن يُعلِّمَه منهم العِلمَ والإيمانَ، ممَّن لا يستحِقُّ، كأولئك الأعرابِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به(١).

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أَولى بعَدَمِ الفِقهِ والعلمِ؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوَصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ، فلمَّا أثبت هذا الوصفَ لهم؛ بيَّنَ أنَّ أفرادَه انقسَمُوا إلى مَن ثبَت على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسمٌ نزَعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المَدَرِ، كما انقسَمَ أهلُ المَدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأَ بالخبيثِ؛ لأنَّه الأصلُ فيهم(٢).

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي من يَعُدُّ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا ونَقصًا وخَسارةً، فيُنفِقُ ما يُنفِقُ مُكرَهًا لا يرجو ثوابَه عند اللهِ تعالى(٣).

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

أي: ومِن الأعرابِ مَن ينتَظِرُ أن تحُلَّ بكم- أيُّها المُسلِمونَ- المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبةَ الأعداءِ عليكم[1].

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ على الأعرابِ المُنافِقينَ- وَحْدَهم- المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، لا عليكم أيُّها المؤمِنونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عِبادِه من الأعرابِ المُنافِقينَ وغَيرِهم، عليمٌ ببواطِنِهم، عليمٌ بتَدبيرِهم، وبمن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ومَن يستحِقُّ الخِذلانَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال ابن عاشور: (المعنى أنَّهم ينتظرونَ ضَعْفَكم وهزيمَتكم، أو يَنتَظِرونَ وفاةَ نَبيِّكم، فيُظهِرونَ ما هو كامِنٌ فيهم من الكُفرِ. وقد أنبأَ اللهُ بحالِهم التي ظهَرَت عَقِبَ وفاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم أهلُ الرِّدَّةِ من العَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال محمد رشيد رضا: (﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم بما يتربَّصونَه بالمؤمنينَ، أو خبرٌ بحقيقةِ حالِهم معهم، ومآلُ الاحتمالينِ واحِدٌ؛ لأنَّ الخبَرَ في كلامِه تعالى حقٌّ، ومَضمونَه كمضمونِ الدُّعاءِ واقِعٌ ما له من دافِعٍ، والدعاءُ منه عزَّ وجَلَّ يرادُ به مآلُه، وهو وقوعُ السَّوءِ عليهم وإحاطَتُه بهم). ((تفسير المنار)) (١١/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود))

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فضيلةُ العِلم، وأنَّ فاقِدَه أقربُ إلى الشرِّ ممَّن يَعرِفُه؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ الأعرابَ، وأخبَرَ أنَّهم أَشَدُّ كُفرًا ونِفاقًا، وذكَرَ السَّبَبَ الموجِبَ لذلك، وأنَّهم أجدَرُ ألَّا يَعلَموا حدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أنَّ العِلمَ النَّافِعَ الذي هو أنفَعُ العلوم، معرفةُ حُدودِ ما أنزَلَ الله على رسولِه، من أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ كمَعرفةِ حُدودِ الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، والتَّقوى والفَلاحِ، والطَّاعةِ والبِرِّ، والصِّلةِ والإحسانِ، والكُفرِ والنِّفاقِ، والفُسوقِ والعِصيانِ، والزِّنا والخَمرِ والرِّبا، ونحو ذلك؛ فإنَّ في معرفتِها يتمَكَّنُ مِن فِعْلِها- إن كانت مأمورًا بها- أو تَرْكِها- إن كانت محظورةً- ومِن الأمرِ بها، أو النَّهيِ عنها[٢].

٣- لَمَّا ذكر اللهُ المُنافِقينَ الذين استأذَنُوه في التخلُّفِ عن الجهادِ في غزوةِ تَبوكَ، وذَمَّهم، وهؤلاء كانوا من أهلِ المَدينةِ؛ قال سبحانه: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ فإنَّ الخَيرَ كُلَّه- أصلَه وفَضْلَه- مُنحصِرٌ في العلمِ والإيمانِ كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦] وضِدُّ الإيمانِ: إمَّا الكُفرُ الظَّاهِرُ، أو النِّفاقُ

(٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الباطِنُ، ونقيضُ العِلمِ: عَدَمُه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ أنَّ الكُفرَ والنِّفاقَ يَزيدُ وينقُصُ، ويَغلُظُ ويخِفُّ بحسَبِ الأحوالِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إن كان اللهُ تعالى قد وصفَ العرَبَ بالجهلِ في القرآنِ، بِقَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فكيف يصيرُ الاحتجاجُ بألفاظِهم وأشعارِهم على كتابِ اللهِ تعالى وسنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فالجوابُ: هذا وصفٌ مِن اللهِ تعالى لهم بالجَهلِ في أحكامِ القُرآنِ لا في ألفاظِه، ونحن لا نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ الأحكامِ، بل نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ مَعاني الألفاظِ؛ لأنَّ القُرآنَ والسنَّةَ جاءا بلُغَتِهم[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا كانت الغِلظةُ والجَفاءُ في أهلِ البوادي، لم يبعَثِ اللهُ منهم رسولًا، وإنما كانت البَعثةُ مِن أهلِ القُرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى عن الأعرابِ: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ مدحٌ للحافِظينَ لِحُدودِ الله، وذَمٌّ لِمَن لا يعرِفُ حدَّ الحَلالِ منَ الحَرامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٦١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ هؤلاء وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيمِ هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمِدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقَسِّم، ولا يُعبأُ فيها بدخولِ القسمِ في قَسيمِه[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ رجَع به الكلامُ إلى أحوالِ (المُعذِّرين مِن الأعرابِ)، و(الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه مِنهم)، وما بينَ ذلك استِطرادٌ دَعا إليه قَرْنُ الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه في الذِّكرِ معَ الأعرابِ، فلمَّا تَقضَّى الكلامُ على أولئك تخلَّص إلى بقيَّةِ أحوالِ الأعرابِ؛ وللتَّنبيهِ على اتِّصالِ الغرَضَينِ وقعَ تَقديمُ المسنَدِ إليه، وهو لفظُ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾؛ للاهتِمامِ به مِن هذه الجِهَةِ، ومِن وراءِ ذلك تنبيهُ المسلمين لأحوالِ الأعرابِ؛ لأنَّهم لِبُعدِهم عَن الاحتِكاكِ بهم، والمُخالَطةِ معَهم قد تَخْفَى عليهم أحوالُهم، ويَظُنُّون بجَميعِهم خيرًا[(٢)].

- وإنَّما أعادَ هذه الأحكامَ؛ لأنَّ المقصودَ مِنها مُخاطَبةُ مُنافِقي الأعرابِ؛ ولهذا السَّببِ بيَّن أنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم أشدُّ، وجَهْلَهم بحُدودِ ما أنزَل اللهُ أكمَلُ[(٣)].

- ولفظةُ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ لفظةٌ عامَّةٌ، ومَعْناها الخُصوصُ، وهم جَمعٌ مُعيَّنون مِن مُنافِقي الأعرابِ، كانوا يُوالون مُنافِقي المدينةِ، فانصرَف هذا اللَّفظُ إليهم، وهذا مَعلومٌ بالوُجودِ، وكيف كان الأمرُ، وهو مِن بابِ وصْفِ الجِنْسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠- ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

بأحَدِ أفرادِه أو بَعضِهم؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ إذ ليس كلُّهم كما ذُكِر(١).

- وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذْييلٌ لهذا الإفصاحِ عَن دَخيلَةِ الأعرابِ وخُلقِهم، أي: عليمٌ بِهم وبِغَيرِهم، وحَكيمٌ في تَمييزِ مَراتِبِهم(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بالفَتحِ مصدرٌ، وأُضيفَ إلى الدَّائرةِ - الَّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزَّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ؛ مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ(٣). وقيلَ: معنى الدَّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ؛ وإنَّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ١٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، وينظر أيضا: ((فتح البيان)) للقنوجي (١٣/ ٩١).

الآيتان (٩٩-١٠٠)

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي: دعاءَ الرَّسولِ واستغفارَه، وأصلُ (صلى): يدلُّ على الدُّعاءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّ مِن الأعرابِ مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى وبِيَوم القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عند اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه عزَّ وجلَّ، ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، ألَا إنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، تُقَرِّبُهم إلى ربِّهم، سيُدخِلُهم ربُّهم في رَحمتِه؛ إنَّه غفورٌ رَحيمٌ.

ثمَّ أخبَرَ الله تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين سبَقوا بالإيمانِ مِن المُهاجِرينَ والأنصارِ، والتَّابعينَ لهم الذين سَلَكوا طريقَهم المُستَقيمَ في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالح؛ رَضِيَ الله عنهم، ورَضُوا عنه، وأعَدَّ لهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها ومبانيها الأنهارُ، لابثِينَ فيها على الدَّوامِ، ذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٥٠).

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه حصَلَ في الأعرابِ مَن يتَّخِذُ إنفاقَه في سبيلِ اللهِ مَغرمًا؛ بيَّنَ أيضًا أنَّ فيهم قومًا مُؤمِنينَ صالِحينَ مُجاهِدينَ، يتَّخِذُونَ إنفاقَهم في سبيلِ اللهِ مَغنمًا[١]، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي مَن يُؤمِنُ باللهِ تعالى، وبِيَومِ القيامةِ وما فيه من الثَّوابِ والعِقابِ[٢].

﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عندَ اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه سُبحانَه وتعالى[٣].

﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: ويبتغي الأعرابُ المؤمِنونَ بنَفَقاتِهم أيضًا دعاءَ الرَّسولِ لهم عند أَخْذِه صَدَقاتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي))

كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن عبد الله بن أبي أوفَى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ فُلانٍ، فأتاه أبي بصَدَقتِه، فقال: اللهمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفى))[١].

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

أي: ألا إنَّ صلواتِ الرَّسولِ[٢] قُربةٌ عظيمةٌ لهم، تقرِّبُهم إلى الله تعالى[٣].

(٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

قال ابنُ عطيةَ: (الصَّلاةُ في هذه الآيةِ: الدُّعاءُ إجماعًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤).

(١) رواه البخاري (١٤٩٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٧٨).

(٢) وهو اختيار ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والسعديِّ، أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ على صلواتِ الرَّسولِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

وممَّن اختار عودَه على النَّفَقات: القرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

وقيل المعنى: أنَّها شهادةٌ مِن الله للمتصدقِ بصحةِ ما اعتقد- مِن كونِ نفقتِه قرباتٍ وصلواتٍ- وتصديقٌ لرجائِه. وممَّن اختار هذا القول: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم الذين يتخذونَ ما ينفقونَ في سبيلِ الله قربةً يتقربون بها عندَ الله، ويبتغونَ بذلك دعاءَ الرسولِ لهم، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: ألَا إنَّ ذلك حاصلٌ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرُني، إن ذَكَرني في نفسِه، ذكَرْتُه في نفسي، وإن ذكَرَني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ هم خَيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ منِّي شِبرًا، تقرَّبتُ إليه ذِراعًا، وإن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا، تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))[(١)].

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

أي: سيُدخِلُ اللهُ هؤلاء الأعرابَ المؤمنينَ في جملةِ عِبادِه المرحومينَ أصحابِ الجنَّة[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها لهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يعذِّبُهم، بل يُفيضُ عليهم نِعَمَه، ويوفِّقُهم للخيرِ، ويُثيبُهم عليه[(٣)].

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فضائِلَ الأعرابِ الذين يتَّخِذونَ ما يُنفِقونَ قُرباتٍ عند اللهِ وصَلَواتِ الرَّسولِ، وما أعَدَّ لهم مِن الثَّوابِ؛ بيَّنَ أنَّ فوقَ مَنزلتِهم منازِلَ أعلى وأعظَمَ منها، وهي منازِلُ السَّابقينَ الأوَّلينَ[(١)]، فعقَّبَ بذِكرِ القُدوةِ الصَّالحةِ والمَثَلِ الكاملِ في الإيمانِ والفَضائِلِ، والنُّصرةِ في سَبيلِ الله؛ لِيَحتَذيَ متطلِّبُ الصَّلاحِ حَذْوَهم، ولئلَّا يخلوَ تقسيمُ القبائِلِ السَّاكنةِ بالمَدينةِ وحَوالَيها وبَواديها، عن ذِكرِ أفضَلِ الأقسامِ تَنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراءُ الفِرَقِ وأحوالِها[(٢)].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾.

أي: وأصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، مِن الذين تركوا قومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، ومِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المهاجِرينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

قال ابنُ عطيةَ: (لو قال قائلٌ: إنَّ السَّابقينَ الأوَّلينَ هم جميعُ مَن هاجرَ إلى أن انقطَعَت الهجرةُ، لكان قولًا يقتضيه اللَّفظُ، وتكونُ ﴿مِنْ﴾ لِبيانِ الجِنسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

وقال الرازي: (كلمة (مِن) في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ ليست للتبعيضِ، بل للتَّبيينِ، أي: والسَّابقون الأولونَ الموصوفونَ بوَصفِ كَونِهم مهاجرينَ وأنصارًا، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وكثيرٌ من النَّاسِ ذهبوا إلى هذا القَولِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٩).

وعلى هذا فالمدحُ الحاصلُ في هذه الآيةِ يتناولُ جميعَ الصحابة؛ لأنَّ جملةَ الصحابةِ موصوفونَ بكونِهم سابقينَ أوَّلينَ بالنسبةِ إلى سائرِ المسلمينَ. يُنظر: المصدر السابق.

وقيل: إنَّ (مِن) تبعيضيةٌ، وعلى ذلك يكونُ معنَى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ أي: الذين اتبعوا

كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩].

وعن غَيلانَ بنِ جَرير، قال: قلتُ لأنَسِ بنِ مالك: (أرأيتَ اسمَ الأنصارِ، كُنتُم تُسَمَّونَ به أم سمَّاكم اللهُ؟ قال: بل سَمَّانا اللهُ عَزَّ وجَلَّ)(١).

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾.

أي: والتَّابعونَ للسَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، الذين سَلَكوا طريقَهم المستقيمَ في الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ(٢).

السَّابقين الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، وهم المتأخرونَ عنهم مِن الصحابةِ فمَن بعدَهم إلى يومِ القيامةِ، وقد اختلفوا في السابقينَ الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، مَن هم؟ وما هي المدةُ التي عندَها ينتهي وصفُ السَّابقين مِن المهاجرينَ والأنصارِ معًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

وقال القرطبي: (اتَّفقوا على أنَّ مَن هاجَر قبلَ تحويلِ القِبلةِ، فهو من المهاجِرينَ الأوَّلينَ مِن غَيرِ خِلافٍ بينهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٦).

وقال ابن تيمية: (والسَّابقون الأوَّلونَ أفضَلُ مِن الذين أنفَقوا من بعدِ الفَتحِ وقاتلوا، وهم- على أصَحِّ القولَينِ- الذين بايَعوا تحت الشَّجرةِ عام الحُدَيبيةِ، وقيل: من صلى إلى القِبلَتينِ، وليس بشيءٍ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٩٧).

(١) رواه البخاري (٣٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧، ٦٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

قال البغوي: (﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ قيل: بقيَّةُ المهاجرينَ والأنصارِ سوى السَّابقينَ الأوَّلين. وقيل: هم الذين سَلَكوا سبيلَهم في الإيمانِ والهجرةِ أو النُّصرةِ إلى يومِ القيامةِ. وقال عطاءٌ: هم الذين يذكُرونَ المُهاجِرينَ والأنصارَ بالترحُّمِ والدُّعاءِ). ((تفسير البغوي))

كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عن الصَّحابةِ السَّابقينَ، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، لِمَا أطاعُوه، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لما أنعَمَ عليهم في الدُّنيا، وأثابَهم في الآخرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: وهيَّأ اللهُ تعالى لأصحابِ النبيِّ والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، جَنَّاتٍ في الدَّارِ الآخرةِ تجري تحت أشجارِها وغُرَفِها وقصورِها الأنهارُ[(٢)].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

أي: لابثينَ فيها على الدَّوامِ بلا انتهاءٍ، فلا يموتونَ فيها، ولا عنها ينتَقِلونَ[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

(٢/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

أي: دُخولُ الجنَّةِ والخلودُ فيها أعظَمُ فَوزٍ يحصُلُ به كلُّ مرغوبٍ، ويندفِعُ به كلُّ مَحذورٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ينبغي للمؤمِنِ أن يؤدِّيَ ما عليه من الحُقوقِ، مُنشرِحَ الصَّدرِ، مطمَئِنَّ النَّفسِ، ويحرِصَ أن تكونَ مَغنَمًا، لا مَغرمًا(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ حجةٌ في إبطالِ أعمالِ الرياءِ، وإحباطِ أَجْرِ النفقةِ إذا لم تُحْتَسَبْ، وفيه الحَثُّ على استشعارِ الاحتسابِ فيها، واتِّخاذِها قُرْبَةً(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنَّه لا يُكتَفى بمجَرَّدِ الدَّعوى في اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرامِ، وإنَّما لا بدَّ أنْ يكونَ المتَّبِعُ مُحسِنًا بأداءِ الفَرائِضِ، واجتنابِ المَحارِمِ؛ لئلَّا يقَعَ الاغترارُ بمجَرَّدِ الموافَقةِ بالقَولِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنْ يُحسِنَ المُتَّبِعُ لهم القولَ فيهم، ولا يقدَحَ فيهم، وقد اشترَطَ اللهُ ذلك؛ لعِلْمِه بأنَّه سيكون

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).

أقوامٌ ينالونَ منهم، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى بعد أنْ ذكَرَ المُهاجِرينَ والأنصارَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1] [الحشر: ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا بدَّ في جميعِ الطَّاعاتِ مِن تقدُّمِ الإيمانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الأعرابَ كأهلِ الحاضِرةِ؛ منهم الممدوحُ، ومنهم المذمومُ، فلم يذُمَّهم اللهُ على مجرَّدِ تَعَرُّبِهم وباديَتِهم، إنَّما ذَمَّهم على تَرْكِ أوامِرِ الله، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ جُمعَ قُرُبات باعتبارِ تعدُّدِ الإنفاقِ، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند الله؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُربِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ جُمِعَت كلمةُ (صلوات)؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقَدِّمونَه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو لهم بسبَبِه دعوةً، فبتكَرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[5].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ فيه تفضيلُ السَّابقِ إلى الإسلامِ والهِجرةِ، وأنَّ السَّابقينَ مِن الصَّحابةِ أفضَلُ ممَّن تلاهم[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أخبَرَ اللهُ العظيمُ أنَّه قد رَضِيَ عن السَّابقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ والذين اتَّبَعوهم بإحسانٍ، فيا ويلَ مَن أبغَضَهم أو سبَّهم، أو أبغَضَ أو سَبَّ بَعضَهم!

ولا سيَّما سيِّدُ الصَّحابةِ بعد الرَّسولِ وخَيرُهم وأفضَلُهم، الصِّدِّيقُ الأكبَرُ، والخليفةُ الأعظَمُ أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأَرضاه؛ فإنَّ الطَّائفةَ المَخذولةَ مِن الرَّافضةِ يعادُونَ أفضَلَ الصَّحابةِ، ويُبغِضُونَهم ويَسُبُّونَهم، عياذًا باللهِ من ذلك. وهذا يدلُّ على أنَّ عُقولَهم مَعكوسةٌ، وقلوبَهم مَنكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمانِ بالقُرآنِ، إذ يسُبُّونَ مَن رَضِيَ اللهُ عنهم؟! وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ فإنَّهم يترَضَّونَ عَمَّن رَضِيَ الله عنه، ويَسبُّونَ مَن سَبَّه اللهُ ورَسولُه، ويُوالونَ مَن يوالي اللهَ، ويُعادونَ مَن يُعادي اللهَ، وهم مُتَّبِعونَ لا مُبتدِعونَ، ويقتَدونَ ولا يَبتَدُونَ؛ ولهذا هم حِزبُ اللهِ المُفلِحونَ، وعِبادُه المؤمِنونَ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ يدخُلُ في هذا اللَّفظِ التَّابِعونَ، وسائِرُ الأمَّةِ، لكِنْ بِشَرطِ الإحسانِ[٣].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ على وجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرام، ووجهُ الدَّلالةِ أنَّ اللهَ تعالى أثنى على مَن اتَّبَعهم، فإذا قالوا قولًا فاتَّبَعَهم متَّبِعٌ عليه قبل أنْ يَعرِفَ صِحَّتَه، فهو متَّبِعٌ لهم، فيجِبُ أنْ يكون محمودًا على ذلك، وأنْ يستحِقَّ الرِّضوانَ[١].

٩- اقتضى قولُه تعالى: ﴿ ٱتَّبَعُوهُم ﴾ الثناءَ على مَن يتَّبِعُ كلَّ واحدٍ منهم؛ لأنَّه حُكْمٌ عُلِّقَ عليهم، فقد تناولَهم مجتَمِعينَ ومُنفَرِدينَ، والأصلُ في الأحكامِ المعَلَّقةِ بأسماءٍ عامَّةٍ ثُبوتُها لكُلِّ فردٍ مِن تلك المسَمَّياتِ[٢].

١٠- اللهُ سُبحانه رَضِيَ عن الصَّحابةِ السَّابِقينَ رِضًا مُطلقًا، بِقَولِه تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ فرَضِيَ عن السَّابقينَ مِن غَيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يرضَ عن التَّابعينَ إلَّا أن يتَّبِعوهم بإحسانٍ وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[٣] [الفتح: ١٨].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ أنَّهم مِن أهلِ الثَّوابِ في الآخرةِ؛ وأنَّهم يموتونَ على الإيمانِ الذي به يستحِقُّونَ ذلك، فالرِّضا من اللهِ صِفةٌ أزَليَّةٌ؛ فلا يرضى إلَّا عن عبدٍ عَلِمَ أنَّه يُوافِقُه على مُوجِبات الرِّضا، ومَن رَضِيَ اللهُ عنه لم يسخَطْ عليه أبدًا[٤].

١٢- كلُّ مَن أخبَرَ اللهُ أنَّه رَضِيَ عنه؛ فإنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ -وإنْ كان رِضاه عنه بعد إيمانِه وعملِه الصَّالحِ- فإنه يَذْكُرُ ذلك في مَعْرِضِ الثَّناءِ عليه والمَدحِ له،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو علِمَ أنَّه يَتعقَّبُ ذلك ما يُسخِطُ الرَّبَّ، لم يكن مِن أهلِ ذلك[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغرَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾- ذَكَر مُقابِلَه، وهو مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترَتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرباتِ، وهو الإيمانُ باللهِ واليوم الآخِرِ؛ ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ إذ جَزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُه الدَّائمُ في الآخِرَةِ، وفي قِصَّةِ أولئك اكتَفى بذِكْرِ نَتيجةِ الكُفرِ، وعدَمِ الإيمانِ، وهو اتِّخاذُه ما يُنفِقُ مَغرَمًا، وترَبُّصُه بالمؤمِنينَ الدَّوائِرَ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ في استِئْنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَي التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألَا، إنَّ)، المُؤْذِنَينِ بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ مِن اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَده مِن إنفاقِه، فهي مُستَأنَفةٌ مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه، ومِثلُه قولُه: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وما في السِّينِ مِن تَحقيقِ الوَعدِ[٣].

- وقولُه: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أيضًا جملةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا ورِضْوانُه، وذلك

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

مِن الرَّحمةِ[١].

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ هذا أبلَغُ مِن مِثلِ ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبة: ٢١]، فإنَّ معنَى إدخالِهم فيها أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه تَعالى لَمَّا بَيَّن فَضائِلَ الأعرابِ المؤمِنين المتصَدِّقين، وما أعَدَّ لهم مِن النَّعيمِ، بيَّن حالَ هؤلاءِ السَّابِقين وما أعَدَّ لهم، وشَتَّانَ ما بينَ الإعدادَينِ والثَّناءَينِ؛ فهُناك قال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾، وهنا: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وهناك: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وهنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهناك ختَم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وهنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٣].

- وفيه تَقديمُ ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لفَضلِهم وشرَفِهم[٤].

- وجملة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ خبَرٌ عَن ﴿السَّابِقُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على خبَرِه الفِعليِّ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لقَصدِ التَّقوِّي والتَّأكيدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٤- ٤٩٥).
(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥- ٢٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

- قولُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث خالَفَت هذه الآيةُ أخَواتِها؛ إذ لم تُذكَرْ فيها (مِنْ) معَ (تَحْتَهَا)- في غالِبِ المَصاحِفِ، وفي رِوايةِ جُمهورِ القُرَّاءِ- فكانَت خالِيةً مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليسَ لِحَرفِ (مِن) مَعنًى معَ أسماءِ الظُّروفِ إلَّا التَّأكيدُ، ويَكونُ خُلُوُّ الجملةِ مِن التَّأكيدِ؛ لِحُصولِ ما يُغْني عنه مِن إفادةِ التَّقوِّي بتَقديمِ المسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ، ومِن فِعْلِ (أَعَدَّ) المُؤْذِنِ بكَمالِ العِنايةِ، فلا يَكونُ المعَدُّ إلَّا أكمَلَ نَوعِه[1].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ: بيانٌ لِبُعدِ مَنزلَتِهم في مَراتِبِ الفضلِ، وعِظَمِ الدَّرجةِ مِن مُؤمِني الأعرابِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧).

الآيتان (١٠١-١٠٢)

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: أي: عَتَوا فيه ومَرِنوا عليه، وأصلُ (مرد): يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يعلوه مِن شَعْرِه[1].

﴿خَلَطُوا۟﴾: أي: تعاطَوْا هذا مرَّةً وذاك مرَّةً، وأصلُ الخَلطِ: الجَمعُ بين أجزاءِ الشَّيئينِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى: إنَّ مِن سكانِ البوادي الذين حولَكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافقينَ، ومن أهلِ المدينةِ النبويَّةِ منافِقونَ تَمَرَّنوا على النِّفاقِ حتى أصبَحَ سَجيَّةً لهم، واستمَرُّوا عليه ولم يتوبوا، لا تعلَمُهم يا محمَّدُ، نحن نعلَمُهم، سنعَذِّبُهم مرَّتينِ: في الدُّنيا وفي القَبرِ، ثم يُردُّونَ إلى عذابٍ عَظيمٍ في نارِ جهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

قال الرازي: (وأصلُ المُرودِ الملاسةُ، ومنه صَرحٌ مُمَرَّدٌ، وغلامٌ أمْرَدُ، والمرداءُ: الرَّملة التي لا تُنبِتُ شيئًا، كأنَّ من لم يقبَلْ قَولَ غيرِه ولم يَلتفِتْ إليه، بقِيَ كما كان على صِفتِه الأصليَّةِ، مِن غيرِ حدوثِ تَغيُّرٍ فيه البتَّةَ، وذلك هو الملاسةُ، إذا عرفتَ أصلَ اللَّفظِ فنقولُ: قَولُه تعالى: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: ثَبَتوا واستمَرُّوا فيه، ولم يتوبوا عنه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣).

وقومٌ آخرونَ أقرُّوا بذُنوبِهم، جمعوا عملًا صالحًا وعملًا سيِّئًا، لعلَّ اللهَ أن يقبَلَ تَوبتَهم؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استوفى الأقسامَ الأربعةَ: قِسمَي الحضَرِ وقِسمَي البَدوِ، ثمَّ خلَطَ بين قِسمَينِ منهم تشريفًا للسَّابقِ، وترغيبًا للَّاحقِ؛ خلط بين الجميعِ على وجهٍ آخرَ، ثم ذكرَ منهم فِرَقًا؛ منهم مَن نجَزَ الحكم بجزائِه بإصرارٍ أو مَتابٍ. ومنهم من أخَّرَ أمْرَه إلى يومِ الحسابِ، وابتدأ الأقسامَ بالمستورين الذين لا يعلمُهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ ليَعلمَ أهلُ ذلك القِسمِ أنَّه- سُبحانه- عالمٌ بالخفايا، فلا يزالوا أذلَّاءَ؛ خَوفًا ممَّا هدَّدهم به(١).

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ تعالى حالَ كَمَلةِ المؤمنينَ كُلِّهم؛ قفَّى عليه بذِكرِ مَرَدةِ المُنافِقينَ مِن أهلِ البَدوِ والحَضَر، وعطَفَهم عليهم من بابِ عَطفِ الضِّدِّ على الضِّدِّ(٢).

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾

أي: ومِن سكَّانِ البوادي الذين حولَ مَدينَتِكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافِقونَ(٣).

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).

أي: ومِن أهلِ المدينةِ النَّبويَّةِ[١] مُنافقونَ تمرَّنوا على النِّفاقِ، حتى أصبح سجيَّةً لهم مِن غيرِ تكلُّفٍ، ومَهَروا في إتقانِه، فلا يَشعُرُ به الآخرونَ، واستمرُّوا عليه، ولم يَتوبوا[٢].

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

أي: لا تعلَمُ -يا مُحمَّدُ- نفاقَ هؤلاءِ المَرَدةِ مِن المُنافِقينَ، ولكِنْ نحن نعلَمُهم[٣].

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

أي: سنعذِّبُ هؤلاء الذين مَرَدوا على النِّفاقِ، في الدُّنيا وفي القَبرِ[٤].

---

(١) قال ابن تيمية: (فجميعُ الأبنِيَةِ تدخلُ في مسمَّى المدينةِ، وما خرَجَ عن أهلِها، فهو من الأعرابِ أهلِ العَمودِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤).

وممَّن اختار أنَّ المراد بـ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤، ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٥).

وممَّن ذهَب مِن السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٢).

قال الثعالبي: (وأكثرُ النَّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٢٠٩).

وقيل: المراد بالمرَّتين: تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ. وممن اختار ذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: ثم يُرَدُّ هؤلاء المُنافِقونَ بعد تعذيبِهم مرَّتينِ، إلى عذابٍ عظيمٍ في نارِ جَهنَّمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالَى حالَ المنافقينَ المتخَلِّفينَ عنِ الغَزاةِ؛ رغبةً عنها، وتكذيبًا وشَكًّا؛ شَرَع في بيانِ حالِ المذنِبينَ الَّذينَ تأخَّروا عنِ الجهادِ كَسَلًا وميلًا إلى الرَّاحَةِ، معَ إيمانِهم وتصديقِهم بالحَقِّ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

أي: وقومٌ آخَرونَ أقَرُّوا بذُنوبِهم بتخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، جَمَعوا عملًا صالحًا بالتَّوبةِ وغَيرِها من الطَّاعاتِ، وعملًا سَيِّئًا بالتخَلُّفِ عن الجهادِ وغيرِ ذلك من المعاصي والسَّيِّئاتِ(٣).

(١١/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦).

قال ابنُ عطيّةَ: (لا خلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ العذابَ العظيمَ الذي يُردُّونَ إليه، هو عذابُ الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٠، ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢-١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور))

عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم لنا: ((أتاني الليلةَ آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ، ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهَبُوا فقَعُوا في ذلك النَّهرِ، فوَقَعوا فيه، ثمَّ رَجَعوا إلينا، قد ذهَبَ ذلك السُّوءُ عنهم، فصاروا في أحسَنِ صُورةٍ، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنزِلُك، قالا: أمَّا القَومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تجاوَزَ اللهُ عنهم))[(١)].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: سيقبلُ اللهُ توبةَ أولئك الذين اعترَفوا بذُنوبِهم[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ يَستُرُ ذُنوبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهم بها[(٣)].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ

(١١/ ٢١).

قال القرطبي: (يحتملُ أنَّهم كانوا مُنافِقينَ وما مَرَدوا على النِّفاقِ، ويحتمل أنَّهم كانوا مؤمنينَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرونَ: «عسى» مِن اللهِ واجبٌ؛ لأنَّه قال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢] ففعَل ذلك، وكذلك تابَ على هؤلاءِ). ((البسيط)) (١١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ على أنَّه لا ينبغي الإقدامُ على دعوى معرفةِ الأمورِ الخَفيَّةِ من أعمالِ القَلبِ ونَحوِها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الآيةُ دلَّت على أن المُخَلِّطَ الذي خلطَ الأعمالَ الصَّالحةَ بالأعمالِ السَّيِّئةِ؛ من التجرُّؤِ على بعضِ المُحَرَّمات، والتقصيرِ في بعضِ الواجِباتِ، مع الاعترافِ بذلك والنَّدَم، والرَّجاءِ بأن يغفِرَ اللهُ له- أنَّه تحت الخَوفِ والرَّجاءِ، وهو إلى السَّلامةِ أقرَبُ، وأمَّا المخَلِّطُ الذي لم يَعترِف ويَندَمْ على ما مضى منه، بل لا يزالُ مُصرًّا على الذُّنوبِ، فإنَّه يُخافُ عليه أشَدَّ الخَوفِ[٢].

٣- عن أبي عُثمانَ النَّهدي قال: ما في القرآنِ آيةٌ أرجى عندي لهذه الأمَّةِ من قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا...﴾[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا...﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ المُذنِبينَ الخاطئينَ المُخلِصينَ المُتلوِّثينَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مُجرَّدُ الاعترافِ بالذَّنبِ لا يكونُ تَوبةً، فأمَّا إذا اقترَن به النَّدمُ على الماضي، والعزمُ على ترْكِه في المستقبَلِ، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجلِ كَونِه مَنهِيًّا عنه مِن قِبَلِ الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ تَوبةً، فقَولُه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ في المستقبَلِ. وقولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الاعترافَ حصل في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نَفسَ التَّوبةِ، بل كان مُقَدِّمةً للتَّوبةِ، وأنَّ التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ بَعدَها[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيانُ أنَّ اعترافَ المُذنِبِ بِذَنبِه مع النَّدَمِ عليه، هي توبةٌ مقبولةٌ؛ فإنَّ (عسى) من اللهِ واجِبةٌ[2]؛ لأنَّها إطماعٌ، ومَن أكرمُ مِن الله حتَّى يحقِّقَ ما أطمَع فيه عبدَه ؟!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ...﴾ العِبرةُ في هذا السِّياقِ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ فَريقانِ: فَريقٌ عُرِفوا بأقوالٍ قالوها، وأعمالٍ عَمِلوها، وفريقٌ مَرَدوا على النِّفاقِ وحَذِقوه، حتى صار أملَسَ ناعِمًا لا يكادُ يَشعُرُ أحَدٌ بِشَيءٍ يَستَنكِرُه منه، فيظهَر عليه، وكلٌّ من الفريقينِ يُوجَدُ في كلِّ عَصرٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢- ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦، ١٧).

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أنَّه لم يكُنْ مِن المُهاجِرينَ مَن نافقَ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائِلِ الأنصارِ، لَمَّا ظَهرَ الإسلامُ بالمدينةِ، ودخل فيه مِن قبائِلِ الأَوْسِ والخزرَجِ، ولَمَّا صار للمُسلِمينَ دارٌ يمتَنِعونَ بها ويُقاتِلون، دَخلَ في الإسلامِ مِن أهلِ المدينةِ وممَّنْ حولَهم مِن الأعرابِ مَن دَخلَ- خوفًا وتقيَّةً- وكانوا مُنافِقينَ[1].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ على أنَّ مَن لم يعتَرِفْ بذَنْبِه مِن هؤلاءِ، كان مِن المُنافِقينَ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قَولَه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ لأنَّ هذا من باب التوسُّمِ فيهم بصِفاتٍ يُعرَفونَ بها، لا أنَّه يَعرِفُ جميعَ مَن عِندَه مِن أهلِ النِّفاقِ والرَّيبِ على التَّعيينِ[3]، وقيل: لا تَنافيَ؛ لأن آيةَ النَّفيِ نزلت قبل آيةِ الإثباتِ[4].

٥- لَمَّا كشفَ اللهُ المُنافِقينَ بسورةِ براءة بقَولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ صار يُعرفُ نفاقُ ناسٍ منهم لم يكن يُعرفُ نفاقُهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فإنَّ اللهَ وصَفهم بصِفاتٍ عَلِمَها الناسُ منهم؛ وما كان الناسُ يجزمون بأنها مستلزمةٌ لنفاقهم- وإنْ كان بعضُهم يظنُّ ذلك وبعضُهم

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٠-٢٤١).

يعْلَمُه- فلم يكنْ نفاقُهم معلومًا عند الجماعة؛ بخلافِ حالِهم لمّا نزل القرآنُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فيه دليلٌ على الردِّ على مَن يزعمُ الكشفَ والاطلاعَ على المغيَّباتِ بمجردِ صفاءِ القلبِ، وتجرُّدِ النَّفسِ عن الشواغلِ، وبعضُهم يتساهلونَ في هذا البابِ جدًّا[٢].

٧- استُدِلَّ بِقَولِه تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ حيث كان العذابُ الأولُ عذابًا في الدُّنيا، والثَّاني عذابًا في القَبرِ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَسَى﴾ منه سُبحانه وتعالى واجِبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ الملوكِ، ولعلَّ التَّعبيرَ بها يفيدُ- مع الإيذانِ بأنَّه لا يجِبُ عليه لأحدٍ شَيءٌ[٤]، وأنَّ كُلَّ إحسانٍ يَفعَلُه، فإنَّما هو على سبيلِ الفَضلِ- إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغَيرِهم مِن خُلَّصِ المؤمنينَ غَيرِ المعصومينَ في مُواقعةِ التَّقصيرِ، وتَوقُّعِ الرحمةِ مِن اللهِ بالرُّجوعِ بهم إلى المُراقبةِ، فكما أنَّ أولئك مَعدودونَ في حِزبِ الله مع هذا التَّقصيرِ المرجُوِّ له العَفوُ، فكذلك هؤلاءِ[٥].

٩- من كان مؤمِنًا وعَمِلَ عَملًا صالحًا لوَجهِ الله تعالى، فإنَّ الله لا يَظلِمُه، بل يُثيبُه عليه، وأمَّا ما يفعَلُه مِن المُحَرَّم اليسيرِ، فيستَحِقُّ عليه العُقوبةَ، ويُرجى له من اللهِ التَّوبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وإن مات ولم يتُبْ، فهذا أمْرُه إلى الله،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٣٣).
(٤) لكن لله تعالى أن يوجبَ على نفسِه ما شاء، وله أن يحرِّمَ على نفسِه ما شاء. يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (ص ٤٠٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١١).

هو أعلَمُ بمقدارِ حَسَناتِه وسَيِّئاتِه، لا يُشهَدُ له بجنَّةٍ ولا نارٍ، بخلافِ الخوارِجِ والمُعتزِلةِ، فإنَّهم يقولونَ: إنَّ مَن فعَلَ كبيرةً أحبَطَت جميعَ حَسَناتِه، وأهلُ السُّنَّةِ والجماعة لا يقولونَ بهذا الإحباطِ، بل أهلُ الكبائِرِ معهم حسَناتٌ وسيِّئاتٌ، وأمرُهم إلى اللهِ تعالى(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ، لا نَعتٌ. و(مِن) في قَولِه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّبعيضِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ لبيانِ (مَن) المَوصولةِ(٢).

- قولُه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ في تعليقِ نفْيِ العِلمِ بهم معَ أنَّه مُتعلِّقٌ بحالِهم- مبالَغةٌ في ذلك، وإيماءٌ إلى أنَّ ما هُم فيهِ مِن صِفَةِ النِّفاقِ لِعَراقَتِهم ورُسوخِهم فيها صارَت بمَنزِلَةِ ذاتيَّاتِهم أو مُشخَّصاتِهم؛ بحيث لا يُعَدُّ مَن لا يَعرِفهم بتِلك الصِّفَةِ عالِمًا بهم(٣).

- قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في الوعيدِ؛ ففيه تهديدٌ، ورَتَّب عليه قَولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾(٤).

فـ ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ وعيدٌ لهم، وتحقيقٌ لعَذابِهم حسَبَما عَلِم اللهُ فيهم من

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).

مُوجِباتِه، والسِّينُ للتَّأكيدِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ للجَوابِ عن سؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، وهو أن يَسأَلَ سائلٌ عَن أثَرِ كَونِ اللهِ تَعالى يَعلَمُهم، فأَعْلَم أنَّه سيُعذِّبُهم على نِفاقِهم، ولا يُفْلِتُهم منه عدَمُ عِلمِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهِم[2].

- وفي تغييرِ السبكِ مِن نونِ العظمةِ في قولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ إلى ما لم يسمَّ فاعلُه في قولِه ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّ في بنائِه لما لم يُسمَّ فاعلُه مِن التعظيمِ ما فيه، فيناسبُ العذابَ العظيمَ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ ...﴾ فيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالحَذفِ المقابليِّ (الاحتِباكِ)، وهو: أن يَجتَمِعَ في الكلامِ مُتَقابِلان، فيُحذَفَ مِن واحدٍ مِنهُما مُقابِلُه؛ لدَلالةِ الآخَرِ عليه، فأصلُ الكلامِ: «خَلَطوا عمَلًا صالِحًا بسَيِّئٍ، وآخَرَ سيِّئًا بصالحٍ»؛ لأنَّ الخلْطَ يَسْتَدعي مَخلوطًا ومَخلوطًا به، أي: تارةً أطاعوا وخلَطوا الطَّاعةَ بمَعصيةٍ، وتارةً عصَوْا وتدارَكوا المعصيةَ بالتَّوبةِ[4]، وهو من ألطَفِ شاهِدٍ لنوعِ الاحتباكِ، ولعلَّ التعبيرَ بما أفهَمَ ذلك إشارةٌ إلى تَساوي العَمَلينِ، وأنَّه ليس أحَدُهما بأولَى مِن الآخَرِ أن يكونَ أصلًا[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ١٢٩- ١٣١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠).

- قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بِفِعْلِ الرَّجاءِ (عَسَى)، وهي مِن كلامِ اللهِ تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي كنايةٌ عن وُقوعِ المرجُوِّ، وأنَّ اللهَ قد تاب علَيهم، ولكِنَّ ذِكْرَ فِعْلِ الرَّجاءِ يَستتبِعُ مَعنى اختِيارِ المتكلِّمِ في وُقوعِ الشَّيءِ وعدَمِ وُقوعِه، وإنَّما جاء بلَفظِ (عسى)؛ ليَكونَ المؤمِنُ على وجَلٍ؛ إذ لَفظةُ (عسى) طمَعٌ وإشفاقٌ، فأُبرِزَتِ التَّوبةُ في صورتِه[1]؛ لِيَأمُلوا ولا يتَّكِلوا[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بقولِه تعالى: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مع أنَّه لم تُذكَرَ توبتُهم؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ اعتِرافُهم بذُنوبِهم، وهو دليلٌ على التَّوبةِ، فقد ذُكِرَت توبتُهم[3]، فالاعترافُ بالذَّنبِ كنايةٌ عن التَّوبةِ منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنبِ الفائتِ إنَّما يَكونُ عِندَ النَّدمِ والعزمِ على عدَمِ العَودِ إليه، ولا يُتَصوَّرُ فيه الإقلاعُ الَّذي هو مِن أركانِ التَّوبةِ؛ لأنَّه ذنبٌ مَضى، ولكن يُشترَطُ فيه العزمُ على أنْ لا يَعودَ[4].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، حيث ختَم ذلك بما دلَّ على قَبولِ التَّوبةِ، وذلك صفةُ الغُفرانِ والرَّحمةِ[5].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

الآيتان (١٠٢-١٠٤)

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: أي: تُطَهِّرُهم، وتُنَمِّيهم وتَرفَعُهم، وأصلُ (زكو): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[١].

﴿وَصَلِّ﴾: أي: استَغفِرْ وادعُ لهم[٢].

﴿سَكَنٌ﴾: أي: تثبيتٌ لهم، وطُمأنينةٌ وسكونٌ، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحَرَكةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ مِن أموالِ المُسلِمينَ صَدَقةً يُطَهِّرُهم بها مِن دَنَس ذُنوبِهم، ويُزَكِّيهم بها، كما أمَرَه بالدُّعاءِ لهم عند أخذِ الصَّدَقاتِ؛ لأنَّ دُعاءَه لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لِقُلوبِهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

ألم يَعلَموا أنَّ الله وَحْدَه هو مَن يَقبَلُ التَّوبةَ مِن التَّائبينَ، ويقبَلُ صَدَقاتِ عِبادِه، وأنَّه هو التَّوابُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أظهَروا التَّوبةَ والنَّدامةَ، عن تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، وهم أقَرُّوا بأنَّ السَّبَبَ الموجِبَ لذلك التخَلُّفِ حُبُّهم للأموالِ، وشِدَّةُ حِرصِهم على صَونِها عن الإنفاقِ، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهرُ صِحَّةُ قَولِكم في ادِّعاءِ هذه التَّوبةِ والنَّدامةِ، لو أخرَجتُم الزَّكاةَ الواجِبةَ، ولم تُضايقوا فيها؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقرَّرُ إلَّا بالمعنى، وعند الامتحانِ يُكرَمُ الرَّجُلُ أو يهانُ؛ فإن أدَّوا تلك الزَّكَواتِ عن طِيبةِ النَّفسِ، ظهَرَ كَونُهم صادقينَ في تلك التَّوبةِ والإنابةِ، وإلَّا فهم كاذِبونَ مُزَوِّرونَ بهذا الطَّريقِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرينِ، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلِمينَ بالمالِ[2].

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

أي: خُذ- يا محمَّدُ- من أموالِ المُسلِمينَ[(١)] صَدقةً[(٢)] تُطَهِّرُهم[(٣)] مِن دَنَسِ ذُنوبِهم[(٤)].

عن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((والصَّدَقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ))[(٥)].

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

---

(١) ذهَب بعضُ المفسِّرينَ إلى أن الضَّميرَ في قولِه:﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعودُ إلى الذين اعترَفوا بذنوبِهم، فتابوا منها. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ العمومُ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤).

(٢) قيل: المرادُ بها: الزَّكاةُ المفروضةُ، وممَّن اختار ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

وأكثرُ الفقهاءِ استدلُّوا بهذه الآيةِ في إيجابِ الزَّكوات. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).

(٣) قال القرطبي: (﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ حالَينِ للمُخاطَبِ، التقديرُ: خُذْها مُطَهِّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها. ويجوزُ أن يجعَلَهما صِفتَينِ للصَّدقة، أي صدقةً مُطَهِّرةً لهم مُزَكِّيةً، ويكون فاعِلُ ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ المُخاطَب، ويعودُ الضَّميرُ الذي في ﴿بِهَا﴾ على الموصوفِ المُنكَّرِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (التاءُ في ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ تاء الخطابِ؛ نَظرًا لِقَولِه: ﴿خُذْ﴾، وأن تكونَ تاء الغائبةِ عائدةً إلى الصَّدقةِ. وأيًّا ما كان، فالآية دالَّةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُطَهِّرُ وتزَكِّي). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٨٤)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١٩٩٩)، وابن حبان في ((الصحيح)) (١٧٢٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٣٧٧).

صحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/ ٥٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٨٦٦)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٦٤).

أي: وتُنَمِّي أموالَهم، وتزيدُ في أخلاقِهم الحسَنةِ، وأعمالِهم الصَّالحةِ، وفي ثوابِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ(١).

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

أي: وادْعُ -يا مُحمَّدُ- للمُسلِمينَ عند أخْذِك صَدَقاتِهم؛ لأنَّ دُعاءَك لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لقُلوبِهم(٢).

عن عبدِ الله بنِ أبي أوفى رَضيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقَتِهم قال: اللَّهُمَّ صَلِّ عليهم، فأتاه أبي أبو أوفى بصَدَقتِه، فقال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى(٣)))(٤).

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عبادِه، مُجيبٌ لِدُعائِهم- ومن ذلك سماعُه دُعاءَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عليمٌ بنيَّاتِهم وأحوالِهم، ويُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم(٥).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩، ٦٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٣) اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى: أي: اغفِرْ لهم وارحمْهم. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٧٩).

(٤) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن القومِ الذينَ تقَدَّمَ ذِكرُهم أنَّهم تابوا عن ذُنوبِهم، وأنَّهم تصَدَّقوا، وهناك لم يُذكَرْ إلَّا قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وما كان ذلك صريحًا في قَبولِ التَّوبةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه يقبَلُ التَّوبةَ، وأنَّه يأخُذُ الصَّدَقاتِ، والمقصودُ ترغيبُ مَن لم يتُبْ في التوبةِ، وترغيبُ كلِّ العُصاةِ في الطاعةِ[١].

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

أي: ألَم يَعلَمُوا[٢] أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي يقبَلُ التَّوبةَ من التَّائبينَ، ويقبَلُ الصَّدَقاتِ مِن عبادِه إذا كانت طيِّبةً خالصةً للهِ ربِّ العالَمينَ[٣]؟

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبَرَ، يمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩).

(٢) قال محمد رشيد رضا: (أي: ألم يعلَمْ أولئك التائبونَ من ذَنبِهم أنَّ الله هو الذي يقبلُ توبةَ التَّائبين مِن عبادِه، ولم يجعَلْ ذلك لرسولِه، بَلْهَ مَن دونه مِن خَلْقِه، فالاستفهامُ لتقريرِ ما دلَّ عليه القرآنُ، وكونه هو الذي حمَلَهم على التَّوبةِ- أو ألَمْ يعلَمِ المؤمنون كافَّةً هذا، وهو مقتضى الإيمانِ ومُوجِبُه؟ والاستفهامُ على هذا تحضيضٌ على هذا العِلمِ وما يستلزِمُه من التَّوبة. وقبولُ التوبةِ عنهم. قيل: إنَّه بمعنى قَبولِها منهم، نحو: لا صدقةَ إلَّا عن غنًى ومِن غِنًى، وقيل: إنَّ القبولَ هنا قد تضمَّنَ معنى التجاوُزِ والصَّفحِ، أي: هو الذي يقبَلُها منهم متجاوِزًا عن ذنوبِهم عَفوًا عنها، وهذا أبلَغُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[١].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ -ولا يقبلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمرةً، فتَربُو في كفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه[٢] أو فصيلَه[٣]))[٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: وأيضًا ألم يعلموا أنَّ الله كثيرُ التَّوبةِ عن عبادِه، ويعفو عمَّن تاب إليه، ولو تكرَّرَ منه الذَّنبُ مِرارًا، واسِعُ الرَّحمةِ بالتَّائبينَ، فلا يُعاقِبُهم بل يُثيبُهم[٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أنَّ العَبدَ لا يُمكِنُه أن يتطهَّرَ ويتزكَّى حتى يُخرِجَ زكاةَ مالِه، وأنَّه لا يُكَفِّرُها شيءٌ سوى أدائِها؛ لأنَّ الزكاةَ والتطهيرَ متوقِّفٌ على إخراجِها[٦].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمنِ بالكلامِ اللَّيِّنِ، والدُّعاءِ له، ونحو ذلك ممَّا

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

يكونُ فيه طُمأنينةٌ وسكونٌ لِقَلبِه مشروعٌ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي تنشيطُ مَن أنفَقَ نفقةً، وعَمِلَ عملًا صالحًا، بالدُّعاءِ له والثَّناءِ ونحوِ ذلك[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فيه دَلالةٌ على وجوبِ الزَّكاةِ في جميعِ الأموالِ، وهذا إذا كانت للتِّجارةِ ظاهرةً، فإنَّها أموالٌ تُنمَّى ويُكتسَبُ بها، فمِنَ العَدلِ أن يُواسى منها الفُقراءُ، بأداءِ ما أوجَبَ الله فيها من الزَّكاةِ، وما عدا أموالَ التِّجارةِ، فإن كان المالُ يُنمَّى، كالحُبوب، والثِّمار، والماشية المُتَّخَذة للنَّماءِ والدَّرِّ والنَّسل، فإنها تجِبُ فيها الزكاةُ، وإلَّا لم تجِبْ فيها؛ لأنَّها إذا كانت للقِنيةِ، لم تكُن بمنزلةِ الأموالِ التي يتَّخِذُها الإنسانُ في العادةِ مالًا يُتموَّلُ، ويُطلَبُ منه المقاصِدُ الماليَّةُ، وإنَّما صُرِفَ عن الماليَّةِ بالقِنيةِ ونَحوِها[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يُستدَلُّ به في وجوبِ الزَّكاةِ في الماشيةِ والثِّمارِ؛ لأنَّها أكثَرُ أموالِ الصَّحابةِ إذ ذاك[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يدلُّ على أنَّ القَدرَ المأخوذَ بعضُ تلك الأموالِ لا كُلُّها؛ إذ مقدارُ ذلك البعضِ غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريحِ اللَّفظِ، بل المذكورُ هاهنا قولُه: ﴿صَدَقَةٗ﴾، ومعلومٌ أنَّه ليس المرادُ منه التَّنكيرَ حتى يكفِيَ أخْذُ أيِّ جزءٍ كان، وإن كان في غايةِ القِلَّةِ، مثل الحبَّةِ الواحدة من الحِنطةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٤).

أو الجزءِ الحَقيرِ مِن الذَّهَب، فوجبَ أن يكونَ المرادُ منه صدَقةً مَعلومةَ الصِّفةِ والكيفيَّة والكمِّيَّة عندَهم، حتى يكونَ قَولُه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأخذِ تلك الصَّدَقةِ المعلومةِ، فحينئذٍ يزولُ الإجمالُ، ومعلومٌ أنَّ تلك الصَّدَقةَ ليست إلَّا الصَّدَقاتِ التي وصَفَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيَّنَ كَيفيَّتَها، فكان قَولُه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأن يأخُذَ تلك الأشياءَ المخصوصةَ والأعيانَ المخصوصةَ، وظاهِرُ الآيةِ للوُجوبِ[١].

٤- ظاهِرُ عُمومِ قَولِ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ يوجِبُ الزكاةَ في مالِ المَديونِ، وفي مالِ الضِّمانِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ هو الذي يتولَّى أخذَ الصَّدَقاتِ وينظُرُ فيها[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ إنَّما حسُنَ جعْلُ الصَّدَقةِ مُطهِّرةً؛ لِما جاء أنَّ الصَّدَقةَ أوساخُ النَّاسِ، فإذا أُخِذَت الصَّدَقةُ فقد اندَفَعَت تلك الأوساخُ، فكان اندفاعُها جاريًا مَجرى التَّطهيرِ، والله أعلم[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه استحبابُ الدُّعاءِ مِن الإمامِ أو نائبِه لِمَن أدَّى زكاتَه بالبَرَكةِ، وأنَّ ذلك ينبغي أن يكونَ جهرًا، بحيث يسمَعُه المتصَدِّقُ فيسكُنُ إليه[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ عمَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤- ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

الحسَناتِ يُطَهِّرُ النفسَ ويزكِّيها من الذُّنوبِ السَّالفةِ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُوجِبُ الطَّهارةَ من الذُّنوبِ، وتُوجِبُ الزكاةَ، التي هي العمَلُ الصالحُ(٢).

١٠- التَّطهيرُ من الذَّنبِ يكونُ إمَّا بألَّا يفعلَه العبدُ، وإمَّا بأنْ يتوبَ منه، كما في قَولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٣).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في التَّعبيرِ بأخذِ اللهِ تعالى بعدَ قَولِه للنبيِّ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ تشريفٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بِكونِه تعالى هو الذي يأخُذُ ما أمَرَه بأخْذِه(٤)، كما أنَّ في إسنادِ الأخذِ إليه سُبحانه بعد أمْرِه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأخْذِها، تشريفًا عظيمًا لهذه الطَّاعةِ، ولِمَن فعَلَها(٥).

١٢- قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، في قولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّخليةِ عن السَّيِّئاتِ، وقولُه: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّحليةِ بالفضائِلِ والحَسَناتِ، ولا جرَمَ أنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ(٦).

١٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ أنَّ المُؤمِنَ ينتَفِعُ بما ليس مِن سَعْيِه -كما قد ثبَتَ بالنُّصوصِ المُتواتِرةِ وإجماعِ سَلَفِ الأمَّةِ- كدُعاءِ المُصَلِّينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

للمَيِّتِ، ولِمَن زاروا قبرَه مِن المُؤمِنينَ[١].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ نزَّلَ جميعَهم منزلةَ مَن لا يعلَمُ قبولَ التَّوبةِ؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن لا يعلَمُ ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلَمُ قَبولَها، ومن لا يعلَمُ حَقيقةً، وكان الكلامُ أيضًا مَسوقًا للتَّحضيضِ[٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تعليلٌ للأَمرِ بالصَّلاةِ عليهم بأنَّ دُعاءَه سكَنٌ لهم، أي: سببُ سكَنٍ لهم، أي: خيرٍ[٣]، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن التَّعليلِ بقولِه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ عَن مُوجِبِ اضطِرابِ نُفوسِهم بعدَ أن تابوا، فيَكونُ الاستِفْهامُ تقريرًا مَشوبًا بتَعْجيبٍ مِن تَردُّدِهم في قَبولِ توبتِهم، والمقصودُ منه التَّذكيرُ بأمرٍ معلومٍ؛ لأنَّهم جرَوْا على حالِ نِسْيانِه، ويَكونُ ضميرُ ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ عائدًا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣).

إلى الَّذين اعترَفوا بذُنوبِهم(١).

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿هُوَ﴾ للتَّخصيصِ والتَّأكيدِ أنَّ اللهَ تعالى مِن شأنِه قَبولُ توبةِ التَّائبين، ومعنى التَّخصيصِ في ﴿هُوَ﴾ أنَّ ذلك ليس إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يَقبَلُ التَّوبةَ ويَرُدُّها، فاقصِدوه بها، ووَجِّهوها إليه(٢).

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الجملةُ الاسميَّةُ المؤكَّدةُ بـ (أنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو)، الدَّالَّة على الحصرِ، وما فيها من صيغةِ المبالغةِ بمعنى الكثرةِ مِن التَّوبةِ، ومُبالغةِ الصِّفةِ الرَّاسخة من الرَّحمةِ؛ تفيدُ أعظَمَ البُشرى للتَّائِبينَ، وأبلغَ التَّرغيبِ في التَّوبة للمُذنِبينَ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).

الآيتان (١٠٥-١٠٦)

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُرۡجَوۡنَ﴾: أي: مُؤَخَّرونَ، وأصلُ (رجأ): يدلُّ على التَّأخيرِ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قلْ -يا محمدُ-: اعمَلُوا؛ فإنَّ اللهَ سَيَرى أعمالَكم كُلَّها، فيُجازِيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ، وستُرجَعون يومَ القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ الغَيبَ والشَّهادةَ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعملونَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قَومًا آخرينَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ تعالى فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم أو أنْ يتوبَ عليهم، والله عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ الذي هو في قُوَّةِ إخبارِهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥).

بأنَّ اللهَ يقبَلُ التَّوبةَ، وكانت التَّوبةُ ترفَعُ المؤاخذةَ بما مضى؛ أُمِروا بالعمَلِ عَقِبَ الإعلامِ بِقَبولِ تَوبتِهم؛ لأنَّهم لَمَّا قُبِلَت توبتُهم، كان حقًّا عليهم أن يَدُلُّوا على صِدقِ تَوبتِهم، وفَرطِ رَغبتِهم في الارتقاءِ إلى مراتِبِ الكمالِ؛ حتى يَلحَقوا بالذينَ سَبقوهم، وذلك بالزيادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لجَبرِ ما فات من الأوقاتِ التي كانت حقيقةً بأن تُعمَرَ بالحَسَناتِ، فعُمِرَت بالسَّيِّئاتِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ-: اعمَلوا[(٢)]؛ فسيَرَى اللهُ أعمالَكم كُلَّها؛ ظاهِرَها وخَفِيَّها، فيُجازيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ[(٣)].

عن أنسِ بنِ مالك رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((مَرُّوا بجِنازةٍ، فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَجَبَت، ثمَّ مَرُّوا بأخرى، فأثنَوا عليها شَرًّا، فقال: وَجَبَت، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما وجَبَت؟! قال: هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٢) اختلف المفسِّرون فيمنْ توجَّه إليه الأمرُ هاهنا، فقيل: هو للذينَ اعتَذَروا من المتخَلِّفينَ وتابوا.
وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وأبو حيانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٦).
وقيل: هو للذينَ اعتَذَروا ولم يتوبوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠).
وقيل: الخِطابُ عامٌّ. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢).
قال ابنُ عاشور: (حُذِفَ مفعولُ (اعملوا)؛ لأجلِ التَّعويلِ على القرينةِ، ولأنَّ الأمرَ مِن اللهِ لا يكونُ بعَملٍ غيرِ صالحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

أثنَيتُم عليه خيرًا، فوجَبَت له الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوجبَتْ له النَّارُ؛ أنتم شُهداءُ اللهِ في الأرضِ))[١].

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ-: وسَتُرجَعون يوم القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ ما غاب وما يُشاهَدُ، فيَعلمُ سرائِرَكم وعلانِيَتَكم، لا يخفَى عليه شيءٌ من أمورِكم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ يومَئذٍ بما كُنتم تعملونَه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكم عليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

(١) رواه البخاري (١٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا فريقٌ آخَرُ عُطِف خَبَرُه على خبَرِ الفِرَقِ الآخَرِينَ، والمرادُ بهؤلاءِ مَن بَقِيَ من المخَلَّفينَ لم يتُبِ اللهُ عليه، وكان أمْرُهم موقوفًا إلى أن يقضِيَ اللهُ بما يشاءُ[1].

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ومِنَ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قومٌ آخَرونَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم بذُنوبِهم، وإمَّا أن يوفِّقَهم للتَّوبةِ فيتوبَ عليهم[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨، ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦،٢٨).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى قسَّم المتخلِّفينَ عن الجهادِ ثلاثةَ أقسامٍ: القسم الأول: المُنافِقونَ الذين مَرَدوا على النِّفاق. القسم الثاني: التَّائبون وهم المُرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ وبيَّن تعالى أنَّه قَبِلَ توبَتَهم. والقسم الثالث: الذين بَقُوا موقوفينَ وهم المذكورونَ في هذه الآيةِ، والفَرْقُ بين القِسمِ الثاني وبين هذا الثَّالث، أنَّ أولئك سارَعوا إلى التوبةِ، وهؤلاء لم يسارِعوا إليها). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وعامَّةُ المفسِّرينَ: نزلت هذه الآيةُ في ثلاثةِ نَفَر: كعبِ بنِ مالكٍ من بني سَلِمةَ، وهلالِ ابن أميَّة الواقفيِّ، ومُرارةَ بنِ الرَّبيعِ الزَّبيديِّ، كانوا تخلَّفوا عن غزوةِ تَبوكَ وكانوا مياسيرَ، ثم لم يتَّسِعْ لهم العذرُ كما اتَّسَع للآخرينَ الذين ذُكِروا قبل هذا، ولم يبالِغوا في التنصُّلِ والاعتذارِ كما فعل الآخَرون، ولم يُوثِقوا أنفُسَهم بالسَّواري، فوقف رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَهم، ونهى النَّاسَ عن مكالَمتِهم ومُخالَطتِهم، حتى نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات، بعد خمسينَ ليلةً). ((البسيط)) (١١/ ٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بأحوالِ هذا الفَريقِ ونيَّاتِه، وبما يستحِقُّونَه مِن عُقوبةٍ أو عفْوٍ، حكيمٌ في حُكمِه فيهم، وفي جميعِ أقوالِه وأفعالِه، فيَضَع كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ترغيبٌ عظيمٌ للمُطيعينَ، وترهيبٌ عَظيمٌ للمُذنِبينَ، فكأنَّه تعالى قال: اجتَهِدوا في المستقبَلِ؛ فإنَّ لِعَمَلِكم في الدُّنيا حُكمًا، وفي الآخرةِ حُكمًا؛ أمَّا حُكمُه في الدُّنيا فهو أنَّه يراه اللهُ، ويراه الرَّسولُ، ويراه المُسلِمونَ، فإنْ كان طاعةً حصَلَ منه الثَّناءُ العَظيمُ، والثَّوابُ العظيمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإن كان معصيةً حصَلَ منه الذَّمُّ العظيمُ في الدُّنيا، والعقابُ الشَّديدُ في الآخرة، فثبَت أنَّ هذه اللَّفظةَ الواحدةَ جامعةٌ لِجَميعِ ما يَحتاجُ المرءُ إليه في دينِه ودُنياه، ومَعاشِه ومَعادِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّقصيرِ، أو مِن ارتكابِ المعاصي؛ لأنَّ كَونَ عَمَلِهم بمرأًى من اللهِ، ممَّا يبعَثُ على جَعْلِه يُرضِي اللهَ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الرؤيةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ المقصودُ منها هنا: لازِمُها، وهو إحصاءُ ذلك العمَلِ، والجزاءُ عليه بالثَّوابِ والعِقابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٦٨).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ يدلُّ على كونِه تعالى رائيًا للمرئيَّاتِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ المُعدَّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدَّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ[١]، فالرؤيةُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، وليس رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنيَن، وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقَعُ على الجميعِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إن قيل: ما الفائدةُ في ذِكرِ الرَّسولِ والمؤمنينَ بعد ذِكرِ اللهِ في أنَّهم يَرَونَ أعمالَ هؤلاء التَّائبينَ؟ قيل: فيه وجوهٌ:

الوجه الأول: أنَّ أجدَرَ ما يدعو المرءَ إلى العمَلِ الصَّالحِ ما يحصُلُ له من المَدحِ والتَّعظيمِ والعِزِّ الذي يلحَقُه عند ذلك، فإذا عَلِمَ أنَّه إذا فعَلَ ذلك الفِعلَ عَظَّمَه الرَّسولُ والمؤمنونَ، عَظُمَ فَرَحُه بذلك، وقَوِيَت رَغبتُه فيه، وممَّا يُنَبِّه على هذه الدقيقةِ أنَّه ذكَرَ رُؤيةَ الله تعالى أوَّلًا، ثم ذكَرَ عَقيبَها رؤيةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمُؤمنين، فكأنَّه قيل: إن كنتَ من المُحقِّينَ المُحَقِّقينَ في عبوديَّةِ الحَقِّ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لله تعالى، وإن كنتَ من الضُّعَفاءِ المَشغولين بثناءِ الخَلْقِ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لِتَفوزَ بثَناءِ الخَلقِ، وهو الرَّسولُ والمؤمنونَ.

الوجه الثاني: أنَّ المؤمنينَ شُهَداءُ الله يومَ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] والرَّسولُ شهيدُ الأمَّةِ، كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] فثبَت أنَّ الرَّسولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (ص: ١٨٤، ١٨٥).

والمُؤمنينَ شُهداءُ اللهِ يومَ القيامةِ، والشَّهادةُ لا تصِحُّ إلَّا بعد الرُّؤيةِ، فذكَرَ اللهُ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ يَرَونَ أعمالَهم، والمقصودُ التَّنبيهُ على أنَّهم يَشهَدونَ يومَ القيامةِ عند حضورِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، بأنَّهم أهلُ الصِّدقِ والسَّدادِ، والعَفافِ والرَّشادِ[١].

الوجه الثالث: أنَّ عَطفَ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسمِ الجلالة؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو المبلِّغُ عن الله، وهو الذي يتولَّى مُعامَلَتَهم على حسَبِ أعمالِهم، وعَطْفَ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الذين تابُوا قد رَجَعوا إلى جماعةِ الصَّحابةِ، فإنْ عَمِلوا مِثلَهم كانوا بمحَلِّ الكرامةِ منهم، وإلَّا كانوا ملحوظينَ مِنهم بعَينِ الغَضَبِ والإنكارِ، وذلك ممَّا يَحذَرُه كلُّ أحدٍ هو مِن قَومٍ يَرمُقونَه شَزْرًا، ويَرونَه قد جاء نُكْرًا[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يَهدينا إلى أنَّ مَرضاةَ جماعةِ المُؤمِنينَ القائمينَ بحُقوقِ الإيمانِ، المقرَّرةِ صِفاتُهم في القرآنِ، تلي مرضاةَ اللهِ ورسولِه، وأنَّهم لا يَجتَمِعونَ على ضلالةٍ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إن قيل: إنَّ كلمةَ (إمَّا) للشَّكِّ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عنه؟ فجوابُه: أنَّ المرادَ منه: لِيَكنْ أمرُهم على الخوفِ والرَّجاءِ، فجعَلَ أناسٌ يقولون: هَلَكوا إذْ لم يُنْزِلِ اللهُ تعالى لهم عُذرًا. وآخَرونَ يَقولونَ: عسى اللهُ أن يغفِرَ لهم[٤]. فحِكمةُ إبهامِ أمْرِ هؤلاءِ عليهم: إثارةُ الهَمِّ والخَوفِ في قلوبِهم؛ لتصِحَّ تَوبَتُهم، وحكمةُ إبهامِه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ: تَرْكُهم مُكالَمتَهم ومُخالَطتَهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥-٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥).

تربيةً للفَريقينِ على ما يجِبُ في أمثالِهم مِن الذينَ يُؤثِرونَ الرَّاحةَ، ونِعمةَ العَيشِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ قَدَّمَ قَولَه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ تخويفًا لهم، حملًا على المبادرةِ إلى التَّوبةِ، وتَصفِيَتِها والإخلاصِ فيها، وحَثًّا على أن يكونَ الخَوفُ- ما دام الإنسانُ صَحيحًا- أغلَبَ، وثَنَّى بِقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن تابُوا؛ ترجيةً لهم وترقيقًا لِقُلوبِهم بالتَّذكيرِ بِمَنزلِ الأُنسِ الذي أخرَجُوا أنفُسَهم منه، ومَنَعُوها مِن حُلولِه[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ صيغةُ أمرٍ، ضمَّنَها الوعيدَ[٣].

- قولُه: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خبرٌ فيه وعيدٌ لهم، وتحذيرٌ مِن عاقبةِ الإصرارِ، والذُّهولِ عن التَّوبةِ[٤]، أو هو تأكيدٌ للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والسِّينُ للتَّأكيدِ[٥]، فتَفْريعُ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادةٌ في التَّحضيضِ[٦].

- قولُه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيه وضعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤-١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٨).
وهذا على القولِ بأنَّ هذا الخطابَ لغيرِ التائبينَ.
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

المضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (وستُرَدُّون إليه)- لتَهويلِ الأمرِ، وتَرْبيَةِ المهابةِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تذييلٌ مناسبٌ لإبهامِ أمرِهم على النَّاسِ، أي: واللهُ عَليمٌ بما يَليقُ بهِم مِن الأمرَينِ، مُحكِمٌ تَقديرَه حينَ تتعَلَّقُ به إرادتُه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨).

الآيات (١٠٧-١١٠)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضِرَارًا﴾: أي: مُضارَّةً، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ[(١)].

﴿وَإِرْصَادًا﴾: أي: ترقُّبًا بالعَداوةِ. ويُقَال أرصدتُ له الشَّيْءَ، إذا جعلتَه له عدَّةً. والرَّصَدُ: الاستعداد للترقُّبِ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التهيُّؤِ لرِقْبَةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[(٢)].

﴿أَسَّسَ﴾: أي: ابتُدِئ أساسُه، وأصلُ (أس): يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوطيدِ الثَّابتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: الشَّفَا: الحرفُ والحَدُّ، ويُضربُ به المثلُ في القربِ مِن الهلاكِ، والجُرُفُ والجُرْفُ: المكان الَّذى يأكله الماءُ فيجْرُفُه أى: يذهبُ به، وما ينجَرِفُ بالسُّيولِ مِن الأودِيَةِ، وأصلُه مِن الجرفِ والاجْترافِ، وهو اقتلاعُ الشَّيءِ مِن أصلِه، والهار: الساقِط، يقال: هارَ البناءُ، وتَهَوَّرَ: إذا سقط، وانْهارَ[1].

﴿رِيبَةً﴾: أي: شكًّا ونِفاقًا، وأصلُ (ريب): يدلُّ على شَكٍّ[2].

﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي: تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن فريقٍ آخر من المُنافِقينَ بَنَوا مسجِدًا في المدينةِ مُضارَّةً للمُؤمِنينَ، ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتَفريقًا بين جماعةِ المُسلِمينَ، وإعدادًا وانتظارًا لِمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بناءِ المَسجِدِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم مع هذه المقاصِدِ الخَبيثةِ سَيَحلِفونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّهم ما أرادوا مِن بنائِه إلَّا الحُسنى، واللهُ يشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ.

ثم نهى اللهُ نَبِيَّه أن يُصلِّيَ في مسجِدِ المُنافِقينَ في أيِّ وقتٍ مِن الأوقاتِ، وبيَّنَ أنَّ المسجِدَ الذي أُسِّسَ على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يوم بُنِيَ فيه- أَولى بأنْ يُصَلِّيَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه رِجالًا يحبُّونَ أن يتطَهَّروا من

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).

النَّجاساتِ والذُّنوبِ، واللهُ يحِبُّ المُتَطَهِّرينَ.

ثمَّ بيَّن تعالى أنه لا يستوي مَن أسَّسَ بُنيانَه على تقوى مِن الله تعالى، ومَن أسَّسَ بُنيانَه على طَرَفِ حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها، فانهارَت الحُفرةُ بالبُنيانِ والباني في نارِ جَهنَّمَ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّه لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم شَكًّا ونِفاقًا في قُلوبِهم إلى أن تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيموتوا على ذلك، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ طرائِقَ ذَميمةً لأصنافِ المُنافِقينَ أقوالًا وأفعالًا؛ ذكَرَ أنَّ منهم من بالغَ في الشَّرِّ حتى ابتَنى مَجمعًا للمُنافِقينَ، يُدبِّرونَ فيه ما شاؤُوا من الشَّرِّ، وسَمَّوه مَسجِدًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾

أي: ومِنهم- أي المُنافِقينَ- الذين بَنَوا مَسجِدًا في المدينةِ؛ مُضارَّةً للمُؤمِنينَ ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عزَّ وجلَّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢، ٦٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).

﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وبَنى المُنافِقونَ مَسجِدَهم؛ لأجلِ التَّفريقِ بين جماعةِ المُؤمِنينَ، فيصلِّي بعضُهم في مسجِد، وبَعضُهم في مسجِد آخر، فيتفرَّقوا ويختَلِفوا بسبب ذلك[1].

﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: وبَنَوه كذلك إعدادًا وانتظارًا وترقُّبًا لمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بِناءِ هذا المسجِد[2].

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

أي: وسيَحلِفُ لكم المُنافقونَ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ أنَّهم ما أرادوا بِنائِه إلَّا الخَيرَ للمُسلمينَ والرِّفقَ بهم؛ إحسانًا إلى الضُّعفاءِ والعاجِزينَ منهم، بجَعْلِهم

قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾ [التوبة: ١٠٦] أي: ومِنهم آخَرونَ). يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

قال ابن عطية: (قَولُه ﴿بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريدُ: بين الجماعةِ التي كانت تصلِّي في مسجِدِ قُباءٍ؛ فإنَّ مَن جاوَزَ مَسجِدَهم كانوا يَصرِفونَه إليه، وذلك داعيةٌ إلى صَرْفِه عن الإيمانِ، وقيل: أراد بقَولِه ﴿بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جماعةَ مسجِدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا بحسَبِ الخِلافِ في المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠).

قال محمد رشيد رضا: (اتَّفَقَ المفَسِّرونَ على أنَّ الذي أغراهم ببناءِ هذا المسجِدِ لهذا الغَرَضِ رجلٌ مِن الخزرَجِ، يُعرَفُ بأبي عامرٍ الرَّاهب، وَعَدَهم بأنْ سيأتيهم بجيشٍ مِن الرُّومِ لقتالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٢).

مسجِدَ الضِّرارِ أقرَبَ إليهم مِن غَيرِه[(١)].

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لكاذِبونَ في حَلِفِهم ذلك، وإنَّما بَنَوه ضِرارًا، وكُفرًا باللهِ، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، وإرصادًا لِمَن حارَبَ اللهَ ورسولَه[(٢)].

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾.

أي: لا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- في مسجِدِ المُنافِقينَ ما عِشْتَ أبدًا[(٣)].

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

أي: لَمسجِدٌ أُسِّسَ بنيانُه على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يوم ابتدَأَ بانُوه في تأسيسِه- وهو مسجِدُ قُباءٍ، ومِثلُه بل أولَى منه في الحُكمِ المَسجِدُ النَّبويُّ- أَولى بأن تقومَ فيه- يا مُحمَّدُ- للصَّلاةِ والعبادةِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).
قال ابن كثير: (قولُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ نهيٌ من الله لرَسولِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، والأمَّةُ تبَعٌ له في ذلك، عن أن يقومَ فيه، أي: يصلِّيَ فيه أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١، ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨، ٤٦٩) و(٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢ - ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)،

عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، قال: ((دَخَلْتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بيتِ بعضِ نسائِه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَيُّ المسجدَيْنِ الَّذي

((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

واختلف المفسِّرونَ في تحديدِ المرادِ بالمسجدِ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، فقيل: هو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختارَ ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عمرَ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو سعيدٍ الخدريُّ، وسعيدُ بنُ المسيَّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).

وقيل: هو مسجِدُ قُباءٍ، وممن اختار ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨) (٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وعطيةُ العوفيُّ، وابنُ بريدةَ، وابنُ زيدٍ، وعروةُ بنُ الزُّبيرِ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وعروةُ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الرحمنِ، والضحَّاكُ، ومقاتلٌ، والشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

قال ابنُ حجرٍ: (الجمهورُ على أنَّ المرادَ به مسجدُ قُباءَ، هذا هو ظاهرُ الآيةِ... والحقُّ أنَّ كُلًّا منهما أُسِّس على التَّقوَى، وقولهُ تعالَى في بقيَّةِ الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ يُؤيِّدُ كونَ المرادِ مسجدَ قُباءَ). ((فتح الباري)) (٧/ ٢٤٥).

قال ابن كثير: (ورد في الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ مَسجِدَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي هو في جَوفِ المدينةِ، هو المسجِدُ الذي أسِّسَ على التقوَى. وهذا صحيحٌ. ولا منافاةَ بين الآية وبينَ هذا؛ لأنَّه إذا كان مسجِدُ قُباءٍ قد أُسِّسَ على التَّقوى من أوَّلِ يَومٍ، فمسجِدُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ الأَولى والأحرى). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنَّ لفظَ الآيةِ لا يمنَعُ من إرادةِ كُلٍّ مِن المسجِدَينِ. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٤).

ويرى ابنُ تيميَّةَ أنَّ الآيةَ وإن كانت قد نزلت بسببِ مَسجِدِ قُباءٍ، إلَّا أنَّ الحُكمَ يتَناوَلُه ويتناوَلُ ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أسِّسَ على التقوى، بخلافِ مَساجِدِ الضِّرارِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٧٤)، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (١١/ ٣٢).

أُسِّسَ على التَّقوَى؟ قال: فأخَذَ كَفًّا مِن حَصْباءَ، فضَرَب به الأرضَ، ثُمَّ قال: هو مَسجِدُكم هذا. لِمسجدِ المدينةِ))[1].

عن أبي سعيد أيضًا قال: ((امترَى رجلٌ مِن بني خدرةَ، ورجلٌ مِن بني عمرِو بنِ عوفٍ في المسجدِ الذي أُسِّس على التقوَى، فقال الخدريُّ: هو مسجدُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال الآخرُ: هو مسجدُ قباء، فأتيا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك، فقال هو هذا -يعني مسجدَه- وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ))[2].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.

أي: في مسجدِ قُباءٍ رِجالٌ من أصحابِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّونَ أن يتطهَّروا مِن النَّجاساتِ ومِنَ الذُّنوبِ[3].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُحبُّ المتطَهِّرينَ المُبالِغينَ في الطَّهارةِ مِن النَّجاساتِ، ومِنَ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٩٨).
والمَزِيَّة الَّتي اقتضَتْ تَعْيينَ مسجدِه دُونَ مسجدِ قُباءَ لِما اتُّفِقَ مِن طولِ إقامَتِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بمسجدِ المدينةِ، بخلافِ مسجدِ قُباء، فما أقامَ به إلَّا أيَّامًا قَلائِل، وأيضًا لرفعِ تَوَهُّمِ أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجدِ قُبَاء. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣) واللفظ له، والنسائي (٦٩٧)، وأحمد (١١١٧٨).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الطبري في ((التفسير)) (٧/ ١/ ٣٩)، وقال ابنُ عبد البر في ((الاستذكار)) (٣١٩): ثابتٌ، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٣)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٦٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨، ٦٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بيانٌ مُستأنَفٌ للفَرقِ بين أهلِ المَسجِدَينِ في مقاصِدِهما منهما: أهلِ مسجِدِ الضِّرارِ الذينَ زادوا به رِجسًا إلى رِجسِهم، وأهلِ مَسجِدِ التَّقوى، وهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنصارُه الذين يحبُّونَ أكمَلَ الطَّهارةِ لِظاهِرِهم وباطِنِهم، فاستفادوا بذلك محبَّةَ الله لهم(١).

وأيضا هي تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزيادةِ بَيانِ أحقيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه، وبيانِ أنَّ تَفضيلَ ذلك المسجِدِ في أنَّه حقيقٌ بالصَّلاةِ فيه تفضيلٌ مَسلوبُ المُشاركةِ؛ لأنَّ مَسجِدَ الضِّرارِ ليس حقيقًا بالصَّلاةِ فيه بعدَ النَّهيِ؛ لأنَّ صَلاةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لو وقعَتْ لأكسَبَت مقصِدَ واضِعيه رَواجًا بين الأمَّةِ، وهو غَرَضُهم: التَّفريقُ بين جماعاتِ المُسلِمين(٢).

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾.

أي: أيُّ البانِينَ خيرٌ؛ مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ مُتَّقيًا لله، مُخلِصًا له، طالبًا رِضاه، أم مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ بنفاقٍ وكُفرٍ وضلالٍ، فهو كمَن يبني بناءً على طَرَفِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها[١]؟!

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، قال: ((صلاةٌ في مسجِدي هذا أفضَلُ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواه، إلَّا المسجِدَ الحَرامَ))[٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((لا تشُدُّوا الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثةِ مَساجِدَ: مسجدي هذا، والمسجِدِ الحَرامِ، والمسجِدِ الأقصى))[٣].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من تطَهَّرَ في بيتِه، ثمَّ أتى مسجِدَ قُباءٍ، فصلَّى فيه صلاةً؛ كان له كأجرِ عُمرةٍ))[٤].

﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: فانهار الجُرُفُ بالبُنيانِ والباني جميعًا في نارِ جهنَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

قال ابن عطية: (وأمَّا البُنيانُ الذي أُسِّسَ على شفا جُرُفٍ هارٍ، فهو مسجِدُ الضِّرارِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٩٥).

(٣) رواه البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٨٢٧) واللفظ له.

(٤) أخرجه النسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (١٤١٢)، وأحمد (١٥٩٨١).

صحَّحه ابنُ تيميةَ في ((الإخنائية)) (١٤٣)، والألباني في ((إصلاح المساجد)) (١٩٨)، وصحَّح إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٤٧)، وقال ابنُ باز، كما في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٦): جيدٌ حسنُ الإسناد.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ هؤلاءِ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ، ولا يُوفِّقُ غيرَهم ممَّن يظلِمُ نفسَه بالكُفرِ والنِّفاقِ، لا يوفِّقُهم لِما فيه مصالحُ دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم، ما داموا مُقيمينَ على ظُلمِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم نِفاقًا في قلوبِهم، وشَكًّا في الإسلامِ(٢).

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾.

أي: حتَّى تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا على شَكِّهم ونِفاقِهم(٣).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٦).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِ المُنافِقينَ، فيعلَمُ ما في قُلوبِهم، وما تصيرُ إليه أمورُهم في الدُّنيا والآخرةِ، حكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك حِكمَتُه في الحُكمِ على أولئك المُنافِقينَ ومُجازاتهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- المَعصيةُ تؤثِّرُ في البِقاعِ، وكذلك الطَّاعةُ تؤثِّرُ في الأماكِنِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ فقد أثَّرت معصيةُ المُنافِقينَ في مسجِدِ الضِّرارِ، ونُهِيَ عن القيامِ فيه، وأثَّرت الطَّاعةُ في مسجِدِ قُباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾(٢).

٢- كلُّ حالةٍ يحصُلُ بها التَّفريقُ بين المُؤمنينَ، فإنَّها من المعاصي التي يتعيَّنُ ترَكُها وإزالتُها، كما أنَّ كُلَّ حالةٍ يحصُلُ بها جمعُ المُؤمنينَ وائتِلافُهم، يتعَيَّنُ اتِّباعُها والأمرُ بها والحثُّ عليها؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ فعلَّلَ اللهُ اتِّخاذَهم لمسجِدِ الضِّرارِ بهذا المقصِدِ المُوجِبِ للنَّهيِ عنه، كما يوجِبُ ذلك الكُفرُ والمُحاربةُ للَّه ورَسولِه(٣).

٣- العَملُ -وإن كان فاضِلًا- تُغيِّرُه النيَّةُ الفاسِدةُ، فينقلِبُ منهيًّا عنه؛ نستفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۞ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ فقلَبَت نيَّةُ أصحابِ مَسجِدِ الضِّرارِ عمَلَهم إلى هذه الحالِ[1].ء

٤- مِن أعظَمِ خِصالِ النِّفاقِ العَمَليِّ: أن يعمَلَ الإنسانُ عمَلًا، ويُظهِرُ أنَّه قصَدَ به الخيرَ، وإنَّما عَمِلَه ليتوصَّلَ به إلى غرَضٍ له سيِّءٍ، فيتِمُّ له ذلك، ويتوصَّلُ بهذه الخديعةِ إلى غَرَضِه، ويفرَحُ بمَكرِه وخِداعِه، وحَمْدِ النَّاسِ له على ما أظهَرَه، وتوصَّلَ به إلى غرَضِه السيِّئِ الذي أبطَنَه، وهذا قد حكاه اللهُ في القرآنِ عن المنافقينَ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصِدَ الأكبَرَ والغرَضَ الأظهَرَ مِن وضْعِ الجماعةِ: تأليفُ القُلوبِ والكَلِمةِ على الطَّاعةِ، وعقدُ الذِّمامِ والحُرمةِ بفِعلِ الدِّيانةِ حتى يقَعَ الأُنسُ بالمُخالطةِ، وتصفوَ القُلوبُ مِن وَضَرِ الأحقادِ[3].

٦- الطَّاعةُ لا تكونُ طاعةً إلَّا عند الرَّهبةِ والرَّغبةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ أي: للخَوفِ مِن عقابِ اللهِ، والرَّغبةِ في ثوابِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).

٧- العملُ المبنيُّ على الإخلاصِ والمُتابَعةِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على التَّقوى، الموصِلُ عامِلَه إلى جنَّاتِ النَّعيمِ، والعمَلُ المبنيُّ على سوءِ القَصدِ وعلى البِدَعِ والضَّلالِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على شَفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نارِ جهنَّمَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كُلَّ شَيءٍ ابتُدِئَ بنيَّةِ تَقوى اللهِ تعالى والقَصدِ لِوَجهِه الكريمِ، فهو الذي يَبقى ويسعَدُ به صاحِبُه، ويصعَدُ إلى اللهِ ويُرفَعُ إليه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه أنَّ اتِّخاذَ المسجِدِ الذي يُقصَدُ به الضِّرارُ لِمَسجِدٍ آخَرَ بِقُربِه- مُحَرَّمٌ، ويجِبُ هدمُ مَسجِدِ الضِّرارِ، الذي اطُّلِعَ على مقصودِ أصحابِه[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه النَّهيُ عن الصَّلاةِ في أماكِنِ المَعصيةِ، والبعدُ عنها، وعن قُربِها[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- كلُّ عمَلٍ فيه مُضارَّةٌ لِمُسلمٍ، أو فيه معصيةٌ لله، أو فيه تفريقٌ بين المُؤمِنينَ، أو فيه مُعاونةٌ لِمَن عادى اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّه مُحرَّمٌ مَمنوعٌ منه، وعَكسُه بعَكسِه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

٤- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَدخُلُ في معنى مسجدِ الضِّرارِ: مَن بنى أبنيَةً يُضاهي بها مساجدَ المُسلِمينَ لِغَيرِ العباداتِ المَشروعةِ؛ مِن المَشاهِدِ وغَيرِها، لا سيَّما إذا كان فيها مِن الضِّرارِ والكُفرِ والتَّفريقِ بين المُؤمِنينَ، والإرصادِ لأهلِ النِّفاقِ والبِدَعِ المُحادِّينَ للَّه ورَسولِه- ما يَقْوَى بها شَبَهُها[2].

٥- حرَقَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسجِدَ الضِّرارِ، وأمَرَ بهَدمِه، وهو مسجِدٌ يُصَلَّى فيه، ويُذكَرَ اسمُ الله فيه؛ لَمَّا كان بناؤُه ضِرارًا، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، ومأوًى للمُنافِقينَ، وكلُّ مكانٍ هذا شأنُه فواجِبٌ على الإمامِ تَعطيلُه؛ إمَّا بهَدمٍ وتَحريقٍ، وإمَّا بتَغييرِ صُورتِه، وإخراجِه عمَّا وُضِعَ له، وإذا كان هذا شأنَ مَسجِدِ الضِّرارِ، فمَشاهِدُ الشِّركِ- التي تدعو سَدَنتُها إلى اتِّخاذِ مَن فيها أندادًا مِن دُونِ اللهِ- أحقُّ بالهَدمِ وأوجَبُ، وكذلك مَحالُّ المعاصي والفُسوقِ، كالحاناتِ وبيوتِ الخمَّارينَ وأربابِ المُنكَراتِ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ يتناوَلُ مَسجِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومسجِدَ قُباءٍ، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أُسِّسَ على التَّقوى بخلافِ مَساجِدِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٠).

الضِّرارِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يكرهونَ الصَّلاةَ فيما يُشبِهُ ذلك، ويَرَونَ العَتيقَ أفضَلَ مِن الجَديدِ؛ لأنَّ العتيقَ أبعَدُ عن أن يكونَ بُنِيَ ضِرارًا من الجديدِ الذي يُخافُ ذلك فيه، وعتقُ المسجدِ ممَّا يُحمَدُ به؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فإنَّ قِدَمَه يقتضي كثرةَ العبادةِ فيه أيضًا(١).

٧- قَولُه تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ دليلٌ على استحبابِ الصَّلاةِ في المساجِدِ القَديمةِ المؤسَّسةِ مِن أوَّلِ بنائِها على عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وعلى استحبابِ الصَّلاةِ مع جماعةِ الصَّالِحينَ، والعبادِ العاملينَ المُحافِظينَ على إسباغِ الوُضوءِ، والتنَزُّه عن مُلابَسةِ القاذُوراتِ(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مِن جليلِ المَنازِعِ من هذه الآيةِ ما فيها من حُجَّةٍ لصِحَّةِ آراءِ أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ جَعَلوا العامَ الذي كان فيه يومُ الهِجرةِ مبدَأَ التَّاريخِ في الإسلامِ. حينما شاوَر عمرُ الصحابةَ في التاريخِ، فاتَّفق رأيُهم أن يكونَ التاريخُ مِن عامِ الهجرةِ؛ لأنَّه الوقتُ الذي عزَّ فيه الإسلامُ، وأمِن فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوافَق هذا ظاهرَ التنزيلِ(٣).

٩- قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أُطلِقَت المحبَّةُ في قَولِه: ﴿يُحِبُّونَ﴾ كنايةً عن عمَلِ الشَّيءِ المَحبوبِ؛ لأنَّ الذي يُحِبُّ شيئًا مُمكِنًا يعمَلُه لا محالةَ، فقصَدَ التَّنويهَ بهم بأنَّهم يتطَهَّرونَ؛ تَقَرُّبًا إلى اللهِ بالطَّهارةِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

وإرضاءً لِمَحبَّةِ نُفوسِهم إيَّاها، بحيث صارت الطَّهارةُ خُلُقًا لهم، فلو لم تَجِبْ عليهم لفَعَلوها مِن تِلقاءِ أنفُسِهم(١).

١٠- قال ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ حاصِلُ الكلامِ أنَّ أحَدَ البِناءَينِ قَصَدَ بانيه ببنائِه تَقوى اللهِ ورِضوانَه، والبناءُ الثَّاني قصَدَ بانيه ببنائِه المعصيةَ والكُفرَ، فكان البِناءُ الأوَّلُ شَريفًا واجِبَ الإبقاءِ، وكان الثَّاني خسيسًا واجِبَ الهَدمِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

- قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ فيه نهيٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ بالتَّبَعِ، مؤكَّدٌ بلفظِ الأبدِ الذي يستغرِقُ الزَّمَنَ المُستقبَلَ(٣).

- قولُه: ﴿أَحَقُّ ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ولكنَّه هنا غيرُ مُرادٍ منه المفاضَلةُ؛ لأنَّ النَّهيَ عَن صلاتِه في مَسجِدِ الضِّرارِ أزال كونَه حَقيقًا بصَلاتِه فيه أصلًا، ونُكْتةُ الإتيانِ باسْمِ التَّفضيلِ أنَّه تهكَّم على المنافِقين بمُجاراتِهم ظاهِرًا في دَعوتِهمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم للصَّلاةِ فيه، بأنَّه- وإن كان حَقيقًا بصَلاتِه بمسجِدٍ أُسِّس على التَّقْوى- أحقُّ منه، فيُعرَفُ مِن وصفِه بأنَّه أُسِّس على التَّقْوى أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها(٤)، وقيل: إنما قال: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ مع أنَّه لا يجوزُ قِيامُه في الآخَرِ؟ لأنَّ المعنى أنَّه لو كان ذلك جائزًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١).

لكان هذا أَولى؛ للسَّبَبِ المذكورِ[١].

- قولُه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لأحقِّيَّتِه بقيامِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم فيه؛ مِن جهةِ الحالِ، بعدَ بَيانِ أحقِّيَّتِه به مِن حيثُ المحَلُّ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ ثناءٌ على مُؤمِني الأنصارِ الذين يُصلُّونَ بمسجدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وبمَسجدِ قُباءٍ، وفيه تعريضٌ بأنَّ أهلَ مسجدِ الضِّرارِ ليسوا كذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نُفوسَهم وافَقَت خُلقًا يُحِبُّه اللهُ تعالى، وكَفى بذلك تنويهًا بزَكاءِ أنفُسِهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزِيادةِ بيانِ أحقِّيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ، وهو عامٌّ يَشمَلُ هؤلاءِ الظَّالِمين الَّذين بنَوْا مسجِدَ الضِّرارِ وغيرَهم[٦]؛ قيل: وفيه طعنٌ على هؤلاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٥).

المنافِقين وإشارةٌ إليهِم، والمعنى: لا يَهْديهم مِن حيثُ هُم الظَّالمون، أو يَكونُ المرادُ الخُصوصَ فيمَن يُوافي على ظُلمِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ فيه وصفُ البُنيانِ بالموصولِ الَّذي صِلَتُه فِعْلُه ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾؛ للإيذانِ بكيفيَّةِ بِنائِهم له وتَأسيسِه على أوهَنِ قاعدةٍ، وأوهى أساسٍ، وللإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، أي: لا يَزالُ مَسجِدُهم ذلك مَبنيًّا ومَهْدومًا[2]. وأيضًا في ذِكْر قولِه: ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾ بعدَ ﴿بُنْيَانُهُمُ﴾ تأكيدٌ وتصريحٌ بأمرِ المسجِدِ، ورفعٌ للإشكالِ[3].

- وجُعِلَ نفسُ ذلك البُنيانِ رِيبةً؛ لِكَونِه سببًا للرِّيبةِ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).

الآيتان (١١١-١١٢)

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿السَّائِحُونَ﴾: أي: الصَّائمونَ، وأصلُ السَّائحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه اشترَى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم، وجعَلَ ثَمنَ ذلك أن تكونَ لهم الجنَّةُ، يُقاتِلونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى، وسواءٌ يَقتُلونَ الكُفَّارَ أو يقتُلُهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).

قال الأزهري: (وقِيل للصَّائِم: سائحٌ؛ لأنَّ الذي يسيحُ مُتعَبِّدًا يذهبُ في الأرضِ لا زادَ معه، فحينَ يَجِدُ الزَّادَ يَطْعَمُ، والصائمُ لا يَطْعَم أَيْضًا، فلشَبهِه به سُمِّي سائحًا). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١١٣).

وقال الرَّازي بعد أنْ ذكَرَ الوجهَ الأوَّلَ في تسميةِ الصَّائم سائحًا -ونقَلَه عن الأزهري- قال: (الثاني: أنَّ أصلَ السياحةِ الاستمرارُ على الذَّهابِ في الأرضِ، كالماءِ الذي يسيحُ، والصَّائِمُ يستمِرُّ على فعلِ الطَّاعةِ، وترْكِ المُشتَهى، وهو الأكلُ والشُّرب والوِقاعُ، وعندي فيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ الإنسانَ إذا امتنَعَ مِنَ الأكلِ والشُّربِ والوِقاعِ، وسَدَّ على نفسِه أبوابَ الشَّهواتِ؛ انفتَحَت عليه أبوابُ الحكمةِ، وتجَلَّت له أنوارُ عالَم الجلالِ... فيصيرُ مِنَ السَّائحينَ في عالَمِ جلالِ اللهِ، المُنتقلينَ مِن مقامٍ إلى مقامٍ، ومن درجةٍ إلى درجةٍ، فيحصلُ له سياحةٌ في عالَم الرُّوحانيَّاتِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٤).

الكُفَّارُ، فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ، وعدًا عليه حقًّا ثابتًا في التَّوراة والإنجيلِ والقرآنِ، ولا أحَدَ أحسَنُ وفاءً بعَهدِه مِن اللهِ تعالى، ثم أمَرَ سُبحانَه المؤمنينَ المجاهدينَ أن يَفرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعوا به اللهَ تعالى، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

ثمَّ وصَف الله تعالى المؤمنينَ الذينَ اشتَرَى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، فأخبَرَ أنَّهم هم التَّائبون، العابِدونَ، الذين يحمَدونَ اللهَ في جميعِ الأحوالِ، الصَّائمونَ، المصَلُّونَ، الآمِرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عن المُنكَر، والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذين لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكام شَريعتِه، وبَعدَها أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبشِّرَ المؤمنينَ بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَعَ اللهُ تعالى في شَرحِ فضائحِ المُنافِقينَ وقبائِحِهم؛ لسَبَبِ تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، فلمَّا تمَّم ذلك الشَّرحَ والبيانَ، وذكَرَ أقسامَهم، وفرَّعَ على كلِّ قِسمٍ ما كان لائقًا به- عاد إلى بيانِ فضيلةِ الجِهادِ وحَقيقَتِه[١].

وأيضًا أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ الإنكارُ على المُتثاقلينَ عن النَّفْرِ في سبيلِ اللهِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ الحَزمُ بالجهادِ بالنَّفسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).

والمالِ، في قَولِه تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾- ذكَرَ فضيلةَ الجهادِ وحَقيقَتَه(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي بعدَها في بيانِ حالِ المُؤمِنينَ حَقَّ الإيمانِ، البالغينَ فيه ما هو غايةٌ له مِن الكَمالِ؛ وُضِعَتا بعد بيانِ حالِ المُنافِقينَ، وأصناف المُؤمنين المقصِّرين، ومنهما تُعرَفُ جميعُ درجاتِ المُسلِمينَ، ولا سيَّما المتخلِّفيَن عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اشتَرَى من المؤمنينَ أنفُسَهم لِيُقاتِلوا بها الكُفَّار، واشتَرَى أموالَهم لِيَبذُلوها في جهادِهم، وجعَلَ ثَمنَ تَقديمِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ، أن تكونَ لهم الجنَّةُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾.

أي: يُقاتِلُ المؤمنونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه، فإمَّا أن يَقتُلوا الكُفَّارَ، أو يَقتُلَهم الكُفَّارُ، فسواءٌ قَتَلوا أو قُتِلَوا فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالمؤمنينَ في الأظهَرِ أن يكونَ مُؤمِني هذه الأمَّة. وهو المناسِبُ لِقَولِه بعدُ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾.

أي: وعدًا على اللهِ ثابتًا مَكتوبًا في التَّوراةِ التي أنزَلَها على موسى، والإنجيلِ الذي أنزَلَه على عيسى، والقُرآنِ الذي أنزَلَه على مُحمَّدٍ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه سيُوفِّي المُجاهدينَ في سبيلِه ما وعَدَهم به، فيُدخِلُهم جنَّتَه[١].

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: لا أحدَ أحسنُ وفاءً بما عاهَدَ عليه مِن اللهِ؛ فإنَّه صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾.

أي: فأظهِرُوا السُّرورَ- أيُّها المُؤمِنونَ المُجاهِدونَ- وافرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعتُم به اللهَ[٣].

كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩).

قال محمد رشيد رضا: (قولُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ بيانٌ لصفةِ تسليمِ المَبيعِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢،١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: وهذا البَيعُ هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أعظَمَ منه؛ فالجِهادُ سببٌ لِمَغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ورَفعِ الدَّرَجاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه اشترَى من المُؤمِنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُؤمِنينَ هم المَوصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الجَميلةِ والخِلالِ الجَليلةِ[2]، فقال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾.

أي: الذين اشترَى اللهُ منهم أنفُسَهم وأموالَهم، هم الرَّاجِعونَ مِن مَعصيةِ اللهِ إلى طاعَتِه[3].

السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن

﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

أي: الذين ذَلُّوا لِلَّه وأطاعوه؛ محبةً له، واجتَهَدوا في عبادَتِه وَحْدَه[1].

﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾.

أي: الذينَ يَحمَدونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم[2].

﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾.

أي: الصَّائِمونَ[3].

عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

(٣) ممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني ونسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٩ - ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وعائشةُ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وعطاءٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والربيع بن أنس وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣).

وقيل: السَّائحونَ هم المُسافِرونَ في القُرُبات؛ كالسَّفَر للجهادِ، والحجِّ والعمرة، وطلَبِ العِلم، وصِلَةِ الأرحامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: القاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١١ - ٥١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

قال عِكْرِمةُ في تفسير ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: طلبةُ العلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩)

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

أي: المُصَلُّونَ الرَّاكِعونَ والسَّاجِدونَ في صَلَواتِهم المكتوبةِ والمَندوبةِ[1].

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: الذينَ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ ورسولُه به، من الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه، ويَنهَونَهم عن كلِّ ما نهى اللهُ ورسولُه عنه، مثل الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه ومَعصيةِ رَسولِه[2].

قال ابنُ عاشور: (السَّائحون: مُشتَقٌّ من السياحةِ. وهي السَّيرُ في الأرض. والمرادُ به سيرٌ خاصٌّ محمودٌ شَرعًا. وهو السَّفرُ الذي فيه قُربةٌ لله وامتثالٌ لأمره، مِثلُ سَفَرِ الهجرة من دارِ الكُفرِ أو السَّفَرِ للحجِّ، أو السَّفَرِ للجهاد. وحملُه هنا على السَّفرِ للجِهادِ أنسَبُ بالمقامِ، وأشمَلُ للمؤمنينَ المأمورينَ بالجهادِ، بخلاف الهجرةِ والحَجِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

وقيل: السَّائحون بقُلوبِهم في ذكرِ الله ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، وإنَّه يترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحة. وممَّن اختار هذا القولَ: ابن القيم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

قال ابنُ القَيِّم: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طلَبِ العِلمِ، وفُسِّرَت بالجهادِ، وفُسِّرَت بدوامِ الطَّاعة، والتَّحقيقُ فيها أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذكْرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأفعالِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٨٥).

وقال القرطبي: (قيل: هم الجائلونَ بأفكارِهم في توحيدِ رَبِّهم ومَلَكوتِه وما خلَقَ مِن العِبَرِ والعلاماتِ الدَّالَّة على توحيدِه وتعظيمِه، حكاه النقاش... قلت: لفظ «س ي ح» يدلُّ على صحَّة هذه الأقوال؛ فإنَّ السياحةَ أصلُها الذَّهابُ على وجهِ الأرضِ كما يسيحُ الماءُ، فالصَّائمُ مستمِرٌّ على الطاعةِ في تَرْكِ ما يترُكُه من الطَّعامِ وغَيرِه، فهو بمنزلة السَّائِح، والمتفَكِّرون تجولُ قلوبُهم فيما ذَكَروا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥، ١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

أي: والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذينَ لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه(١).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- جميعَ المُؤمِنينَ، بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ العجَبُ ممَّن يدَّعونَ الإيمانَ وهم ينكُثونَ بيعةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فهم لا يبذُلونَ أنفُسَهم ولا شيئًا مِن أموالِهم في سبيلِ اللهِ، وإنَّما يَطلُبونَ الجنَّةَ بِغَيرِ ثَمَنِها، كما يَطلُبونَ سَعادةَ الدُّنيا وسِيادَتَها مِن غيرِ طَريقِها، ولا طريقَ لها إلَّا الجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ، والقرآنُ حُجَّةٌ عليهم، وهو حُجَّةُ اللهِ البالغةُ، التي لا يَدحَضُها شيءٌ، وهي تَدحَضُ كُلَّ شَيءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّه يعني: وبَشِّرِ المُصَدِّقينَ بما وَعَدَهم اللهُ إذا هم وَفوا اللهَ بعَهدِه، أنَّه مُوفٍ لهم بما وَعَدَهم من إدخالِهم الجنَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظٌ عامٌّ أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يُبَشِّرَ أمَّتَه جميعًا بالخيرِ مِن اللهِ. وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لِمَن لم يغزُ، أي: لَمَّا تقدَّمَ في الآيةِ وعدُ المجاهدينَ وفَضْلُهم، أُمِرَ أن يُبَشِّرَ سائرَ النَّاسِ ممَّن لم يغزُ، بأنَّ الإيمانَ مُخلِّصٌ مِن النَّارِ، والحمدُ لله ربِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤١، ٤٢).

٢- باع المَغبونونَ مَنازِلَهم من الجنةِ بأبخَسِ الحَظِّ، وأنقَصِ الثَّمَنِ، وباع المُوفَّقونَ نُفوسَهم وأموالَهم مِنَ اللهِ، وجَعَلوها ثمَنًا للجَنَّةِ، فرَبِحَت تِجارتُهم، ونالوا الفوزَ العَظيمَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذه أوصافُ الكَمَلةِ من المُؤمِنينَ، ذَكَرَها اللهُ تعالى؛ لِيَستبِقَ إلى التحلِّي بها عِبادُه، ولِيَكونوا على أوفَى دَرَجاتِ الكَمالِ[2].

٤- قول الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ من شُعَبِ الإيمانِ: التوبةَ والعبادةَ، وحَمدَ اللهِ على كلِّ حالٍ، والسياحةَ والصَّلاةَ، والأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَر، وحِفظَ حُدودِ الله، باتِّباعِ أوامِرِه واجتنابِ نواهِيه[3].

٥- قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ والتَّوبة إنَّما تحصُلُ عند حصولِ أمورٍ أربعةٍ:

أولها: احتراقُ القلبِ في الحالِ على صُدورِ تلك المعصيةِ عنه.

وثانيها: ندَمُه على ما مضى.

وثالثها: عَزْمُه على التَّركِ في المُستقبَلِ.

ورابعُها: أن يكونَ الحاملُ له على هذه الأمورِ الثَّلاثة طلبَ رِضوانِ اللهِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤-١٤٥).

تعالى وعبوديَّتِه؛ فإن كان غَرَضُه منها دَفْعَ مَذَمَّةِ النَّاسِ، وتحصيلَ مَدْحِهم أو سائِرَ الأغراضِ؛ فهو ليس من التَّائبينَ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ عبَّر بالشراءِ مع أنَّ ما في الكونِ ملكٌ له وحدَه؛ وإنَّما يشتري المشتري ما لا يملكُ؛ لِحُسنِ التلطُّفِ في الدُّعاءِ إلى الطَّاعةِ[٢].

٢- الجهادُ مَقصودُه أن تكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا، وأن يكونَ الدِّينُ كُلُّه لله؛ فمقصودُه إقامةُ دينِ الله لا استيفاءُ الرَّجُلِ حَظَّه؛ ولهذا كان ما يُصابُ به المجاهِدُ في نفسِه ومالِه أجرُه فيه على اللهِ؛ فإنَّ الله اشترَى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ حتى إنَّ الكُفَّارَ إذا أسلَموا أو عاهَدوا لم يَضمَنوا ما أتلفوه للمُسلِمينَ مِن الدِّماءِ والأموالِ، بل لو أسلَموا وبأيديهم ما غَنِموه من أموالِ المُسلِمينَ، كان مِلكًا لهم عند جُمهورِ العُلَماءِ، كمالكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهو الذي مضَتْ به سنَّةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وسُنَّةُ خُلَفائه الرَّاشِدينَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في لفظةِ ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾ لطيفةٌ، وهي: رغبةُ المُشتَري فيما اشتَراه، واغتباطُه به، ولم يأتِ التَّركيبُ: (إن المؤمنينَ باعوا)[٤].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ إذا أردْتَ أن تعرِفَ مِقدارَ الصَّفَقةِ، فانظُر إلى المشتري مَن هو: وهو اللهُ جلَّ جَلالُه، وإلى العِوَضِ: وهو أكبَرُ الأعواضِ وأجَلُّها: جنَّاتُ النَّعيمِ، وإلى الثَّمَنِ المبذولِ فيها: وهو النَّفسُ، والمالُ الذي هو أحبُّ الأشياءِ للإنسان، وإلى مَن جرى على يَدَيه عقدُ هذا التَّبايعِ: وهو أشرَفُ الرُّسُل، وبأيِّ كتابٍ رُقِمَ: وهي كُتُبُ اللهِ الكِبارُ المنزَّلةُ على أفضَلِ الخَلقِ[1].

٥- في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ قرأ الجُمهورُ بتَقديمِ (يَقْتُلُونَ) المبنيِّ للفاعلِ، وحمزةُ والكِسائيُّ بتقديمِ المبني للمَفعولِ، فدلَّت القراءتانِ على أنَّ الواقِعَ هو أن يُقتَلَ بَعضُهم ويَسلَمَ بَعضٌ، وأنَّه لا فَرْقَ بين القاتِلِ والمقتولِ في الفَضلِ، والمثوبةُ عند اللهِ عَزَّ وجلَّ؛ إذ كلٌّ منهما في سبيلِه، لا حُبًّا في سَفْكِ الدِّماءِ، ولا رغبةً في اغتنامِ الأموالِ، ولا توسُّلًا إلى ظُلمِ العِبادِ، كما يفعَلُ عُبَّادُ الدُّنيا من الملوكِ، ورُؤساءِ الأجنادِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ يدلُّ أنَّ أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ أُمِروا بالقِتالِ، وأُوعِدوا عليه الجنَّةَ- إذ هو سنةٌ إلهيةٌ للتمكينِ لدينِ الله، والذودِ عنه- وقد بَقيَ في التوراةِ والإنجيلِ الموجُودَينِ- على تحريفِهما- ما يُشيرُ إلى الجهادِ والحَثِّ عليه[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٠).

ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في خَتمِ الآيتَينِ بالبِشارةِ -تارةً من الخالقِ، وتارةً مِن أكمَلِ الخلائِقِ- أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، وفي جَعْلِ الأُولَى مِن اللهِ أعظمُ تَرغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غَمَراتِ الجِلادِ[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في ابتداءِ الآيتَينِ بالوَصفِ المُشعِرِ بالرُّسوخِ في الإيمانِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وخَتْمِهما بمِثْلِه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه مائدةٌ لا يجلِسُ عليها طُفَيليٌّ، وأنَّ مَن عدا الرَّاسخينَ، في دَرَجةِ الإهمالِ؛ لا كلامَ معهم، ولا التفاتَ بوجهٍ إليهم[٢].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ أنَّ مَن سعَى في طاعةِ اللَّهِ، فقد باع نفسَه لله، وأعتقَها مِن عذابِه[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خُصَّت تلك الخِلالُ التِّسْعُ بالذِّكرِ؛ لأنَّها هي التي تُمثِّلُ في نفسِ القارئِ أكمَلَ ما يكونُ المؤمِنُ به مُحافِظًا على حدودِ اللهِ تعالى(١).

١١- ذكَرَ اللهُ تعالى خِصالَ التَّائِبِ في آخِرِ سُورةِ براءة، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائِبِ مِن العبادةِ والاشتغالِ بالعَمَلِ للآخرة، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ مُتحرِّكةٌ، إنْ لم تشغَلْها بالحَقِّ، وإلَّا شَغَلتْك بالباطِلِ، فلا بُدَّ للتَّائبِ مِن أن يبَدِّلَ تلك الأوقاتِ التي مَرَّت له في المعاصي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأنْ يتدارَكَ ما فرَطَ فيها، وأن يبَدِّلَ تلك الخُطُواتِ بخُطواتٍ إلى الخَيرِ، ويحفظَ لَحَظاتِه وخُطُواتِه، ولَفظاتِه وخَطَراتِه(٢).

١٢- لَمَّا قال تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ ثمَّ ذكَرَ هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ؛ ذكر عَقيبَها قولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيهًا على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ لم تتناوَلْ إلَّا المؤمنينَ الموصوفينَ بهذه الصِّفاتِ(٣).

١٣- ذكَر الله تعالى في هذه الآيةِ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ...﴾ تسعةَ أوصافٍ للمؤمنينَ؛ الستةُ الأُولَى منها تتعلَّق بمعاملةِ الخالقِ، والوصفانِ السابعُ والثامنُ يتعلَّقانِ بمعاملةِ المخلوقِ، والوصفُ التاسعُ يعمُّ القَبيلينِ(٤).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٢/ ٣٣٦).

ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بأهلِ غزوةِ تَبوكَ، وهم جيشُ العُسْرةِ، وافتُتِحَت الجملةُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ(١).

- وفيه تمثيلُ اللهِ إثابتَهم بالجنَّةِ على بَذْلِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سَبيلِه بالشَّرْوى(٢).

- وفي قولِه: ﴿أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ قدَّم الأنفُسَ على الأموالِ؛ ابتِداءً بالأشرَفِ وبِما لا عِوَضَ له إذا فُقِد(٣).

- وأيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قَدَّمَ هنا الأنفسَ على الأموالِ، وفي غيرِه مِن آياتِ الجِهادِ حيثُما وقَعَ في القرآنِ قَدَّمَ الأموالَ على الأنفسِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [الصف: ١١]؛ وذلك لأنَّ تقديمَ الأنفسِ هنا في سُورةِ التوبةِ هو الأَوْلى؛ لأنَّها هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

المُشتراةُ في الحقيقةِ، وهي مَوردُ العقدِ، وهي السِّلعةُ التي استَلَمها ربُّها، وطلَب شِراءَها لنَفْسِه سبحانَه، وجعَل ثمَنَ هذا العقدِ رِضاه وجَنَّته؛ فكانتْ هي المقصودَ بعقدِ الشِّراءِ، والأموالُ تبَعٌ لها؛ فإذا مَلَكها مُشتريها مَلَك مالَها؛ فإنَّ العبدَ وما يَملِكُه لسيِّده، والمالكُ الحقُّ إذا مَلَك النَّفْسَ ملكَ أموالَها ومُتعلَّقاتِها؛ فحَسُنَ تقديمُ النَّفْسِ على المالِ في هذِه الآيةِ حُسنًا لا مَزيدَ عليه. وأمَّا تقديمُ الأموالِ على الأنفسِ في آياتِ الجِهادِ الأخرى؛ فقيل: إنَّه للإشارةِ إلى وجوبِ الجهادِ بالمالِ كما يجبُ بالنَّفسِ؛ فإذا دَهَم العدوُّ وجَبَ على القادرِ الخروجُ بنَفْسِه، فإنْ كان عاجزًا وجَبَ عليه الجهادُ بمالِه إنْ كان له مالٌ؛ فتقديمُ المالِ في الذِّكرِ مُشعرٌ بإنكارِ وهْمِ مَن يَتوهَّم أنَّ العاجزَ بنفْسِه إذا كان قادرًا على أن يغزوَ بمالِه لا يجِبُ عليه شيءٌ، بل قد يُقال: إنَّ وجوبَ الجهادِ بالمالِ أعظمُ وأقْوَى مِن وُجوبِه بالنَّفْسِ؛ وعلى هذا فتظهرُ الفائدةُ في تقديمِ المالِ في الذِّكر على الأنفسِ. وعلى تقديرِ عَدمِ وجوبِ الجهادِ بالمالِ؛ ففي تقديمِ المالِ على النَّفسِ في تِلكَ الآياتِ فائدةٌ أخرى، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النفْسِ ومَعشوقُها التي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتكِبُ الأخطارَ، وتَتعرَّضُ للموتِ في طلبِه، وهذا يدلُّ على أنَّه هو محبوبُها ومعشوقُها؛ فندَب اللهُ تعالى مُحبِّيه المجاهِدِينَ في سبيلِه إلى بذْلِ مَعشوقِهم ومحبوبِهم في مَرضاتِه؛ فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أحَبَّ شيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بذَلوا مَحبوبَهم في حُبِّه نقَلَهم إلى مَرتبةٍ أخرى أكملَ منها، وهي بذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ؛ فإنَّ الإنسانَ لا شيءَ أحبُّ إليه مِن نفْسِه، فإذا أحَبَّ شيئًا بذَل له محبوبَه مِن نفْسِه ومالِه، فإذا آل الأمرُ إلى بذْلِ نفْسِه ضَنَّ بنَفْسِه، وآثَرَها على محبوبِه؛ هذا هو الغالبُ وهو مُقتضَى الطَّبيعةِ، واللهُ تعالى لم يَرْضَ مِن مُحبِّيه إلَّا أنْ يَبذُلوا له نُفوسَهم بعدَ أنْ بذَلوا له مَحبوباتِهم، وأيضًا فبَذْلُ

النفسِ آخِرُ المراتبِ؛ فإنَّ العبدَ يَبذُلُ مالَه أولًا؛ يَقِي به نفْسَه، فإذا لم يَبْقَ له مالُه بذَلَ نفْسَه؛ فكان تقديمُ المالِ على النَّفسِ في الجِهادِ مُطابِقًا للواقِعِ[(١)].

- قولُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مُبالَغةٌ في تقريرِ وُصولِ الثَّمَنِ إليهم، واختصاصِه بهم، كأنَّه قيل: بالجنَّةِ الثَّابتةِ لهم، المختصَّةِ بهم[(٢)]، وقيل: اللامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْك[(٣)] والاستحقاقِ، والمجرورُ مَصدرٌ، والتقديرُ: بتحقيقِ تَملُّكِهم الجنَّةَ، وإنَّما لم يَقُل (بالجنَّة)؛ لأنَّ الثَّمنَ لَمَّا كان آجِلًا، كان هذا البيعُ مِن جِنسِ السَّلَمِ[(٤)].

- قولُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ اشتِراءَ الأنفُسِ والأموالِ لِغَرابتِه في الظَّاهِرِ، يُثيرُ سؤالَ مَن يَقولُ: كيفَ يَبذُلون أنفُسَهم وأموالَهم؟ فكان جوابُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[(٥)].

- قولُه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ تذييلٌ؛ فإنَّ الكلامَ قد تمَّ وكَمَل قبلَ ذلك، ثمَّ أتَت جُملةُ التَّذييلِ؛ لِتُحقِّقَ ما قبلَها وتُؤكِّدَه[(٦)].

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهامُ فيه إنكاريٌّ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَجعَلُ هذا الوعدَ مُحتمِلًا للوفاءِ وعدَمِه، كغالِبِ الوُعودِ، فيُقالُ: ومَن أوفى بعَهدِه مِن اللهِ؟! إنكارًا عليه، وهو استفهامٌ على جِهةِ التَّقريرِ، أي: لا أحَدَ أوفَى بعَهدِه مِن اللهِ تعالى[(٧)]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧ - ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).
(٣) ومنع بعضُهم كونَ اللامِ للملكِ. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٨٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).

مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه مِن حقِّيَّةِ الوعدِ على نَهجِ المبالَغةِ في كونِه سبحانَه أوفَى بالعهدِ مِن كلِّ وافٍ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ زيادةُ تأكيدٍ، فإنَّه لَمَّا أكَّد الوعدَ بقولِه: ﴿عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أبرَزَه هنا في صورةِ (العهدِ) الَّذي هو آكَدُ وأوثَقُ مِن الوعدِ؛ إذ الوعدُ في غيرِ حقِّ اللهِ تعالى جائزٌ إخلافُه، والعهدُ لا يَجوزُ إلَّا الوفاءُ به؛ إذْ هو آكَدُ مِن الوعدِ(٢).

- قولُه: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فيه التفاتٌ إلى الخِطابِ؛ تَشْريفًا لهم على تَشريفٍ، وزيادةً لسُرورِهم على سرورٍ(٣).

- وقولُه: ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فيه إضافةُ البيعِ إلى ضَميرِهم؛ إظهارًا لاغتِباطِهم به، وفي وَصْفِه بالموصولِ وصِلَتِه: ﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾: تأكيدٌ لمَعنى ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾؛ فهو وصْفٌ على سَبيلِ التَّوكيدِ، وتأكيدٌ لفظيٌّ بلَفظٍ مُرادِفٍ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَر حَرْفَ العطفِ هنا دون ما قَبْلَه: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ... ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لِتبايُنِ ما بينَ الوَصفَينِ، فالأمرُ مُباينٌ للنَّهيِ؛ إذِ الأمرُ طلَبُ فِعلٍ، والنَّهيُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠).

تركُ فعلٍ؛ لذا حَسُن العطفُ بالواوِ هنا(١).

- وجاء ترتيبُ هذه الصِّفاتِ في غايةٍ مِن الحُسنِ؛ إذ بدَأ أوَّلًا بما يخُصُّ الإنسانَ، مُرتَّبةً على ما سعَى، فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾، ثمَّ بما يتَعدَّى مِن هذه الأوصافِ مِن الإنسانِ إلى غَيرِه، وهو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، فقال: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّـٰهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، ثمَّ بما شَمِل ما يخُصُّه في نفسِه وما يتَعدَّى إلى غيرِه، وهو الحِفظُ لحُدودِ اللهِ، فقال: ﴿وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه وضعُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتِلك الفضائلِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيمانَهم دَعاهم إلى ذلك، وأنَّ المؤمِنَ الكاملَ مَن كان كذلك(٣).

- وحذَف المبشَّرَ به؛ للتَّعظيمِ، كأنَّه قيل: وبَشِّرْهم بما يَجِلُّ عن إحاطةِ الأفهامِ، وتعبيرِ الكلامِ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١١٢-١١٦)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَأَوَّاهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّع شَفَقًا وفَرَقًا، كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله، وكلُّ كلامٍ يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: التَّأَوُّه[1].

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبِرُ على الأذى. والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ما كان ينبغي للنَّبيِّ والمؤمنينَ أن يستغفِروا للمُشرِكينَ، ولو كانوا مِن أقاربِهم، مِن بعدِ ما تبيَّنَ لهم أنَّهم أهلُ النَّارِ المُخَلَّدونَ فيها، إن ماتوا على كُفْرِهم.

وبيَّنَ تعالى أنَّ استِغفارَ إبراهيمَ لأبيه إنَّما كان بسببِ وَعْدِه له بذلك، فلمَّا اتَّضَح لإبراهيمَ أنَّ أباه عدُوٌّ لله، تبَرَّأَ منه، وترَكَ الاستغفارَ له؛ إنَّ إبراهيمَ لكثيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان لِيُضِلَّ قومًا بعد هدايتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يُبيِّنَ لهم ما يجِبُ عليهم تَركُه؛ إنَّه بكلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ له وَحْدَه مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وأنه ليس للنَّاسِ مِن أحدٍ ينفَعُهم غيرُه سبحانَه، ولا أحَد ينصُرُهم سواه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِن الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَت البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنع مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِن الأسبابِ(١).

وأيضًا لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشرِكينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهيِ عن الدُّعاءِ لهم؛ جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَت إليه(٢).

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾

عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ، عن أبيه، قال: ((لَمَّا حَضَرت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ عنده أبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أميَّةَ بن المُغيرةِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عَمِّ، قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كَلِمةً أشهَدُ لك بها عند اللهِ، فقال أبو جهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ: يا أبا طالب، أترغَبُ عن ملَّةِ عبد المطَّلِب؟! فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تلك المقالةَ، حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كلَّمَهم: هو على مِلَّةِ عبد المطَّلِب، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا واللهِ لأستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، وأنزل اللهُ تعالى في أبي طالبٍ، فقال لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾))[1] [القصص: ٥٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) واللفظ له.

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرين: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عرَضَ على عمِّه أبي طالبٍ الإسلامَ عند وفاتِه، وذكَرَ له وجوبَ حَقِّه عليه، وقال: ((أعنِّي على نفسِك بكلمةٍ أشفَعُ لك بها عندَ الله يومَ القيامة))، فأبى أبو طالبٍ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ((لأستغفِرَنَّ لك حتى أُنهى عن ذلك)) فاستغفَرَ له بعدما مات، فاستغفَرَ المُسلِمونَ لآبائهم وذوي قَراباتِهم، فنزلت هذه الآيةُ... واستبعَدَه الحسين بن الفضل؛ لأنَّ هذه السورةَ مِن آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، ووفاةُ أبي طالبٍ كانت بمكَّةَ في عنفوانِ الإسلام، والله أعلم). ((البسيط)) (١١/ ٧٣).

وقال الرازي: (هذا الاستبعادُ عندي مُستبعَدٌ، فأيُّ بأسٍ أن يقالَ: إنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بَقِيَ يستغفِرُ لأبي طالبٍ من ذلك الوقتِ إلى وقتِ نُزولِ هذه الآية؟! فإنَّ التَّشديدَ مع الكفَّارِ إنَّما ظهر في هذه السُّورة، فلعلَّ المؤمنينَ كان يجوزُ لهم أن يستغفِروا لأبوَيهم مِن الكافرينَ، وكان النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا يفعَلُ ذلك، ثمَّ عند نزولِ هذه السُّورةِ مَنَعَهم اللهُ منه، فهذا غيرُ مُستبعَدٍ في الجملة). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).

وقال ابنُ حجر: (قولُه: فنزلَت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾، أمَّا نزولُ هذه الآيةِ الثَّانية فواضِحٌ في قصة أبي طالبٍ، وأمَّا نزولُ التي قبلها ففيه نظرٌ، ويظهَرُ أنَّ المرادَ أنَّ الآيةَ المتعلِّقةَ بالاستغفارِ نزلت بعد أبي طالبٍ بمدَّةٍ، وهي عامَّةٌ في

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسۡتَغۡفِرُوا۟ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

أي: ما ينبغي للنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ أن يسألوا اللهَ المَغفِرةَ للَّذينَ يَعبُدونَ معه غيرَه[١].

﴿وَلَوۡ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرۡبَىٰ ﴾.

أي: ولو كانوا مِن أقارِبِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: ((زارَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قبرَ أُمِّه، فبَكَى وأبكَى مَن حولَه، فقالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في أنْ أستغْفِرَ لها فلم يُؤْذَنْ لي، واستأذنْتُه في أنْ أزورَ قبرَها فأُذِنَ لي، فَزُوروا القبورَ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ))[٣].

حقِّه وفي حقِّ غيرِه، ويوضِّحُ ذلك ما سيأتي في التَّفسيرِ بلفظِ: فأنزل اللهُ بعد ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ الآية، وأنزل في أبي طالبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾، ولأحمد من طريقِ أبي حازم عن أبي هريرةَ في قصَّة أبي طالبٍ قال: فأنزل الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾). ((فتح الباري)) (٧/ ١٩٥).

وقال القاسمي: (ساق المفسِّرون هاهنا رواياتٍ عديدةً في نزولِ الآيةِ، ولَمَّا رآها بعضُهم مُتنافيةً حاول الجمعَ بينها بتعدُّدِ النُّزول، ولا تنافيَ؛ لِمَا قدَّمناه من أنَّ قولَهم: نزلت في كذا. قد يرادُ به: أنَّ حكمَ الآيةِ يشمَلُ ما وقَعَ مِن كذا، بمعنى: أنَّ نزولَها يتناولُه. وقد يرادُ به: أنَّ كذا كان سببًا لنزولِها، وما هنا من الأوَّلِ، ونظائرُه كثيرةٌ في التنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦).

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما تبيَّن لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ أنَّ المُشرِكينَ هم أهلُ النَّارِ الخالِدونَ فيها؛ بمَوتِهم على الكُفرِ(١).

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ ألَّا يتوهَّمَ إنسانٌ أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه(٢)؛ فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ- وهو إيجابُ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم- غيرُ مُختَصٍّ بدِينِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ مِن الكفَّارِ أقوى(٣).

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

أي: وما وقعَ استغفارُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه، إلَّا بِسبَبِ وَعدِه له بأنَّه سيستغفِرُ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦، ٢٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٨).

قال ابن عطية: (المعنى: لا حُجَّةَ -أيُّها المؤمنونَ- في استغفارِ إبراهيمَ الخليلِ لأبيه؛ فإنَّ ذلك لم يكُنْ إلَّا عن مَوعدةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١).

كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانه عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦-٤٧].

وقال عزَّ وجَلَّ حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

أي: فلمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ أباه عدوٌّ لله، تبرَّأَ منه، وترَكَ الاستغفارَ له(١).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).
قال الرازي: (اختلفوا في السَّبَب الذي به تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله. فقال بعضُهم: بالإصرارِ والموتِ. وقال بعضُهم: بالإصرارِ وحده. وقال آخرون: لا يَبعُد أنَّ الله تعالى عرَّفَه ذلك بالوحي، وعند ذلك تبرَّأ منه. فكأنَّه تعالى يقول: لَمَّا تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله تبرَّأ منه، فكونوا كذلك؛ لأنِّي أمرْتُكم بمتابعةِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

صابرٌ على أذى النَّاسِ له، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ - ٤٨].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا منَعَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ من أن يستَغفِروا للمُشرِكينَ، والمُسلِمونَ كانوا قد استغفَروا للمُشرِكينَ قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فإنَّهم قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ كانوا يستغفِرونَ لآبائِهم وأُمَّهاتِهم وسائرِ أقربائِهم ممَّن مات على الكُفرِ، فلمَّا نزَلَت هذه الآيةُ خافوا بسبَبِ ما صدَرَ عنهم قبل ذلك من الاستغفارِ للمُشرِكينَ.

وأيضًا فإنَّ أقوامًا مِن المُسلِمينَ الذين استغفَروا للمُشرِكينَ، كانوا قد ماتوا قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فوقعَ الخوفُ عليهم في قلوبِ المُسلِمينَ أنَّه كيف يكونُ حالُهم، فأزال اللهُ تعالى ذلك الخَوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه تعالى لا يؤاخِذُهم بعمَلٍ إلَّا بعد أن يُبيِّنَ لهم أنَّه يجِبُ عليهم أن يتَّقوه ويَحتَرِزوا عنه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه لا يُستغفَرُ لِلمشركينَ ولو كانوا أُولي قربَى، فمُنِعَ رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الاستغفارِ لعَمِّه أبي طالِبٍ، ومُنِعَ إبراهيمُ مِنَ الاستغفارِ لأبيه، وكذلك مُنعَ المسلمونَ مِنَ الاستغفارِ للمشركينَ أقرباءَ وغيرَ أقْرِباءَ، فكأنَّه قِيل: لا تَعْجَبْ لتبايُنِ هؤلاءِ، فإضلالُ هؤلاءِ لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ أرشدَهم اللَّهُ إلى طريقِ الحقِّ بما ركَز فيهم مِن حُجَجِ العقولِ الَّتي أغْفَلوها، وتبيينِ ما يتَّقُونَ بطريقِ الوحيِ، فتظافَرتْ عليهم الحُجَجُ العقليَّةُ والسمعيَّةُ، ومعَ ذلك لم يُؤْمِنوا ولم يَتَّبِعوا ما جاءتِ الرُّسلُ به عن اللَّه تعالَى، ولذلك خَتَمها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضلُّ مَن يشاءُ، ويختصُّ بالهدايةِ مَن يشاءُ[١].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

أي: وليس مِن سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِه، ولا مِن حِكمَتِه وعَدْلِه أن يُضِلَّ قومًا بعد هِدايَتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يبيِّنَ لهم ما يجبُ عليهم تَركُه، فإذا بيَّنَ لهم ولم يتَّقوا استحَقُّوا إضلالَه لهم، وعقابَه عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۞ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٧).

أي: إنَّ الله عليمٌ بجميعِ الأشياءِ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالبَراءةِ مِن الكفَّارِ؛ بيَّنَ أنَّه له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، فإذا كان هو ناصِرًا لكم، فهم لا يَقدِرونَ على إضرارِكم(٢).

وأيضًا فإنَّه حينَ أمرَهم بالبراءةِ مِن المشركينَ، فإنَّه لا يمكنُهم الاختلاطُ بآبائِهم وأولادِهم وإخوانِهم؛ لأنَّه ربَّما كان الكثيرُ منهم كافرينَ، فقد يتطرقُ إلى نفوسِهم ما يصيرونَ إليه مِن نقصٍ وحاجةٍ إلى المعينِ والناصرِ، والمرادُ أنَّكم إن صِرْتُم مَحرومينَ عن مُعاوَنتِهم ومُناصَرتِهم، فالإلهُ الذي هو المالِكُ للسَّمَواتِ والأرضِ، والمُحْيي والمُميتُ؛ ناصِرُكم، فلا يضُرُّكم أن يَنقَطِعوا عنكم(٣).

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا أمَرَ بهذه التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، كأنَّه قال: وجَبَ عليكم أن تَنقادوا لحُكمي وتَكليفي؛ لِكَوني إلهَكم، ولِكَونِكم عبيدًا لي(٤).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى عِلْمَه بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).
قال القاسمي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ التي من جُملَتِها حاجَتُهم إلى بيانِ قُبحِ ما لا يستقِلُّ العَقلُ بمَعرفتِه، فبيَّنَ لهم ذلك، كما فعلَ هنا). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هُيِّئَ له في سابِقِ الأزَلِ؛ ذكَرَ ما دَلَّ على القُدرةِ الباهرةِ مِن أنَّه له ملكُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَصَرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه له سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، لا شَريكَ له في خَلْقِه ولا تَدبيرِه ولا تشريعِه[٢].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه يُحيي مَن يشاءُ، ويُميتُ مَن يَشاءُ[٣].

كما قال سبُحانَه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وما لكم -أيُّها النَّاسُ- من أحدٍ غيرِ اللهِ ينفَعُكم، وما لكم من أحدٍ سواه ينصُرُكم، ويدفَعُ عنكم ما يَضُرُّكم[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ فيه مدحُ الحِلمِ والتَّأويه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ فيه تحريمُ الدُّعاءِ للكُفَّارِ بالمغفرةِ أحياءً وأمواتًا[١]، وكذلك وصفُهم بذلك، كقَولِهم: المغفورُ له، المرحومُ فلانٌ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ هذه الآيةُ تضمَّنَت قَطعَ مُوالاةِ الكُفَّارِ حَيِّهم ومَيِّتهم؛ فإنَّ اللهَ لم يجعَلْ للمُؤمِنينَ أن يستَغفِروا للمُشرِكينَ، فطَلَبُ الغُفرانِ للمُشرِكِ ممَّا لا يجوزُ[٣].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ على أنَّ استغفارَ الإنسانِ لِغَيرِه، لا ينفَعُه إلَّا مع الإيمانِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ هذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهيِ، ويُسمَّى نفيَ الشَّأنِ، وهو أبلَغُ في نفيِ الشَّيءِ نَفسِه؛ لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَب المُقتَضي له[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ قولُه ﴿تَبَرَّأَ﴾ صيغةُ (تفعَّلَ) تفيدُ أنَّه أكرَهَ نَفسَه عليه السَّلامُ على البراءةِ، ثمَّ علَّلَ تعالى ما أفهَمَتْه صيغةُ التفعُّل من المعالجةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: شديدُ الرِّقَّةِ الموجبةِ للتأوُّه من خوفِ اللهِ، ومِن الشَّفَقةِ على العِبادِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦، ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ إنَّما وصَفَه تعالى بهَذَينِ الوَصفَينِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تَعظُمُ رِقَّتُه على أبيه وأولادِه؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه مع هذه العادةِ تبَرَّأَ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أولى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ؛ لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ بَعضِ المُبتَدعةِ بالمؤاخَذةِ على ما يجِبُ بحُكمِ العَقلِ، كالصِّدقِ والأمانةِ. نعَمْ، إنَّ حُسنَه يُعلَمُ بالعَقلِ، ولكِنَّ التَّكليفَ الذي يُبنى عليه جزاءُ الآخرةِ لا يصِحُّ إلَّا بالشَّرعِ، كما تدلُّ عليه الآيةُ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ أحكامَ الإسلامِ العامَّةَ التي عليها مدارُ الجزاءِ في الآخرةِ، ويكَلَّفُ العَملَ بها كُلُّ مَن بلَغَتْه- إن كانت من الأحكامِ الشَّخصيَّةِ التي خوطِبَ بها أفرادُ الأمَّة كُلُّهم، ويُنَفِّذُها أئمَّتُها وأمراؤُها فيها- هي ما كانت قطعيَّةَ الدَّلالةِ بِبَيانٍ مِن اللهِ تعالى ورَسولِه، لا حُجَّةَ معه لأحدٍ في تَرْكِه، وأنَّ ما عداها مَنوطٌ بالاجتهادِ، فمن ظَهَرَ له مِن نَصٍّ ظَنِّيِّ الدَّلالةِ حُكمٌ، واعتقَدَ أنَّه مُرادُ اللهِ مِن الآيةِ، وجَبَ عليه اتِّباعُه، ومَن لا فلا[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).

﴿لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ في هذا أدلُّ دليلٍ على أنَّ المعاصيَ إذا ارتُكِبَت وانتُهِكَ حِجابُها، كانت سببًا إلى الضَّلالةِ والرَّدى، وسُلَّمًا إلى تَرْكِ الرَّشادِ والهُدى[(١)].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يعني أنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قومٍ بالهدايةِ، وأمَرَهم بسُلوكِ الصِّراطِ المُستقيمِ؛ فإنَّه تعالى يتَمِّمُ عليهم إحسانَه، ويبَيِّنُ لهم جميعَ ما يحتاجونَ إليه، وتدعو إليه ضَرورتُهم، فلا يترُكُهم ضالِّينَ، جاهلينَ بأمورِ دينِهم، ففي هذا دليلٌ على كمالِ رَحمتِه، وأنَّ شَريعتَه وافيةٌ بجَميعِ ما يحتاجُه العِبادُ، في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه[(٢)].

١١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حجةٌ على المعتزلةِ واضحةٌ؛ إذ قد جَمَعَ سبحانه بينَ الإضلالِ والهدَى منه؛ ولزومِ الحُجَّةِ للمُضَلِّينَ أو المهدِيِّينَ في آيةٍ واحدةٍ متصلةِ المعاني بعضِها ببعضٍ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ جاءَت صيغةُ النَّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشرِكين بطريقِ نفيِ الكونِ؛ مُبالَغةً في التَّنزُّهِ عن هذا الاستغفارِ، وزيادةُ ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٧٨).

﴾؛ للمُبالَغةِ أيضًا في استِقْصاءِ أقرَبِ الأحوالِ إلى المعذرةِ[١]، فدلَّتِ الآيةُ على المبالَغةِ في إظهارِ البَراءَةِ عَن المشرِكينَ والمنافِقين، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم ولو كانوا في غايةِ القُربِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لِتَقريرِ ما سبَق، ودَفعِ ما يتَراءى بِحسَبِ الظَّاهِرِ مِن المُخالَفةِ[٣].

- قولُه: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان استِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ بصَددِ أن يُقتدَى به، بيَّن العِلَّةَ في استِغْفارِ إبراهيمَ لأبيه، وذكَر أنَّه حينَ اتَّضحَت له عَداوتُه للهِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ الجملةُ استِئنافٌ لبيانِ ما كان يَدعُو إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ إلى ما صدَر عنه مِن الاستغفارِ، وما حمَله على الاستِغْفارِ لأبيه معَ شَكاسَتِه عليه[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ تأكيدٌ لوُجوبِ الاجتِنابِ عنه بعدَ التَّبيُّنِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تبرَّأ مِن أبيه بعدَ التَّبيُّنِ وهو في كَمالِ رِقَّةِ القلبِ والحِلْمِ، فلا بُدَّ أن يَكونَ غيرُه أكثرَ مِنه اجتِنابًا وتبرُّؤًا، والأوَّاهُ: كثيرُ التَّأوُّهِ، وهو كِنايةٌ عن كَمالِ الرَّأفةِ، ورِقَّةِ القلبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢، ٥١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسِبٌ للجُملةِ السَّابقةِ، ووُقوعُ ﴿إِنَّ﴾ في أوَّلِها يُفيدُ مَعْنى التَّفريعِ والتَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، وهو أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ قومًا بعدَ أن هَداهم حتَّى يُبيِّنَ لهم الحَقَّ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ تذييلٌ ثانٍ في قوَّةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فُصِلَ بدون عَطفٍ؛ لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى يَقْتضي أن يكونَ عَليمًا بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ تَخلُّفَ العِلم عن التَّعلُّقِ ببَعضِ المتَمَلَّكاتِ يُفْضي إلى إضاعةِ شُؤونها؛ فافتِتاحُ الجُملةِ بـ(إنَّ) مع عدَمِ الشَّكِّ في مَضمونِ الخبَرِ يُعَيِّنُ أنَّ (إنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ، فتكونُ مُفيدةً مَعْنى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ(٢).

- قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ فيه زيادةُ جُملتَي: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لِتَصويرِ مَعْنى المُلْكِ في أتَمِّ مَظاهِرِه المَحسوسةِ للنَّاسِ، المُسَلَّمِ بينَهم أنَّ ذلك مِن تصرُّفِ اللهِ تعالى لا يَستطيع أحَدٌ دَفْعَ ذلك ولا تأخيرَه، وعَطْفُ جملةِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ لتأييدِ المسلِمين بأنَّهم مَنصورونَ في سائرِ الأحوالِ؛ لأنَّ اللهَ وَليُّهم فهو نَصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفَّارَ؛ لأنَّ الكافِرين لا مَولَى لهم؛ لأنَّ اللهَ غاضِبٌ عليهِم، فهو لا يَنصُرُهم، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

مُناسِبٌ لغَرَضِ الكَلامِ المتعلِّقِ باستِغْفارِهم للمُشرِكين بأنَّه لا يُفيدُهم[١].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٧-١١٩)

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عن الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عن الاستقامةِ[١].

﴿رَءُوفٞ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[٢].

﴿رَحُبَتۡ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدلُّ على سَعةٍ[٣].

﴿مَلۡجَأَ﴾: أي: حِرْزَ أو مَعْقِلَ، أو نَجاة، وأصلُ (لجأ): يدلُّ على المكانِ يُلتَجأُ إليه[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)،

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه تاب على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ، الذين أطاعوه بالخُروجِ معه في غَزوةِ تَبوكَ في حرٍّ شَديدٍ، وطولِ سَفَرٍ، وضِيقٍ في الزَّادِ والماءِ والرَّاحِلةِ، لقد تاب عليهم مِن بَعدِ ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ أولئك الصَّحابةِ أن تميلَ عنِ الحَقِّ، ثم تاب عليهم؛ إنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ، وبيَّنَ تعالى أنَّه تاب أيضًا على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحُكمَ في أمرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ عليهم مع سَعَتِها، وضاقت عليهم أنفُسُهم؛ بسَبَبِ ما أصابَهم مِن الهَمِّ والكَربِ والحَزَنِ، وأيقَنوا أنَّه لا مَلجأَ مِن اللهِ إلَّا إليه، ثم تاب عليهم سبحانَه وتعالى لِيَتوبوا؛ إنَّه هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ، ثمَّ أمر اللهُ الذين آمَنوا أن يتَّقوه ويكونوا مع الصَّادِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافِقينَ مِن تَخَلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافِقينَ إلى أعرابٍ وغَيرِهم، وذكَرَ ما فعلوا مِن مَسجِدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايَعةَ المؤمنينَ اللهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُباينوا المُشرِكينَ، حتى الذين ماتوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم- عاد إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ [١]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةُ ما تقدَّمَ مِن موضوعِ توبةِ المتخَلِّفينَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ؛ لأنَّه أدنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغيرِها، وأقوى في تجديدِ الذِّكرى، والتأثيرِ في النَّفسِ[١].

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾.

أي: لقد رزَق الله الإنابةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمَّدًا، وأصحابَه الذينَ هاجَروا مِن دِيارِهم، وأهلَ المدينةِ النبويَّةِ، الذين نَصَروا دينَ اللهِ، وناصَروا مَن هاجَرَ إليهم، وتجاوَز عنهم، وغفَر لهم[٢].

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (التَّوبةُ مِن الله: رجوعُه بعَبْدِه من حالةٍ إلى أرفَعَ منها، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجوعًا مِن حالةِ طاعةٍ إلى أكمَلَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه رجع به من حالَةٍ قبل تحصيلِ الغَزوةِ وأَجْرِها وتحمُّلِ مَشَاقِّها إلى حالَةٍ بعد ذلك أكمَلَ منها، وأمَّا توبتُه على المُهاجِرينَ والأنصارِ، فحالُها معرَّضةٌ لأنْ تكونَ مِن تَقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغَزوِ ونُصرةِ الدِّينِ، وأمَّا توبتُه على الفَريقِ الذي كاد أن يزيغَ، فرجوعٌ من حالةٍ مَحطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورِضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢).

وقال القرطبي: (اختلَفَ العُلَماءُ في هذه التَّوبةِ التي تابها اللهُ على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ على أقوالٍ: فقال ابنُ عبَّاسٍ: كانت التوبةُ على النبيِّ؛ لأجل إذْنِه للمُنافِقينَ في القعودِ. دليلُه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وعلى المؤمنينَ مِن مَيلِ قُلوبِ بَعضِهم إلى التخَلُّفِ عنه. وقيل: توبةُ اللهِ عليهم استِنقاذُهم مِن شِدَّةِ العُسرةِ. وقيل: خَلاصُهم مِن نكايةِ العَدُوِّ، وعبَّر عن ذلك بالتَّوبةِ وإن خرَجَ عن عُرفِها؛ لوجودِ معنى التوبةِ فيه، وهو الرُّجوعُ إلى الحالةِ الأولى. وقال أهلُ المعاني: إنَّما ذُكِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سببَ تَوبتِهم ذُكِرَ معهم، كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

أي: الذين أطاعوا نبيَّه بالخُروجِ معه في غزوةِ تَبُوكَ في وقتِ العُسرةِ؛ بسَبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ، وطُولِ السَّفَرِ، وقِلَّةِ الرَّاحلةِ والماءِ، والطَّعامِ والنَّفَقةِ[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قيل لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في شَأنِ العُسرة، فقال عمر: ((خَرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبُوكَ في قَيظٍ شَديدٍ، فنَزَلْنا مَنزِلًا أصابَنا فيه عطَشٌ، حتى ظنَنَّا أنَّ رِقابَنا ستنقَطِعُ، حتى إن كان الرَّجُلُ لَيَذهَبُ يلتَمِسُ الماءَ فلا يرجِعُ حتى يظُنَّ أنَّ رَقَبتَه ستنقَطِعُ، حتى إنَّ الرَّجُلَ لَينحَرُ بَعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيَشرَبُه، ويَجعَلُ ما بَقِيَ على كَبِدِه؛ فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله قد عَوَّدَك في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ لنا. قال: تحِبُّ ذلك؟ قال: نعم. فرَفَعَ يدَيه، فلم يَرجِعْهما حتى قالتِ السَّماءُ، فأظَلَّتْ ثم سَكَبَت، فمَلَؤوا ما معهم، ثم رَجَعْنا ننظُرُ فلم نَجِدْها جاوَزَتِ العَسكَرَ))[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، قال أبو إسحاق: معناه في وقتِ العُسرةِ؛ لأنَّ السَّاعةَ تقعُ على كلِّ الزَّمانِ، فهي عبارةٌ عن جميعِ وَقتِ تلك الغَزوةِ، وهذا معنى قولِ الكلبي: «في حينِ العُسرةِ». وقال غيره: يريدُ أشَدَّ السَّاعاتِ التي مَرَّت بهم في تلك الغزوةِ، وهي السَّاعةُ التي كادت قلوبُهم تزيغُ فيها، والعُسرةُ: تعَذُّرُ الأمرِ وصُعوبتُه). ((البسيط)) (١١/ ٨١).

(٢) أخرجه البزار (٢١٤)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣٢٩٢).

قال الضياء المقدسي في ((السنن والأحكام)) (١/ ٢٣٢): إسناده على شرط الصحيح، وحسَّنه وقوَّاه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٦٣٥)، وجوَّد إسناده وقوَّاه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٩٦)، وقال ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (٤/ ٤٥٣): إسنادُه على شرطِ الصحيح كما قال الضياء، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٩٧)، وقال الألباني في ((فقه السيرة)) (٤٠٧): حسنٌ أو صحيحٌ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: تاب اللهُ على النبيِّ وأصحابِه الذين اتَّبَعوه في غزوةِ تَبُوكَ، من بعد ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ الصَّحابةِ أن تميلَ عَنِ الحَقِّ، فيَشُكُّوا ويَرتابوا؛ بسبَبِ المشَقَّةِ الشَّديدةِ التي نالَتْهم في تلك الغَزوةِ[1].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ثمَّ رزق اللهُ الصَّحابةَ- الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ- الإنابةَ إلى ربِّهم، والرجوعَ إلى الثباتِ على دينِه[2].

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: تاب اللهُ على الفريقِ الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ عنِ الحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ بصَحابةِ نَبيِّه رؤوفٌ رحيمٌ، ومن رأفَتِه ورَحمَتِه بهم أنَّه لا يريدُ إهلاكَهم، بل رزَقَهم التَّوبةَ وعافاهم مِن زَيغِ القُلوبِ وثَبَّتَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).
ومن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩).
وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ ما كادوا يَرجِعونَ مِن غَزوتِهم؛ للشِّدَّةِ، وليس المرادُ الزَّيغَ عن الإيمانِ. وممَّن اختار ذلك: الزجاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٤).
وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ أن خامَرَ فريقًا منهم خاطرُ التَّثاقُلِ والقُعودِ والمعصيةِ، بحيث يُشبِهونَ المُنافِقينَ، وذلك قبل الخروجِ للغَزوِ. وممن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا صَرَّحَ تعالى بالتَّوبةِ على مَن قارب الزَّيغَ، وخَلَطَ معهم أهلَ الثَّباتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ فَقيرٌ إلى الغنيِّ الكبيرِ، ولِيَكونَ اقترانُهم بأهلِ المعالي، وجعلُهم في حَيِّزِهم تشريفًا لهم وتأنيسًا؛ لئلَّا يشتدَّ إنكارُهم- أتبَعَه التَّوبةَ على مَن وقَعَ منه الزَّيغُ، فقال غيرَ مصَرِّحٍ بالزَّيغِ تعليمًا للأدبِ، وجَبرًا للخواطِرِ المُنكَسِرةِ[1]:

سببُ النُّزولِ:

عن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، يحَدِّثُ حَديثَه حين تخلَّفَ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في غزوة تَبُوكَ، قال كعبُ بنُ مالك: ((لمْ أتخلَّفْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةٍ غزاها قطُّ، إلَّا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أنِّي قد تخلَّفتُ في غزوةِ بدرٍ، ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّفَ عنه، إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ، يريدون عِيرَ قريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبينَ عدوِّهم على غيرِ مِيعادٍ، ولقد شهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةَ العَقَبةِ حين تواثقْنا على الإسلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في النَّاسِ مِنها، وكان مِن خَبَري حين تخلَّفتُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ أنِّي لم أكُنْ قَطُّ أقْوى، ولا أيسَرَ منِّي حين تخلَّفتُ عنه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨).

في تلك الغزوةِ؛ واللهِ ما جمعتُ قبلَها راحلتَين قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوةِ، فغزاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حرٍّ شديدٍ، واستقبَلَ سفرًا بعيدًا ومَفازًا[١]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجَلَا للمُسلِمينَ أمرَهم؛ ليتأهَّبوا أُهبَةَ غَزوِهم، فأخبَرَهم بوجهِهم الذي يريدُ، والمُسلِمونَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كتابٌ حافظٌ- يريد بذلك الدِّيوانَ- قال كعبٌ: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يَظُنُّ أنَّ ذلك سيَخفى له، ما لم يَنزِلْ فيه وحيٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، وغزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلك الغزوةَ حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، فأنا إليها أصعَرُ[٢]، فتجهَّزَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ معه، وطفِقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئًا، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غاديًا والمُسلِمونَ معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثمَّ غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا، وتفارَطَ الغَزْوُ[٣]، فهمَمْتُ أن أرتحلَ فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ! ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في النَّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يَحزُنُني أنِّي لا أرى لي أُسوةً إلاَّ رجلاً مغموصًا عليه[٤] في النِّفاقِ، أو رجلًا ممَّن عذَر اللهُ من الضُّعفاءِ، ولم يَذكُرْني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى بلغَ تَبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القومِ بتَبوكَ: ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟

(١) مَفازًا: أي: بَرِّيَّةً طويلةً قليلةَ الماءِ، يُخافُ فيها الهلاكُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٨).

(٢) أصعَرُ: أي: أَميلُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥).

(٣) تفارَطَ الغَزْوُ: أي: فات وسبَقَ. ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٤٥٣).

(٤) مغموصاً عليه: أي: مُتَّهمًا مُستحقَرًا. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥)

قال رجلٌ من بَني سَلِمةَ: يا رسولَ الله، حبَسه بُرْداه، والنَّظَرُ في عِطْفَيه[١]، فقال له معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما علِمْنا عليه إلَّا خَيرًا. فسَكَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبَيِّضًا[٢] يزولُ به السَّرابُ[٣]، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كُن أبا خَيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزَه المُنافِقونَ. فقال كعبُ بنُ مالكٍ: فلمَّا بلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد توجَّه قافلاً من تبوكَ، حَضَرَني بثِّي[٤]، فطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقولُ: بم أَخرجُ من سَخَطِه غَدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطلُ، حتى عرفتُ أنِّي لن أنجوَ منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قادمًا، وكان إذا قدِم مِن سَفَرٍ بدأَ بالمَسجِدِ، فركع فيه ركعتَينِ، ثمَّ جلَسَ للنَّاسِ، فلما فعل ذلك جاءَه المُخلَّفونَ، فطَفِقوا يَعتَذِرونَ إليه ويحلِفون له، وكانوا بِضعةً وثمانينَ رَجُلًا، فقَبِل منهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علانِيَتَهم، وبايعَهم، واستغفَرَ لهم، ووكَل سرائرَهم إلى اللهِ، حتى جئتُ، فلمَّا سَلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجِئْتُ أمشي حتى جلَسْتُ بين يدَيه. فقال لي: ما خلَّفَك؟ ألم تكُنْ قد ابتَعْتَ ظهرَك؟ قال: قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي- واللهِ- لو جلستُ عند غيرِك مِن أهلِ الدُّنيا، لرأيتُ أنِّي سأخرُجُ مِن سَخَطِه

(١) عِطفَيه: أي: جانِبَيه، وهو إشارةٌ إلى إعجابِه بنَفسِه ولِباسِه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٩).

(٢) مُبَيِّضًا: أَي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. والسَّرابُ: هو ما يظهَرُ للإنسانِ في الهواجِرِ في البراري، كأنَّه ماءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٤) البثُّ: أشَدُّ الحُزنِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٦).

بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلًا، ولَكنِّي - واللهِ - لَقَد عَلِمْتُ لئن حدَّثْتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضَى به عني، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ، ولَئِنْ حدَّثْتُك حديثَ صدق تجدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجو فيه عُقبَى اللهِ(١)، واللهِ ما كان لي عُذرٌ. واللهِ ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فقَد صَدَق، فقُمْ حتى يقضيَ اللهُ فيك، فقُمْتُ وثار رجالٌ من بني سَلِمةَ فاتَّبَعوني، فقالوا لي: واللهِ ما عِلمْناك أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا. لقد عَجَزتَ في ألَّا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعتذر به إليه المُخلَّفونَ؛ فقد كان كافِيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لك. قال: فواللهِ ما زالوا يُؤنِّبونَني حتى أردتُ أن أرجِعَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأُكذِّبَ نفسي. قال: ثمَّ قلتُ لهم: هل لقِيَ هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لَقِيه معك رَجُلانِ قالا مثلَ ما قلتَ. فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقِفيُّ. قال: فذكروا لي رجلَينِ صالِحَينِ قد شَهِدا بدرًا فيهما أُسْوةٌ. قال فمضيتُ حين ذَكَروهما لي. قال: ونهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ عن كلامِنا أيُّها الثلاثةُ، مِن بينِ مَن تخلَّف عنه. قال: فاجتنَبَنا النَّاسُ، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكَّرَتْ لي في نَفسي الأرضُ؛ فما هي بالأرضِ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقَعَدا في بُيوتِهما يَبكِيانِ، وأمَّا أنا فكنتُ أشَبَّ القَومِ وأجلدَهم، فكُنتُ أخرُجُ فأَشهَدُ الصَّلاةَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأسَلِّمُ عليه وهو في مجلسِه بعد الصَّلاةِ، فأقولُ في نفسي: هل حرَّك شفتَيه بردِّ السلامِ أم لا؟ ثم أصلِّي قريبًا منه، وأُسارِقُه النَّظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظَرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نَحوَه أعرَضَ عنِّي،

---

(١) عُقبى اللهِ: أي: أن يُعقِبَني خيرًا، وأن يُثيبَني عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩١).

حتى إذا طال ذلك عليَّ مِن جَفوةِ المُسلِمينَ، مَشيتُ حتى تسوَّرتُ جِدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحَبُّ النَّاسِ إليَّ، فسَلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ له: يا أبا قتادةَ، أَنشُدُك باللهِ، هل تعلمَنَّ أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ قال: فسَكَتَ. فعُدتُ فناشَدْتُه فسَكَتَ. فعُدْتُ فناشَدْتُه. فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. ففاضَتْ عيناي، وتَولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدارَ، فبَيْنا أنا أمشِي في سوقِ المدينة، إذا نَبَطِيٌّ[1] مِن نَبَطِ أهلِ الشَّامِ، ممَّن قَدِمَ بالطعام يبيعُه بالمَدينةِ، يقول: مَن يدلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ قال: فطفِق النَّاسُ يُشيرونَ له إليَّ. حتى جاءني فدفَعَ إليَّ كتابًا من ملِك غسَّانَ، وكنتُ كاتبًا فقرأتُه، فإذا فيه: أمَّا بعدُ؛ فإنَّه قد بلَغَنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يَجعَلْك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحَقْ بنا نُواسِكَ. قال: فقلتُ حين قرأتُها: وهذه أيضًا من البلاءِ، فتيامَمتُ[2] بها التَّنُّورَ فسجَرتُه بها[3]، حتى إذا مَضَت أربعونَ من الخَمسينَ واستلبَثَ الوحيُ[4]، إذا رسولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأمُرُك أن تعتزلَ امرأتَك. قال: فقُلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أفعَلُ؟ قال: لا، بل اعتَزِلْها فلا تقرَبَنَّها. قال: فأرسَلَ إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك. قال: فقلتُ لامرأتي: الْحَقي بأهلِكِ فكوني عِندَهم حتى يقضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ. قال: فجاءت امرأةُ هلالِ بنِ أميَّةَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالت له: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هلالَ بنَ أميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادِمٌ، فهل تكرَهُ أن أخدمَه؟ قال: لا، ولكِنْ لا يَقربَنَّكِ، فقالت: إنَّه- واللهِ- ما به حركةٌ إلى شَيءٍ، وواللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمرِه ما كان إلى يومِه هذا. قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ

(١) النَّبَطُ والأنباطُ: فلاَّحو العَجَمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) تَيامَمْتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

(٣) سَجَرْتُه بها: أي: أوقَدْتُه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ١٣١).

(٤) واستلبثَ الوَحيُ: أي: أبطأَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امرأتِك؟ فقد أذِن لامرأةِ هلالِ بنِ أميَّةَ أن تخدمَه. قال: فقلتُ: لا أستأذنُ فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبثْتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَملَ لنا خمسونَ ليلةً مِن حينِ نُهِيَ عن كلامِنا. قال: ثمَّ صلَّيتُ صلاةَ الفَجرِ صباحَ خَمسينَ ليلةً على ظهرِ بيتٍ مِن بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَّا؛ قد ضاقَت عليَّ نَفسِي، وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَت- سَمِعْتُ صوتَ صارخٍ أَوفَى على سَلْعٍ[1] يقولُ بأعلى صوتِه: يا كعبُ بنَ مالكٍ أبشِرْ! قال فخَرَرْتُ ساجِدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فَرَجٌ. قال: فآذَنَ[2] رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الناسَ بتوبةِ اللهِ علينا، حين صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهَبَ الناسُ يبَشِّرونَنا، فذَهَبَ قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فَرسًا، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ قِبَلي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفَرَسِ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني، فنزعتُ له ثوبَيَّ فكَسوتُهما إيَّاه ببِشارتِه، واللهِ ما أملِك غيرَهما يومَئذٍ، واستَعَرْتُ ثوبَين فلَبِسْتُهما، فانطلقتُ أتأمَّمُ[3] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يتلقَّاني الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنِّئونَني بالتوبة، ويقولون: لِتَهنِئْكَ[4] توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جالسٌ في المسجدِ، وحولَه الناسُ، فقام طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يُهروِلُ حتى صافحَني وهنَّأني، واللهِ ما قام رجلٌ من المهاجرينَ غَيرُه.

---

(١) أَوْفَى عَلَى سَلعٍ: أي: صَعِدَه وارتفَعَ عليه. وسَلْعٌ: جبَلٌ بالمدينةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٢) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٣) أَتَأَمَّمُ: أي: أَقْصِدُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٦).

(٤) لِتَهنِئْكَ: كلمةٌ تُقال عند التهنئةِ، من هنَّأَه بالأمرِ والولايةِ تَهْنِئَةً وتَهْنِيئًا، وهَنَأَه هَنْأً إذا قال له: لِيَهْنِئْكَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١/ ٢٨٧).

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلما سلَّمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال، وهو يبرُقُ وَجهُه من السُّرورِ ويقول: أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدَتْك أمُّك. قال: فقلتُ: أمِن عِندِك يا رسولَ اللهِ، أم مِن عندِ اللهِ؟ فقال: لا، بل مِن عندِ اللهِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه، كأنَّ وجهَه قِطعةُ قمرٍ. قال: وكنَّا نَعرِفُ ذلك. قال: فلمَّا جلستُ بين يدَيه، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ من توبتي أن أنخلِعَ من مالي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمسِكْ بعضَ مالِك؛ فهو خيرٌ لك. قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سَهمي الذي بخَيبرَ. قال: وقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنَّما أنجاني بالصِّدقِ، وإنَّ مِن تَوبتي ألَّا أُحدِّثَ إلاَّ صدْقًا ما بقِيتُ. قال: فواللهِ ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمينَ أبلاه اللهُ[1] في صدقِ الحديثِ منذ ذكرتُ ذلك لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، أحسنَ ممَّا أبلاني اللهُ به. واللهِ ما تعمَّدتُ كَذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني اللهُ فيما بقِيَ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩]. قال كعب: واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ من نعمةٍ قطُّ- بعد إذ هداني اللهُ للإسلامِ- أعظَمَ في نفسي مِن

---

(١) أبلاه اللهُ: أي: أنعَمَ عليه. والبلاءُ والإبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنْ إذا أُطلِقَ كان للشَّرِّ غالبًا، فإذا أُريد الخيرُ قُيِّدَ كما قيَّدَه هنا، فقال: (أحسن مما أبلاني). يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٧).

صِدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم، ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأهلِكَ كما هلك الذين كَذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا- حين أنزل الوَحْيَ- شَرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]، قال كعبٌ: كنا خُلِّفنا- أيُّها الثَّلاثةُ- عن أمرِ أولئك الذينَ قَبِل منهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين حَلَفوا له، فبايَعَهم واستغفَرَ لهم، وأرجأَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَنا حتى قضَى اللهُ فيه، فبذلك قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنا، تَخَلُّفَنا عن الغزْوِ، وإنَّما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمْرَنا، عمَّنْ حلَفَ له واعتذَرَ إليه فقَبِلَ منه))(١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

أي: وتاب اللهُ على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، ويبُتَّ في شأنِهم(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾.

أي: حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ على هؤلاء الثلاثةِ مع سَعَتِها، وذلك أنَّهم أُمِروا باعتزالِ أزواجِهم، ومُنِع المسلمون مِن معاملتِهم وكلامِهم، مع إعراضِ النبيِّ

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣، ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).

صلَّى الله عليه وسلَّم عنهم[١].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

أي: وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم؛ بسبَبِ الهَمِّ والكَربِ والحُزنِ الذي أصابَهم[٢].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأيقَنوا أنَّه لا شَيءَ لهم يَرجِعونَ إليه؛ لِيَسلَموا مِن عَذابِ اللهِ وسَخَطِه، ويرتَفِع عنهم الكَربُ والبَلاءُ، إلَّا اللهُ وَحْدَه دُونَ مَن سِواه[٣].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

أي: ثمَّ وفَّقَ اللهُ الأصحابَ الثَّلاثةَ للتَّوبةِ؛ لِتَقَعَ منهم فيَرجِعُوا إلى اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٨) ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).

وقال ابنُ جريرٍ: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يقول: بسعتِها غمًّا وندمًا على تخلفِهم عن الجهادِ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (وإنَّما ضاقَتْ عليهم الأرضُ عن تخليفِهم عن قبولِ العذرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).

قال محمد رشيد رضا: (﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ واعتَقَدوا أنَّه لا ملجأَ لهم مِن سَخَطِ الله يلجَؤونَ إليه إلَّا إليه تعالى، بأن يتوبوا إليه ويَستغفِروه، ويَرجوا رَحمَتَه؛ فإنَّ الرَّسولَ البَرَّ الرَّؤوفَ الرَّحيمَ بأصحابِه، ما عاد ينظُرُ إليهم ولا يكَلِّمُهم، حتى يطلُبوا دُعاءَه واستغفارَه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥٣).

ويَستَقيموا على طاعَتِه[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهُ هو كثيرُ قَبولِ التَّوبةِ، فيُوفِّقُ مَن يشاء مِن عِباده للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، واسِعُ الرَّحمةِ، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَ التَّائبينَ بعد تَوبتِهم[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذا الأمرُ بالكَونِ مع أهلِ الصِّدقِ حَسُنَ بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفَعَهم الصِّدقُ، وذهَبَ بهم عن منازِلِ المُنافِقينَ، فجاء هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلامِ؛ إذ عَنَّ في القِصَّةِ ما يجب التنبيهُ على امتثالِه[(٣)].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَمَ بِقَبولِ تَوبةِ الثَّلاثةِ؛ ذكَرَ ما يكونُ كالزَّاجِرِ عَن فِعلِ ما مضَى، وهو التخَلُّفُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجِهادِ[(٤)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ اتَّقُوا اللهَ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه[(٥)].

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣، ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

أي: وكونوا- أيُّها المُؤمِنونَ- مع الصَّادقينَ في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، لا تتخلَّفوا عن صُحبَتِهم، واتَّبِعوا سبيلَهم، والزَموا الصِّدقَ؛ لِتَكونوا معهم في الآخرةِ(١).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ، ويتحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ ويتحَرَّى الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ كذَّابًا))(٢).

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّها سَتَكونُ أُمَراءُ يَكذِبونَ ويَظلِمونَ، فمن صدَّقَهم بكَذِبِهم، وأعانهم على ظُلمِهم، فليس منِّي ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومَن لم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهم، ولم يُعِنْهم على ظُلْمِهم، فهو منِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوضَ))(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٣٨٦)، ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٠٨)، والبزار (٢٨٣٤).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٦)، وجوَّد إسنادَه الألباني في ((تخريج كتاب السنة)) (٧٥٩).

وأخرجه من طريق آخر البزار (٢٨٣٢)، والطبراني (٣/ ١٦٨) (٣٠٢٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١) في إسنادِ البزارِ: رجالُه رجالُ الصحيحِ.

ﭐلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ هو بَعثٌ للمُؤمِنينَ على التَّوبةِ، وأنَّه ما من مؤمِنٍ إلَّا وهو مُحتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستغفارِ، حتى النبيُّ والمهاجرون والأنصارُ، وإبانةٌ لِفَضلِ التَّوبةِ ومِقدارِها عند الله، وأنَّ صِفةَ التَّوابينَ الأوَّابينَ صِفةُ الأنبياءِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا مِن أعظَمِ ما يُعَرِّفُ العَبدَ قَدْرَ التَّوبةِ وفَضْلها عند اللهِ، وأنَّها غايةُ كَمالِ المؤمِنِ؛ فإنَّه سُبحانه أعطاهم هذا الكَمالَ بعد آخِرِ الغَزَواتِ بعد أن قَضَوا نَحْبَهم، وبَذَلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله، وكان غايةَ أمْرِهم أن تابَ عليهم؛ ولهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ توبةِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه خيرَ يَومٍ مَرَّ عليه منذ ولَدَتْه أمُّه إلى ذلك اليومِ، ولا يَعرِفُ هذا حَقَّ مَعرِفَتِه إلَّا مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ حُقوقَه عليه، وعرَفَ ما ينبغي له من عبوديَّتِه، وعرف نفسَه وصِفاتِها وأفعالَها، وأنَّ الذي قام به من العبوديَّةِ بالنِّسبةِ إلى حَقِّ رَبِّه عليه كقَطرةٍ في بَحرٍ، هذا إذا سَلِمَ مِن الآفاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فسُبحان مَن لا يسَعُ عبادَه غيرُ عَفْوِه ومَغفِرتِه وتَغَمُّدِه لهم بمَغفِرتِه ورَحمتِه، وليس إلَّا ذلك أو الهَلاك، فإنْ وضَعَ عليهم عَدْلَه فعَذَّبَ أهلَ سَمواتِه وأرضِه، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، وإنْ رَحِمَهم فرَحْمَتُه خيرٌ لهم من أعمالِهم، ولا يُنجي أحدًا منهم عمَلُه[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٧ - ٥١٨).

ﱡﭐﭐ ﭐﱡﭐﭐ ﭐﭐﭐﭐﭐ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ فيه التَّنبيهُ على لُطفِ اللهِ بعِبادِه، وتَثبيتِهم في إيمانِهم عند الشَّدائِدِ، والنَّوازِلِ المُزعِجةِ[1]، فسُنَّةُ الحقِّ مع أوليائه إذا أشْرَفوا على العَطَب، ووطَّنوا أنفُسَهم على الهلاكِ، أمطَرَ عليهم سحائِبَ الجُودِ، فأحيا قُلوبَهم[2].

٤- العبادةُ الشَّاقَّةُ على النَّفسِ، لها فضلٌ ومَزيَّةٌ ليست لِغَيرِها، وكلَّما عَظُمَت المشقَّةُ، عَظُمَ الأجرُ؛ نستفيدُ ذلك من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾[3].

٥- توبةُ الله على عَبدِه بحَسَبِ نَدَمِه وأسَفِه الشَّديدِ، وأنَّ مَن لا يُبالي بالذَّنبِ، ولا يُحرَجُ إذا فعَلَه، فإنَّ تَوبتَه مَدخولةٌ، وإن زَعَم أنَّها مقبولةٌ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[4].

٦- علامةُ الخَيرِ، وزَوالِ الشِّدَّةِ: إذا تعلَّقَ القَلبُ باللهِ تعالى تعلُّقًا تامًّا، وانقطَعَ عن المَخلوقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ دالٌّ على فَضلِ الصِّدقِ، وكمالِ دَرَجتِه[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ حَقُّ مَن فَهِمَ عن الله وعَقَلَ عنه، أن يُلازِمَ الصِّدقَ في الأقوالِ، والإخلاصَ في الأعمالِ، والصَّفاءَ في الأحوالِ، فمَن كان كذلك لَحِقَ بالأبرارِ، ووصَلَ إلى رِضا الغفَّارِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ذَكَرَ التوبةَ في أوَّلِ الآيةِ وفي آخِرِها، فما الفائدةُ في التَّكرارِ؟ قيل: فيه وجوه:

الوجه الأول: أنَّه تاب عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابوا تاب عليهم ثانيًا بقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقَبولِها[٣]، فتوبةُ العَبدِ إلى اللهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِن اللهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَينِ مِن رَبِّه؛ سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إِذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً[٤].

الوجه الثاني: أنَّه تعالى ابتدأ بذِكرِ التَّوبةِ قَبلَ ذِكرِ الذَّنبِ؛ تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).

الوجه الثالث: أنَّه إذا قيل: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ، ثم عفا عنه، دلَّ ذلك على أنَّ ذلك العفوَ عَفوٌ مُتأكِّدٌ، بلغ الغايةَ القُصوى في الكَمالِ والقُوَّةِ.

الوجه الرابع: أنَّه قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تاب عليهم مِن الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثم إنَّه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فهذه الزيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى؛ لئلَّا يبقى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الأنبياءُ صَلَواتُ الله وسلامُه عليهم معصومونَ مِن الإقرارِ على الذُّنوبِ كبارِها وصِغارِها، ومع هذا جاء الإخبارُ عنهم من اللهِ تعالى بالتَّوبةِ، وهم بما أخبَرَ الله به عنهم من التَّوبةِ، يرفَعُ دَرجاتِهم، ويُعَظِّم حسناتِهم، فإنَّ اللهَ يحِبُّ التوَّابينَ، ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وليست التوبةُ نَقصًا، بل هي من أفضَلِ الكمالاتِ، وهي واجبةٌ على جميعِ الخَلقِ كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۞ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ فغايةُ كُلِّ مُؤمنٍ هي التوبةُ، ثمَّ التَّوبةُ تتنَوَّعُ، كما يقال: حَسَناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقَرَّبينَ[٢]، واللهُ تعالى قد أخبَرَ عن عامَّةِ الأنبياءِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ؛ عن آدَمَ ونوحٍ، وإبراهيمَ وموسى وغَيرِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) قال ابنُ تيمية: (هذا اللَّفْظُ ليس محفوظًا عَمَّن قَوْلُه حجَّةٌ؛ لا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولا عن أحدٍ من سلفِ الأمةِ وأئمتِها، وإنَّما هو كَلامٌ، وله معنًى صحيحٌ، وَقد يُحملُ على معنًى فاسدٍ). ثم ذكَر تفصيلَ ذلك. يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كان جيشُ العُسرةِ من المهاجِرينَ والأنصارِ ومِن غَيرِهم مِن القَبائِلِ التي حَولَ المَدينةِ ومَكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ؛ لأنَّهم لم يتردَّدوا ولم يَتَثاقلوا، ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانوا أُسوةً لِمَن ائتَسى بهم مِن غَيرِهم من القَبائِلِ[1].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ سمَّاها (ساعة) تهوينًا لأوقاتِ الكُروبِ، وتشجيعًا على مُواقعةِ المَكارِهِ؛ فإنَّ أمَدَها يسيرٌ، وأجْرَها عظيمٌ خَطيرٌ[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إنما عَظُمَ ذَنْبُهم، واستحَقُّوا عليه ذلك؛ لأنَّ الشَّرعَ يَطلُبُهم مِن الجِدِّ فيه بحسَبِ مَنازِلِهم منه وتَقَدُّمِهم فيه؛ إذ هم أُسوةٌ وحُجَّةٌ للمُنافقين والطَّاعنينَ، إذ كان كعبٌ من أهلِ العَقَبةِ، وصاحباه من أهلِ بَدرٍ، وهذا يقتضي أنَّ الرَّجُلَ العالِمَ والمُقتَدَى به، أقَلُّ عُذرًا في السُّقوطِ مِن سِواه[3].

٦- معنى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ أي: لطَفَ لهم في التَّوبةِ ووفَّقَهم لها، وهذا دليلٌ على أنَّه ما لم يُرِدِ اللهُ تعالى توبةَ العبدِ ولم يُوَفِّقْه لها، لا يُمكِنُه ذلك[4]، فالله تعالى أخبَرَ أنَّ تَوبتَه عليهم سبَقَت توبتَهم، وأنَّها هي التي جعَلَتْهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦).

تائبينَ، فكانت سببًا مُقتضيًا لِتَوبتِهم، فدلَّ على أنَّهم ما تابوا حتى تاب اللهُ تعالى عليهم، والحُكمُ ينتفي لانتفاءِ عِلَّتِه(١).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ مِن لُطفِ اللهِ بالثَّلاثةِ أنْ وَسَمَهم بوَسْمٍ ليس بعارٍ عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارةً إلى أنَّ المُؤمِنينَ خَلَّفوهم، أو خُلِّفوا عمَّنْ بَتَّ في قَبولِ عُذرِهم، أو في رَدِّه، وأنَّهم لم يكُن تَخلُّفُهم رَغبةً عن الخَيرِ؛ ولهذا لم يقُلْ: (تَخلَّفوا)(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذِكرُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ عَقِبَ ذِكرِ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ يدلُّ على أنَّ قَبولَ التَّوبةِ؛ لِمَحضِ الرَّحمةِ والكَرَمِ(٣).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في كلِّ أمرٍ يُطلَبُ منهم، ولعلَّه أخرَجَ الأمرَ مَخرَجَ العُمومِ؛ لِيشملَ كُلَّ مُؤمِنٍ، فمن كان مُقصِّرًا كانت آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا كانت حاثَّةً له على حِفظِ مَقامِ الاسْتِباقِ(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لعَلَّه عَبَّرَ بـ﴿مَعَ﴾ ليشمَلَ أدنى الدَّرَجاتِ، وهو الكَونُ بالجُثَثِ(٥).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٣٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤١-٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَ المؤمنينَ بالكَونِ مع الصَّادقينَ، ومتى وجبَ الكَونُ مع الصَّادقينَ، فلا بدَّ مِن وجودِ الصَّادقينَ في كُلِّ وقتٍ، وذلك يمنَعُ من إطباقِ الكُلِّ على الباطِلِ، ومتى امتنع إطباقُ الكُلِّ على الباطِلِ، وجب إذا أطبَقوا على شَيءٍ أن يكونوا مُحِقِّينَ، فهذا يدلُّ على أنَّ إجماعَ الأمَّةِ حُجَّةٌ[(١)].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: هم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا ريبَ أنَّهم أئمَّةُ الصَّادِقينَ، وكُلُّ صادقٍ بَعدَهم، فبهم يأتَمُّ في صِدْقِه، بل حَقيقةُ صِدقِه اتِّباعُه لهم، وكونُه معهم، ومعلومٌ أنَّ مَن خالَفَهم في شيءٍ- وإن وافَقَهم في غيرِه- لم يكن معهم فيما خالَفَهم فيه، وحينئذٍ فيَصْدُقُ عليه أنَّه ليس معهم، فتَنتفي عنه المعيَّةُ المُطلَقةُ، وإن ثبَتَ له قِسطٌ مِن المعيَّةِ فيما وافَقَهم فيه، فلا يَصدُقُ عليه أنَّه معهم بهذا القِسطِ[(٢)].

١٣- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على خلافةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه؛ فقَدْ بيَّن الله تعالى في سورةِ الحشرِ مَن الصادِقونَ، وأنَّهم المهاجرون، بقولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] فأمر الذين تبوَّؤا الدَّارَ والإيمانَ أَنْ يكونُوا معهم، أي: تَبَعًا لهم، فحصَلَتْ الخلافَةُ في الصادِقينَ بهذه الآيةِ، فاسْتَحَقُّوها بهذا الاسم، ولم يَكُنْ في الصادِقينَ مَن سمَّاه اللهُ الصِّدِّيقَ إلَّا أبو بكرٍ، فكانت له خَاصَّةً، ثُمَّ لِلصَّادِقينَ بعدَه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((الروض الأنف)) للسهيلي (٦/ ٨٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وفي افتِتاحِ الآيةِ بحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَّقَد﴾ تأكيدٌ لِمَضمونِها المتقرِّرِ فيما مَضى مِن الزَّمانِ[١].

- قولُه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فيه ضمُّ ذِكْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليَه وسلَّم إلى ذِكْرِهم؛ تَنبيهًا على عِظَمِ مَراتِبِهم في قَبولِ التَّوبةِ[٢]، وتَقديمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليَه وسلَّم في تعَلُّقِ فِعْلِ التَّوبةِ بالغزاةِ؛ للتَّنويهِ بشَأنِ هذه التَّوبةِ، وإتيانِها على جَميعِ الذُّنوبِ؛ إذ قد عَلِم المسلِمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليَه وسلَّم قد غفَرَ اللهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنبِه وما تأخَّر[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ...﴾ فيه وصفُ المهاجِرين والأنصارِ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ لِصِلَةِ الموصولِ تَسبُّبًا في هذه المغفرةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما قَبلَها[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ مثَلٌ للحَيرةِ في أمرِهم، كأنَّهم لا يَجِدون فيها مَكانًا يَقِرُّون فيه قَلقًا وجزَعًا ممَّا هم فيه(١).

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ؛ حيثُ ذكَر أوَّلًا ضِيقَ الأرضِ عليهم، وهو كِنايةٌ عَن استيحاشِهم، ونَبْوَةِ النَّاسِ عَن كَلامِهم، وثانيًا ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ وهو كِنايةٌ عن تَواتُرِ الهمِّ والغمِّ على قُلوبِهم، حتَّى لم يَكُنْ فيها شيءٌ مِن الانشِراحِ والاتِّساعِ، فذَكَر أوَّلًا ضِيقَ المحَلِّ، ثمَّ ثانيًا ضِيقَ الحالِ فيه(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ فيه تكريرٌ للتَّأكيدِ، وتنبيهٌ على أنَّه يُتابُ عليهم؛ مِن أجلِ ما كابَدوا مِن العُسْرةِ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ مِن مَحاسِنِ البلاغةِ، وإعجازِ النَّظْمِ القرآنيِّ: أنَّه لَمَّا كان هذا القولُ في تَعْديدِ نِعَمِه بدَأ في تَرتيبِه بالجِهَةِ الَّتي هي عَنِ اللهِ تعالى؛ لِيَكونَ ذلك مُنبِّهًا على تلَقِّي النِّعْمةِ مِن عِندِه لا ربَّ غَيرُه، ولو كان القولُ في تَعديدِ ذَنبٍ لَكانَ الابتِداءُ بالجِهَةِ الَّتي هي عَن المذنِبِ، كما قال تَعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]؛ لِيَكونَ هذا أشدَّ تَقْريرًا للذَّنبِ عَليهِم، وهذا مِن فَصاحةِ القرآنِ وبَديعِ نَظْمِه ومُعجِزِ اتِّساقِه(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٠- ٥٢١).

هذه الآيةُ بمَنزِلَةِ التَّذييلِ للقِصَّةِ؛ فإنَّ القِصَّةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ قومٍ اتَّقَوُا اللهَ فصَدَقوا في إيمانِهم وجِهادِهم فرَضِيَ اللهُ عنهم، وذِكْرِ قومٍ كذَبوا في ذلك، واختَلَقوا المعاذيرَ وحَلَفوا كَذِبًا، فغَضِبَ اللهُ عليهِم، وقوم تَخلَّفوا عَن الجهادِ، وصدَقوا في الاعتِرافِ بعدَمِ العُذرِ فتابَ اللهُ علَيهم، فلمَّا كان سببُ فَوزِ الفائزين في هذه الأحوالِ كلِّها هو الصِّدْقَ، أمَرَ اللهُ المؤمِنين بتَقْواه وبأن يَكونوا في زُمْرَةِ الصَّادِقين، مِثْلَ أولئكَ الصَّادِقين الَّذين تضَمَّنَتهم القِصَّةُ[١].

- والأمرُ بقَولِه: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أبلَغُ في التَّخَلُّقِ بالصِّدْقِ مِن نحوِ: (اصْدُقوا)[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٢٠-١٢١)

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ
اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا
يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَصَبٌ﴾: أي: تَعَبٌ ومشَقَّةٌ[١].

﴿مَخْمَصَةٌ﴾: أي: مَجاعةٌ، مُشتقَّةٌ مِن خَمَصِ البَطنِ، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ[٢].

﴿مَوْطِئًا﴾: أي: أرضًا، أو مَنزِلًا، وأصلُ (وطأ): يدلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[٣].

﴿نَّيْلًا﴾: أي: قتلًا وهزيمةً أو أَسْرًا، وأصلُ (نيل): ما ينالُه الإنسانُ بِيَدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)،

المَعنى الإجماليّ(١):

يُبيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لأهلِ المَدينةِ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البادِيةِ أن يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، ولا يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِه، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، وهو في تعَبٍ ومشقَّةٍ، ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يُصيبُهم مِن عَطَشٍ ولا تعبٍ ولا مجاعةٍ شَديدةٍ في سبيلِ اللهِ، ولا يَطَؤونَ أرضًا يُغضِبُ الكُفَّارَ وَطؤُهم إيَّاها، ولا يُصيبونَ مِن عَدُوِّهم شيئًا مِن قَتلٍ أو هزيمةٍ ونحوِها، إلَّا كَتَبَ اللهُ لهم بذلك عمَلًا صالحًا؛ إنَّ اللهَ لا يضيعُ أجْرَ المُحسِنينَ.

ولا يُنفِقونَ نَفَقةً صَغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعونَ في غَزوِهم واديًا، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك؛ ليجزيَهم الله عليه، كأحسنِ ما يجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بوجوبِ الكونِ في

---

(١) ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١).

مُوافَقةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في جميعِ الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، أكَّدَ ذلك، فنهَى في هذه الآيةِ عن التخَلُّفِ عنه(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بتَقوى اللهِ، وأمَرَ بكَينونَتِهم مع الصَّادِقينَ، وأفضَلُ الصَّادِقينَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ المُهاجِرونَ والأنصارُ؛ اقتضى ذلك مُوافَقةَ الرَّسولِ وصُحبَتَه أنَّى توجَّهَ مِن الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، فعُوتِبَ العِتابَ الشَّديدَ مَن تخلَّفَ عن الرَّسولِ في غَزوةٍ، واقتضى ذلك الأمرَ لِصُحبَتِه، وبذلَ النُّفوسِ دُونَه(٢).

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما كان ينبغي للمُسلِمينَ مِن سُكَّانِ مَدينةِ النبيِّ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البوادي أنْ يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غَزوةِ تَبوكَ(٣).

﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: وما كان ينبغي لهم أن يتَرَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).

قال ابن الجوزي: (ذهب طائفةٌ من المفَسِّرينَ إلى أنَّ هذه الآيةَ اقتضَتْ أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يتخَلَّفَ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كان في أوَّلِ الأمْرِ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال أبو سليمان الدمشقي: لكلِّ آيةٍ وَجْهُها، وليس للنَّسخِ على إحدى الآيتَينِ طَريقٌ. وهذا هو الصَّحيحُ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).

وسلَّم، في صُحبَتِه في الجِهادِ، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تعَبٍ ومَشقَّةٍ[1]!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ﴾.

أي: ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يصيبُهم في الجهادِ مِن عَطَشٍ ولا تَعَبٍ[2].

﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا يُصيبُهم مِن مجاعةٍ شَديدةٍ في جهادِهم لإعلاءِ كَلِمةِ الله[3].

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾.

أي: ولا تَصِلُ أقدامُهم إلى أرضٍ يغضَبُ الكفَّارُ مِن وُصولِهم إليها[4].

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (أُريدَ برَغبَتِهم عن نَفْسِه محَبَّتُهم أنفُسَهم، وحِرصُهم على سلامَتِها، دون الحِرصِ على سلامةِ نَفسِ الرَّسولِ، فكأنَّهم رَغِبوا عن نفسِه؛ إذ لم يخرُجوا معه مُلابِسينَ لأنفُسِهم، أي: محتفظينَ بها؛ لأنَّهم بمقدارِ مَن يتخَلَّف منهم يزدادُ تعَرُّضُ نَفسِ الرَّسولِ مِن التَّلَفِ قُربًا، فتخَلُّفُ واحدٍ منهم عن الخروجِ معه عَونٌ على تقريبِ نَفسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن التَّلَف). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

أي: ولا يُصيبونَ من الكفَّارِ مِن شَيءٍ قليلٍ أو كثيرٍ؛ من قتلٍ أو جراحٍ أو أَسْرٍ، أو غنيمةٍ أو هزيمةٍ[١].

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

أي: إلَّا كتَبَ اللهُ لهم بهذه الأعمالِ أعمالًا صالحةً[٢] وثوابًا جزيلًا[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخيلُ ثلاثةٌ: هي لرَجُلٍ وِزرٌ، وهي لِرَجُلٍ سِترٌ، وهي لرجُلٍ أَجْرٌ، فأمَّا التي هي له وِزرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها رياءً وفَخرًا ونِواءً[٤] على أهلِ الإسلامِ، فهي له وِزرٌ، وأمَّا التي هي له سِترٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ اللهِ، ثمَّ لم ينسَ حَقَّ اللهِ في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِترٌ، وأمَّا التي هي له أجرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها في سبيلِ اللهِ لأهلِ الإسلامِ، في مَرجٍ ورَوضةٍ[٥]، فما أكلَتْ من ذلك المَرجِ أو الرَّوضةِ مِن شَيءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) قال ابن عاشور: (معنى: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أن يُكتَبَ لهم بكلِّ شَيءٍ مِن أنواعِ تلك الأعمالِ عمَلٌ صالِحٌ، أي: جعَلَ اللهُ كُلَّ عمَلٍ من تلك الأعمالِ عمَلًا صالحًا، وإن لم يَقصِدْ به عامِلوه تقرُّبًا إلى الله؛ فإنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ عن أصحابِها وهم ذاهِلونَ في غالبِ الأزمانِ أو جميعِها عن الغايةِ منها، فليست لهم نيَّاتٌ بالتقَرُّبِ بها إلى الله، ولكِنَّ اللهَ تعالى بفَضْلِه جعَلَها لهم قُرُباتٍ باعتبارِ شَرَفِ الغايةِ منها، وذلك بأنْ جعَلَ لهم عليها ثوابًا، كما جعل للأعمالِ المقصودِ بها القُربةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) نِوَاءً: أي: مُناوأةً ومُعاداةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٦٦).

(٥) في مَرْجٍ: أي: مَرعًى، وهو الأرضُ الواسعةُ ذاتُ النَّباتِ الكثيرِ، (ورَوْضةٍ) عطفُ تفسيرٍ، أو الرَّوضةُ أخصُّ مِن المَرعَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٥).

إلَّا كُتِبَ له عددَ ما أكَلَت حَسَناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرواثِها وأبوالِها حَسَناتٌ، ولا تَقطَعُ طِولَها[(١)]، فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ[(٢)]، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ آثارِها وأرْواثِها حَسَناتٍ، ولا مَرَّ بها صاحِبُها على نهرٍ فشَرِبَت منه، ولا يريدُ أن يسقِيَها، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ ما شَرِبَت حسناتٍ))[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: يُؤتَونَ تلك الأجورَ؛ لأنَّهم مُحسِنونَ، واللهُ لا يترُكُ إثابةَ مُحسِنٍ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنٍ إلى عبادِ اللهِ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ وهو انتقالٌ مِن عِدادِ الكُلَفِ

(١) طِوَلَها: أي: حَبلَها الطَّويلَ الذي شُدَّ أحَدُ طَرَفيه في يَدِ الفَرَسِ، والآخَرُ في وَتِدٍ أو غيرِه؛ لِتَدورَ فيه وترعى من جوانِبِها، ولا تذهبَ لِوَجهِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٢) استَنَّت: أي: جَرَت. وشَرَفًا: أي: شَوطًا أو مَوضِعًا عاليًا مِن الأرضِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٤٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

التي تَصدُرُ عنهم بلا قَصدٍ، في سبيلِ اللهِ، إلى بعضِ الكُلَفِ التي لا تخلو عن استشعارِ مَن تحُلُّ بهم بأنَّهم لَقُوها في سبيلِ اللهِ، فالنَّفقةُ في سبيلِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عن قَصدٍ، يتذكَّرُ به المُنفِقُ أنَّه يسعى إلى ما هو وسيلةٌ لِنَصرِ الدِّينِ[١].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ الغازونَ في سبيلِ اللهِ نَفقةً صَغيرةً ولا نَفَقةً كَبيرةً، ولا يُجاوِزونَ في غَزْوِهم واديًا ذاهِبينَ أو راجعينَ، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك[٢].

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ جَبرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما اغبَرَّت قدَمَا عبدٍ في سبيلِ الله فتمَسَّه النَّارُ))[٣].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي:كُتِبَ لهم ثوابُ عملِهم ذلك؛ لِيَجْزيَهم الله عليه، كأحْسنِ ما يَجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧-٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٨١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

قال الواحدي: (قال أكثر المفسِّرينَ: هذه الآيةُ خاصَّةٌ في صُحبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والخروجِ معه، وقال الأوزاعي، وابن المبارك: هي لآخِرِ هذه الأمَّةِ وأوَّلِها). ((البسيط)) (١١/ ٩٢).

قال الرازي: (قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أنَّ الأحسَنَ مِن صِفةِ فِعْلِهم، وفيها الواجِبُ والمندوبُ والمباحُ، واللهُ تعالى يَجزِيهم على الأحسَنِ، وهو الواجِبُ والمندوبُ، دون المُباحِ.

كما قال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ مَن قصَدَ طاعة اللهِ، كان قيامُه وقُعودُه ومِشيَتُه وحَرَكتُه وسُكونُه، كلُّها حَسَناتٍ مكتوبةً عند الله، وكذا القَولُ في طَرَفِ المَعصيةِ، فما أعظَمَ بَرَكةَ الطاعةِ، وما أعظَمَ شُؤمَ المَعصيةِ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

والثاني: أنَّ الأحسَنَ صِفةٌ للجَزاءِ، أي: يَجزيهم جزاءً هو أحسَنُ مِن أعمالِهم وأجَلُّ وأفضَلُ، وهو الثَّوابُ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٠).

وقال محمد رشيد رضا: (النَّصُّ على جزائِهم أحسَنَ ما كانوا يعملونَ، لا ينافي جزاءَهم بما دونَه، وقد قال آنفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو فيه، وإنَّما المرادُ النصُّ على أنَّ هذا العمَلَ أحسَنُ أعمالِهم أو مِن أحسَنِها؛ لأنَّه جمَعَ بين الجهادِ بالمالِ، والجِهادِ بالنَّفسِ، وما قَبلَه من الثَّاني فقط، والجزاءُ على الأحسَنِ يكونُ أحسَنَ منه، على قاعدةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل: ٨٩] وبيانُ ذلك بقاعدةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال بعضُهم: إنَّ معنى الجملةِ أنَّه تعالى يَجزيهم بكُلِّ عمَلٍ ممَّا ذُكِرَ أحسَنَ جَزاءٍ على أعمالِهم الحَسَنةِ، أي: في غيرِ الجهاد بالمالِ والنَّفسِ، بأن تكونَ النَّفَقةُ الصغيرةُ فيه كالنَّفَقةِ الكبيرةِ في غيره مِن المبَرَّاتِ، والمشَقَّةُ القليلةُ فيه كالمشَقَّةِ الكثيرةِ فيما عداه من الأعمالِ الصَّالحاتِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ فيه أشَدُّ تَرغيبٍ وتَشويقٍ للنُّفوسِ إلى الخُروجِ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله، والاحتساب لِمَا يُصيبُهم فيه من المشَقَّاتِ، وأنَّ ذلك لهم رفعةُ دَرَجاتٍ، وأنَّ الآثارَ المترتِّبَةَ على عملِ العبدِ، له فيها أجرٌ كبيرٌ[١].

٣- النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولَى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، فعلى كلِّ مُسلِمٍ أن يَفدِيَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِنَفسِه، ويُقَدِّمَه عليها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أُمِروا بأن يَصحَبوه على البأساءِ والضَّرَّاءِ، وأن يُكابِدوا معه الأهوالَ بِرَغبةٍ ونَشاطٍ واغتِباطٍ، وأن يُلقُّوا أنفُسَهم من الشَّدائِدِ ما تَلقاه نَفْسُه، عِلمًا بأنَّها أعزُّ نَفسٍ عندَ اللهِ وأكرَمُها عليه، فإذا تعَرَّضَت مع كرامَتِها وعِزَّتِها للخَوضِ في شِدَّةٍ وهَولٍ، وجَبَ على سائِرِ الأنفُسِ أن تتهافَتَ فيما تعَرَّضَت له، ولا يكترِثَ لها أصحابُها ولا يُقيموا لها وزْنًا، وتكون أخَفَّ شَيءٍ عليهم وأهوَنَه، فضلًا عن أن يَربَؤوا بأنفُسِهم عن مُتابَعتِها ومُصاحَبتِها، ويَضِنُّوا بها على ما سَمَحَ بنَفسِه عليه[٣]، ففي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أولى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، ومِن حقِّه أنَّه يجبُ أنْ يُؤثِرَه العطشانُ بالماءِ، والجائِعُ بالطَّعامِ، وأنَّه يجبُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١).

يُوقَى بالأنفُسِ والأموالِ، وعُلِمَ بهذا أنَّ رغبةَ الإنسانِ بنَفْسِه أنْ يُصيبَه ما يُصيبُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المشقَّةِ معه- حَرامٌ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لعلَّه قلَّلَهم بصيغةِ القِلَّةِ(٢) بالنِّسبةِ إلى من أيَّدَه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من جُنودِه(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ لَمَّا كان العطَشُ أشَقَّ الأشياءِ المُؤذيةِ للمُسافِرِ بكَثرةِ الحَرَكةِ، وإزعاجِ النَّفسِ-وخصوصًا في شِدَّةِ الحَرِّ كغزوة تَبُوكَ- بُدِئَ به أوَّلًا، وثنَّى بالنَّصَبِ وهو التَّعَب؛ لأنَّه الكَلالُ الذي يلحَقُ المُسافِرَ، والإعياءُ النَّاشِئُ عن العطَشِ والسَّيرِ، وأتَى ثالثًا بالجُوعِ؛ لأنَّه حالةٌ يُمكِنُ الصَّبرُ عليها الأوقاتَ العديدةَ، بخلافِ العطَشِ والنَّصَبِ المُفضِيَينِ إلى الخلودِ والانقطاعِ عَن السَّفرِ، فكان الإخبارُ بما يَعرِضُ للمُسافِرِ أوَّلًا فثانيًا فثالثًا(٤).

٤- كلُّ ما يُؤلِمُ النُّفوسَ، ويَشُقُّ عليها، فإنَّه كفَّارةٌ للذُّنوبِ، وإنْ لم يكُنْ للإنسانِ فيه صُنعٌ ولا تسبُّبٌ، كالمَرَضِ وغيره، كما دلَّت النُّصوصُ الكثيرةُ على ذلك، وأمَّا إن كان ناشِئًا عن فِعْلٍ هو طاعةٌ لله، فإنَّه يُكتَبُ لصاحِبِه به أجرٌ، وتُرفَعُ به دَرَجات، كالألَمِ الحاصِلِ للمُجاهِدِ في سبيلِ الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٢١).

(٢) جمعُ القِلَّة: ما وُضعَ للعددِ القليلِ، وهو مِن الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، كأحمالٍ. ولجموع القِلَّة أربعةُ أوزانٍ، هي: أفعُل (كأنفُس)، وأفعال (كأجداد)، وأفعِلَة (كأعمدة)، وفِعْلَة (كفِتْيَة). يُنظر: ((جامع الدروس العربية)) للدماميني (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ ﴾[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الفارِسَ يستحِقُّ سَهمَ الفَرَسِ بدُخولِ أرضِ الحَربِ، لا بالحيازةِ؛ لأنَّ وَطءَ دِيارِهم يُدخِلُ عليهم الذُّلَّ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُغايظةَ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ مَطلوبةٌ له[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ لَمَّا كان ربَّما تعنَّت مُتعَنِّتٌ فجعَلَ ذِكرَ (الصغيرة) قيدًا، قال: ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ إعلامًا بأنَّه مُعتَدٌّ به؛ لِئَلَّا يُترَكَ[4].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ ولم يقُل هاهنا «به» لأنَّ هذه أفعالٌ صادرةٌ عنهم[5].

٩- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الجِهادَ مِن أحسَنِ أعمالِ العِبادِ[6]. وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٧).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٥).
(٦) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين تَخلَّفوا مِن أهلِ المدينةِ ومِن الأعرابِ[1].

- وصِيغةُ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في إنشاءِ الأمرِ على طَريقِ المبالَغةِ؛ إذ جعَل التَّخلُّفَ ليس مِمَّا ثبَت لهم؛ فهُم بُرآءُ مِنه، فيَثبُتُ لهم ضِدُّه، وهو الخروجُ معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إذا غزَا[2].

- وخصَّ أهلَ المدينةِ ومَن حولَهم مِن الأعرابِ بالذِّكرِ معَ أنَّ كلَّ النَّاسِ في ذلك سواءٌ؛ لِقُربِهم مِنه، وأنَّه لا يَخْفى علَيهم خُروجُه[3].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ نهيٌ بليغٌ، معَ تقبيحٍ لأمرِهم، وتوبيخٍ لهم علَيه، وتهييجٍ لِمُتابعتِه بأنفةٍ وحَميَّةٍ[4].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ للمُلابَسةِ، حيثُ نزلَ الضَّنُّ بالأنفُسِ والحذَرُ مِن هَلاكِها بالتَّلبُّسِ بها في شدَّةِ التَّمكُّنِ؛ فاستُعمِلَ له حرفُ باءِ الملابَسةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

وهذه ملابَسةٌ خاصَّةٌ، وإن كانَت النُّفوسُ في كلِّ حالٍ مُتلَبَّسًا بها، وهذا تركيبٌ بديعُ الإيجازِ، بالغُ الإعجازِ(١).

- قولُه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾، بَدَأ في هاتَين الجملتَين بالأسبَقِ وهو الوَطْءُ، ثُمَّ ثَنَّى بالنَّيل مِن العدوِّ، وجاء العمومُ في ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالألفِ واللَّامِ، وفي ﴿مِنۡ عَدُوّٖ﴾؛ لِكَونِه نكرة في سياقِ النَّفيِ، وبُدِئ أوَّلًا في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما يَحُضُّ المسافِرَ في الجهادِ في نفسِه، ثمَّ ثانيًا بما يترتَّبُ على تَحمُّلِ تلك المشاقِّ مِن غيظِ الكفَّارِ، والنَّيلِ مِن العدوِّ(٢).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ فيه تنكيرُ ﴿نَّيۡلًا﴾؛ لِيَعُمَّ القليلَ والكثيرَ ممَّا يَسوؤُهم؛ قتلًا وأَسرًا وغنيمةً وهزيمةً(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ لـ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾، وتنبيهٌ على أنَّ الجهادَ إحسانٌ(٤)، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تذييلٌ دلَّ على أنَّهم كانوا بتِلكَ الأعمالِ مُحسِنين، فدخَلوا في عُمومِ قضيَّةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بوجهِ الإيجازِ(٥).

- وفيه وضعُ المُظهَرِ موضِعَ المُضمَرِ -حيثُ لم يَقُلْ: (لا يُضِيعُ أجْرَهم)- لِمَدْحِهم، والشَّهادةِ عليهم بالانتِظامِ في زُمرةِ المُحسِنين، وأنَّ أعمالَهم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣- ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٥٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).

قَبيلِ الإحسانِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فيه إطنابٌ في عدِّ مَناقِبِهم في الغَزوِ؛ لِتَصويرِ ما بذَلوه في سَبيلِ اللهِ، والنَّفقةُ الكبيرةُ أدخَلُ في القَصْدِ؛ فلِذلك نبَّه عليها وعلى النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لِيُعْلِمَ بذِكْرِ الكَبيرةِ حُكْمَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لأنَّ العِلَّةَ في الكبيرةِ أظهَرُ[2]، وإنَّما قدَّم الصَّغيرةَ على سَبيلِ الاهتِمامِ، وإذا كتَب أجْرَ الصَّغيرةِ فأَحْرى أجرُ الكبيرةِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ فيه توسيطُ (لَا)؛ للتَّنصيصِ على استِبْدادِ كُلٍّ مِنهما بالكَتْبِ والجَزاءِ، لا لِتَأكيدِ النَّفيِ كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾[4].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ الوادي: هو مَسيلُ الماءِ في مُنفَرَجاتِ الجِبالِ وأغوارِ الآكامِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ لِمَا فيه من المشَقَّةِ[5].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾ والإتيانِ بخبَرِها مُضارِعًا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: إفادةُ أنَّ مِثْلَ هذا العمَلِ كان دَيدَنَهم[6].

- وفي هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان))(٥/ ٥٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

﴿وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، وقال بعدَها في هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ بدونِ (عَمَلٌ صَالِحٌ)؛ وذلك لأنَّ ما في الآيةِ الأولى مُشتمِلٌ على ما هو مِن عَملِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ...﴾، وعلى ما ليس مِن عَملِهم، وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ...﴾؛ فتفَضَّل اللهُ بإجرائِه مُجْرى عمَلِهم في الثَّوابِ؛ فناسبَ ذلك زيادةُ قولِه ﴿بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾؛ ولهذا عمَّ عَقِبَه في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وأمَّا ما ذُكِرَ في الآيةِ الثَّانيةِ هنا، فهو مُختَصٌّ بما هو مِن عمِلِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً...﴾؛ ليُكتَبَ لهم ذلك بِعَينِه؛ ولهذا خَصَّهم عَقِبه في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، فالفَرقُ بينهما: أنَّ الأوَّلَ ليس مِن فِعْلِهم، وإنَّما تولَّدَ عنه، فكُتِبَ لهم به عمَلٌ صالِحٌ، والثَّاني نفسُ أعمالِهم، فكُتِبَ لهم[2].

- وأيضًا تَأَخَّرت هاتانِ الجُملَتانِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، وقُدِّمَت تلك الجُمَلُ السَّابقةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾؛ لأنَّها أشَقُّ على النَّفسِ، وأنْكَى في العدوِّ، وهاتانِ أهوَنُ؛ لأنَّهما في الأموالِ وقَطعِ الأرضِ إلى العدُوِّ، سواءٌ حصَل غيظُ الكفَّارِ والنَّيلُ مِن العدوِّ أوْ لَم يَحصُلا، فهذا أعَمُّ وتلك أخَصُّ، وكان تعليلُ تلك آكَدَ؛ إذ جاء بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ(إنَّ)، وذكَر فيه الأجْرَ ولفْظَ (الْمُحْسِنِينَ)؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٥)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٢٢).

تنبيهًا على أنَّهم حازوا رُتَبَ الإحسانِ الَّتي هي أعلى رُتَبِ المؤمِنين، وفي هاتَينِ الجُملَتَينِ أتَى بِلامِ العِلَّةِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ (كُتِبَ)، والتَّقديرُ: أحسَنُ جَزاءِ الَّذي كانوا يَعمَلون؛ لأنَّ عمَلَهم له جزاءٌ حسَنٌ، وله جزاءٌ أحسَنُ، وهنا الجزاءُ أحسنُ جزاءٍ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٤).

الآيتان (١٢٢-١٢٣)

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لِيَنفِرُواْ﴾: أي: لِيخْرُجوا إلى الغزوِ، والنَّفْر: الانزعاجُ عن الشيءِ، وإلى الشيءِ، كالفَزَعِ إلى الشيءِ وعن الشيءِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعدٍ[(١)].

﴿يَلُونَكُم﴾: أي: يَقرُبونَ منكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي لجَميعِ المُؤمِنينَ أن يَنفِروا كلُّهم للجهادِ في وقتٍ واحدٍ، فهلَّا نفَرَ من كلِّ فِرقةٍ جماعةٌ منهم للقِتالِ؛ ليتسَنَّى لجملةِ المُؤمِنينَ تعَلُّمُ دِينِ اللهِ، ببقاءِ طائفةٍ أخرى منهم لهذا الغَرَضِ، ولِيُنذِرَ الذين قعَدوا للتفَقُّه النَّافرينَ للجهادِ إذا رَجَعوا إليهم؛ لعلَّهم يَحذَرونَ غضَبَ اللهِ وعَذابَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ الذين آمنوا أن يُقاتِلوا الكفَّارَ القَريبينَ مِن دِيارِهم، وأنْ يَجِدَ الكُفَّارُ منهم غِلظةً عند قِتالِهم، وأن يتيقَّنوا أنَّ الله مع المتَّقينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧).

لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ مِن تَتِمَّةِ أحكامِ الجهادِ بالقِتالِ، مع زيادةِ حُكمِ طَلَبِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، وهو آلةُ الجهادِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، الذي عليه مدارُ الدَّعوةِ إلى الإيمانِ، وإقامة دعائِمِ الإسلامِ، وإنَّما جِهادُ السَّيفِ حمايةٌ وسِياجٌ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان غالِبُ ما تقدَّمَ مِن هذه السُّورةِ تَحريضًا على الجِهادِ، وتنديدًا على المقَصِّرينَ في شأنِه، وانتهى الكلامُ قبل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ...﴾؛ فلا جرَمَ كانت قوَّةُ الكلامِ مُؤذِنَةً بوُجوبِ تمحُّضِ المسلمينَ للغَزوِ. وإذ قد كان مِن مَقاصِدِ الإسلام بَثُّ علومِه وآدابِه بين الأمَّةِ، وتكوينُ جَماعاتٍ قائمةٍ بعِلمِ الدِّينِ وتَثقيفِ أذهانِ المُسلِمينَ؛ كي تصلُحَ سِياسةُ الأمَّةِ على ما قصَدَه الدِّينُ منها؛ من أجلِ ذلك عقَّبَ التَّحريضَ على الجِهادِ بما يبَيِّنُ أنْ ليس من المَصلحةِ تمَحُّضُ المُسلمينَ كُلِّهم لأن يكونوا غُزاةً أو جُندًا، وأنْ ليس حظُّ القائمِ بواجِبِ التَّعليمِ، دونَ حَظِّ الغازي في سبيلِ اللهِ؛ من حيثُ إنَّ كِليهما يقومُ بعمَلٍ لتأييدِ الدِّينِ، فهذا يؤيِّدُه بتوسُّعِ سُلطانِه، وتكثيرِ أتباعِه، والآخَرُ يؤيِّدُه بتثبيتِ ذلك السُّلطانِ، وإعدادِه لأنْ يَصْدُرَ عنه ما يضمَنُ انتظامَ أمْرِه، وطولَ دَوامِه[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾.

أي: وما ينبغي للمُؤمِنينَ أن ينفِروا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ للجهادِ في سَبيلِ اللهِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨-٥٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

أي: فهلَّا نفَرَ مِن كُلِّ قَبيلةٍ أو أهلِ مَدينةٍ، جمَاعةٌ مِن المُسلِمينَ للقِتالِ، تحصُلُ بهم الكفايةُ؛ ليتأتَّى لجُملةِ المُؤمِنينَ القاعدينَ تعلُّمُ دِينِ اللهِ، والتفقهُ فيه[1].

(٤/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ ...﴾: (فلولا هذه الآيةُ، لكان الجِهادُ حَتمًا واجبًا على كلِّ مُؤمِنٍ في خاصَّةِ نَفسِه ومالِه، كسائِرِ الفَرائِضِ، ولكِنَّ هذه الآيةَ جعَلَت للنَّاسِ الرُّخصةَ في قيامِ بَعضِهم بذلك عن بَعضٍ). ((الناسخ والمنسوخ)) (١/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن القيم- وعزاه للأكثرينَ- ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣-٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

وممن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ- في روايةٍ عنه- وابنُ زيدٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إذا رجعتِ السَّرايا، وقد نزَل بعدَهم قرآنٌ، وتعلَّمه القاعدونَ، قالوا لهم إذا رجَعوا: إنَّ الله تعالى قد أنزلَ بعدَكم على نبيِّكم قرآنًا، وقد تعلَّمناه. فتتعلَّم السَّرايا ما أنزَل الله على نبيِّهم بعدَهم، فذلك قولُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: وليعلِّموهم بالقرآنِ ويخوِّفوهم به، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ ولا يَعملونَ بخلافِه). ((البسيط)) (١١/ ٩٥).

قال محمد رشيد رضا: (إنَّ اعتبارَ طائفةِ السَّريَّةِ بما قدْ يحصلُ لها مِنَ النَّصرِ - وهو غيرُ مضمونٍ ولا مُطَّرَدٍ - لا يُسَمَّى تَفَقُّهًا في الدِّينِ وإنْ كان يدخلُ في عموم معنَى الفقهِ، فإنَّ التَّفَقُّه هو: التَّعَلُّمُ الَّذي يكونُ بالتَّكلُّفِ وَالتَّدرُّجِ والمُتبادرِ مِنَ الدِّينِ عِلْمُه، ولا يَصِحُّ هذا المعنَى في ذلك العهدِ إلَّا في الَّذينَ يبقَوْنَ معَ النَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فيَزْدادونَ كلَّ يومٍ علمًا وفقهًا بنزولِ القرآنِ) ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٤).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المعنى: (ليتفقَّهَ الطائفةُ النافرةُ بما تُعاينُ مِن نصرِ الله أهلَ دينِه، وأصحابَ رسولِه على أهلِ عداوتِه والكفرِ به، فيفقهُ بذلك مِن معاينتِه حقيقةَ علمِ أمرِ الإسلامِ، وظهورِه

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

أي: ولِيُعلِّمَ القاعدون قومَهم الذين نفَروا إلى الغزوِ، إذا رجَعوا إليهم، ويُخوِّفوهم ويَعِظوهم؛ رجاءَ أنْ يحذَروا عاقبةَ عصيانِ الله، وألَّا يعملوا بخلافِ ما تعلَّموه[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا إرشادٌ آخَرُ، بعدما أرشَدَ تعالى إلى التَّدبيرِ فيمن يُباشِرُ القِتالَ، أرشَدَهم إلى أنَّهم يَبدَؤونَ بالأقرَبِ فالأقرَبِ مِن الكفَّارِ، والغِلظةِ عليهم، والشِّدَّةِ في

على الأديانِ مَن لم يكنْ فقهَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٢)، قال ابن الجوزي: (وهو أشبهُ بظاهرِ الآيةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).

وممن قال بذلك مِن السَّلف: الحسنُ البصريُّ. ينظر ((تفسير ابن جرير)) الموضع السابق.

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِفَ في الآيةِ، فقيل: المعنى أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا لِيَنفِروا كلُّهم للتفقُّهِ والتعلُّم، بل ينبغي أن ينفِرَ مِن كلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقَّه تلك الطائفةُ ثم ترجعُ تُعَلِّمُ القاعدينَ، فيكونُ النَّفيرُ على هذا نفيرَ تعَلُّم، والطائفةُ تُقال على الواحِدِ فما زاد، قالوا: فهو دليلٌ على قَبولِ خبَرِ الواحِدِ، وعلى هذا حَمَلَها الشافعيُّ وجماعةٌ. وقالت طائفةٌ أخرى: المعنى: وما كان المُؤمِنونَ لِيَنفِروا إلى الجهادِ كُلُّهم، بل ينبغي أن تنفِرَ طائفةٌ للجهادِ، وفِرقةٌ تقعُدُ تتفَقَّه في الدِّينِ، فإذا جاءت الطَّائفةُ التي نفَرَت، فقَّهَتْها القاعدة، وعَلَّمَتْها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ، وعلى هذا فيكونُ قولُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للفِرقةِ التي نفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرينَ، وعلى هذا فالنَّفيرُ نفيرُ جِهادٍ على أصلِه؛ فإنه حيث استُعمِلَ إنَّما يُفهَم منه الجهادُ، قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وقال النبيُّ: «لا هجرةَ بعد الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرْتُم فانفِروا»، وهذا هو المعروفُ مِن هذه اللَّفظةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٥٦).

القِتالِ، والشَّجاعةِ والثَّباتِ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، ابدَؤوا في الغَزوِ بقِتالِ الكُفَّارِ القَريبينَ مِن ديارِكم(٢).

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

أي: ولْيَجِدِ الكُفَّارُ المُحارِبونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- شِدَّةً وخُشونةً منكم عندَ قِتالِهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥، ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).
قال ابن كثير: (أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يُقاتِلوا الكُفَّارَ أوَّلًا فأوَّلًا، الأقرَبَ فالأقرَبَ إلى حوزةِ الإسلامِ؛ ولهذا بدأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقتالِ المُشرِكينَ في جزيرةِ العَرَب، فلمَّا فرَغَ منهم وفتحَ الله عليه مكَّةَ والمدينةَ، والطَّائِفَ واليَمَن واليَمامة، وهجَر وخيبَرَ وحَضْرَموت، وغيرَ ذلك من أقاليمِ جَزيرةِ العَرَبِ، ودخل النَّاسُ من سائِرِ أحياء العَرَبِ في دين اللهِ أفواجًا- شرَعَ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، فتجهَّزَ لغَزوِ الرُّومِ الذين هم أقرَبُ النَّاسِ إلى جزيرة العرب، وأَولى النَّاسِ بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لِكَونِهم أهلَ الكِتابِ، فبلغ تبوكَ، ثم رجَعَ لأجلِ جَهدِ النَّاسِ، وجَدْبِ البلادِ، وضِيقِ الحالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧- ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥-٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

أي: وأيقِنُوا- أيُّها المُؤمنونَ- أنَّ اللهَ معكم بالنَّصرِ على أعدائِكم إن اتَّقَيتُموه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومن ذلك تَقواه في جِهادِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه فضيلةُ العِلمِ، وخصوصًا الفِقهَ في الدِّينِ، وأنَّه أهَمُّ الأمورِ[٢].

٢- مَن تعَلَّمَ عِلمًا، فعليه نَشرُه وبَثُّه في العبادِ، ونصيحتُهم فيه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال محمد رشيد رضا: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ له، في مُراعاةِ أحكامِه وسُنَنِه، بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمُّها ما يجِبُ اتِّقاؤه في الحَربِ؛ من التقصيرِ في أسبابِ النَّصرِ والغَلَبِ، التي بَيَّنَها في كتابِه، والتي تُعرَف بالعِلمِ والتَّجارِبِ؛ كإعدادِ ما يُستطاعُ مِن قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتَرْكِ التَّنازُعِ والاختلافِ، وكثرةِ ذِكرِ الله، والتوكُّلِ عليه فيما وراء الأسبابِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولْيكُنْ لَدَيكم علمٌ أنَّ المَعونةَ مِن اللهِ تَنزِلُ بحسَبِ التَّقوى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

﴿يَحۡذَرُونَ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّه يجبُ أن يكونَ المقصودُ مِن التفقُّهِ والتعَلُّم دعوةَ الخَلقِ إلى الحَقِّ، وإرشادَهم إلى الدِّينِ القَويمِ والصِّراطِ المُستقيم، فكُلُّ مَن تفقَّه وتعَلَّم لهذا الغرَضِ، كان على المنهَجِ القَويمِ، والصِّراطِ المُستَقيمِ، ومَن عدَلَ عنه، وطلَبَ الدُّنيا بالدِّينِ، كان من الأخسَرينَ أعمالًا، الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدُّنيا، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ الآيةُ تدُلُّ على وُجوبِ تعميمِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، والاستعدادِ لِتَعليمِه في مواطِنِ الإقامةِ، وتفقيهِ النَّاسِ فيه على الوجهِ الذي يَصلُحُ به حالُهم، ويكونونَ به هُداةً لِغَيرِهم، وأنَّ المتخَصِّصينَ لهذا التفَقُّه بهذه النيَّة، لا يقِلُّونَ في الدَّرَجةِ عند الله عن المُجاهِدينَ بالمالِ والنَّفسِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، والدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ المؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يكونُ رَفيقًا لأخيه المؤمِنِ، غليظًا على عَدُوِّه الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾(٣) [الفتح: ٢٩].

٦- قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فيه حَضُّ اللهِ تعالى على التَّقْوى الَّتي هي مِلاكُ الدِّين والدُّنيا، وبها يُلْقى العدوُّ، وقد قال بعضُ الصَّحابةِ: إنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٨).

تُقاتِلون النَّاسَ بأعمالِكم. وأهلُها هم المُجِدُّون في طرُقِ الحقِّ، فوعَد تعالى أنَّه معَ أهلِ التَّقْوى ومَن كان اللهُ معَه فلَن يُغلَبَ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ حجةٌ في أنَّ النفيرَ والنفقةَ فرضانِ على الكفايةِ[2].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التفقُّهَ والتَّذكيرَ مِن فُروضِ الكفايةِ، وأنَّه ينبغي أن يكونَ غرَضُ المتكَلِّمِ فيه أن يستقيمَ ويُقيمَ، لا الترفُّعَ على النَّاسِ، وصَرْفَ وجوهِهم إليه، والتبَسُّطَ في البلادِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في وجوبِ طَلَبِ العِلمِ[4].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ لَمَّا كان مصيرُ الفِقهِ سَجيَّةً، لا يحصُلُ إلَّا بمُزاولةِ ما يُبلِّغُ إلى ذلك، كانت صيغةُ التفعُّلِ المُؤذِنةُ بالتكَلُّفِ مُتعيِّنةً لأن يكونَ المرادُ بها تكلُّفَ حُصولِ الفِقهِ، أي: الفَهمِ في الدينِ، وفي هذا إيماءٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧- ٩٨).
(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦١).

أنَّ فَهمَ الدِّينِ أمرٌ دَقيقُ المَسلَكِ لا يحصُلُ بسُهولةٍ[١].

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ على أنَّ الفِقهَ في الدِّينِ هو فَهمُ معاني الأمرِ والنَّهيِ؛ لِيَستبصرَ الإنسانُ في دينِه؛ حيثُ قَرَنَ اللهُ تعالى الإنذارَ بالفِقهِ؛ فدلَّ على أنَّ الفِقهَ ما وَزَعَ عن مُحَرَّمٍ، أو دعا إلى واجبٍ، وخوَّفَ النفوسَ مُواقعةَ المحظورِ، لا ما هَوَّنَ عليها استحلالَ المحارمِ بأدنى الحِيَلِ[٢].

٦- اشتملتِ الآيةُ الكريمة: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ على بيانِ حُكْمِ النَّافرينَ والقاعِدينَ، وعلى بيانِ اشتِراكِهم في الجِهادِ والعِلمِ؛ فالنَّافِرونَ أهلُ الجِهاد، والقاعِدونَ أهلُ التفَقُّهِ، والدِّينُ إنَّما يتِمُّ بالجِهادِ والعِلمِ، فإذا اشتغَلَت طائفةٌ بالجِهادِ وطائفةٌ بالتفَقُّه في الدِّينِ، ثمَّ يعَلِّم أهلُ الفِقهِ المُجاهدينَ إذا رجعوا إليهم، حصَلَت المصلحةُ بالعِلمِ والجِهادِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ إن قيل: كان الظَّاهِرُ في الآيةِ (ليتفَقَّهوا في الدِّين ولِيُعَلِّموا قومَهم إذا رجعوا إليهم؛ لعلَّهم يَفقَهونَ) فلِمَ وُضِعَ مَوضِعَ (التَّعليم) الإنذارُ، وموضِعَ (يفقهون) يَحذَرونَ؟ يجاب: بأنَّ ذلك آذَنُ بالغَرَضِ منه، وهو اكتسابُ خَشيةِ اللهِ، والحذَرُ مِن بأسِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٩-٥٣٠).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ قويَّةٌ تدلُّ على أنَّ خَبَرَ الواحِدِ حُجَّةٌ، فكلُّ ثلاثةٍ فِرقةٌ، وقد أوجَبَ الله تعالى أن يخرُجَ مِن كلِّ فِرقةٍ طائفةٌ، والخارِجُ من الثَّلاثةِ يكونُ اثنين أو واحدًا، فوجب أن يكونَ الطَّائفةُ إمَّا اثنينِ وإمَّا واحدًا، ثمَّ إنه تعالى أوجَبَ العمَلَ بأخبارِهم؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ عبارةٌ عن إخبارِهم، وقولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إيجابٌ على قومِهم أن يَعمَلوا بإخبارِهم، وذلك يقتضي أن يكونَ خَبَرُ الواحِدِ أو الاثنينِ حُجَّةً في الشَّرعِ[(١)].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الإنذارُ هو المَوعِظةُ، وإنَّما اقتصَرَ عليه؛ لأنَّه أهَمُّ، لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، ولأنَّه ما مِن إرشادٍ إلى الخَيرِ إلَّا وهو يشتَمِلُ على إنذارٍ مِن ضِدِّه[(٢)].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه جوازُ التَّقليدِ في الفِقهِ للعامِّيِّ[(٣)].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ وإرشادٌ، وتَنبيهٌ لطيفٌ لفائدةٍ مُهِمَّةٍ، وهي: أنَّ المُسلِمينَ ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكلِّ مَصلحةٍ مِن مَصالِحِهم العامَّةِ مَن يقومُ بها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧١-١٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

ويوفِّرُ وَقتَه عليها، ويجتَهِدُ فيها، ولا يلتَفِتُ إلى غيرِها؛ لِتَقومَ مَصالِحُهم، وتتِمَّ مَنافِعُهم، ولتكونَ وِجهةُ جَميعِهم ونهايةُ ما يقصِدونَ، قَصدًا واحدًا، وهو قيامُ مَصلحةِ دينِهم ودُنياهم، ولو تفرَّقَت الطُّرُق، وتعدَّدَت المشاربُ، فالأعمالُ مُتباينةٌ، والقَصدُ واحِدٌ، وهذه مِن الحِكمةِ العامَّةِ النَّافعةِ في جميعِ الأمور[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ فيه أنَّه يجِبُ الابتداءُ في القتالِ بالأقرَبِ إلى بلَدِ المُقاتِلينَ[2].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ إنَّ الابتداءَ بالغَزوِ مِن المواضِعِ القريبةِ أَوْلى لوجوهٍ:

الأول: أنَّ مُقابلةَ الكُلِّ دَفعةً واحدةً مُتعَذِّرةٌ، ولَمَّا تساوى الكُلُّ في وجوبِ القِتالِ، لِما فيهم من الكُفرِ والمحاربةِ، وامتنَعَ الجَمْعُ؛ وجَبَ التَّرجيحُ، والقُربُ مُرجِّحٌ ظاهِرٌ كما في الدَّعوةِ، وكما في سائِرِ المُهِمَّاتِ، ألا ترى أنَّ في الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَر، الابتداء بالحاضِرِ أَوْلى مِن الذَّهابِ إلى البلادِ البَعيدةِ؛ لهذا المُهِمِّ، فوجب الابتداءُ بالأقرَبِ.

الثاني: أنَّ الابتداءَ بالأقرَبِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفَقاتِ فيه أقَلُّ، والحاجةَ إلى الدَّوابِّ والآلاتِ والأدواتِ أقَلُّ.

الثالث: أنَّ الفِرقةَ المُجاهِدةَ إذا تجاوَزوا مِن الأقرَبِ إلى الأبعَدِ، فقد عَرَّضوا الذراريَّ للفِتنةِ.

الرابع: أنَّ المُجاوِرينَ لدار الإسلام إمَّا أن يكونوا أقوياءَ أو ضُعَفاءَ؛ فإن كانوا أقوياءَ كان تعرُّضُهم لدارِ الإسلام أشَدَّ وأكثَرَ مِن تعَرُّضِ الكفَّارِ المُتباعِدينَ، والشَّرُّ الأقوى الأكثَرُ أَوْلى بالدَّفعِ، وإن كانوا ضُعَفاءَ كان استيلاءُ المُسلِمينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٦).

عليهم أسهَلَ، وحصولُ عِزِّ الإسلامِ لسبَبِ انكسارِهم أقرَبَ وأيسَرَ، فكان الابتداءُ بهم أَوْلَى.

الخامس: أنَّ وُقوفَ الإنسانِ على حالِ مَن يَقرُبُ منه أسهَلُ مِن وُقوفِه على حالِ مَن يَبعُدُ منه، وإذا كان كذلك كان اقتدارُ المُسلِمينَ على مُقاتَلةِ الأقرَبينَ أسهَلَ؛ لِعِلمِهم بكيفيَّةِ أحوالِهم، وبمقاديرِ أسلِحَتِهم، وعدَدِ عَساكِرِهم.

السادس: أنَّ دارَ الإسلام واسِعةٌ، فإذا اشتغَلَ أهلُ كُلِّ بلَدٍ بقتالِ مَن يَقرُبُ منهم من الكُفَّارِ، كانت المُؤنةُ أسهَلَ، وحصولُ المقصودِ أيسَرَ[(١)].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّه لا يجوزُ الاقتصارُ على الغِلظةِ البتَّةَ؛ فإنه يُنفِّرُ ويوجِبُ تفرُّقَ القَومِ، فقوله: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يدلُّ على تقليلِ الغِلظةِ، كأنَّه قيل: لا بدَّ أن يكونوا بحيث لو فتَّشوا على أخلاقِكم وطبائِعِكم، لوَجَدوا فيكم غِلظةً، وهذا الكلامُ إنَّما يصِحُّ فيمن أكثَرُ أحوالِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ومع ذلك فلا يخلو عن نَوعِ غِلظةٍ، فالأمرُ في هذا البابِ لا يكونُ مُطَّردًا، بل قد يُحتاجُ تارةً إلى الرِّفقِ واللُّطفِ، وأخرى إلى العُنفِ[(٢)].

١٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ مِن وراءِ صَريحِ هذا الكلامِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُنافِقينَ؛ إذ قد ظُهِرَ على كُفرِهم، وهم أشَدُّ قُربًا من المُؤمِنينَ في المدينة، وفي هذا السِّياقِ جاء قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[(٣)].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنكيرُ (غِلْظة) في الآيةِ يدُلُّ على أنَّ لِأُولي الأمرِ أن يحَدِّدوها في كلِّ زَمَنٍ وكلِّ حالٍ، بما يتَّفِقُ مع المَصلَحةِ(١).

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ في توجيهِ الخِطابِ للذينَ آمَنوا دونَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيماءٌ إلى أنَّه لا يغزو بعد ذلك، وأنَّ أجَلَه الشَّريفَ قد اقترَب، ولعلَّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إيماءً إلى التَّسليةِ على فَقدِ نَبيِّهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ اللهَ معهم(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ الإتيانُ بصيغةِ لامِ الجُحودِ تأكيدٌ للنَّفيِ، وهو خبرٌ مستعمَلٌ في النَّهيِ؛ فتأكيدُه يُفيدُ تأكيدَ النَّهيِ، أي: كونَه نهيًا جازِمًا يَقْتَضي التَّحريمَ(٣).

- ومِن مَحاسِنِ هذا البيانِ أنْ قابَلَ صيغةَ التَّحريضِ على الغَزوِ بمِثْلِها في التَّحريضِ على العِلمِ؛ إذ افتُتِحَت صيغةُ تحريضِ الغزوِ بصيغةِ الجُحودِ في قولِه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ...﴾، وافتُتِحَت صيغةُ التَّحريضِ على العِلْمِ والتَّفقُّهِ بمِثلِ ذلك في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٩).

- قولُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، أي: لِيَجعَلوا غايةَ سَعيِهم، ومُعظَمَ غرَضِهم مِن الفَقاهَةِ إرشادَ القَومِ وإنذارَهم، وتخصيصُه بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أهَمُّ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فيه مبالَغةٌ في الأمرِ بالشِّدَّةِ؛ لأنَّه أمرٌ لهم بأن يَجِدَ الكفَّارُ فيهم الشِّدَّةَ، وذلك الوجدانُ لا يتحقَّقُ إلَّا إذا كانت الغلظةُ بحيثُ تظهرُ، وتنالُ العدوَّ فيُحِسُّ بها[٢].

- قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ موضِعَ الضَّميرِ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المذكورِ مِن بابِ التَّقْوى، والشَّهادةِ بكَونِهم مِن زُمرةِ المتَّقين[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٢).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم
مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا ما أنزَلَ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يَقول لِغَيرِه؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا، ويبَيِّنُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ زادَتْهم السُّورةُ إيمانًا إلى إيمانِهم، وهم يَستَبشِرونَ، وأمَّا الذين في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم كُفرًا وشَكًّا إلى كُفرِهم وشَكِّهم، وماتوا وهم كافِرونَ.

أَوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّهم يُختَبَرونَ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتينِ، ثم لا يتوبونَ، ولا هم يتَّعِظونَ؟!

ويُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أَنزَلَ سورةً من القُرآنِ، فيها فَضْحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظر بعضُهم إلى بعضٍ، وقالوا: هل يَراكم أحَدٌ ينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، فيَطَّلِع على أسرارِنا؟! ثم انصَرَفوا عن الإيمانِ والعمَلِ بما سَمِعوا في السُّورةِ، ولم يَهتَدُوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم، صرَفَ اللهُ قُلوبَهم؛ بسببِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحَمَّدٍ، فمِنَ المُنافِقين مَن يقولُ لِغَيرِه[١]؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا باللهِ وبآياتِه[٢]؟!

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

أي: فأمَّا المُؤمِنونَ فزادَتْهم السُّورةُ- التي أنزَلَها اللهُ- إيمانًا إلى إيمانِهم[٣] وهم فَرِحونَ بفَضْلِ اللهِ، وما أنزَلَ عليهم في القُرآنِ مِن الهُدى والرَّحمةِ، والوَعدِ بالخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

---

(١) قال ابن عطية: (﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾: يَحتَمِل أن يكونَ لِمُنافِقينَ مِثلِهم، ويَحتَمِل أن يكونَ لِقَومٍ مِن قراباتِهم من المُؤمِنينَ، يَستنيمونَ إليهم، ويَثِقونَ بِسَترِهم عليهم، ويَطمَعونَ في رَدِّهم إلى النِّفاقِ، ومعنى ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ الاستخفافُ والتَّحقيرُ لِشَأنِ السُّورةِ، كما تقولُ: أيُّ غَريبٍ في هذا، أو أيُّ دَليلٍ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ مخازيَ المُنافِقينَ وذكَرَ أعمالَهم القبيحةَ، فقال: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ، فمِن المُنافِقينَ مَن يقول: أيُّكم زادَتْه هذه إيمانًا؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقولُ بعضُ المُنافِقينَ لبعضٍ، ومقصودُهم تَثبيتُهم قومَهم على النِّفاقِ. وقال آخرون: بل يقولونَه لأقوامٍ مِن المُسلِمينَ، وغَرَضُهم صَرْفُهم عن الإيمانِ. وقال آخرون: بل ذَكَروه على وجهِ الهُزءِ. والكلُّ مُحتَمَلٌ، ولا يُمكِنُ حَملُه على الكُلِّ؛ لأنَّ حِكايةَ الحالِ لا تُفيدُ العُمومَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال الواحدي: (﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ يعني: من المُنافِقين. قاله جميعُ أهلِ التَّفسيرِ). ((البسيط)) (١١/ ٩٨).

(٣) قال ابن تيمية: (هذه «الزِّيادةُ» ليست مجرَّدَ التَّصديقِ بأنَّ الله أنزَلَها، بل زادَتْهم إيمانًا بحسَبِ مقتضاها؛ فإنْ كانت أمرًا بالجهادِ أو غيره، ازدادوا رغبةً، وإن كانت نَهيًا عن شيءٍ، انتَهَوا عنه، فكَرِهوه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ والاستبشارُ غَيرُ مُجَرَّدِ التَّصديقِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

وقال السعدي: (قال تعالى مُبَيِّنًا الحالَ الواقعةَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ بالعِلمِ بها وفَهْمِها، واعتقادِها والعمَلِ بها، والرَّغبةِ في فِعلِ الخَيرِ، والانكفافِ عن فِعلِ الشَّرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨، ٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٨) و(١٠/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾.

أي: وأمَّا الذينَ في قُلوبِهم شكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم السُّورةُ- التي أنزَلَها اللهُ- كُفرًا إلى كُفرِهم، وشَكًّا إلى شَكِّهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ

المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، قال الحسَنُ والأكثرون: زادَتْهم كُفرًا إلى كُفرِهم). ((البسيط)) (١١/ ٩٩).

قال ابن القيِّم: (السُّورةُ لَمَّا أُنزِلَت اقتضَى نزولُها الإيمانَ بها، والتَّصديقَ والإذعانَ لأوامِرِها ونواهيها، والعَمَلَ بما فيها، فوطَّنَ المؤمِنونَ أنفُسَهم على ذلك، فازدادوا إيمانًا بسَبَبِها، فنُسِبَت زيادةُ الإيمانِ إليها؛ إذ هي السَّبَبُ في زيادتِه، وكذَّبَ بها الكافِرونَ وجَحَدوها، وكذَّبوا من جاء بها، ووطَّنوا أنفُسَهم على مخالفةِ ما تضَمَّنَتْه وإنكارِه، فازدادوا بذلك رِجسًا، فنُسِبَ إليها؛ إذ كان نُزولُها ووصولُها إليهم هو السَّبَبَ في تلك الزِّيادةِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٨٨- ٨٩).

ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

أي: ومات المُنافِقون وهم مُصِرُّونَ على كُفرِهم، لم يتوبوا إلى اللهِ[١].

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الذينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ يموتونَ وهم كافِرونَ، وذلك يدُلُّ على عذابِ الآخرةِ؛ بيَّنَ أنَّهم لا يتخَلَّصونَ في كلِّ عامٍ مَرَّةً أو مرَّتَينِ من عذابِ الدُّنيا[٢].

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ أَوَلَا تَرَوْنَ ﴾ بالتَّاءِ، ويكونُ الخِطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، بمعنى: أوَلَا تَرونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ المُنافِقين يُفتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ[٣]؟!

٢- قراءةُ ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ بالياءِ، ويكونُ الضَّميرُ عائدًا على المُنافِقينَ، بمعنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٧١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٥).

(٣) قرأ بها حمزةُ ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٧)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

أوَلا يَرى المُنافِقونَ أنَّهم يُفتَنونَ في كلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ[(١)]؟!

﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾.

أي: أوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يَختَبِرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعض الأعوامِ مرَّتينِ[(٢)]؟!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠).

اختَلف أهلُ التأويلِ في معنَى الفتنةِ التي ذكَر الله أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفتنونَ بها، فقيل: هي اختبارُ الله إيَّاهم بالقحطِ والشِّدَّةِ. وقيل: هي اختبارُهم بالغزوِ والجهادِ. وقيل: هي اختبارُهم بما يُشيع المشركون مِن الأكاذيبِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).

قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر هذه الأقوالَ: (وأَولَى الأقوالِ في ذلك بالصحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عجَّبَ عِبادَه المؤمِنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ، ووبَّخَ المُنافِقين في أنفُسِهم بقِلَّةِ تذَكُّرِهم، وسُوءِ تنبُّهِهم لِمَواعِظِ اللهِ التي يَعِظُهم بها، وجائزٌ أن تكونَ تلك المواعِظُ الشَّدائِدَ التي يُنزِلُها بهم من الجُوعِ والقَحطِ، وجائزٌ أن تكونَ ما يُريهم مِن نُصرةِ رَسولِه على أهلِ الكُفرِ به، ويَرزُقُه من إظهارِ كَلِمَتِه على كَلِمتِهم، وجائزٌ أن تكونَ ما يظهَرُ للمُسلِمينَ مِن نِفاقِهم، وخُبثِ سَرائِرِهم؛ بركونِهم إلى ما يَسمعونَ مِن أراجيفِ المُشرِكينَ بِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، ولا خبَرَ يُوجِبُ صِحَّةَ بعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، مِن الوَجهِ الذي يجِبُ التَّسليمُ له، ولا قولَ في ذلك أولَى بالصَّوابِ مِن التَّسليم لِظاهِرِ قَولِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٢).

وقال ابن عاشور: (الفتنةُ: اختلالُ نِظام الحالةِ المُعتادة للنَّاسِ واضطرابُ أمرِهم، مثل الأمراضِ المُنتَشرةِ، والتَّقاتُل، واستمرار الخَوفِ... فمعنى أنَّهم يُفتَنونَ أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم المصائِبَ والمضارَّ، تنالُ جَماعتَهم ممَّا لا يُعتادُ تَكَرُّرُ أمثالِه في حياة الأمم، بحيث يدُلُّ تكرُّرُ ذلك على أنَّه مرادٌ منه إيقاظُ اللهِ النَّاسَ إلى سوءِ سِيرَتِهم في جانبِ الله تعالى؛ بعَدَمِ اهتدائِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه مِن العِنادِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم لو رُزِقوا التَّوفيقَ لأفاقوا مِن غَفلَتِهم، فعَلِموا أنَّ ما يحُلُّ بهم كلَّ عامٍ، ما طرأ عليهم إلَّا مِن وَقتِ تلبُّسِهم بالنِّفاقِ، ولا شَكَّ أنَّ الفِتنةَ التي أشارت إليها الآيةُ كانت خاصَّةً بأهلِ النِّفاقِ مِن أمراضٍ تحُلُّ بهم، أو متالِفَ

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: ثمَّ لا يتوبونَ عن ذُنوبِهم رغمَ البلاءِ الذي يُصيبُهم اللهُ به في كلِّ عامٍ، ولا هم يتَّعِظونَ فيَرجِعونَ إلى الله[١]!!

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن مخازي المُنافِقينَ، وهو أنَّه كُلَّما نزَلَت سورةٌ مُشتَمِلةٌ على ذِكرِ المُنافِقينَ، وشَرْحِ فَضائِحِهم، وسَمِعوها- تأذَّوا مِن سَماعِها، ونظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ نظَرًا مَخصوصًا دالًّا على الطَّعنِ في تلك السُّورةِ، والاستهزاءِ بها، وتحقيرِ شَأنِها[٢].

وأيضا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ ما يَحدُثُ مِن المُنافِقينَ مِن القَولِ استهزاءً؛ أتبَعَه- تأكيدًا لزيادةِ كُفرِهم، وتوضيحًا لِتَصويرِه- ما يحدُثُ مِن فِعلِهم استهزاءً

تُصيبُ أموالَهم، أو جوائِحَ تصيبُ ثِمارَهم، أو نقصٍ مِن أنفُسِهم ومواليدِهم، فإذا حصَلَ شَيئانِ مِن ذلك في السَّنةِ كانت الفِتنةُ مَرَّتينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).

مِن الإيمانِ، والتَّغامُزِ بالعُيونِ[١].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ فيها فضحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ وقالوا خُفيةً أو بالإشارةِ المُفهِمةِ[٢]: هل يراكم أحَدٌ إذا خلوتُم، ودبَّرتُم أُمورَكم، فينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، ويُطلِعُه على أسرارِنا[٣]؟!

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾.

أي: ثمَّ انصرَفَ المُنافِقونَ عن الاهتداء بما سَمِعوا في السُّورةِ التي أنزَلَها اللهُ على رسولِه، ولم يَهتَدوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم[٤].

وقيل: المعنى: ثم انصرَفَ المنافقونَ مِن عندِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

قال الواحدي: (﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ فيه إضمار أي: نظر بعضُهم إلى بعضٍ وقال: هل يَراكم مِن أحَدٍ. وقال الأخفَشُ: معنى ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ قال بعضُهم لِبَعضٍ؛ لأنَّ نظَرَهم في هذا المَكانِ كان قولًا، فعلى هذا لا يَحتاجُ إلى إضمارٍ؛ لأنَّ نظَرَهم قام مقامَ قَولِهم: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ في المفهوم، وذلك أنَّه لَمَّا جَرَت عادتُهم بأنَّهم إذا نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ أرادوا هذا المعنى، صار كأنَّهم تلفَّظوا به. وقولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ إنْ أضمَرْنا القولَ في الآيةِ كان هذا ملفوظًا به، وإن جعَلْنا النَّظَرَ بمعنى القَولِ، لم يكُنْ ملفوظًا به، وعُرِفَ ذلك بدَلالةِ الحالِ). ((البسيط)) (١١/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيةَ، والقرطبي. يُنظر: المصدريْن السابقيْن.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والسعدي. يُنظر: المصدران السابقان.

قال الزجاج: (أي يفْعَلون ذلك وينصرفونَ، فجائزٌ أن يكونَ ينصرفونَ عن المكانِ الذي

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: صرَفَ اللهُ قُلوبَ المُنافِقين عن الانتفاعِ بتلك السُّورةِ، وصَرَفَهم عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وخَذَلَهم وأضلَّهم؛ بسبَبِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ كِتابَ اللهِ، ويتكبَّرونَ عن سَماعِ آياتِه والعمَلِ بها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنافِقون: ٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ينبغي للمُؤمِنِ أن يتفقَّدَ إيمانَه ويتعاهَدَه، فيُجَدِّدَه وينَمِّيَه؛ ليكونَ دائمًا في صعودٍ؛ فالإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢).

استحقوا فيه، وجائزٌ أن يكونَ ينصرفون عن العملِ بشيءٍ مما يستمعونَ)) ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٧).

وقال النحاس: (يجوزُ أن يكونَ المعنى: ثمَّ انصرفوا مِن موضعِهم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثم انصرفوا عن الإيمانِ) ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٦).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يدلُّ على أنَّ الرُّوحَ لها مَرَضٌ، فمَرَضُها الكُفرُ والأخلاقُ الذَّميمةُ، وصِحَّتُها الإيمانُ والعِلمُ والأخلاقُ الفاضِلةُ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الآيةُ ذامَّةٌ لهم على عدَمِ التَّوبةِ بإصابةِ المصائِبِ؛ لعَدَمِ تذَكُّرِ أنَّه سبحانه ما أصابَهم بها إلَّا بذُنوبِهم(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أكبَرِ الدَّلائِلِ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما هو مذهَبُ أكثَرِ السَّلَفِ والخَلَفِ مِن أئمَّةِ العُلَماءِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ(٣)، فالآيةُ حجةٌ على المرجئةِ فيما ينكرونَه مِن زيادةِ الإيمان ونقصِه، وهذا نَصُّ القرآنِ ينطقُ بزيادتِه(٤).

٢- الفرَحُ باللهِ وبرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقُرآنِ: من أعلى مَقاماتِ العارِفينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦] فالفرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسنَّةِ، دليلٌ على تعظيمِه عند صاحِبِه، ومحَبَّتِه له، وإيثارِه له على غَيرِه، فإنَّ فرَحَ العَبدِ بالشَّيءِ عند حصولِه له: على قَدْرِ مَحَبَّتِه له، ورَغبَتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨٣).

فيه. فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ[١].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ على أنَّ الهُدى تخلَّفَ عنهم؛ لأنَّ المحَلَّ الذي سيتأثَّرُ به غيرُ قابلٍ له- وهو القَلبُ- فمَرَضُ قُلوبِهم كان هو المانِعَ مِن الهُدى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم...﴾ هذه الآيةُ زِيدَت فيها (مَا) عَقِبَ (إِذَا)؛ للتَّأكيدِ، أي: لِتَأكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرطُ؛ لأنَّ هذا الخبَرَ لِغَرابتِه كان خَليقًا بالتَّأكيدِ، ولأنَّ المنافِقين يُنكِرون صُدورَه مِنهم[٣].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ الاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَيُّكُمۡ﴾ قالوه إنكارًا واستهزاءً بالمؤمنِين، واعتقادِهم زيادةَ الإيمانِ بزِيادةِ العِلمِ الحاصِلِ بالوحيِ والعَمَلِ به؛ فتتَضَّمنُ مَعنى إنكارِ أن يَكونَ نُزولُ سُوَرِ القرآنِ يَزيدُ سامِعيها إيمانًا؛ توَهُّمًا مِنهم بأنَّ ما لا يَزيدُهم إيمانًا لا يَزيدُ غيرَهم إيمانًا يَقيسون على أحوالِ قُلوبِهم[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾؛ للتَّفريعِ على حِكايةِ استِفْهامِهم بِحَملِه على ظاهِرِ حالِه، وصَرفِه عن مَقصِدِهم مِنه. وتلك طريقةُ الأسلوبِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).

الحكيمِ، وهو: تلَقِّي المخاطَبِ بغَيرِ ما يترَقَّبُ؛ بحَمْلِ كلامِه على خِلافِ مُرادِه لِنُكتةٍ، وهي هنا إبطالُ ما قصَدوه مِن نَفيِ أن تكونَ السُّورةُ تَزيدُ أحَدًا إيمانًا قياسًا على أحوالِ قُلوبِهم؛ فأُجيبَ استِفْهامُهم بهَذا التَّفصيلِ المتفرِّعِ عليه، فأثبَت أنَّ للسُّورةِ زيادةً في إيمانِ بعضِ النَّاسِ، وأكثَرَ مِن الزِّيادةِ، وهو حُصولُ البِشْرِ لهم، وارتُقِيَ في الجوابِ عن مَقصدِهم مِن الإنكارِ بأنَّ السُّورةَ ليسَت منفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ النَّاسِ فقط، بل الأمرُ أشدُّ؛ إذ هي زائدةٌ في كُفرِهم، فالقِسمُ الأوَّلُ المؤمِنون: زادَتْهم إيمانًا، وأكسَبَتْهم بُشْرى، فحَصَل مِن السُّورةِ لهم نَفْعانِ عَظيمانِ، والقِسْمُ الثَّاني الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ: زادَتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهم، وماتوا وهم كافِرون(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ في جانبِ المنافِقين، قُوبِلَ به قولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في جانبِ المؤمِنين؛ تَحسينًا بالازدِواجِ، بحيثُ كانَت للسُّورةِ فائِدَتانِ للمُؤمِنين، ومُصيبَتان على المنافِقين؛ فجعَل موتَهم على الكُفرِ- المتسبَّبَ على زيادةِ السُّورةِ في كُفرِهم- بمَنزلةِ مصيبةٍ أخرى غيرِ الأولى، وإن كانَت في الحقيقةِ زيادةً في المصيبَةِ الأولى(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ...﴾ فيه تَقديمُ همزةِ الاستِفْهامِ على حرْفِ العطفِ؛ على طريقةِ تَصْديرِ أدَواتِ الاستِفْهامِ، والتَّصديرُ للتَّنبيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٦).

على أنَّ الجملةَ في غَرَضِ الاستِفْهامِ، والاستفهامُ هنا إنكارٌ وتعجُّبٌ؛ لعدَمِ رُؤيتِهم فِتنَتَهم، فلا تَعقُبُها توبتُهم، ولا تُذكِّرُهم أمرَ ربِّهم، والغرَضُ مِن هذا الإنكارِ هو الاستدلالُ على ازدِياد كُفرِ المنافِقين، وتَمكُّنِه كلَّما نزَلَت سُورةٌ مِن القرآنِ بإيرادِ دليلٍ واضحٍ يَنزِلُ مَنزِلةَ المحسوسِ المرئيِّ؛ حتَّى يتوجَّهَ الإنكارُ على مَن لا يَراه[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ لأنَّ النَّظرَ تَفاهَموا به فيما هو سرٌّ بينَهم؛ فلمَّا كان النَّظرُ نظرَ تَفاهُمٍ صحَّ بيانُ جُملتِه بما يدُلُّ على الاستِفْهامِ التَّعجُّبيِّ، ففي هذا النَّظْمِ إيجازُ حذفٍ بديعٌ دلَّت عليه القرينةُ، والتَّقديرُ: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ فيها فَضيحةُ أمْرِهم، نظَر بعضُهم إلى بعضٍ بخائِنَةِ الأعيُنِ، مُستَفهِمين مُتعجِّبين مِن اطِّلاعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على أسرارِهم، أي: هل يَراكم مِن أحدٍ إذا خلَوتُم، ودبَّرتُم أمورَكم؛ لأنَّهم بكُفرِهم لا يَعتقِدون أنَّ اللهَ أَطْلَعَ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على دَخيلةِ أمرِهم[(٢)].

- قولُه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ مُستأنَفٌ استِئنافًا بيانيًّا[(٣)]، وصيغتُه خبرٌ، غرَضُه الدُّعاءُ عليهم بِصَرفِ قُلوبِهم عمَّا في قلوبِ أهلِ الإيمانِ[(٤)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ حُسْنُ ترتيبٍ، حيث ذكر أوَّلًا ما يَحدُثُ عنهم مِن القولِ على سَبيلِ الاستِهْزاءِ، ثمَّ ذكَر ثانيًا ما يَصدُرُ مِنهم مِن الفعلِ على سَبيلِ الاستِهزاءِ وهو الإيماءُ والتَّغامُزُ بالعُيونِ إنكارًا للوحيِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

الآيتان (١٢٨-١٢٩)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَزِيزٌ﴾: أي: شديدٌ أو صَعْبٌ، وأصلُ (عز): يدلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: ما شَقَّ عليكم وآذاكم، والعَنَتُ: لِقاءُ الشِّدَّةِ؛ من قولِهم: عَنِتَ فُلانٌ: إذا وقَعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، وأصلُ (عنت): يدلُّ على مشقَّةٍ[2].

﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: أعرَضوا؛ فالتولي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُخاطِبًا العَرَبَ: قد جاءَكم رسولٌ -هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِنكم، يَشُقُّ عليه ما يشُقُّ عليكم ويُؤذِيكم، حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم، بالمُؤمِنينَ رؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ وجَّه الخِطابَ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: فإنْ أعرَضوا عن الإيمانِ بك وطاعَتِك، فقُلْ: يَكفيني اللهُ ما أهمَّني، لا معبودَ بِحَقٍّ إلَّا هو،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

عليه وَحْدَه اعتَمَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، وهو رَبُّ العرشِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ خَتمِ سُورةِ التَّوبةِ بهاتَينِ الآيتَينِ:

لَمَّا أمَرَ تعالى رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يبَلِّغَ في هذه السُّورةِ إلى الخَلقِ تكاليفَ شاقَّةً شديدةً صَعبةً، يَعسُرُ تَحمُّلُها إلَّا لِمَن خَصَّه الله تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة- ختَمَ السُّورةَ بما يُوجِبُ سُهولةَ تحَمُّلِ تلك التكاليفِ، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ منكم؛ فكُلُّ ما يحصُلُ له من العِزِّ والشَّرَفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فإنَّه بحالٍ يَشُقُّ عليه ضَرَرُكم، وتَعظُمُ رَغبتُه في إيصالِ خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم؛ فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ، في حَقِّكم، والطبيبُ المُشفِقُ ربَّما أقدَمَ على عِلاجاتٍ صَعبةٍ يَعسُرُ تَحمُّلُها، والأبُ الرَّحيمُ ربَّما أقدَمَ على تأديباتٍ شاقَّةٍ، إلَّا أنَّه لَمَّا عُرِفَ أنَّ الطَّبيبَ حاذِقٌ، وأنَّ الأبَ مُشفِقٌ؛ صارت تلك المُعالجاتُ المُؤلِمةُ مُتحَمَّلةً، وصارت تلك التَّأديباتُ جاريةً مَجرى الإحسانِ، فكذا هاهنا؛ لَمَّا عَرَفتُم أنَّه رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله، فاقبَلوا منه هذه التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ؛ لتفوزوا بكلِّ خَيرٍ، ثمَّ قال للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فإنْ لم يَقبَلوها بل أعرَضوا عنها وتوَلَّوا، فاترُكْهم ولا تلتَفِتْ إليهم، وعَوِّلْ على اللهِ، وارجِعْ في جميعِ أمورِك إلى الله، فجاءت هذه الخاتمة في غايةِ الحُسنِ ونِهايةِ الكَمالِ[1].

وأيضًا ففيهما تذكيرُهم بالمنَّةِ ببَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٧).

بصِفاتِه الجامعةِ للكَمالِ، ومِن أخَصِّها حِرصُه على هداهم، ورَغبتُه في إيمانِهم، ودُخولِهم في جامعةِ الإسلامِ؛ ليكونَ رَؤوفًا رحيمًا بهم، ليعلَموا أنَّ ما لَقِيَه المُعرِضونَ عن الإسلامِ مِن الإغلاظِ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ما هو إلَّا استصلاحٌ لحالِهم، وهذا مِن مَظاهِرِ الرَّحمةِ التي جعَلَها اللهُ تعالى مُقارِنةً لِبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِقَولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بحيث جاء في هاتينِ الآيتَينِ بما شأنُه أن يُزيلَ الحَرَج من قلوبِ الفِرَق التي نزَلَت فيهم آياتُ الشِّدَّةِ، وعُومِلوا بالغِلظةِ؛ تَعقيبًا للشِّدَّةِ بالرِّفقِ، ولِلْغِلظةِ بالرَّحمةِ، وكذلك عادةُ القرآنِ. فقد انفتَحَ بهاتينِ الآيتَينِ بابُ حَظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ؛ لِيَدخُلَها مَن وفَّقَه اللهُ إليها[1].

فائدة:

عن زيد بنِ ثابت رَضيَ الله عنه، قال: ((أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّك كنتَ تكتُبُ الوحيَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّبِعِ القُرآنَ، فتتَبَّعتُ حتى وجدْتُ آخِرَ سورةِ التَّوبةِ آيتَينِ مع أبي خُزَيمةَ الأنصاريِّ، لم أجِدْهما مع أحَدٍ غيرِه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾))[2].

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٩).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ أنَّه لم يَجِدْهما مَكتوبتَينِ عندما جمَعَ المكتوبَ في الرِّقاعِ والأكتافِ والعُسُبِ في هذه السُّورةِ، إلَّا عند خُزيمةَ، وفي روايةٍ في البخاري وغيره: عند أبي خزيمةَ، وهي أرجَحُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٧٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٥).

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: لقد أرسَلَ اللهُ إليكم- أيُّها العرَبُ- مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ، عربيًّا منكم، تَعرِفونَ لُغتَه ونَسَبَه فيكم، وحالَه ونُصحَه لكم(١).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وعن واثِلةَ بنِ الأسقَعِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطَفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفى مِن قُرَيشٍ بَني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(٢).

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يَشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم دخولُ المشقَّةِ عليكم، ولحوقُ الضررِ والأذَى بكم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).
قال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ مُخاطَبةٌ للعرَبِ، في قولِ الجُمهورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير

عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رَضيَ الله عنهما، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفَعَ يَدَيه وقال: اللهُمَّ أُمَّتي أُمَّتي، وبكى، فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يا جبريلُ اذهَبْ إلى محمَّدٍ -وربُّك أعلَمُ- فسَلْه: ما يُبكيك؟! فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فسأله، فأخبَرَه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما قال- وهو أعلمُ- فقال الله: يا جبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ، فقل: إنَّا سنُرضيك في أمَّتِك، ولا نَسوءُك))[(١)].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعِينوا بالغُدوة والرَّوحة[(٢)]، وشَيءٍ من الدُّلْجةِ[(٣)]))[(٤)].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

أي: حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم[(٥)].

عن أبي ذَرٍّ رَضيَ الله عنه، قال: ((ترَكَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما

السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) الغُدْوَة: أولُ النَّهارِ، والرَّوْحَة: آخِرُه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠).

(٣) الدُّلْجَة: أي: السَّيرُ في آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠)

(٤) رواه البخاري (٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

طائِرٌ يقَلِّبُ جناحَيه في الهواءِ، إلَّا وهو يُذكِّرُنا منه عِلْمًا، قال: فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ منَ الجنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، إلَّا وقد بُيِّنَ لكم))[(١)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي، كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فجعَلَتِ الدَّوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[(٢)] وأنتم تَقَحَّمونَ[(٣)] فيه))[(٤)].

وعن العرباض بن ساريةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((وعَظَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعِظةً ذرَفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذه لَموعِظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تعهَدُ إلينا؟ قال: قد ترَكْتُكم على البَيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزيغُ عنها بعدي إلَّا هالِكٌ))[(٥)].

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: هو شَديدُ الرقَّةِ والرِّفقِ والشَّفَقةِ بالمؤمنينَ، شديدُ الرَّحمةِ بهم[(٦)].

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ١٥٥) (١٦٤٧)، وأخرج ابن حبان (٦٥) أولَه فقط بنحوِه.
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٦٦): رجاله رجالُ الصَّحيحِ، غيرَ محمَّدِ بن عبد الله بن يزيد المُقرئ، وهو ثقة، وصحح إسناده ووثق رجالَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٨٠٣).
(٢) الحُجَزُ: جمعُ حُجزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ والسَّراويل. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٠).
(٣) تقَحَّمونَ: أي: تَرمونَ أنفُسَكم في النَّارِ بِفِعلِ المعاصي. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ١٥٥).
(٤) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) واللفظ له.
(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٨٢).
حسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٦٨)، وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (٥/ ٢٢٢٩): ثابتٌ، ورجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا نُبايعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على السَّمعِ والطَّاعةِ، يقول لنا: فيما استطعْتَ))(١).

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأنَفُ أو لا يستكبِرُ أن يمشِيَ مع الأرملةِ والمِسكينِ، فيقضِيَ له حاجَتَه))(٢).

وعن أنس رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ أعرابيًّا بال في المسجِدِ، فقام إليه بعضُ القَومِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوه ولا تُزرِمُوه قال: فلمَّا فرغَ دعا بدَلوٍ من ماءٍ، فصَبَّه عليه))(٣).

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨٦٧).

وأخرج البخاري (٧٢٠٤)، ومسلم (٥٦) قريبًا منه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في ((العلل الكبير)) (٦٧٠) واللفظ له، والنسائي (١٤١٤)، والدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٤).

حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (٣٦٠)، وصحح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٢٤٣)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٠٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٤)، واللفظ له.

أي: فإنْ أعرَضَ الكفَّارُ والمُشرِكونَ عن الإيمانِ بك وطاعَتِك- يا مُحمَّدُ- فقل: يكفيني اللهُ جميعَ ما أهمَّني، وهو ناصري على عدُوِّي، لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وَحْدَه لا شريكَ له[(١)].

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: على اللهِ وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه استنَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، واللهُ هو مالِكُ العَرشِ العظيمِ وخالقُه، ومالكُ وخالقُ جميعِ ما دونَه مِن المخلوقاتِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ العَرشِ الكريمِ))[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما عَنَى بوصْفِه جلَّ ثناؤُه نفسَه بأنَّه رَبُّ العرشِ العظيم، الخبرَ عَن جميعِ ما دُونَه أنَّهم عبيدُه وفي مُلْكِه وسلطانِه؛ لأنَّ العرشَ العظيمَ إنَّما يكونُ للملوكِ، فوصَفَ نَفْسَه بأنَّه ذو العرشِ دُونَ سائِرِ خَلْقِه، وأنَّه الملكُ العظيمُ دُونَ غيره، وأنَّ مَن دونَه في سلطانِه ومُلْكِه، جارٍ عليه حكمُه وقضاؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠).

قال السعدي: (﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ، وإذا كان ربَّ العرشِ العظيمِ، الذي وسِع المخلوقاتِ، كان ربًّا لما دونَه مِن بابِ أولَى وأحرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((من قال إذا أصبحَ وإذا أمسى حسبيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هو، عليه توكلتُ وهو ربُّ العَرشِ العظيمِ- سبعَ مرَّاتٍ- كفاه اللهُ ما أهمَّه))(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يُفيدُ التَّنويهَ بهذه الكَلِمة المُباركة؛ لأنَّه أمَرَ بأن يقولَ هذه الكَلِمةَ بعَينِها، ولم يُؤمَر بمجَرَّدِ التوكُّلِ، ولا أُخبِرَ بأنَّ اللهَ حَسْبُه مجَرَّدَ إخبارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾(٢) [الأنفال: ٦٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى اقترابِ أجَلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّذكيرَ بقَولِه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يؤذِنُ بأنَّ هذا المجيءَ- الذي مضى عليه زمَنٌ طَويلٌ- يُوشِكُ أن ينقضِيَ، لأنَّ لكُلِّ واردٍ قُفولًا، ولكلِّ طالعٍ أفولًا(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كَونُه صلَّى اللهُ عليه

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨١)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٦/ ١٥٠).
قال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (١٢٠): مدركُ بنُ سعدٍ لا بأسَ به، وقال ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٩/٢٩٤): موقوفٌ إسنادُه جيدٌ، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)) (١١ / ٤٥٠): إسنادُ الموقوفِ رجالُه ثقاتٌ.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

وسلَّم مِن أنفُسِهم، هي صِفةٌ مُؤَثِّرةٌ في التبليغِ والفَهمِ عنه والتآنُسِ به، والخِطابُ للعَرَبِ، ففي هذه الصِّفةِ التَّنبيهُ على شَرَفِهم، والتَّحريضُ على اتِّباعِه[١]. وذلك على أحدِ الوجهينِ في تأويلِ الآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ يُومئُ إلى أنَّ شَرْعَ اللهِ تعالى جاء مناسِبًا لخَلْقِه، فانتفى عنه الحرَج والعُسر[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في هاتين الآيتَينِ إشعارٌ بالإيداعِ والإعذارِ للنَّاسِ، وتنبيهٌ إلى المبادرةِ باغتنامِ وجودِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أظهُرِهم؛ ليتشَرَّفوا بالإيمانِ به وهم يشاهِدونَه، ويقتَبِسونَ مِن أنوارِ هَدْيِه؛ لأنَّ الاهتداءَ بمُشاهَدتِه والتلقِّي منه، أرجى لحصولِ كَمالِ الإيمانِ، والانتفاعِ بقَليلٍ من الزَّمانِ؛ لتحصيل وافرِ الخَيرِ الذي لا يحصُلُ مِثلُه في أضعافِ ذلك الزَّمانِ[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ...﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

فيه الافِتتاحُ بحَرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما اللَّامُ و(قد)، معَ كَوْنِ مَضمونِها ممَّا لا يَتطرَّقُ إليه الإنكارُ؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهذه الجُملةِ لأهمِّيَّةِ الغَرَضِ الَّذي سِيقَتْ لأجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنَته ما يُنكِرُه المنافِقون وهو كونُه رسولًا مِن اللهِ، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يَجعَلُ المخاطَبين به مُنَزَّلِينَ مَنزِلَةَ المنكِرين لِمَجيئِه؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنفَعوا أنفُسَهم بهذا المَجيءِ، وفيه أيضًا تعريضٌ بتَحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْكِ مُناوَأتِه، وأنَّ الأجدَرَ بهِم الافتخارُ به، والالتفافُ حولَه(١).

- وفي العُدولِ عن الإتيانِ بلفظِ (العَنَتِ)- الَّذي هو المصدَرُ الصَّريحُ- إلى الإتيانِ بالفعلِ مع (ما) المصدريَّةِ السَّابكةِ للمَصدَرِ: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: نُكتةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عَزَّ عليه عنَتُهم الحاصِلُ في الزَّمنِ الذي مضَى، وذلك بما لَقُوه مِن قتلِ قومِهم، ومِن الأَسْرِ في الغزَواتِ، ومِن قَوارِعِ الوَعيدِ والتَّهديدِ في القرآنِ، فلو أُتِي بالمصدرِ لم يَكُنْ مُشيرًا إلى عنَتٍ معيَّنٍ ولا إلى عنَتٍ وقَع؛ فالمصدَرُ لا زمانَ له، ولكنَّ مَجيءَ المصدَرِ مُنسبِكًا مِن الفعلِ الماضي يَجعَلُه مَصدرًا مُقيَّدًا بالحُصولِ في الماضي؛ لِتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ ما لَقُوه مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لاستِصْلاحِ حالِهم؛ لعَلَّهم يَخفِضُون بعدَها مِن غُلَوائِهم، ويَرْعَوُون عن غيِّهم، ويَشعُرون بصَلاحِ أمرِهم(٢).

- وفي قَوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وصفُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بستَّةِ أوصافٍ، ولَمَّا كانت الرسالةُ أشرَفَها بُدِئَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).

بذِكْرِها[(١)].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ فهذا النَّسَقُ يُوجِبُ أن يقال: (رؤُوفٌ رحيمٌ بالمُؤمنين)، فلمَ تُرِكَ هذا النَّسَقُ، وقال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾؟

والجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ يفيدُ الحَصرَ، بمعنى أنَّه لا رأفةَ ولا رحمةَ له إلَّا بالمُؤمِنينَ، فأمَّا الكافِرونَ فليس له عليهم رأفةٌ ورَحمةٌ، وهذا كالمتَمِّمِ لِقَدْر ما ورَدَ في هذه السُّورةِ مِن التَّغليظِ، كأنَّه يقولُ: إنِّي وإن بالغتُ في هذه السُّورةِ في التَّغليظِ، إلَّا أنَّ ذلك التَّغليظَ على الكافرينَ والمُنافِقينَ، وأمَّا رحمتي ورأفَتي فمخصوصةٌ بالمُؤمنينَ فقط[(٢)].

- وفي قول الله تعالى: ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ قدَّمَ الأبلغَ منهما، وهي الرَّأفةُ التي هي عبارةٌ عن شِدَّةِ الرَّحمةِ؛ مُحافظةً على الفواصِلِ[(٣)]، كما أنَّ تقديمَ الرؤوفِ على الرَّحيم هو الواجِبُ، كأنَّه قال: رؤوفٌ بضُعفاءِ المُؤمِنينَ، وأُولي القُربى منهم، ورحيمٌ بهم كلِّهم[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ للتَّفريعِ على إرسالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢).

وسلَّم صاحِبِ هذه الصِّفاتِ إليهم؛ فإنَّ صِفاتِه المذكورةَ تَقتَضي مِن كلِّ ذي عقلٍ سليمٍ مِن العربِ الإيمانَ به، واتِّباعَه؛ لأنَّه مِن أنفُسِهم، ومُحِبٌّ لخَيرِهم، رؤوفٌ رحيمٌ بمَن يتَّبِعُه مِنهم، فتَفرَّع عليه أنَّهم مَحْقوقون بالإيمانِ به؛ فإن آمَنوا فذاك، وإن لم يُؤمِنوا فإنَّ اللهَ حَسيبُه وكافيه(١).

- وبعدَ التَّفريعِ الْتفَت الكلامُ مِن خطابِ العرَبِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بما كان مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُخاطَبوا هم به؛ اعتِمادًا على قَرينةِ حرفِ التَّفريعِ؛ فقيل له: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: فإن تولَّيتُم عنه فحَسبُه اللهُ، وقُل: حَسْبي اللهُ؛ فجِيءَ بهذا النَّظْمِ البديعِ الإيجازِ معَ ما فيه مِن بَراعةِ الإيماءِ إلى عدَمِ تأهُّلِهم لخِطابِ اللهِ على تَقْديرِ حالةِ تَولِّيهم(٢).

- وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبلَه(٣).

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ فيه تخصيصُ العَرْشِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقاتِ(٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنُ

ويليه المجلدُ التاسعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يونسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٤).







الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠